محمد رزوق

الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب

خلال القرنين 16-17

أفريقيا الشرق

الاندلسيون
وهجراتهم الى المغرب
خلال القرنين 16 ـ 17

نوقش هذا البحث يوم **14** يوليوز **1987** بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. ونال صاحبه دكتوراة الدولة في التاريخ بميزة حسن جداً.

© أفريقيا الشرق 1998

رقم الإيداع القانوني 1382 / 1997
الطبعة الثالثة 1998
ردمك 9981 - 25 - 085 - 6

د. محمد رزوق
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الدار البيضاء

الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب

خلال القرنين 16 ـ 17

أفريقيا الشرق

شكر وتقدير

أتقدم بكامل الشكر إلى أستاذي الدكتور محمد حجي الذي أشرف على هذا العمل، وكذا الى الأستاذ محمد المنوني على توجهاته. كما لا يفوتني هنا أن أثير الانتباه الى المساعدة القيمة التي تلقيتها من عدد من الأساتذة العرب والأوربيين. فبالنسبة للأساتذة العرب أخص بالذكر منهم الدكتور عبد الجليل التيمي (الجامعة التونسية) ، والدكتور موسى لقبال والدكتور ناصر الدين السعيدوني (الجامعة الجزائرية)، والدكتور محمد عبده حتامله (الجامعة الأردنية). اما بالنسبة للأساتذة الأوربيين فإني أذكر منهم على الخصوص أساتذة المدرسة الموريسكية الاسبانية ميكيل دي ايبالزا M. de Epalza (جامعة الكانت)، وميرسيديس كَارسيا ارينال M. G. Arenal (معهد ميكَيل اسين بمدريد)، وخوليو فيرنانديز نييفا J. F. Nieva (جامعة بادخوس)، وكَييرمو كوزالبيس بوسطو. G. G. Busto.

كما أتوجه بالشكر كذلك الى أساتذة المدرسة الموريسكية الفرنسية لوي كارداياك L. Cardiallac (جامعة مونبليي)، وجان بيير دوديو J. P. Dedieu، وبرنار فانسان B. Vincent. وكذا الى الباحثة الايطالية سارليني سيركا C. S. Cerqua على مساعدتها القيّمة.

رمــوز

1 ـ المكتبات

خ. ع. الخزانة العامة بالرباط.

خ. ح. الخزانة الحسنية بالرباط.

A. H. N. Archivo Histórico Nacional (MADRID)

2 ـ المجموعات

E. I. Encyclopédie de l'Islam

S. I. H. M. Sources Inédites de l'Histoire du MAROC.

3 ـ المجلات

Annales E. S. C. Annales, Economie ; Sociétés. Civilisations PARIS.

C. B. E. T. Caudernos de la biblioteca Españole De TETUAN

H. Hespéris.

H. T. Hespéris - Tamuda.

M. E. A. H. Miscelánea de Estudios Arabes y Hebraicos, Granada.

R. H. M. Revue d'Histoire Maghrébine, TUNIS.

M. C. V. : Mélanges de la casa de velázquez.

ظل اهتمام الباحثين العرب لفترة طويلة موجها بشكل مكثف الى دراسة تاريخ الأندلسيين خلال قيام دولة الاسلام بالأندلس نتيجة توفرهم على عدد من المصادر الأندلسية المتعلقة بتلك الفترة[1]، في حين اتجه عدد كبير من الباحثين الأوربيين الى دراسة تاريخ المورسكيين باسبانيا بعد سقوط غرناطة، فدرسوا تاريخهم من خلال وثائق محاكم التفتيش، ومن خلال ارشيفات المناطق التي استقروا فيها باسبانيا، وكذا من خلال المصادر المعاصرة[2]، واعتبروا موضوع المورسكيين موضوعا أوروبيا مسيحياً قبل أن يكون موضوعا اسلاميا، وكان من نتيجة ذلك أن تنوعت الدراسات المورسكية (الأوربية) الى درجة أصبحنا نجد معها تخصصات جزئية داخل التخصص العام[3]. وفي الجانب المقابل نجد أن الباحث العربي ــ في أغلب الحالات ــ لا تسمو المواضيع التي يتطرق إليها عن الاثارة العاطفية على اعتبار أنها «مأساة» لحقت بالتاريخ العربي الاسلامي دون دراسة أبعاد هذه المأساة حضاريا وسياسيا، سواء على صعيد المجتمع الاسباني نفسه، أو على صعيد المناطق التي استقربها المورسكيون، خاصة

---

(1) نستثني هنا بعض الدراسات التي بدأت تظهر في السنوات الاخيرة ولكنها قليلة جدا اذا ما قورنت بالدراسات الاخرى التي كتبت لفترة ما قبل سقوط غرناطة.
انظر فهرس المصادر والمراجع في آخر هذه الدراسة.

(2) أحصت الباحثة مارتيني رفيار M. Ravillard اكثر من 2000 عنوانا (مصادر ودراسات). أنظر اطروحتها
Bibliographie commentée des Morisques, Université d'ALGER, 1979.

(3) ــ يمكن ان نتعرف على هذا بوضوح من خلال أعمال المؤتمر العالمي الاول للدراسات المورسكية المنعقدة بمونبولي (يوليوز 1981)
Les morisques et leurs temps, PARIS 1983
وكذا من خلال اعمال المؤتمر الثاني المنعقد بتونس (شتنبر 1983)
Religion, Identité et sources Documentaires sur les Morisques Andalous, TUNIS 1984, 2 tomes.

منطقة المغرب العربي[4]. وهذه الدراسة التي نقوم بها اليوم مساهمة متواضعة لابراز الحياة التعسة التي عاشها الأندلسيون في بلادهم بعد نهاية دولة الاسلام بها، وجعلتهم يهاجرون أفواجا أفواجا الى هذه العدوة المغربية، ولاثارة الانتباه الى نقط معينة تساعد، متى تمت دراستها، على اخذ صورة متكاملة للوجود الأندلسي بالمغرب الأقصى أولا، وباقي أقطار المغرب العربي ثانيا.

(4) نسجل هنا فروقا فيما يتعلق بالدراسات المنجزة ببلدان المغرب العربي، ففي تونس — مثلا — نلاحظ ان الدراسات بدات تعرف في السنوات الاخيرة نشاطا ملحوظا فيما يتعلق بالاهتمام بالموريسكيين بتونس. انظر مثلا

M. de Epalza et R. Petit, Etudes sur les moriscos Andalous en TUNISIE

M. de Epalza et autres, bibliographie Tunisienne concernant l'Histoire de l'Espagne.

S. Zbiss et autres, Etudes sur les Morisques Andalous.

اما بالنسبة للجزائر فما تزال الابحاث في بدايتها.

انظر — مثلا — M. de Epalza, bibliographie Algérienne concernant l'Histoire de l'Espagne.

M. Boughanmi et autres Recherches sur les Moriscos Andalous au Maghreb (Bilan et perspectives) in R.H.M., Janvier, 1979, n° 13-14. PP. 21-26.

اعتمدت هذه الدراسة على مصادر متنوعة، منها العربية (أندلسية ومغربية)، ومنها الأجنبية (اسبانية وفرنسية وانجليزية).

أ ــ مصادر أندلسية

نبذة العصر، في أخبار ملوك بني نصر(5)

ركز المؤلف المجهول في كتابه هذا على الأحداث التي أدت الى سقوط غرناطة، وقد كان معاصرا لها. ويتميز بوصف مراحل نزوح الأندلسيين الى المغرب، والأوضاع التي وجدوه عليها، مما اضطر العديد منهم الى الرجوع الى الأندلس، والشروط التي أصبح الاسبان يفرضونها على الأندلسيين العائدين. كما يتميز كذلك بتعرضه للأماكن التي انتقل اليها الأندلسيون، فأهل مالقة ــ مثلا ــ خرجوا الى جزيرة بادس، وأهل الجزيرة الخضراء الى طنجة، وأهل رندة وبسطة الى تطوان وهكذا..

الأنوار النبوية، في آباء خير البرية(6)

ألف محمد بن عبد الرفيع هذا الكتاب عام 1044 هـ / 1635، مشتملا على ثمانية فصول، وذيله بخاتمة (ص 319 / 363) تعرض فيها للظروف التي كان يعيشها الموريسكيون باسبانيا، انطلاقا من تجربته الخاصة، كما تعرض الى الظروف التي أصبح يعيشها هؤلاء بفرنسا بعد ابعادهم، وكذا دور العثمانيين في انقاذهم. وتعرض في الأخير إلى وضعيتهم بتونس بصفة خاصة.

العز والمنافع، للمجاهدين بالمدافع(7)

ألف ابراهيم غانم هذا الكتاب أصلا باللغة الاسبانية بتونس سنة 1632 وهو في فن المدفعية، وقام بتعريبه أحمد بن قاسم الحجري سنة 1638. ويتكون الكتاب من مقدمة، وخمسين بابا، وخاتمة.

---

(5) طبع بالعرائش سنة 1940 بتحقيق الفريد البستاني، ومنه مخطوطة خ.ع. بالرباط عدد 1177 ك، ضمن مجموع.

(6) مخطوطة خ.ع. بالرباط عدد 1238 ك.
وقد نشر عبد المجيد التركي مقدمة هذا الكتاب وخاتمته بمجلة **حوليات الجامعة التونسية**، العدد الرابع، سنة 1967، ضمن مقاله وثائق عن الهجرة الاندلسية الاخيرة الى تونس ص 25ــ ص 63.

(7) نسخه متعددة بالمغرب والجزائر وفيينا ودار الكتب المصرية بالقاهرة. انظر جرجي زيدان، **تاريخ آداب اللغة العربية**، 3 339، واهم نسخه هي نسخة خ.ع. بالرباط عدد 87 ج، فهي فيما يظهر، مكتوبة تحت اشراف المعرب نفسه الذي يوجد خطه في هوامشها بالالحاق والتصحيح، وهي تنفرد ايضا بالخاتمة المكتوبة بقلم المعرب نفسه وسوف نعتمد هذه النسخة.
ونشير الى ان عبد المجيد التركي سبق له ان نشر في مقاله السالف الذكر مقدمة المخطوط اعتمادا على نسخة المكتبة القومية بتونس عدد 1407، (ص 64ــ67) وهي خالية من الخاتمة كما ذكرنا ذلك سابقا.

يعطي المؤلف في المقدمة معلومات عن حياته باسبانيا، وأسفاره البحرية بين اسبانيا وأمريكا، ومخالطته أثناء هذه الأسفار للمدفعيين الأسبان، ثم يذكر بعد ذلك خروجه من اسبانيا واستقراره بتونس، وممارسته للجهاد البحري هناك، وينتقل بعد ذلك الى استعراض ما يتعلق بفن المدفعية في خمسين باباً.

وقد وضع المعرّب خاتمه (ص 245 — 255) تعرض فيها الى الظروف التي كان يعيش فيها الموريسكيون باسبانيا انطلاقا من تجربته الخاصة، وتمكنه من الهجرة الى المغرب، وكذا الى استقراره بمراكش، واشتغاله بالترجمة لدى السلطان زيدان وابنيه بعد ذلك، والى سفارته الى كل من فرنسا وهولندا.

— ناصر الدين، على القوم الكافرين[8]

كتب أحمد بن قاسم الحجري مؤلفه هذا بالقاهرة عام 1047 هـ / 1637 بطلب من شيخ المالكية بمصر علي الأجهوري وهو مختصر لكتابه **رحلة الشهاب الى لقاء الأحباب**[9]. ويقع هذا المختصر في ثلاثة عشر باباً، تعرض خلالها الى ظروف الموريسكيين باسبانيا، وما كانوا يعانونه من خلال تجربته الشخصية، والى قرار الطرد وأسبابه، وكذا الى تمكنه من الوصول الى مدينة مراكش زمن المنصور، واشتغاله بالترجمة لدى ابنه زيدان، والى سفارته الى كل من فرنسا وهولندا ومصر، بل وبالمغرب نفسه.

ب — مصادر مغربية

— اسنى المتاجر، في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر[10]

كتب أحمد الونشريسي هذه الفتوى عام 890 / 1484، أي قبل سقوط غرناطة بوقت قليل، وهي في شأن أندلسيين هاجروا الى المغرب، لكن أوضاعه لم ترقهم، فعبروا عن رغبتهم في الرجوع الى وطنهم الأصلي.

وقد حرر الونشريسي فتوى ثانية سنة 901 هـ / 1495 [11]، أي بعد سقوط غرناطة بوقت قصير، في شأن أندلسي أراد البقاء هناك، ليتكلم باسم الأندلسيين المسلمين لدى السلطات الاسبانية.

ويمكن أن نقارن فتوى الونشريسي مع فتوى أخرى لأحمد بن بوجمعة المغراوي في نفس الشأن سنة 910 هـ / 1504[12].

---

(8) مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة عدد 1634 ت، وهو بخط المؤلف، كتبه بتونس عام 1051 هـ /1641. وقد قمنا بتحقيقه (1987).

(9) تعتبر هذه الرحلة اليوم مفقودة.
انظر وصفا لها في مقدمة كتاب **ناصر الدين**.

(10) نشر حسين مونس هذه الفتوى عن مخطوط الاسكوريال رقم 1758 (ورقة 83—95)، بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، المجلد الخامس، 1957، العدد 21، ص 129—191.
وهي توجد بالمعيار، 2 119—133.

(12) نسخها متعددة، انظرها عند
Leila Sabbagh, la religion des morisques, in les Morisques et leur temps, P. 49.
وسوف نعتمد النص الذي نشره محمد عبد الله عنان في كتابه **نهاية الاندلس** ص، 342—344.

ـ مناهل الصفا

تعرض عبد العزيز الفشتالي الى ما قام به أحمد المنصور الذهبي في حق قواد الأندلس بعد انتهاء معركة وادي المخازن، وكانت مناسبة استعرض فيها حياة هؤلاء بالأندلس، وانتقالهم الى المغرب واتصالهم بسلاطينه انطلاقاً من عبد الله الغالب[13]. كما نلاحظ **بالمناهل** اصرار المنصور على تقوية أسطوله، لتقديم كافة المساعدات للأندلسيين لمواجهة الاسبان.

ـ رسائل سعدية[14]

نجد في هذه الرسائل عزم المنصور على تقوية أسطوله لتقديم المساعدات للأندلسيين داخل المغرب، وبالأندلس نفسها. كما يفهم من هذه الرسائل وجود عدة اقتراحات انجليزية بشأن استخدام الأندلسيين الموجودين بالمغرب الى جانب الانجليز في حربهم ضد الاسبان، ورفض المنصور لهذا الاقتراح مخافة أن ينتهزها الاسبان فرصة للانقضاض عليهم لأنهم قلة لا يكفون لمثل هذا العمل، وبالمقابل وعد بالاستعداد الكامل لاعلان الجهاد لغزو الاسبان في عقر دارهم (ص 195 وما بعدها).

ـ تاريخ الدولة السعدية

تعرض المؤلف المجهول الى علاقة عبد الله الغالب بالأندلسيين إبان ثورتهم بغرناطة سنة 1568، وعلاقته مع الاسبان في هذا الشأن، وكذا تفاهمه معهم حول تهجيرهم الى المغرب (ص 37 ــ 39). كما تحدث عن اشتراك عدد من الأندلسيين الى جانب زيدان في صراعه مع أخيه محمد الشيخ المامون (ص 93)، والى علاقة هذا الأخير بالاندلسيين باسبانيا، واقتراحهم القيام بثورة بمساعدته (ص 96).

ـ الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال الغمارة

جمع عبد العزيز الزياتي عدة فتاوي تتعلق بموضوع الأندلسيين في باب نوازل الجهاد (ص 229 ــ 274)، منها فتوى لمحمد العربي الفاسي في شأن النزاع الحاصل بين الأندلسيين في القصبة والرباط (ص 236 وما بعدها)، وفتوى أخرى لأبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، قاضي الجماعة بمراكش، حول النزاع بين الأندلسيين بالرباط والمجاهد العياشي (ص 241 ــ 242).

ـ نزهة الحادي، باخبار ملوك القرن الحادي

أورد محمد الأفراني عدة اشارات تخص نوعية العلاقة التي كانت قائمة بين الأندلسيين والعياشي، إذ تعرض أولا إلى الأسباب التي أدت الى توتر هذه العلاقة بين الطرفين، والى تمكن العياشي من الحصول على فتوى للامام عبد الواحد بن عاشر في شأن مقاتلتهم، وكذا الى استنجاد الأندلسيين بالدلائيين (ص 264، 267، 270).

---

(13) **مناهل**، ص 19ــ22.

(14) نشر عبد الله كنون هذه **الرسائل** بتطوان سنة 1954، غير ان هناك مخطوطات متعددة لهذه الرسائل فيها كثير من الزيادات عن المنشورة.
وقد اعتمدنا على احداها وهي نسخة خ.ع. بالرباط عدد 278 ك.

وتورد كتب التراجم عددا من الشخصيات الأندلسية التي لعبت أدواراً مختلفة في الميادين العلمية والاجتماعية.

نذكر من بين هذه الكتب **دوحة الناشر، ودرة الحجال، ومرآة المحاسن، وممتع الأسماع، وصفوة من انتشر، ونشر المثاني**.. غير ان هناك مصدرين يتميزان من بينهما جميعاً

ــ نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب (4 510 ــ 553)

ألف أحمد المقري هذا الكتاب سنة 1038 هـ / 1629 للتعريف بأديب الأندلس الكبير لسان الدين بن الخطيب، فكانت بذلك مناسبة ليعرض لبعض فصول التاريخ الأندلسي. فقد تعرض الى سقوط غرناطة، والى انتقال الأمير أبي عبد الله الى المغرب مع أهله واستيطانه مدينة فاس، والى وضعيتهم هناك بالمدينة الادريسية. كما أورد رسالة الأمير الغرناطي الى الشيخ الوطاسي المسماة «الروض العاطر الأنفاس، في التوسل الى المولى الامام سلطان فاس». وتعرض في الأخير الى الثورات المتلاحقة التى التي عرفتها غرناطة بعد سقوطها الى ان صدر قرار الطرد سنة 1017 هـ وخروج الأندلسيين الى فاس وتطوان وسلا، والى استخدامهم من طرف السلطان زيدان في الجيش، وكذا الى جهادهم البحري، ونشاطهم العمراني.

ــ رياض الورد، الى من انتمى اليه هذا الجوهر الفرد(15)

ألف محمد الطالب ابن الحاج (ت 1273 / 1857) هذا الكتاب للتعريف بأبيه وأسرته، ورتبه على خمسة أبواب، وقد خص الباب الرابع منها بالحديث عن انتقال أسلافه من الأندلس الى المغرب، وكانت مناسبة استعرض فيها ما عاناه الأندلسيون قبل سقوط غرناطة وبعده، والى الأدوار التي لعبها أفراد هذه الأسرة بالمغرب.

كما ترد بكتب الرحلات العديد من الاشارات التي تهم موضوع الأندلسيين بالمغرب، مثل :

ــ وصف افريقيا (الجزء الأول)

ألف الحسن بن محمد الوزان كتابه هذا سنة 933 هـ / 1526، وقد أورد فيه عدة اشارات الى الجالية الأندلسية بالمغرب، إذ وصف ــ مثلا ــ ما يقوم به مجاهدو تطوان، خاصة انه زار المنطقة في عهد حفيد أبي الحسن المنظري، كما أشار من جهة أخرى عدد من الأندلسيين الذين كانوا يشتغلون بالتجارة ومختلف الحرف، بل ان بعضهم كان يساهم في ميدان صنع الأسلحة، خاصة المدافع.

---

(15) مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 2313 ك.

ــ رحلة الوزير في افتكاك الأسير[16]

قام محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي بهذه الرحلة الى اسبانيا بأمر من السلطان المولى اسماعيل موفداً الى الملك كرلوص الثاني عام 1102 هـ / 1690. وقد سجل فيها ارتساماته حول بقايا الأندلسيين هناك وتعرض الى المناصب التي كانوا يحتلونها، والى ترحيبهم بالمسلمين ورغبتهم في التعرف على الاسلام، كما لم يفته أن يسجل الخراب الذي أصاب بعض المناطق التي كان يستقر بها الأندلسيون قبل طردهم. وأشار في الأخير الى الأسباب التي أدت بفليب الثالث الى طرد الأندلسيين من اسبانيا، والى الدور الذي ما تزال محاكم التفتيش تقوم به خاصة ضد اليهود.

وقد خصص بعض المغاربة تواريخ لمدنهم للتعريف بها، ويهمنا هنا بالخصوص المدن التي استقرت بها جاليات أندلسية مهمة، إذ يستعرضون تاريخ الجالية الأندلسية بالمدينة، والآثار الحضارية التي تركتها بها، وكذا المناصب التى كانت تتقلدها[17].

وترد بالحوالات الحبسية أحيانا أسماء عدد من العائلات الأندلسية التي لا نجد لها ذكرا في كتب التراجم المعروفة، كما ترد بها عدد من المؤسسات الدينية والاجتماعية التي تحمل أسماء أندلسية[18].

ج ــ مصادر اسبانية

لم تولِ المصادر الاسبانية عنايتها بالموركيين خارج اسبانيا، فبقدر ما توسعت في استعراض ظروفهم داخل اسبانيا إلى حين خروجهم منها، بقدر ما نجدها تهمل الحديث عنهم تماما وهم خارج اسبانيا أو تشير اليهم اشارات عابرة. ونستثني من هذا بطبيعة الحال ــ المصادر التي الفت للتعريف أساساً بمنطقة من مناطق شمال افريقيا مثل هايدو Haedo[19] بالنسبة للجزائر، إذ أشار الى دور الأندلسيين الجهادي بالمنطقة. ومارمول كرنخال بالنسبة للمغرب، إذ أشار في كتابه **افريقيا** (الجزء الثاني)

(16) طبعت هذه الرحلة بالعرائش سنة 1940، بتحقيق الفريد البستاني غير ان هناك فقرات طويلة سقطت من النص المطبوع. وقد رجعنا الى نسخة خ.ح. بالرباط عدد 11329 لانها اكمل.

(17) نذكر هنا على الخصوص بالنسبة لمدينة الرباط **تاريخ الضعيف، ومقدمة الفتح والاغتباط** لمحمد بوجندار، **ومجالس الانبساط** لمحمد دينية، **وسوق المهر** لمحمد السائح، **وتاريخ رباط الفتح** لعبد الله السويسي.
ونذكر بالنسبة لفاس **جذوة الاقتباس** لاحمد بن القاضي، **وبيوتات فاس الصغري** لعبد الرحمان الفاسي، **وزهرة الآس** لعبد الكبير هاشم الكتاني، **وسلوة الانفاس** لمحمد الكتاني، **وازالة الالتباس** لعبد السلام بن سودة.
وبالنسبة لتطوان نذكر **عمدة الراوين** لاحمد الرهوني، **وتاريخ تطوان** لمحمد داود.

(18) بالنسبة للرباط نذكر الحوالات الحبسية الآتية مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 41 وميكرو فيلم نفس الخزانة عدد 153.
وبالنسبة لسلا مخطوط خ.ح. بالرباط عدد 593، وميكرو فيلم خ.ع. بالرباط عدد 152
وبالنسبة لفاس مخطوطات خ.ع. بالرباط (على الميكروفيلم) اعداد 113، 114، 135

(19) Topografía e historia general de Argel.

الى الأندلسيين في الجيش السعدي في عهد عبد الله الغالب. كما تعرض لذكرهم في عدد من المدن، فبالنسبة لفاس ذكر ان عددا من هؤلاء كانوا يمارسون تجارة الأثواب، وقارن بين لباس المرأة في مدينة فاس ولباس المرأة بغرناطة، كما أشار الى دور هؤلاء في إضفاء الطابع المعماري الأندلسي على المدينة، وكذا الى مساهمتهم في تقنيات الري.

وبالنسبة لتطوان أشار الى قدوم الأندلسيين الى المدينة، وما كانوا يقومون به من عمليات جهادية على السواحل الاسبانية والى عدد الأسرى الضخم الذي كان لدى هؤلاء.

وبالنسبة لمراكش أشار الى استقرار عدد من أفراد الجالية الأندلسية بها في عهد عبد الله الغالب بعد توزيع الأراضي عليهم.

ــ مراسلات مدينا سدونيا Medina Sidonia مع فليب الرابع بشأن أندلسيي قصبة الرباط[20].

تضم هذه المراسلات 36 وثيقة تهم بالخصوص الفترة المتراوحة بين 1631 و 1641، وهي حاسمة بالنسبة لأندلسيي القصبة، إذ دخلوا في علاقات خاصة سواء مع القوى السياسية الداخلية أو مع الدول الأوربية، فعلى المستوى الداخلي تلقي مزيدا من الضوء على علاقة الأندلسيين بالعياشي والسعديين، وعلى المستوى الخارجي تعرض بوضوح لعلاقة هؤلاء بالاسبان، والدور الذي كان الأندلسيون ينتظرونه منهم.

د ــ مصادر فرنسية

وثائق حول انتقال المورسكيين من فرنسا الى شمال افريقيا[21].

تتعلق هذه الوثائق بالخصوص بظروف استقرار المورسكيين بفرنسا، والقرارات الصادرة في حقهم من طرف حكام المناطق الفرنسية التي كانوا يستقرون بها، وظروف انتقال هؤلاء الى شمال افريقيا، وكذا تتبع المحاكم الفرنسية لما وقع للمورسكيين ــ أثناء هذا الانتقال ــ من سلب ونهب، واصدارها أحكامها في ذلك.

(20) توجد هذه المراسلات ب
Archivos del Palacio ducal en Sanlúcar de Barrameda (Cádiz)
ويوجد الباقي بارشيف سيمنكاس.
وقد نشرها كييرمو كوزاليس بوسطو G. G. Busto كملاحق لكتابه
La república andaluza de Rabat... PP. 355-463

(21) توجد هذه الوثائق بالأرشيفات البلدية للمدن التالية بيزي Beziers، ولونيل Lunel، وتولوز، واكد Agde ومونبولي Monpellier، وكذا بارشيفات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، وقد نشرها لوي كردياك كملاحق لرسالته، انظر
Le Passage des Morisques en Languedoc, thèse inedite, Montpellier, 1970, PP. 89-187

— Histoire de la barbarie et ses Corsaires

خصص الأب دان Dan قسما من كتابه هذا للحديث عن الجهاد البحري بالرباط والقصبة (ص 208 — 226)، فتحدث أولا عن ميناء المدينة، وسفنه، وعن قادة القصبة، وتنظيمهم. وانتقل بعد ذلك للحديث عن جهادهم، والاتفاقيات التي عقدوها مع الدول الأوربية، وكذا عن أسرهم. كما خصص قسما آخر للحديث عن مجاهدي تطوان (ص 269 — 272).

هـ — المصادر الغير المنشورة لتاريخ المغرب(22)

توجد بها وثائق متعددة تتعلق بالخصوص بقضيتين أساسيتين الجهاد البحري، والأسرى. كما توجد بها عدة تقارير كان يبعث بها بعض الأوربيين المقيمين بالمغرب عن وضعية الأندلسيين، وامكانية استغلالهم لصالح هذا الطرف أو ذاك.

(22) السلسلة الأولى انجلترا، الاراضي المنخفضة، فرنسا.

هناك عدة دراسات مغربية وأوربية تناولت موضوع الأندلسيين بالمغرب. فبالنسبة للدراسات المغربية نشير أولا الى وجود دراسات اهتمت بهم في اطار الحديث عن القضايا التي تناولتها. فقد تحدث محمد حجي ــ مثلا ــ عنهم في اطار علاقتهم بالدلائيين(23)

كما تناول عبد اللطيف الشاذلي موضوعهم من خلال علاقتهم مع العياشي(24).

وهناك نوع آخر من الدراسات في شكل مقالات تناولت جانبا من الجوانب التي تهم قضية الأندلسيين بالمغرب، مثل

ــ البحرية المغربية والقرصنة(25)

خصص عبد العزيز بن عبد الله قسما من مقاله هذا للحديث عن مجاهدي سلا وعلاقة هؤلاء بالقبائل المجاورة، وباوربا. لكن جل المقال استغرقه في الحديث عن القرصنة الأوربية بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرون الوسطى.

ــ التطور الحضاري في مصب أبي رقراق(26)

للكاتب السابق، وقد خصص أيضا قسما من مقاله هذا للحديث عن الأندلسيين بمصب أبي رقراق، فتحدث عن وصول الأندلسيين الى المنطقة، وتأسيسهم (للديوان)، وكذا ممارستهم للجهاد البحري، وعلاقتهم بالعياشي.

ــ ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي(27)

تعرض محمد المنوني في هذا المقال الى مساهمة الجالية الأندلسية بالمغرب في عملية الترجمة، فتعرض إلى ثلاث شخصيات أندلسية أبي قاسم الغساني، أحمد بن قاسم الحجري، المعلم يوسف الأندلسي.

ــ تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب(28)

لنفس الكاتب، وقد أشار في بداية المقال الى أنواع الموسيقى الأندلسية بالمغرب وكذا الى استخدامها المديح النبوي.

---

(23) **الزاوية الدلائية**، ص 167 ــ 175.
(24) **الحركة العياشية**، ص 146 ــ 158.
(25) مقال بمجلة **تطوان**، العددان الثالث والرابع، 1958ــ1959) ص 59 ــ ص 71
(26) مقال بمجلة **المناهل**، العدد العاشر، نونبر 1977، السنة الرابعة، 85ــ133
(27) مقال بمجلة **دعوة الحق**، العدد الثالث، السنة العاشرة، يناير 1967، ص 74ــ91.
(28) مقال بمجلة **البحث العلمي**، عدد مثنى 14 و 15، السنة السادسة، يناير دجنبر 1969، ص 147ــ177.

ـــ المقاومة البحرية في القرن الحادي عشر الهجري(29)

تعرض ابراهيم حركات في هذه الدراسة الى الجهاد البحري الذي كان يمارسه الأندلسيون بتطوان وسلا، والى علاقة هؤلاء بالدول الأوربية، ومع المجاهد العياشي، لكنه تجاوز الحديث عن الجهاد البحري الى الحديث عن مساهمة هؤلاء في مختلف النشاطات العلمية والاجتماعية والاقتصادية.

وهناك دراسات أوربية، مثل

- La ville de Rabat jusqu'au Protectorat :

تعتبر دراسة جاك كايي J. Caillé أهم دراسة عن أندلسيي الرباط والقصبة، رغم أنهم لا يشكلون بالنسبة لدراسته تلك إلا حلقة من حلقات تاريخ المدينة.

وهكذا نجد أن القسم الذي خصصه للأندلسيين بالقصبة (1 209 ـــ 281) يحتوى على العناصر الآتية

ـــ وصول الهورناتشيين والأندلسيين الى المدينة، وثورتهم على السلطان زيدان، وكذا تأسيسهم لجمهورية أبي رقراق.

ـــ النزاعات الداخلية ودرس فيها النزاع بين الأندلسيين والهورناتشيين وتدخلات العياشي في ذلك، وكذا وقوع المدينة تحت نفوذ الدلائيين.

ـــ الجهاد البحري بالمنطقة.

ـــ علاقة هؤلاء باوربا.

وختم عمله بدراسة الآثار الأندلسية بالمدينة.

— La República Andaluza de Rabat en el Siglo XVII

قَسَّمَ كيبْرمو كوزالبيس بوسوطو G. G Busto دراسته هاته إلى ثمانية فصول، تعرض فيها لأوضاع الموريسكيين بإسبانيا إلى غاية طردهم منها، وإلى أوضاع المغرب في هذه الفترة، وكذا إلى استقرار الهورناتشيين بالقصبة، وإلى علاقة جمهورية أبي رقراق بالمغاربة وبالدول الأوروبية، وختم دراسته بأربعة ملاحق تتعلق بمواضيع مختلفة تهم الهورناتشيين وأندلسيي منطقة أبي رقراق بصفة عامة.

— Les Corsaires de Salé

قسم روجي كواندرو R. Coindreau كتابه الى تسعة فصول، وقد خص الفصل الثاني منها بالحديث عن الأندلسيين بمصب أبي رقراق، فتحدث عن طرد الموريسكيين من اسبانيا، وعن استقرارهم بالمنطقة،

(29) مقال بمجلة **دعوة الحق** العدد الثامن، السنة 15، مارس 1973، ص 113ـــ118.

وعن تأسيسهم لجمهورية أبي رقراق، وكذا على علاقتهم بباقي الأطراف. وتحدث في باقي الفصول عن الأسطول السلاوي وقادته، وأوراش بنائه، وكذا عن تنظيم العمليات الجهادية وميادينها.

— Musulmans Andalous et judeo — Espagnoles

قسم I. D. Abbou كتابه الى ثلاثة أبواب. تحدث في الباب الأول عن المسلمين باسبانيا، وتحدث في الباب الثاني عن اليهود باسبانيا، وختم ذلك بالحديث عن اليهود في الباب الثالث. وتبعا للهدف الذي خطه المؤلف لكتابه فإن دراسته انصبت أساسا على اليهود الأندلسيين المستقرين بالمغرب، ولم يخصص الا صفحات قليلة للأندلسيين المسلمين المستقرين بالمغرب (ص 75 الى 98 من أصل 432 صفحة). وقد أشار فيها الى الفروق الاجتماعية بين الأندلسيين والمغاربة، وتأثير الأوائل في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية بالمغرب.

— Los Moriscos Espanoles Emigrados al Norte de Africa[30]:

درس خوان بنيلا روما Juan Penella Roma في هذه الأطروحة انتقال المورسكيين الى شمال افريقيا، إذ درس أوضاعهم باسبانيا أولا، ثم ظروف انتقالهم الى العدوة، وشفع دراسته تلك باعطاء نظرة عن العلاقات التاريخية بين العدوتين، وكيف كان الأندلسيون ينتقلون باستمرار الى المغرب، والى توزيع هؤلاء به، كما حاول أن يوضح الفروق الموجودة بين أندلسيي المغرب وأندلسيي تونس.

— Le Maroc d'autrefois, les Corsaires de Salé[31]:

أعطى دوكاستر H. de castries أولا نظرة عن ميناء سلا، ودوره في تسهيل عمليات المجاهدين، مقارنا اياه بموانيء الجزائر وتونس وطرابلس، وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن تطور استقرار المجاهدين الأندلسيين بمصب أبي رقراق، وعن التنظيم الذي سار عليه الأندلسيون بالمنطقة، كما تحدث عن مداخيل جمهورية أبي رقراق من خلال ما تحصل عليه من الغنائم وحقوق الجمارك، وعن تعايش الجهاد البحري والتجارة رغم تناقضهما.

— Projet de traité entre les morosque de la Casba de Rabat et le roi d'espagne en 1631[32]

قام جورج كولان G. Colan في هذا المقال بنشر وترجمة (الى الفرنسية) مشروع معاهدة بين أندلسيي القصبة وملك اسبانيا فيلب الرابع، ويقترح فيه الأوائل على الثاني تسليم القصبة مقابل السماح لهم بالعودة الى هورناتشوس موطنهم الأصلي باسبانيا.

---

(30) رسالة جامعية غير منشورة، جامعة برشلونة، (باسبانيا) 1971.
وقد نشرت نفس الجامعة ملخصا وجيزا عنها سنة 1975.
كما ترجمت بعض فقراتها الى الفرنسية، ونشرت ضمن كتاب
— Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie, PP. 77-88 et PP 258-263.

(31) in Revue des deux mondes, 15 Février, 1903.

(32) in Hesp. tome X 1 II, 1955, PP. 17-25.

— Los Andalusiés en el Ejército Saàdi[33]

تعرضت مرسيديس كارسيا ارنال M. G. Arenal في هذا المقال لدور الأندلسيين في الجيش السعدي، خاصة دور القادة الأندلسيين الذين تآمروا على المنصور مباشرة بعد معركة وادي المخازن، فاستعرضت تاريخ كل قائد على حدة منذ انتقالهم من اسبانيا الى غاية تصفيتهم من طرف الخليفة السعدي، معتمدة في ذلك على مصادر عربية وأوربية.

— Morocco and Moroccan Pirates during the seventeenth century[34]

حاول الباحث الأمريكي جيروم واينر في هذا المقال ان يعرض لظاهرة الجهاد البحري بالمغرب، وذلك بالتركيز على أسبابها ومراحل انتشارها، وكذا نتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي. وهكذا فقد تعرض أولا لأوضاع المغرب في النصف الأول من القرن السابع عشر، والى الشروط المحلية بمنطقة أبي رقراق، والى طرد الموريسكيين باسبانيا، لينتقل بعد ذلك الى استعراض العوامل التي غذت عمليات الجهاد البحري، ولم يفته في الأخير أن يتعرض الى النزاع المسلح بين الرباط وسلا.

— Presencia de los Moriscos en Tetuan y Xauen[35]

تعرض كييرمو كوزالبيس بوسطو — السالف الذكر — في بحثه هذا لاستقرار الأندلسيين بكل من تطوان والشاون ومساهمتهم في توسيع المدينتين، وكذا الى الآثار الأندلسية بهما، وتأثيرهم في الحياة الاجتماعية بالمنطقة، اذ استعرض بالمناسبة عددا من العائلات الأندلسية بمدينة تطوان، لكنه لم يفتا يلح على نقص الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع.

— Documentacion Sobre Moriscos en relacion con Marruecos[36]

حاول رودولفو خيل كريمو R. Gil Crimau أن يعرض في دراسته البيبليوغرافية هاته لمجموعة من

(33) in la revista al-quantara, vol, V fac. 1 y 2, Madrid, 1984, PP 169-202.

(34) اعتمدنا على الترجمة التي انجزها طارق العسكري وعبد الهادي التازي، ونشرت بمجلة البحث العلمي، العددان 29—30، السنة 16، 1979، ص 13—36 ملاحظة لنفس الكتاب اطروحة دكتوراة بعنوان
Fitna, Corsairs, and diplomacy Morocco and the Maritime states of Western Europe, 1603-1672. Columbia University, 1976, 518 P.

(35) In Actes du II symposium International du C.I.E.M. sur religion, Identité et Sources documentaires sur les Morisques Andalous, 1 361-374.

(36) in Actes du II symposium International du C. I. E. M. sur Religion, Identité et Sources documentaires sur les Morisques Andalous, PP. 1 : 349. 359.

المصادر والمراجع التي تهم من قريب أو بعيد موضوع الأندلسيين بالمغرب، وقد بلغ عددها 69 مصدرا ومرجعا مصنفة على الشكل الآتي

35 مصدرا ومرجعا اسبانيا
23 مصدرا ومرجعا فرنسيا.
5 مصادر عربية.
3 دراسات انجليزية.
3 دراسات ايطالية.

ومن حيث نوعية هذه المصادر والمراجع نبدي الملاحظتين الآتيتين

أولا اغفال الكاتب للعديد من المصادر الأساسية، خاصة الجانب العربي منها.

ثانيا أشار المؤلف لمصادر ومراجع لا ترقى الى مستوى اعتمادها لموضوع الأندلسيين بالمغرب فهي لا تشير له الا اشارات عابرة.

— Necesidad de Unos Estudios Dobre los Moriscos en Marruecos(37)

لنفس الكاتب، وقد أكد فيه على ضرورة القيام بدراسات حول الأندلسيين بالمغرب، حتى يتسنى فهم التاريخ الحضاري للمغرب واسبانيا في القرون الخمسة الأخيرة، خاصة ان الآثار الأندلسية زالت ماثلة الى يومنا هذا.

— Una República Andaluza en el Notre de Africa (38).

أوضح انطونيو دومنكز اورتث A. D. Ortiz ان استقرار الأندلسيين بالمغرب يكتسي صبغة خاصة، تمثلت في انتصاب جمهورية مستقلة بمصب أبي رقراق، واستعرض الأدوار التي قامت بها في مختلف الميادين، كما تعرض الى علاقاتها بالمغاربة وبالقوات الأوربية، والى مشروع الهورناتشيين الذي عرض على فليب الرابع بشأن الرجوع الى قريتهم هورناتشوس باسبانيا، وقارن بعد ذلك بين أندلسيي المغرب وأندلسيي كل من الجزائر وتونس.

— Los Moriscos de Hornachos Corsarios de Salé(39)

حاول الباحث الاسباني أندريس سانشيس بريز Andrés sanchez pérez في هذه الدراسة أن

---

(37) in Etudes sur les Morisques Andalous, fasci, 3, Tunis, 1983 PP. 251-256

(38) in Historia 16, Madrid, 1ère Année, N° 4, Août 1976, pp. 57-62.

وقد اعيد نشره ضمن كتاب

Etudes sur les Morisques Andalous, fasci, 3, Tunis, 1983 PP. 257-262.

(39) in Rev. de Estudios extremenós, XX, Badajoz, 1964, pp. 93-152.

يتتبع الهرناتشيين انطلاقا من قريتهم هورناتشوس إلى غاية استقرارهم بمنطقة أبي رقراق، لكننا لا نجد في الأخير إلا صفحات قليلة مخصصة للهورناتشيين بمقرهم الجديد، في حين أن جل الدراسة استغرقتها أوضاع الموريسكيين بموطنهم الأول.

— An Urban View of Moroccan History, Salé 1000 — 1800[40]

خصص كنيت براون Kenneth Brown قسماً من مقالة هذا للحديث عن أندلسيي مصبّ أبي رقراق (ص 46 — 59)، إذ أنه وجد نفسه مضطراً للحديث عن الأندلسيين في إطار حديثه العام عن تاريخ سلا خلال فترة طويلة (800 سنة). وهكذا فقد تعرض لعلاقة هؤلاء بالعياشي وبمختلف القوات الأوربية، وكذا إلى عمليات الجهاد البحري التي كانوا يقومون بها.

(40) in Hesp, tam. vol. XII. fasc. unique, 1971, pp. 5-106

بعد هذا التقديم عن المصادر والدراسات المتعلقة بالموضوع ننتقل الآن إلى استعراض أهم عناصره.

صدّر هذا البحث بمدخل تاريخي يضم نقطتين أساسيتين مميزات عامة، والعلاقات بين العدوتين قبل القرن السادس عشر، وذلك ليتأتى لنا أخذ فكرة متكاملة عن موضوع الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال فترة القرنين 16 و17.

وقد قسمناه إلى ثلاثة أبواب رئيسية

يتناول الباب الأول منه دراسة الاندلسيين تجاه المد المسيحي، وذلك عبر ثلاثة فصول تخص الفترات التي تهم هاته الدراسة. فقد تناولنا في الفصل الاول وضعية الأندلسيين في عهد الملكين الكاثولكيين، وتناولنا في الفصل الثاني وضعيتهم في عهدي شارل الخامس وفليب الثاني، وختمنا هذا الباب بفصل ثالث تناولنا فيه وضعيتهم إبان عهد فيلب الثالث. وخلال استعراضنا لهذه الفصول لم نكتف بدراسة العلاقات الثنائية بين الطرفين، بل حاولنا دراسة موقف العالم الاسلامي (ومن ضمنه المغرب) من مأساة الأندلسيين من خلال نصوص ووثائق معينة.

أما فيما يتعلق بالباب الثاني، ركزنا فيه الحديث عن الهجرات الأندلسية إلى المغرب عبر ثلاثة فصول كذلك

تناولنا في الفصل الاول الهجرة الأندلسية في العهد الوطاسي، وتناولنا في الفصل الثاني هذه الهجرة في العهد السعدي الأول، منهين هذا الباب بفصل ثالث يبحث في موضوع استقرار الاندلسيين بمصب أبي رقراق وتطوان في العهد السعدي الثاني. وقد حاولنا في كل فصل من هذه الفصول أن نبرز دور المغرب، مستعرضين من خلال ذلك موقف كل طرف من الآخر، خاتمين الباب باستنتاجات معينة.

ويتعلق الباب الثالث، والأخير بالحضارة الأندلسية المغربية، وقد قسمناه إلى فصلين

تناولنا في الفصل الأول منه الميادين التي برز فيها التأثير الأندلسي، وكذا دور المغاربة في تطوير هذا التراث الأندلسي وإخضاعه للبيئة المغربية، كما تناولنا في الفصل الثاني مراكز استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب، ومشاهير الأندلسيين به خلال فترة القرنين 16 و17.

وختمنا الدراسة بخلاصة حاولنا أن نبين من خلالها النتائج التي وصلنا إليها.

مدخل تاريخي

مميزات عامة

تتميز إسبانيا بعدة خصائص طبيعية تجعلها قريبة، على مستويات عدة، من شمال إفريقيا. فقديما أطلق علها الجغرافيون عبارات تدل بالفعل على تنوعها الجهوي، فيذكرون، — مثلا — أنها «شبه قارة» للاشارة إلى اختلاف أطرافها البليغ، وهي، لهذا السبب، تساعد جدا على الانعزال الجهوي ومن هنا أيضا، يذكر بعض المؤرخون بأن جغرافية إسبانيا وتاريخها هما أقرب إلى جغرافية وتاريخ شمال إفريقيا منها إلى أوربا. وإذا ما حاولنا أن ندقق هذه النقطة فإنه يمكننا أن نخرج بالملاحظات الآتية

— تلعب التضاريس في إسبانيا — مثل — المغرب دورا أساسيا، فمعدل ارتفاع الأراضي الاسبانية يبلغ 660 م (وهو معدل بلاد جبلية)، والجبال من وظائفها الطبيعية أن تعزل بعض السكان، وأن تحد من التداخل والتبادل لذلك وجدت بإسبانيا — مثل المغرب — عناصر تمسكت باستقلالها وبعزلتها إلى اليوم، من ذلك كطالونيا، وإقليم الباسك، وإقليم الأندلس.

— هناك عامل طبيعي آخر يذكرنا بشمال إفريقيا، وهو المناخ. فهو هناك من النوع القاريّ الذي يتسم بتفاوت سنوي ضخم، ويتميز بصفة عامة بقلة الأمطار (أقل من 600 ملم سنويا).

مشكل الماء وهو مرتبط بالعامل السابق، وهو من المشاكل التي تلتقي فيها إسبانيا مع المغرب، وقد حاول الاسبان معالجة هذا المشكل بوسيلتين

الوسيلة الأولى الري الاصطناعي وهو موجود منذ عهد الرومان، لكن تقنيات الري لم يتم نشرها على الوجه الأكمل إلا على يد العرب خاصة منطقة الأندلس.

الوسيلة الثانية تعويض خصوبة الأرض باتساع المساحات المزروعة، وتهم بالخصوص أراضي البور Secano التي ليست فيها أنهار. ومن مضاعفات هذه الوسيلة هو أن الانتاج يتفاوت من موسم إلى آخر، وهذه الوسيلة معروفة بالمغرب.

وقد نتج عن ضعف الفلاحة بإسبانيا وقوع عدة مجاعات، وأمراض وغلاء في الأسعار، وذلك لفترات عديدة. وهذه الوضعية تذكرنا بما كان يعرفه المغرب من حين لآخر لنفس السبب.

لقد دلت الحضارات القديمة على الأهمية الجيوستراتيجية للعدوتين، لذلك نلاحظ أنها بمجرد ماتضع أمة فاتحة أقدامها في إحدى العدوتين تتجه بأنظارها للعدوة الأخرى.

نشير في هذا الصدد أولا إلى أن الفينيقيين بمجرد ما رست أقدامهم بسواحل شمال إفريقيا بدأوا يتطلعون إلى سواحل إسبانيا، حيث أسسوا بها عددا من المراكز مثل قادس، وقرطاجنة. وعند ظهور الرومان سوف يستخدم القرطاجيون شبه الجزيرة الايبرية كواجهة أمامية ضد الرومان، وهكذا فقد اتخذها هنيبال — مثلا — مركزا مهما لمحاربة رومة.

وأدرك الرومان بالفعل ما أدركه سابقوهم في الاستيلاء على العدوتين، فوضعوا مخططاتهم على أساس هذا الهدف إلى أن تمكنوا من ذلك.

ولما سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية تحت ضربات البرابرة الجرمان من قبائل الوندال، اتجهت موجة من هؤلاء في القرن الخامس الميلادي إلى إسبانيا واستولت عليها، وعندما تعرضت هذه الأخيرة أوائل القرن السادس الميلادي (507 م) إلى غارات القوط الغربيين أجلوا عنها الوندال الذين نزحوا إلى شمال إفريقيا، واتخذوها مركزا لحكمهم، وقضوا على الرومان هناك.

وهكذا حل القوط الغربيون بعد ذلك محل الوندال في حكم شبه الجزيرة الايبرية، ودام حكمهم لها زهاء قرنين. وقد ساءت الأحوال في شبه الجزيرة الايبرية في عهدهم مما هيأ الظروف الملائمة للفتح الاسلامي لاسبانيا انطلاقا من المغرب وبسيوف بربرية.

وبعد هذا لنا أن نتساءل ماذا كانت نتيجة هذه التحركات المتبادلة قديما بين العدوتين عبر حضارات متعددة ؟

إن النتيجة الأساسية التي يمكن للباحث أن يخرج بها من خلال هذه التحركات المتبادلة قديما هو تسهيل تسرب التيارات المتبادلة بين الطرفين على مختلف المستويات، خاصة المستويات الحضارية، وهي مستويات بعضها موجود واختفى بعضها الآخر بعد الفتح الاسلامي لاسبانيا، إذ من المعلوم أن هذا الأخير أفرز مجتمعا «أندلسيا» جديداً يختلف عن المجتمعات القديمة التي عرفتها شبه الجزيرة الايبرية.

ويتكون المجتمع الأندلسي من ثلاث طوائف رئيسية

1 — المسلمون ويتكونون من فئات متعددة

• العرب كانوا يمثلون في مجموعهم صفوة المجتمع الأندلسي وطبقته الحاكمة، وكان منهم قيسيون، ويمنيون (بلديون)، وشاميون. وقد استقر هؤلاء بالمناطق الخصبة.

• البربر لعب البربر دورا هاما في فتح الأندلس، فقد كان الجيش الذي قاده طارق بن زياد يتكون معظمه من البربر، وتواصلت هجرة البربر بعد ذلك إلى بلاد الأندلس، وينتمون بالخصوص إلى قبائل زناتة ومصمودة. وقد استقروا في المناطق الجبلية.

* الاسبان المسلمون ويسميهم مؤرخو العرب المسالمة، وهم كالعرب والبربر يتكونون من فئات متعددة (قوط، وندال، إلى غير ذلك...)

وعندما أخذت دولة الاسلام تضعف بالأندلس ظهر عنصر المدجنين Mudéjares، وإبان فرض التعميد الاجباري على المسلمين (يسميهم الاسبان Moriscos (تصغير لكلمة Moros أي المسلمين الأصاغر)[1]، وهو في عرفهم مسلم دخل إلى المسيحية حديثا (المسيحيون الجدد). لكن المسلمين خارج إسبانيا لم يستعملوا قط هذه الكلمة، فهو بالنسبة لهم في جميع الحالات (أندلسي)، غير أنه يستعملون في بعض الوثائق لفظ «الغرباء»[2].

2 — المستعربون Mozarabes

وهم الاسبان الذين كانوا يعيشون بين المسلمين، ويتكلمون العربية، ولكنهم كانوا يحتفظون بدينهم. وقد عومل هؤلاء معاملة حسنة، فتمتعوا بحرية كبيرة في إقامة شعائر دينهم، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم، وكان لهم رئيسهم وقاضيهم الذي يفصل في منازعاتهم، وقد برز من بين هؤلاء من لعب دورا هاما في تاريخ الأندلس.

3 — اليهود:

عاني اليهود كثيرا من اضطهاد الرومان والقوط، لكنهم تمتعوا بتسامح كبير من لدن العرب، وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالية يهودية. وقد لعبوا دورا هاما في العلوم العربية بالاندلس، فترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية، ونبغ منهم كثيرون في الطب والفلسفة والفلك والكيمياء. لكن سرعان ما فقدوا هذه الحرية في عهد الملكين الكاثوليكيين عندما فرض عليهم التعميد الاجباري وأصبحت محاكم التفتيش تلاحقهم باستمرار وقد سموا بـ Conversos، ولم يستخدم المسلمون أيضا هذا المصطلح بل اكتفوا بنسبتهم إلى الأندلس.

وإذا ما حاولنا أن نقارن بين هذا المجتمع الأندلسي بكل مكوناته وبين المجتمع المغربي، نجد أن هذا الأخير يختلف عن الأول في كون البربر والعرب يحتلون فيه مركز الصدارة، مما يؤدي حتما إلى بروز عدة نقط اختلاف بين البيئتين الأندلسية والمغربية يمكن تلخيصها فيما يأتي

---

(1) يتفق المورخون على ان لفظة Moriscos استعملت بعد سقوط غرناطة سنة 1492، لكن امحمد بن عبود يتساءل عن امكانية وجود (الظاهرة المورسكية) قبل سنة 1492، وبصفة ادق منذ سنة 478 هـ / 1085م، اي (وجود المورسكيين قبل وجود العبارة نفسها) ؟
واورد نصوصا من مصادر معاصرة لتأييد وجهة نظره في الموضوع. انظر «المورسكيون في نهاية عهد دول الطوائف من خلال النصوص التاريخية الاندلسية».
مقال بمجلة **البحث العلمي**، العدد 35، سنة 1985، ص 31—48.

(2) ليس لدينا تعليل حازم لهذه التسمية، فالغرباء في اللغة تعني الاباعد، وتعني «المنفيين»، وتعني الذين يشعرون بالغربة وسط محيط مغاير لهم» وكل هذه المعاني تنطبق على المسلمين المتنصرين «في الاندلس بعد سقوط غرناطة، فهم غرباء دينيا وحضاريا عن المجتمع المسيحي الغالب، وهم بحكم المنفيين لانهم غدوا محكومين باهل دار الحرب، كما يمكن ان يكون لفظ «الغرباء» مستمدا من الحديث الشريف، عندما سئل رسول الله (ص) عن الغرباء فقال : «ان الاسلام بدا غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء».

— صادف الاسلام بإسبانيا انتشار النصرانية بين سكانها، فلم يسعه إلا التسليم بهذا الأمر الواقع تمشيا مع تعاليمه في احترام أهل الكتاب في ديانتهم، فكان من الضروري في نطاق المنافسة بين الملتين أن يأخذ الاسلام وجها أكثر بروزا ولمعانا في الديار الأندلسية، وإن تتباهى الطائفة الاسلامية بكثرة علمائها وأدبائها، وتعدد معاهدها، وعظمة مساجدها.

أما بالنسبة للمغرب فقد كان المشروع الاسلامي فيه مغايرا لما رأيناه في الأندلس، إذ وجد أمامه ميداناً بكراً لا تطغى عليه أية ديانة سماوية تعتز بكتاب مقدس، فكان ذلك مما سهل دخول عدد كبير من البربر في الاسلام منذ الحملات الاولى للفتح، ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب دار إسلام بكل معنى الكلمة وبدون منازع، وكان على العلماء أن يتصلوا بالناس ويبلغونهم الدعوة بفرائضها وسننها، دون تعقيد ولا إثارة لمسائل الخلاف والنقاش. ولقد شعر الاسلام منذ أول وهلة بأنه بأرضه في المغرب، فلم يكن له منافس ولا مناوىء خطير، ولم يكن ثمة مايدعوه إلى سلوك سياسة المظاهر بل إنه احتفظ بنوع من البساطة متناسبة مع نوعية السكان، ونمط عيشهم[3].

— كانت إسبانيا أكثر تحضرا من المغرب لأنها اتصلت أكثر بالحضارات المتوسطية، وبالأخص الرومانية منها، بحيث انتشرت فيها اللغة اللاتينية انتشاراً كبيراً، ويدخل في هذا الارث أيضاً تعدد المدن والقرى التي عملت على رفع المستوى الفكري العام، مثل طليطلة، وقرطبة، واشبيلية... أما الارث الحضاري القديم للمغرب فلم يكن من الكثافة والانتشار بحيث يجعل كفته في الميزان أرجح من كفة البداوة، وهو ما لا حظه ابن خلدون منذ قرون، حينما قارن بين الأندلس والمغرب في ميادين حضارية متعددة. وفي بداية العهد الاسلامي نلاحظ أن المغرب كان أضعف من الأندلس، فلم تستطع الدولة الادريسية أن تواجه الدولة الأموية، مما جعل هاته الأخيرة تمارس نوعاً من الهيمنة على جزء من شمال المغرب منذ عهد عبد الرحمان الناصر إلى قيام ملوك الطوائف. ثم إن مدن المغرب في تلك الآونة لا يمكن مقارنتها بمدن الأندلس سواء من حيث العمران أو عدد السكان، فما أبعد فاسا الادريسية — مثلا — عن مدينة كقرطبة أو اشبيلية !

— انتقلت إلى الأندلس عبر قرون عناصر بشرية متعددة ناقلة معها بعض ما تعتز به من تراث، والفينيقيين والقرطاجيين، واليهود، والوندال، والعرب، والبربر. ثم لا ننسى أن العرب القادمين من المشرق اعتبروا المغرب في الغالب معبرا نحو الأندلس، فانتقلت معهم بسرعة اللغة العربية والشعر والأدب ورواية الفقه.

وحينما تأسست إمارة الأمويين القوية بقرطبة طمحت إلى منافسة الخلافة العباسية ببغداد، فكان من جملة اهتماماتها رعاية العلم والعمل على تنميته وازدهاره في سائر فروعه، فكان احتجاج هذه البيئة الأندلسية إلى التبحر في العلم ظاهرة مبكرة، وكانت رحلات العلماء الأندلسيين إلى المشرق، وقدوم علماء منه وبدعوة من أمرائها في بعض الأحيان.

---

(3) انظر م. زنيبر، «سبتة مدينة رائدة في تاريخ الثقافة المغربية»، مقال بمجلة **المناهل**، العدد 22، يناير 1982، ص 208.

أما بالنسبة للمغرب فإن الامتزاج البشري الذي حدث به كان أقل مما جرى في الأندلس، ثم إن الجاليات العربية التي استقرت به كانت قليلة، مما جعل الاحتكاك الفعلي بين العنصرين البربري والعربي ذا مفعول بطيء وجعل المغاربة برغم دخولهم في الاسلام يظلون في حالة انطواء بالقياس إلى جيرانهم من أهل الأندلس. وهكذا فالاختلاف بين البيئتين يكمن بالأساس في كون طابع البداوة كان هو الغالب بالمغرب في حين كان نصيب الأندلس من الحضارات أقوى.

غير أننا لا ننسى مع ذلك أن الامتزاج الحضاري والسياسي بين البيئتين قد تم بالفعل في ميادين متعددة على مر العصور. فمن الناحية الحضارية لا ننسى أن الجالية البربرية المستقرة في الأندلس كان لها دورها في الحياة الاجتماعية، كما أن الأندلسيين المستقرين بالمغرب ساهموا في الحضارة المغربية حتى تكون ما أصبحنا نسميه بالحضارة المغربية الأندلسية.

ونجد سياسيا أن الانصهار بين المجتمعين وقع بالفعل، فحضور المغرب بالأندلس كان واضحاً لفترات عديدة وجاهد المغرب جنبا إلى جنب مع أخيه الأندلسي وبذلك ساهم المغرب في مد عمر الأندلس لفترة طويلة إلى حين سقوط غرناطة، وفتح أبوابه للأندلسيين، وتفاعل مع قضيتهم للانتقام ممن أخرجوهم من ديارهم.

العلاقات بين العدوتين قبل القرن 16

تبتدىء العلاقات بين العدوتين في العصر الاسلامي مع الفتح على يد طارق وجنده من المغاربة، وتستمر إلى غاية سقوط غرناطة ورجوع الأندلسيين إلى العدوة المغربية، ولن نوغل في تتبع هذه العلاقات وتطورها في مختلف الميادين، وإنما سنقتصر على إشارات تهم الصلات السياسية والحضارية خلال فترة ما قبل القرن السادس عشر.

إن استعراض هذه العلاقات يساعدنا على أخذ رؤية متكاملة للوجود الأندلسي بالمغرب خلال فترة القرنين 16 و17، ذلك أن الأبعاد السياسية والحضارية التي تولدت عن الهجرة الأندلسية في القرن السابع عشر لم تكن طارئة وإنما كانت تشكل في تقديرنا استمرارًا لمرحلة تاريخية سابقة وإن اختلفت عنها في بعض مظاهرها، لقد دأب الباحثون على اعتبار الصراع السياسي الحضاري بين الأندلسيين والمغاربة في القرن السابع عشر صراعاً ناشئاً عن مواجهة بين عقليتين مختلفتين عقلية تحمل بين طياتها بوادر نهضة أوربية، وعقلية تقليدية منغلقة، وكأن الأمر طارىء ومنته بانتهاء المرحلة التاريخية التي يمثلها. إن الصراع كان قائماً بالفعل بين أهل العدوة والأندلس قبل القرن السادس عشر، وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية[1]، فهذا ابن الخطيب يستعمل عبارة «النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة»[2] والحجاري يقول أيضا «وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس»[3]، وهذا المقري ينقل عن بعض المؤرخين الأندلسيين ما يلي «ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا، وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة، حتى تبث ذلك في طبائعهم، وصار بعضه مركبا في غرائزهم فلما علم البربر عداوة أهل الاندلس، وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم فلم نجد أندلسيا إلا مبغضاً بربرياً وبالعكس»[4].

هذه، إذن، ملاحظة من جملة ملاحظات يمكن إثارة الانتباه إليها عند دراسة المشكل الأندلسي بالمغرب، وسوف نعززها بملاحظات أخرى عند استعراضنا لمراحل الاستقرار خلال هذه الفترة التي ندرسها، وكلها تميل إلى التأكيد على أهمية المنهج الذي يدعو إلى الدراسة المتكاملة للموضوع.

---

(1) م. بنشريفة، **امثال العوام**، 1 205—210، و «من منافرات العدوتين **«مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط**، العدد الاول، يناير 1977، ص 7 — 49.

(2) ابن الخطيب، **اعمال الاعلام**، 227.

(3) المقري، **نفح**، 6 12.

(4) المصدر السابق، 1 228.
ونلاحظ في هذا النص دور الجوار في التنافس بين العدوتين.

إن أول هجرة مهمة تتحدث عنها المصادر التاريخية هي هجرة الربضيين من قرطبة إلى مدينة فاس، حيث استقروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلسيين). وذلك في عهد إدريس الثاني، وترجع إلى ظروف داخلية تتعلق بالأندلس ذاتها[1]، ويذكر ابن أبي زرع أن عدد الذين استقر منهم بفاس بلغ 8 آلاف بيت[2]، ويضيف قائلاً : «... فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا في البناء يميناً وشمالاً إلى ناحية الكدان، ومصمودة، وفوارة، وحارة الهادية، والكنيف إلى الرميلة، فسميت عدوة الأندلس...»[3].

وسيكون لهذا الاستقرار أبعاد سياسية كبيرة

ــ على الصعيد السياسي ظهرت غير مرة نزعة هذا الثائر الأندلسي أو ذاك للسيطرة، أو على الأقل لترجيح كفة هذا أو ذاك، خاصة أن الأدارسة سيدخلون في صراع مع الأندلس.

ونستطيع ــ مثلاً ــ أن نخرج بعدة ملاحظات عن ثورة الأندلسي عبد الرزاق الخارجي على الأمير الادريسي علي بن عمر بن إدريس

ــ كان طموح الثائر الأندلسي بعيداً، فقد ذهب إلى حد تسمية قلعة بناها بالمغرب باسم بلده الأصلي بالأندلس (وشقة)[4].

ــ حين انتصار الثائر الأندلسي على الأمير الادريسي ملك عدوة الأندلس بفاس وخطب له بها بدون أية صعوبة، في حين امتنعت عدوة القرويين[5]، مما يدل على أن الكيان الأندلسي كان مميزاً بالفعل.

ــ عند استرجاع الأمير الادريسي لقواه وهزيمة الثائر الأندلسي ولى الأمير على عدوة الأندلس بفاس ربضيا من شذونة بالأندلس وظلت الولاية في أبنائه الربضيين[6]، وهذا يدل على أن الجالية الربضية بعدوة الأندلس بفاس كانت حريصة على خلق نوع من التوازن في علاقاتها مع الأدارسة، إلى أن تتاح

---

(1) انظر ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الاندلس**، ص 50، ابن عذاري، **البيان المغرب**، 2 108، ا. المقري، **نفح**، 1 322، السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس**، ص 223.

(2) **روض القرطاس**، ص 47.

ملاحظة

يذكر الناصري في **الاستقصا**، 1 166، ان عدد العائلات كان 4 الآف، لكن لا يذكر مصدره في ذلك، ونفس الرقم يوجد عند عبد الملك الوراق (عبد العزيز بنعبد الله، فاس حاضرة الفكر في القارة الافريقية، مقال بمجلة **المناهل**، عدد 13، دجنبر 1979، ص 167)، في حين انزل هنري تيراس العدد الى 800 فقط ليوازن بينه وبين عدد الاسر القادمة من القيروان وهو 300 اسرة. انظر كتابه

Histoire du Maroc, 1 188.

(3) **روض القرطاس**، ص 47.

(4) المصدر السابق، ص 78

(5) **روض القرطاس**، 78ــ79

(6) نفس المصدر والصفحة.

لها فرصة التحرك، كما يدل على أن الأدارسة كانوا يعملون بالفعل قوة وتماسك الجالية الأندلسية بالمنطقة فكانوا يخاطبونهم من خلال مواطنيهم.

كما نعتقد — أيضا — أن حكام الاندلس كانوا يجدون سهولة أكبر للتعرف على أحوال المغرب، بفعل وجود هذه الجالية، بل واستخدامها لتحقيق طموحهم بالمغرب، فقد ساعدت هذه الجالية — مثلًا — عبد الرحمان الناصر بالتأثير على موسى بن أبي العافية للدخول في طاعة الأمير الأندلسي[7]. وفعلًا فقد تمكن الناصر من وضع قدمه بالمغرب، وهذا ما يشير إليه بن حيان قائلًا «... فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله فيما جازه من مدينة سبتة والقطعة استضمها إليها من أرض العدوة، واجتذب من أجله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجاله إلى حضرته، استعان بهم في حروبه، وتمكن بذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادي البربر واستنتاجهم الفاضل لبراذين الأندلس...»[8].

على الصعيد الحضاري

احتضنت عدوة الأندلس بفاس في هذه الفترة عددا من المرزارعين المهرة، إذ يذكر بن أبي زرع في هذا الصدد «... وتختص عدوة الأندلس أيضا بحسن الفواكه الصيفية كالتفاح الطرابلسي الحلو الأصفر الذي ليس مثله في جميع المغرب لحسنه وحلاوته... والتفاح الليوني والطلحي والكلخي، وأصناف الكمتري والمشمش والبرقوق والتوت...»[9]. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعل إدريس الثاني يفضل عدوة الأندلس لتربية ماشيته ودوابه «... وأنزل جميع أجناده وقواده بعدوة الأندلس، وجعل كسبه من الخيل والأبل والبقر والغنم بأيدي ثقاته، ولم ينزل معه بعدوة القرويين غير مواليه وحشمه وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقة...»[10].

كما نذكر في هذا الصدد أن المغرب استقبل في هذه الفترة عدداً من الصناع والحرفيين الأندلسيين، إذ يذكر ابن حيان أن موسى بن أبي العافية طلب من الناصر لدين الله أن يوفد له عدداً من الصناع والأدوات لبناء قلعة فلبى طلبه «... فأخرج إليه محمد بن وليد فشتيق، رئيس المهندسين لديه، مع ثلاثين بناء، وعشرة من النجارين، وخمسة عشر من الحفارين، وستة من الجيارين المحسنين لعمل الجير، وستة من الأشارين لأشر الخشب، ورجلين من الحدادين، ورجلين من الحصادين، تخيروا من حذاق طبقاتهم...

في الميدان العلمي نذكر جامع الأندلس، إذ ساهم الأندلسيون في بنائه ليصبح منارة علم بالمدينة بجانب جامع القرويين[12].

---

(7) نفس المصدر ص 83—84.
(8) **المقتبس**، 5 275.
(9) **روض القرطاس**، ص 46.
(10) المصدر السابق، ص 46.
(11) **المقتبس**، 5 388.
(12) انظر علي الجزنائي، **زهرة الآس**، 92، و**روض القرطاس**، ص 76—77

أصبح المغرب بعد أفول نجم الأدارسة متأرجحاً بين النفوذ العبيدي والأندلس، إذ وجد حكام الأندلس أمامهم إمارتين بربريتين (مغراوة وبني يفرن)، فاستغلوا هذه الثنائية في الجهاز السياسي المغربي لضربهما معاً. وهكذا أتيحت الفرصة لأول مرة في هذه المرحلة لنفوذ الأندلسي أن يبرز بوضوح سنة 369 هـ، عندما زحف بلكين بن زيري صاحب إفريقية على المغرب وتراجع أمامه المغراويون واليفرانيون، فاستنجد هؤلاء بالمنصور بن أبي عامر الذي لبى طلبهم على الفور[1]، مما يدل على أن هذا الأخير كان عازماً على الحفاظ على الوجود ارندلسي بالمغرب. والمثال الثاني الذي نورده بهذا الصدد، هو ما كان من علاقة بين زيري بن عطية المغراوي والمنصور ابن أبي عامر، وكيف كان يستخدمه هذا الأخير لبث نفوذه بالمغرب، وللتصدي لاي ثائر يعلن خلع طاعة قرطبة، كما فعل مع أبي البهار الذي عاد إلى بيعة العبيديين بإفريقية[2]. لكن السؤال الأساسي هنا هو إذا كان هذا سلوك زيري بن عطية الذي يمثل عمليا مغراوة، فماذا كان موقف بني يفرن من هذا التصرف ؟ وهل كان الكل راضيا عن هذا الوجود الأندلسي المكثف بالمغرب ؟ لا نعتقد ذلك، يكفي أن نذكر أنه بمجرد ما خرج زيري بن عطية إلى الأندلس ــ لتكريمه من طرف المنصور ــ ثار يدو بن يعلا اليفرني أمير يفرن «... فزحف إلى مدينة فاس، فدخل منها عدوة الأندلس بالسيف، وملكها»[3].

ويزيد من اعتقادنا ما ذهبنا إليه أن زيري بن عطية نفسه سيعلن الثورة سنة 386 هـ، وسيطرد عمال المنصور من المغرب، مما أدى بهذا الأخير إلى إرسال ابن عبد الملك المظفر الذي تمكن من دخول فاس[4]. لقد كانت قرطبة تخشى دائماً أن يظهر المغرب موحداً مخافة مواجهتها، فعمدت إلى بث الفتنة والبلبلة في صفوف قبائله، وقوت في نفس الوقت بحريتها، بل وذهبت إلى حد احتلال نقط معينة في شماله لكي تتخذ منها نقط عبور إليه[5].

كما استخدم حاكم قرطبة كذلك المغاربة لتوطيد سلطانه مما أدى إلى وجود مغربي مهم بالأندلس.

الهجرة المعاكسة

يرجع استقرار الجالية البربرية بالأندلس إلى فترة المنصور بن أبي عامر فهو الذي جلبهم إلى الأندلس، واعتمد عليهم في توطيد سلطانه، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنداً وعرف منهم عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني

(1) انظر تفاصيل ذلك عند ابن خلدون، **العبر**، 7 19—20.
(2) **روض القرطاس**، 102، ابن خلدون، **العبر**، 7 20.
(3) **روض القرطاس**، ص 104.
(4) المصدر السابق، 107.
(5) J. Brignon et autres, Histoire du Maroc, P. 75. —.

برزال ومكناسة وغيرهم... وقدم رجال برابرة زناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر...»[6].

واتبع عبد الملك خطة أبيه في استخدام البربر، على أن أمور الدولة ساءت في عهد أخيه عبد الرحمان بن المنصور، إذ أساء التصرف بمحاولته تجاوز الحدود التي رسمها أبوه كحاجب فقط، فالتمس ولاية العهد من الخليفة هشام المؤيد[7]، مما أدى إلى إثارة أهل الأندلس عليه وهيأ الفرصة الأمويين من جديد في شخص المهدي محمد بن هشام الذي اعتمد في قوته على العامة معارضاً بها جند الدولة، وهاجمت طائفة منها دور بني ماكسن بن زيري، ودوراً لبني زاوي بن زيري وغيرها من دور زعماء البربر وانتهبتها[8]، واشتعلت بذلك نيران الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة، وقد أقر الأوائل سليمان بن الحكم ابن سليمان الناصر، ففقدوا له على الخلافة سنة 399 هـ، وعقدوا العزم على فتح قرطبة وإسقاط المهدي[9]، وتمكن سليمان بالفعل من فتح قرطبة، لكنه واجه ثورة واضح الفتى المتحالف مع المسيحيين، ومرة أخرى أبدى البرابرة استعداداً كبيراً للقتال[10].

وقد انتهز عامة قرطبة فرصة خروج البربر عن مدينة الزهراء فدخلوا ونهبوا ما وجدوا بها[11]، ولم تكن هذه الهزيمة نهائية، فقد تمكن البرابرة بعد صراع مرير من دخول قرطبة، وقسم سليمان بعض كور الأندلسيين بين رؤساء القبائل البربرية[12].

وقد حاول كثير من الباحثين إبراز سلبية هذه الهجرة على اعتبار أن العنصر المغربي البربري هو السبب الأساسي في قيام الفتنة بالأندلس بعد سقوط الدولة العامرية، وبالتالي ينكرون أن يكون لهذه الهجرة المعاكسة أي جانب إيجابي، ويغضون الطرف عن الملابسات التي أدت إلى الثورة مكتفين باستعراض، النتائج، وسنحاول أن نجيب هؤلاء من خلال إبداء عدة ملاحظات

ــ إن الجالية المغربية البربرية عندما لاحظت سوء تصرف عبد الرحمان بن المنصور خدلته كما خدله الأندلسيون أنفسهم، رغم ما نعلم من علاقة وطيدة بين العامريين والبرابر، وهذا ينفي أن يكون البرابرة مجرد آلة عسكرية في يد الجهاز العامري.

ــ إن ثورة الأندلسيين على عبد الرحمان بن المنصور كانت ثورة عارمة، ولم تكن من نسج البرابرة حتى يقال أنهم مصدر الفتنة.

---

(6) العبر، 4 147ــ148.
(7) السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق، ص 344، وم. عبد الله عنان **دولة الاسلام في الاندلس**، العصر الاول، القسم الثاني، ص 569 وما بعدها
(8) السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق، 348.
(9) المصدر السابق، 359.
(10) المصدر السابق 353.
(11) ابن عذاري، المصدر السابق، ع 3 95.
(12) السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق، 356.

ـ إن الفتنة نشبت حينما استفز العامة ـ عماد حكم المهدي ـ البرابرة وهاجموهم، فأي رد فعل من هذا القبيل، إذن، هو بمثابة الدفاع عن النفس.

ـ إن البرابرة الذين كانوا تحت قيادة سليمان قاتلوا امرأ متحالفين مع ممالك مسيحية، فعملهم، إذن، في هذا الاتجاه هو دفاع عن الوجود العربي الاسلامي بالأندلس.

ـ انتهز عامة قرطبة خروج البرابرة عن مدينة الزهراء ونهبوها بعنف، وهذا يتعارض مع ما يحاول بعض المؤرخون ـ خاصة الأندلسيين منهم ـ أن ينسبه إلى البرابرة من تخريب ودمار. فقد كان للأندلسيين دور كبير فيما لحق ببلادهم من تخريب أثناء الفتنة.

ـ إن التخريب والدمار الذي تتحدث عنه المصادر التاريخية الأندلسية جاء في الواقع نتيجة عناد الأندلسيين أنفسهم ومواجهتهم لثروات البرابرة بكثير من العنف، الأمر الذي أدى إلى خلق نوع من العلاقات بين الطائفتين يطبعها الحذر وعدم الثقة.

وفي الأخير كمقارنة بين وضعية الجاليتين بكل من المغرب الأندلس نلاحظ

ـ أن المغاربة البرابرة لم يكن لهم أي طموح في هذه الفترة للاستيلاء على الأندلس وضمها إلى المغرب، في حين كانت رغبة حكام قرطبة دائماً بث النفوذ الأندلسي بأرض العدوة.

ـ إن الجالية الأندلسية في هذه الفترة لم تتعرض إلى ما تعرضت له الجالية المغربية البربرية عن تقتيل وسلب ونهب.

لم يكن للمغاربة أي عداء واضح في هذه الفترة للأندلسيين، في حين نجد أن هؤلاء الأخرين يعاملونهم كأعداء، وأحياناً سينتصرون عليهم بالممالك المسيحية.

لكن، على الرغم من هذه المواجهة السياسية فإن التداخل الحضاري أصبح لفعل هذا الاحتكاك حقيقة ملموسة.

نشير أولًا إلى أن قرطبة كانت تقبل على منتجات المغرب خاصة ذهب الصحراء عن طريق فاس وسبتة وسجلماسة، حتى أن الدنانير الذهبية الأندلسية كانت تضرب باسم الأمويين في مدن مغربية مثل نكور وفاس وسجلماسة[13].

كما لا ننسى في هذا المجال أيضاً التأثير الحضاري الذي أحدثته في هذه الفترة هجرة أفواج كبيرة من المغاربة البرابرة إلى الأندلس، خاصة أن بعضهم توصل إلى تكوين إمارات مستقلة بعد سقوط قرطبة. أما المغرب الزناتي فقد استفاد من جهته بتبعيته للأندلس من حيث تبنيه للمذهب المالكي، اقتداء بقرطبة، وترسخت جذوره منذ ذلك الوقت إلى الحد الذي جعل الراعي الأندلسي يصرح

ليس في بلاد المغرب كلها ـ سودها وبيضها ـ شافعي ولا أجنبي ولا حنبلي، بل كلهم على مذهب مالك، لا يشارك في ذلك ولم يظهر أحد من أهل البدع ولا من الخوارج في المغرب...»[14].

(13) انظر دانييل اوستاس، تاريخ النقود العربية، مقال بمجلة **البحث العلمي**، عدد مثنى، 14ـ15، يناير / دجنبر 1969، ص 138

(14) **انتصار الفقير السالك، لترجيح مذهب الامام مالك**، مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 1849 د، ص 118

سيقوم المغرب بدور حاسم في الميدان السياسي بعد انهيار الحكم المركزي بالأندلس وقيام ملوك الطوائف، وقد نتج عن ذلك امتزاج حضاري سينمو ويستمر طوال عهد المرابطين والموحدين.

استغاث ملوك الطوائف، كما هو معلوم، بيوسف بن تاشفين عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، ومملكة بني دي النون سنة 478 هـ، وكان جواب الأمير المرابطي في مستوى المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها الأندلس، فقد نقل عبد الواحد المراكشي عنه قوله «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة (الأندلس) أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وأعمالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم، وايثارهم الراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي تملكها الروم في طول هذه الفتنة للمسلمين، ولأملأنها عليهم — يعني الروم — خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما هم أحدهم فرساً يروضه ويستنفره، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته...»(1).

ونتيجة لذلك فقد فرض الأمير المرابطي الاقامة الجبرية بأغمات على عدد من أمراء الأندلس، نذكر من بينهم، تميم بين بلقين صاحب مالقة، وأخاه عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية.

وقد تواصل توافد الأندلسيين بعد ذلك على المغرب لخدمة المرابطين، على أن أهم ما يثير الانتباه في هذه الفترة هو ترحيل عدد من الأندلسيين المسيحيين إلى سلا ومكناس أيام علي بن يوسف بفتوى ابن رشد الجد(2).

---

(1) المعجب، 241—242.
ملاحظة
كان موضوع الوجود المرابطي بالاندلس موضوع جدال بين المورخين.
انظر — مثلا — محمد بن عبود، **التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف**، ص 250—270.

(2) الونشريسي، **المعيار**، 8 56.
ملاحظة
أوردشارل إيمانويل إيفور Ch. E. Dufourcq ان المليشيات المسيحية كانت موجودة بالمغرب منذ العهد المرابطي، وأورد اسم رئيسها وهو Viconte du Barcelone وقد اعتنق ابن هذا الأخير الاسلام وانضم إلى الموحدين، وساعد على إدخال عدد من الاسبان إلى الجيش الموحدي من كطلونيا وأراجون لكن أغلبها كان يتكون من قشتالة. وأغلب الظن أن عددا من الضباط الموحدين ضمن إطار المليشيات المسيحية بالمغرب كانوا في خدمة التاج الأراجوني، إذ كان هؤلاء محط أنظار الكنيسة، فقد عين فرانسيسكو لوبي فرنانديز دي اين F.L.F. de Ain (الأراجوني الأصل) أسقفا بالمغرب، كما طلب البابا Innocent IV من الملك جاك، ومن رئيس أساقفة =

وقد حاول الموحدون جهد الامكان أن يحافظوا على الوجود العربي بالأندلس، إلا أنهم لم يحرزوا على ما أحرزه المرابطون من نجاح، فقد عبرت جنودهم مراراً إلى الأندلس، لكن لم يحالفهم التوفيق ضد غارات المماليك المسيحية، فقد تحطمت حملة الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن ضد القشتاليين تحت أسوار وبذة (567 هـ / 1172 م) ومنيت الجيوش الموحدية بهزيمة فادحة، وهلك الخليفة نفسه في الموقعة[3]. ولم تبرز الجيوش الموحدية في جهادها ضد المسيحيين إلا في معركة الأرك التي أحرز فيها الخليفة المنصور انتصاره الباهر على القشتاليين في شهر رجب سنة 591 هـ / يوليوز 1195 م، رغم أن هذا النصر لم يلبث أن محت آثاره هزيمة العقاب (609 هـ / 1212 م)، والتي كانت ضربة قاضية لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب على السواء، إذ لم تمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالمغرب نفسه، وفي ذلك يقول بعض الباحثين : «... إن جولات المرابطين والموحدين في الأندلس، كانت تعني تجنيد القبائل المغربية كلها أو معضمها والسير بها إلى الجهاد. ومهما تكن نتيجة الحرب، فإن آثارها في المغرب كانت دوماً زعزعة الكيان الاجتماعي والسياسي في البلاد، ذلك أن القبائل المشاركة في الجهاد كانت تعود إما أقوى مما كانت بفضل الغنائم في حالة النصر أو أضعف في حالة الهزيمة وفي كلتا الحالتين فالنتيجة واحدة، وهي تغير ميزان القوى في الداخل. على أن وطأة الهزيمة كانت أشد وأقوى، لأن الانكسار في الحرب كان معناه هزيمة القبيلة الحاكمة، وبالتالي زعزعة كيانها، وضعف سلطتها، ومن ثمة تفكك التحالف القبلي وقيام الثوار والمطالبين في كل جهة...»[4]. وعلى كل فقد تواصل في هذه الفترة أيضاً توافد الأندلسيين على المغرب، إلا أن ما يسترعي الانتباه هو أنه اتخذ أحياناً شكلًا رسمياً، بصدور ظهير للخليفة الموحدي الرشيد في 21 شعبان سنة 637 هـ[5] يقضي بإسكان جالية بلنسية، وجزيرة شقر، وشاطبة وغيرهم من بلاد شرق الأندلس بمدينة رباط الفتح، إذ «أذن لهم... في النقلة إلى رباط الفتح... بقضيضهم وقضهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلًا من مساكنهم وأرضهم... وأن يتوسعوا في الحرث ففي أرضه هناك متسع، ويتبسطوا في كل مالهم منه مكافىء وبه منتفع ويغرسوا الكروم وأنواع... على عادتهم ببلادهم، ويتاثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم...». كما هيأ جميع الظروف لحمايتهم «والولاة

= تراغونة ومن أساقفة برشلونة وميورقة وبلنسية مساعدة هذا الاسقف في عمله الديني بالمغرب، وهذا يعني أن هذه الجالية كتن يتبع أعمالها بالمغرب ملك أراجون.

انظر L'Espagne Catalane et le Meghreb, P. 160

ومما يؤكد هذه الحقيقة منها اورده الناصري في **الاستقصا** (2 237) وهو بصدد الحديث عن استنجاد الامير الموحدي ادريس المامون بالاسبان ضد ابن اخين يحى «... ثم كتب من حينه الى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين، ويساله ان يبعث له جيشا مع الفرنج (الاسبان) يجوز بهم الى العدوة لقتال يحي ومن معه من الموحدين، فشرط عليه صاحب قشتالة ان يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو، وان يبني بمراكش اذا دخلها الجيش الناصرى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم، ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم، وان من اسلم لا يقبل منه اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه باحكامهم الى غير ذلك، فاسعفه المامون في جميع ما طلبه...».

(3) روض القرطاس، 215، **الحلل الموشية**، 158.

(4) م. عابد الجابري **العصبية والدولة**، ص 33 — 34.

(5) هذا الظهير من انشاء كاتبه ابي المطرف بن عميرة المخزومي، من افراد الجالية الاندلسية بالمغرب. ويوجد بزواهر **الفكر**، مخطوط الاسكوريال رقم 520 (الغزيري)، ص 115—116. =

والعمال... مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم، ويعوق عن مآرب صغير أو كبير من مآربهم، وأن يكرموا غاية الاكرام بنبهائهم وأعيانهم، ويولوهم من حسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم...».

أما عن ظروف استقرار هذه الجالية فسنحاول أو نعرضها من خلال تجربة ابن عميرة، أحد أفراد هذه الجالية وقاضي العدوتين. فهو يعبر أولًا عن اغتباطه وسروره بالرباط في رسالة كتبها إلى صديقه أبي الحسين عبد الملك بن مفوز في شاطبة، إذ يقول «ولعمري ما زاد الثواء إلا غبطة في المثوى، ورغبة في أشياء أتت على ما أهوى»[6]. ويكتب إلى إخوانه وأصدقائه بالأندلس يرغبهم في القدوم عليه ويصف لهم «الأحوال وحقائقها والبلدة ومرافقها» ويذكر «ما فيها من تجارة وفلاحة»[7]. وهو إذ يشجعهم على الهجرة يضمن لهم «كل عيش هني، وبال رخي»[8]، لكنه من جهة ثانية لا يفتأ في معظم رسائله الاخوانية التي يكتبها من الرباط يعبر عن حنين شديد إلى الأندلس وتطلعاً إلى أبنائها وتفجعاً على مصيرها[9].

هذه تجربة في الاستقرار أيام الخليفة الرشيد، وسيدخل تجربة جديدة بعد موت الخليفة الموحدي وتولي أخيه المعتضد الحكم، وسوف نراها على مستويين

ــ مستوى تعامله مع سكان المنطقة، إذ يشير في رسائله إلى بعض المتاعب التي يعانيها من أهل سلا، وموقفهم من الجالية الأندلسية، وهو يصف سلا وأهلها بعبارات صريحة في الهجاء، وينعتهم بالتعصب وعدم الرضوخ إلى أحكام القضاء[10]، ثم يذكر كيف كان أهل سلا ينظرون إلى الأندلسيين على أنهم دخلاء، وكيف كانوا يعاملونهم[11].

ــ مستوى تعامله مع الخليفة الجديد يشكوا بن عميرة من وشاية خصومه من أفراد هذه الجالية أنفسهم، ويبدو أن هذه الوشايات وجدت آذاناً صاغية من المعتضد، إذ لم يلبث أن نقله من قضاء الرباط وسلا إلى قضاء مكناسة، وقد أقدم وهو بمكناسة على عمل خطير، وذلك بإسهامه في

= وقد اورده م. عبد الله عنان في كتابه **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، العصر الثالث، القسم الثاني ص 737ــ738
كما اورده عبد الله السويسي، في كتابه **تاريخ رباط الفتح**، ص 120ــ121. وتحدث عنه م. بنشريفة في كتابه **أبو المطرف بن عميرة المخزومي**، ص

(6) **مخطوط الاسكوريال رقم 520، ورقة 101.**
(7) **المصدر السابق، ورقة 100.**
(8) **المصدر السابق، ورقم 101.**
(9) **انظر رسائله، مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 233 ك،ص 66، 107.**
(10) م. بنشريفة، **ابو المطرف بن عميرة** ص 131.
ملاحظة
ردد ابن الخطيب بتوسع هذه النعوت التي الصقها ابن عميرة سلا واهلها في مفاخراته المعروفة بين مالقة وسلا، ولا يستبعد ان يكون ابن الخطيب قد اطلع على رسالة بن عميرة في هذا الشان. انظرها في كتاب **مشاهدات لسان الدين بن الخطيب** للدكتور المختاري العبادي.
(11) م. بنشريفة، المصدر السابق ص 131ــ132.

محاولة فصل هذه المدينة عن دولة الموحدين وجعلها تابعة للحفصيين[12]. ونجده يكتب إلى صديقه ابن خلاص (وهو أيضاً أندلسي) ليسهل له أسباب السفر إلى سبتة[13]، وعندما يصل هناك يطلق لسانه في شتم الخليفة المعتضد.

تلك هي تجربة ابن عميرة، وهي تجربة كثير من الأندلسيين بالمغرب في هذه الفترة. يبدأ الاستقرار عاديا، يتلوه في مرحلة ثانية احتكاك مع سكان المنطقة ليتلوه بعد ذلك احتكاك مباشر مع السلطة (بفعل وشاية معينة)، فكيف يمكن تفسير هذا السلوك ؟.

يبدأ استقرار الأندلسي عاديا لأنه يكون في فترة «دراسة» للبيئة التي يعيش فيها، وبالتالي الطرق التي تمكنه من البروز على الساحة الاجتماعية، وعندما ينتهي من هذه (الدراسة) يبدأ في العمل انطلاقاً من محيطه الذي يعيش فيه، ولكنه يجد مواجهة عنيفة يضطر معها إلى البحث عن طريقة توصله إلى القصر، ويصل بالفعل (بفعل ملكته العلمية والأدبية)، لكنه سرعان ما يجد الرغبة تعتريه من جديد للاستحواذ على كل شيء مما يثير غضب مواطنيه أولًا، وأهل البلد ثانيا، ومن هنا تبدأ الوشايات وتبدأ معها النكبات.

ـ المد الحضاري :

توافد عدد كبير من الحرفيين والصناع الأندلسيين إلى المغرب في هذه الفترة، وخاصة في ميدان دباغة الجلود وتصفية قصب السكر، وصناعة الخزف في كل من مراكش وفاس.

وفي ميدان البناء والمعمار نشير إلى أن يوسف بن تاشفين استقدم عدداً من الصناع من قرطبة إلى مدينة فاس للزيادة في مساجدها وسقاياتها وحماماتها وخاناتها[14]، كما استقدم على يد بن يوسف المهندسين لبناء قنطرة تانسيفت[15]، كما قاموا ببناء القنوات التي تنقل الماء من الجبل إلى مراكش، وهذا النوع هو الخطارات التي ما تزال تستعمل إلى الآن[16].

وقد تواصل المد الحضاري الأندلسي في العهد الموحدي خاصة في عهد يوسف[17]، إذ زين مراكش واشبيلية معاً بأروع البنايات والمؤسسات العمومية[18]، وواصل ابنه يعقوب المنصور ذلك، فأضاف إلى مدينة مراكش وفاس مدينة الرباط التي أصبح التأثير الأندلسي فيها واضحاً لعلاقتها

---

(12) ابن عذاري، المصدر السابق، 4 451، ابن خلدون، المصدر السابق، 6 257.

(13) **رسائل ابن عميرة** مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 233 ك، ص 44.

(14) علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس**، 42.

(15) عبد العزيز بنعبد الله، **معطيات الحضارة المغربية**، 1 113.

(16) المصدر السابق، 1 115.

(17) يرجع اهتمامه الكبير بالحضارة الاندلسية الى كونه عاش في اشبيلية وتشبع بالثقافة الاندلسية، وجمع خزانة تضاهي مكتبة الحكم الثاني، وقد تعددت منشآته باشبيلة الى الدرجة التي زعم فيها بعض الباحثين ان اشبيلية كانت اقرب الى قلبه من مراكش.
انظر. ع. العزيز بنعبد الله، المصدر السابق، 1 : 113.

(18) نفس المصدر والصفحة.

الوطيدة بالأندلس[19]. ولم يقتصر الأمر على الميدان الصناعي والحرفي، بل تعداه إلى الميدان العلمي، إذ استقر عدد من العلماء الأندلسيين بالمغرب، ناشرين معارفهم وطرق تعليمهم.

— ففي ميدان العلوم البحتة نذكر على الخصوص علي بن محمد فرحون القرطبي في الرياضيات[20]، وأحمد بن حسان القطاعي في الهندسة[21]، وأبا الوليد بن رشد في الطب والصيدلة[22].

— في ميدان العلوم العقلية نذكر وصول عدد من فلاسفة الاندلس إلى المغرب، إذ نجد عبد المومن — مثلا — يدعو ابن رشد سنة 548 / 1153 إلى مراكش «ليستعين به على ترتيب المدارس التي أنشأها بمراكش»[23]، كما نذكر تعلق الخليفة الموحدي بيوسف بابن طفيل[24].

— في ميدان العلوم الشرعية ساهم أندلسيو المغرب في تطوير العلوم الشرعية من تفسير، وقراءات، ورسم، وحديث، وأصول. ومن هؤلاء نذكر يحيى بن محمد بن خلف، وابن يوسف الغافقي[25].

— في ميدان الأدب والفن : ادخل الأندلسيون الى المغرب في هذه الفترة فن التوشيح، إذ توافد عليه عديد من الوشاحين، ومن هؤلاء أبو بكر بن زهر الحفيد[26]، كما ادخلوا اليه الزجل الأندلسي حتى أصبحت مقروءة بالمغرب، ومن الزجالين الأندلسيين به نذكر سهل بن مالك الغرناطي[27].

وهناك صنف ثالث من الشعر الغير المعرب كان لجالية الأندلس بالمغرب دور في نشره به، يقول ابن خلدون في هذا الصدد : «... ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فن آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد، وكان أول من استخدمهم فيه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة المرشح، ولم يخرج فيها من مذاهب الاعراب الا قليلا... فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته...»[28].

ونشير في الأخير الى أن الموسيقى الأندلسية تسربت في هذا العصر الى المغرب أيضا انطلاقا من العصر المرابطي، إذ انتقلت اليه شخصيات مرموقة في هذا الميدان، عملت على نشرها فس مدن مغربية عديدة[29]. ومن هؤلاء ابن باجة رائد هذه الموسيقى، إذ استقر بالمغرب عشرين سنة كوزير لمخدومه

(19) لكونها كانت قاعدة انطلاق الجيوش الموحدية نحو الاندلس.
(20) ا. بن القاضي **جذوة** 2 483 رقم 545.
(21) عبد الواحد المراكشي، **المعجب**، 350.
(22) انظر مزيدا من هؤلاء عند ابن ابى اصيبعة، **طبقات الاطباء**، 2 66 وما بعدها.
وكذلك م. المنوني، **العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين**، ص 123—134.
(23) م. زنيبر، **ابن رشد والرشدية في اطارها التاريخي**، ضمن اعمال ندوة ابن رشد، ص 28.
(24) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، 349.
(25) م. المنوني، المصدر السابق، 44، 58.
(26) المصدر السابق، 148.
(27) نفس المصدر والصفحة
(28) **المقدمة** ، 1160.
(29) م. المنوني، تاريخ الموسيقى الاندلسية بالمغرب، مقال بمجلة **البحث العلمي**، العددان 14—15، يناير / دجنبر 1969، ص 50.

يحيى بن يوسف بن تاشفين[30]، ومن الموسيقيين الوافدين من الأندلس كذلك في هذه الفترة أبو الحسن على الغرناطي تلميذ ابن باجة، ممن برع في ألحانها وتعليمها لطلبته[31] غير ان انتشار الموسيقى الأندلسية بالمغرب صادف ظهور بعض العقبات في العهد الموحدي[32]، خاصة أيام يعقوب المنصور الموحدي، إذ جاء عنه : انه أمر بقطع الملهين، والقبض على من شهر من المغنين، فثقف من وجد منهم بكل مكان، فغبروا هيئاتهم وتفرقوا على الأوطان، وبارت سوق القيان، وزهد كل الزهد في هذا الشأن...»[33]. لكن بعد أيام المنصور اختفت هذه الاجراءات ضد الموسيقى، وعادت تجارة القيان للظهور بالمغرب، حيث تعرض جوار بارعات في الألحان الأندلسية بعد ما يتعلمنها في اشبيلية[34].

(30) المقري، نفح، 4 618.

(31) المصدر السابق، 4 140.

(32) قامت هذه الدولة كما هو معروف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقامت بمضايقة الموسيقيين، اذ امر المهدي بن تومرت اصحابه بتكسير الات اللهو.
انظر م. المنوني، المصدر السابق، 150

(33) ابن عذاري، المصدر السابق، 3 145

(34) م. المنوني، المصدر السابق، 151.

تميزت العلاقات المغربية الأندلسية في العهد المريني بالتدخل المستمر للقوات المغربية بالأندلس للمحافظة على ما بقي من الثغور، لكن دون جدوى، إذ لم تبق في الأخير إلا غرناطة. وسيؤدي هذا التدخل المستمر الى انهاك القوات المغربية وعجزها عن الاستمرار فيه، لكن استمر المد الحضاري الأندلسي بفعل هجرة عدد كبير من الأندلسيين الى المغرب.

وظلت القواعد الأندلسية تتساقط باستمرار نتيجة التعاظم المستمر للقوات المسيحية، وتراجع القوات الأندلسية أمامها. ويرجع ابن عاصم[1] ذلك الى عاملين

ــ أساليب الاسبان لاستمالة المسلمين: «... ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالاسلام والمسلمين، واعمال الحيلة على المومنين، واضمار المكيدة للموحدين واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وانه منطو لأهله على القصد الأسنى، وانه مهتم بمراعات أمورهم... فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب البحث بوجه أو بحال... فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال ذرة، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة. اللهم احفظ علينا العقل والدين، واسلك بنا سبيل المهتدين...»[2].

ــ الخلاف في السلطة «... فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز اجماعا، واتم اليها الملأ المشتمل على الشرفاء الذين بتقدمهم ستنجز من البركة موعدها والعلماء الذين هم حفظة الشريعة الحنيفية ان تتعدى حدودها، والاشياخ الذين بجهادهم استقر واجبها، واستقام جانبها، واستقل عمودها، والقواد الذين بحمايتهم تقام أحكامها، وتحاط أعلامها، وتوفر عهودها، والفرسان الذين هم حماتها وانجادها وأنصارها، وجنودها، والخاصة الذين بهم يرجع عملها وينجح أملها ويتم مقصودها، وتعلمون حقا أن هذا الوطن الأندلسي قد تحين للهلاك بسبب هذا الخلاف...»[3].

---

(1) هو ابو يحيى بن ابي بكر بن عاصم القيسي، تولى اثنتي عشرة خطة، منها القضاء والكتابة والوزارة والامامة والخطابة، في فترات عصيبة بالنسبة للاندلس، وشاهد امام عينيه مدن الاندلس تسقط الواحدة تلو الاخرى، ولم يبق بيد المسلمين الا غرناطة، التي بدا العدو يستعد للوثوب عليها. وقد لاحظ عدم جدية ملوك بني نصر وتهاونهم واشتغالهم بفتنهم الداخلية وافضت به تأملاته الى تاليف كتابه **جنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى** سنة 854 هـ في عهد الغالب بالله محمد بن نصر امير غرناطة (مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 2648 / ص) وقد وضعه في شكل «صور» محاولا البحث عن اسباب الماساة، وفي نفس الوقت للتحذير من الخطر الداهم.

انظر ترجمته عند

المقري، **ازهار**، 1 50—55

(2) **جنة الرضى**، ص 280.

(3) المصدر السابق، ص 282.

هذه، إذن، هي أوضاع الأندلس، كما صورها مؤرخ معاصر، فماذا كان موقف المرينيين من الأحداث ؟

نذكر منذ البداية أن رد فعل المغاربة كان في مستوى المرحلة التاريخية التي تجتازها الأندلس، والنص التالي يبين الى أي مدى وصل تجاوب المغاربة مع الأندلسيين، إذ قال صاحب **الذخيرة السنية** (ص 98)، وهو بصدد الحديث عن أحداث سنة 662 «فيها جاوز المجاهدون من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب الى الأندلس برسم الجهاد وقائدهم الأنجد محمد بن ادريس ابن عبد الحق، وأخوه الفارس المجاهد عامر ابن ادريس، والحاج المجاهد التاهرتي، فجازوا في جيش عظيم من بني مرين وقبائل المغرب خيلا ورجتلا يزيدون على ثلاثة الاف بين فارس وراجل، فعقد لهم أمير المسلمين يعقوب رايته المنصورة، وجهزهم بالخيل والعدد ابتغاء ثواب الله عز وجل... والسبب في جوازهم أن النصارى — دمرهم الله — كانوا قد تكالبوا على بلاد المسلمين بالغارات والسبي فأبادوا أكثرها، وأهلكوا قواعدها، فتفجع أهل العدوة لحالهم...».

ويكفي أن نذكر أن يعقوب ابن عبد الحق المريني اجتاز أربع مرات الى الأندلس[4]. كما أن ملوك بني نصر درجوا على أن يكلوا باسم «شيخ الغزاة»، ومن أبرز هؤلاء أسرة تنتمي الى بني مرين تعرف «ببني العلا» على رأسها شيخها عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الله، وتعني هذه الخطة من بني نصر التقرب من بلاط فاس، وتوثيق الروابط العسكرية — على الخصوص — بين الأندلس والمغرب، ومن ناحية أخرى لما عرف عن القادة المغاربة من شدة المراس لفنون الحرب، وطول التجربة في ميادين القتال[5].

لكن هل حقق التدخل المغربي أهدافه ؟

نشير أولا الى أن التدخل المغربي بالأندلس كان من قبيل «انقاذ ما يمكن انقاذه»، فجل الثغور كانت قد سقطت بالفعل، والاسبان ركزوا أقدامهم هناك، ولم تبق الا غرناطة جسما ينخره الخلاف على السلطة من جهة، والتهجم الاسباني المستمر من جهة أخرى. وبعبارة أخرى فإن كل شيء بالأندلس كان يسير نحو مصير محتوم، سواء تدخل المغرب أم لم يتدخل.

ونشير ثانيا الى أن تدخل المغرب المستمر بالأندلس سوف يؤدي الى انهاك قواته، وبالتالي عجزه على الاستمرار فيه[6]، بل ستعجز هذه القوات عن المحافظة على الأمن والاستقرار داخل المغرب نفسه.

---

(4) خصص ابن ابي زرع لغزواته الامير المريني بالاندلس اكثر من 36 صفحة من كتابه **روض القرطاس** (ص 313 وما بعدها)، وهو يصف بدقة مراحل الجهاد، والظروف الطبيعية والبشرية التي صاحبت هذه الهجمات، وامكانيات الطرفين، مما يدل على ان احداثها كانت انذاك معروفة ومشهورة.

(5) ابن خلدون، **العبر**، 7 209، ا. المقري، **نفح**، 239.2، م. عبد الله عنان **نهاية الاندلس**، ص 107، م. كمال شبانة، **يوسف الاول ابن الاحمر**، ص 45.

(6) امام عجز ملوك بني مرين عن الجواز الى الاندلس اتجه امراؤها الى بعض افراد الجالية الاندلسية بالمغرب لحثهم على نقاذ بلادهم، وهكذا، فقد فوض امر الدعوة الى الانقاذ الى ابي عثمان، سعيد الرندي نزيل فاس. انظر تفاصيل ذلك عند ا. العلوي، **الانوار السنية**، في ثنايا بعض الرسائل الواردة في مخاطبة ابي الحسن الشريف ورفيقه، ص 41—50.

وهكذا سوف يتراجع عن الأندلس في الوقت الذي كان يسير فيه نحو التفكك والوقوع تحت نفوذ القوات البرتغالية الناشئة.

ـ استمرار المد الحضاري الأندلسي

تواصل المد الحضاري بالمغرب بفضل استمرار هجرة عدد كبير من الأندلسيين من مختلف الفئات علماء وأدباء، وأطباء، وحرفيين، وسوف نعطي نماذج للميادين التي برز فيها هؤلاء :

ـ الميدان السياسي

استعان عدد من سلاطين بني مرين بعدد من سياسيي الأندلس وقضاتها وكتابها، مثل ابن رضوان المالقي الذي «كان يكتب عن السلطان أبي سالم»(7)، الى ان أصبح «من مفاخر المغرب، في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، واجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر، والخطابة على المنابر، لأنه كان كثيرا ما يصلي بالسلطان...»(8). وقد اقترح عليه مخدومه أن يكتب له رسالة في «السياسة الملوكية والسير السلطانية»، فاستجاب له بوضع كتابه المشهور **الشهب اللامعة، في سياسة الجامعة**(9).

هكذا نجد أن أبا سالم عندما شعر أن الدولة المرينية قد دخلت فعلا في دور الانحلال وأحس بالحاجة الى اعادة النظر في الأنظمة المرينية التجأ الى ابن رضوان الأندلسي مما يدل على المكانة التي كان يحتلها هؤلاء الأندلسيون في البلاط المريني(10).

وهناك أندلسي آخر من أندلسيي البلاط المريني اهتم بهذه التنظيمات الحكومية، ذلك أن عليا ابن محمد ابن مسعود الخزاعي الأندلسي نزيل فاس (ت 789 هـ / 1387) قدم لمخدومه موسى ابن أبي عنان سنة 786 هـ / 1384) كتابه المشهور **تخريج الدلالات السمعية، على ما كان في عهد الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**(11).

ويتحدث ابن خلدون عن أندلسي خدم البلاط المريني قائلا «... ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد ابن يحيى البرجي، من برجة الأندلس، كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الأنشاء والسر في دولته وكان مختصا به، واثيرا لديه. وأصله من برجة الأندلس نشأ بها، واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ وسمع، وتفقه على مشيخة الأندلس، واستبحر في الأدب، وبرز في النظم والنثر، وكان لا يجارى في كرم الطباع، وحسن المعاشرة، ولين الجانب، وبدل البشر والمعروف...»(12).

---

(7) ابن خلدون، **التعريف**، 23.

(8) نفس المصدر والصفحة.

(9) نشر بالدار البيضاء سنة 1984 بتحقيق علي سامي النشار.

(10) لم تتم هذه المحاولة الاصلاحية التي رسم خطوطها ابن رضوان، ومن اسباب ذلك قصر مدة ابي سالم وما فاجاه من انقلاب اودى بحياته في النهاية ثم اهمال من قاموا بعده لهذا «المشروع الاندلسي».

(11) طبع بتونس بتحقيق الشيخ معاوية التميمي.

(12) ابن خلدون، المصدر السابق، 66.

لكن هناك أكثر من باحث يسجل جانبا سلبيا لوجود هذه الفئة داخل البلاط المريني، إذ يذكر بعضهم في هذا الصدد ومن غير شك فإن هؤلاء الارستقراطيين النازحين من الأندلس، ومن بينهم سياسيون محترفون، قد لعبوا دورا له أهميته في توجيه الأحداث، سواء داخل القصور أو خارجها. لقد حمل هؤلاء معهم، ليس ذكاء الحضري وذهاءه وحسب، بل الخبرة والاحتراف السياسي أيضا، الشيء الذي مكنهم من دور الموجه، ولو من وراء الستار. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن دخول هؤلاء الارستقراطيين من علماء وسياسيين في بلاط الأمراء والسلاطين بالمغرب، جعل منهم حاشية ارستقراطية جرفت معها الى أسلوب حياتها المعتمد على البذخ والترف والاستمتاع بالملذات، أولائك الحكام أنفسهم، مما فصلهم عن ذويهم وعشائرهم. وهذا الانفصال بين الحاكم وقبيلته كان يعني في الواقع انفصال السلطان عن جنده وتنكره للرجال الذين شكلوا أول الأمر دعائم ملكه. والنتيجة الحتمية لذلك هي ضعف سلطته، وفتح الباب على مصراعيه للمغامرات والمؤامرات...»[13].

ـــ في الميدان العسكري

غزا الأندلسيون أيضا الميدان العسكري إذ نلاحظ حضورهم بقوة في الجيش المغربي، وقد اعتلى عدد منهم مناصب القيادة بل صار البعض منهم حكما فصلا بين أفراد هذا الجيش.

ففيما يتعلق بالجيش البري نلاحظ أن الأندلسيين كانوا يشكلون فرقة خاصة يرمون «بقوس الرجل»[14]، وكان عددهم أزيد من الفي فارس[15]، علاوة على فرقة الأندلسيين المشاة[16]. ويعود وجود هذا العنصر الأندلسي في الجيش المغربي الى أيام المرابطين، حيث صار يؤلف قسما خاصا من الجيش[17]. ومن مظاهر تنظيمات هذا الجيش أنه كان له قاض خاص يسمى قاضي العساكر حسب ابن خلدون[18]، أو قاضي المحلة حسب أحمد بابا السوداني[19]، ومن بين الأندلسيين الذين شغلوا هذا المنصب ـــ في عهد أبي سالم ـــ: محمد ابن يحيى البرجي[20].

وكان سلاح قواد الأندلس (القسي الفرنجية)[21]، اما سلاح باقي قواد جيش بني مرين فهو القسي العربية المجلوبة من البلاد المشرقية والمحكمة عملها في المغرب[22]. واختصت خيول الأندلسيين بحسن

---

(13) م. عابد الجابري، **العصبية والدولة** 33 ـــ 34، وانظر ايضا ما يقوله عبد الله العروي في كتابه. Histoire du Maghreb, PP. 196-197

(14) انظر وصف «قوس الرجل» عند ابن هذيل، **حلية الفرسان**، ص 211ـــ212.

(15) م. المنوني، وصف المغرب ايام السلطان ابي الحسن، **ورقات**، 291.

(16) **المصدر السابق**، 70.

(17) **الحلل الموشية**، 25.

(18) **العبر** ، 7 392، 401، 403.

(19) **نيل الابتهاج**، 76ـــ80.

(20) ابن خلدون، المصدر السابق، 7 403.

(21) تسمى ايضا القوس الرومية، وقد ورد ذكرها في **نفاضة الجراب** (2 127) كسلاح مستعمل بالمغرب وهي غير القوس العقارة واللولبية كما يوخذ من هذا المصدر. وانظر عن انواع الاقواس دوزي، **ملحق المعاجم العربية**، 2 418.

(22) م. المنوني، المصدر السابق، 74.

الترتيب والبراقع البديعة الجمال، والجلاجل المذهبة التي يملأ الجواسواط أجراسها[23]. وحسب وصف شاهد عيان فإن المشاة الأندلسيين : «كانت عليهم الاقبية المختلفة الألوان، وفوق رؤوسهم الرتافيل[24] قد اعتقوا بالعصي الطوال وثنوا بالامراس[25]، وتقلد بالنبابيل[26] وما منهم الا من حملت عصاه راية تداعب هبات النسيم»[27].

وقد استعان سلاطين بني مرين كذلك بالأندلسيين في الأسطول اما كمهندسين أو قادة وهكذا فقد بنيت «دار الصناعة» بسلا على يد مهندس أندلسي محمد بن علي بن عبد الله ابن الحاج الأشبيلي (ت 714 هـ / 1314) قبلي مدينة سلا من جهة وادي أبي رقراق، وجعل لها بابان كان الوادي يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر بصناعة هندسية حيث جلب من الوادي الى الباب المسامت لجامع حسان في ترعة عميقة، فإذا صنعت سفينة جديدة بهذه الدار وأريد ارسالها في الوادي فتحت الترعة فيدخل الماء وتقوم فيه السفينة، ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي جدا، ليخرج المركب منشور القلاع[28].

ومن بين قادة هذا الأسطول الأندلسيين محمد بن يوسف ابن الأحمر وقد عينه أبو عنان قائدا أعلى[29]. وشارك هذا القائد في مناورات بحرية كان يشرف عليها أبو عنان نفسه. منها هذه المناورة عند شاطىء بجاية، إذ يقول شاهد عيان في ذلك : «امتثالا لتعليمات أبي عنان اصطفت أساطيل البلاد البحرية المتوكلية، يتقدمهم القائد الأعلى ابن الأحمر في طريدته...»[30]، ونشير الى أن هذا الأسطول لم يقتصر أمره على الجهاد البحري بل لعب دورا هاما كذلك في التجارة بين المغرب والممالك الاسبانية.

ــ الجهاد البحري والتجارة بين المغرب والممالك الاسبانية

انتشر الجهاد البحري في الثغور المغربية منذ هزيمة العقاب كرد فعل مباشر وسريع ضد هذه الهزيمة، وقد تمركز بالخصوص في سلا وسبتة وتطوان[31]، ومما ساعد المغرب على القيام بهذه العمليات امتلاكه لثروة خشبية هامة (خاصة في الريف والمعمورة)، لتغذية صناعة بناء الأسطول، ويتجلى هذا بالخصوص في امتلاك مجاهدي سلا وسبتة لأدوات عملهم بشكل كاف[32].

غير أن الجهاد البحري لم يعق قط حركة التجارة بين العدوتين، إذ كان مجرد مغامرة، أو حادث من جملة الأحداث التي يعرفها البحر»[33]، فقد عرفت بعض الموانىء المغربية نشاطاً دائبا، إذ كانت

---

(23) نفس المصدر والصفحة.
(24) الرتافيل اسم اسباني يراد به نوع من القلانس المقببة.
(25) الامراس الحبال.
(26) النبابيل رجح م. المنوني ان يكون المقصود بها السهام، **ورقات**، ص 87، هامش ط 137.
(27) ابن الحاج النميري، **فيض العباب**، ص 83—86.
(28) م. ابن علي، **الاتحاف الوجيز** ص 27.
(29) ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 19.
(30) المصدر السابق ص 127—130.
(31) CH. E. Dufourcq, L'Espagne Catalane et le Maghreb, P. 157.
(32) Lombard, une carte du bois, PP. 238 et 241.
(33) Hardy, Le Maroc, P. 23.

تستقبل التجار الايطاليين والاسبان[34]، وغدت مدينة سبتة سنة 1227 بفعل ذلك أهم مدينة في المغرب العربي لها علاقات وطيدة مع برشلونة[35]. وهناك موانىء أخرى كانت تقوم بنفس الدور (الجهاد والتجار) مثل بادس والمزمة وغساسة. ففيما يتعلق ببادس نلاحظ أن ذكرها يتكرر باستمرار في الحوليات الكطلانية[36] أو العربية[37]، فيذكر — مثلا — الحسن الوزان ما يلي «... ينقسم السكان الى قسمين صيادون ومجاهدون يذهبون في زوارقهم لنهب السواحل الاسبانية، والجبال حول بادس شاهقة وعرة فيها خشب جيد صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية... وفي خارج القصبة أيضا بجوار البحر دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية وبعض المراكب. وقد اعتاد الأمير والأهالي أن يسلحوا الزوارق ويرسلونها الى بلاد النصارى فيلحقون بها الكثير من الأضرار»[38].

وقد كانت عمليات الجهاد البحري هاته يتلوها اسر عدد من الاسبان، فحوالي سنة 1313 افتدى مبعوثان من برشلونة (كيم خيرالت Guillem Giralt وكلوديو دي سان رامان

Claudio de San – Raman ‏236 أسيرا مسيحيا من مراكش، ودخل بعض هؤلاء الأسرى في علاقات مع المغاربة فقد تعلق فارس اسباني بأميرة مرينية وكاد يعتنق الاسلام[39].

ونشير في الأخير الى الأندلسيين المستقرين بالموانئ حملوا معهم كذلك عاداتهم وتقاليدهم التي نشروها بين السكان، وقد تصدى عدد من فقهاء المنطقة ومصلحيها — فيما بعد — لهذه العادات والتقاليد الدخيلة، خاصة أن أمرها لم يقتصر على الموانىء، بل تعداه الى داخل الريف[40].

— الجالية العسكرية الاسبانية بالمغرب

بلغ عدد أفرادها أيام أبي الحسن المريني أربعة آلاف أو أزيد[41]، وقد كانت طائفة منهم تقوم بالحراسة الليلية في ظاهر القصر المريني بفاس الجديد. وكان لهذه الجالية ربض خاص تحدث عنه

---

(34) CH. E. Dufourcq, op. cit. P. 158.

(35) CH. E. Dufourcq, op. cit. P. 158 note 2.

(36) CH. E. Dufourcq, op. cit. P. 158 note 6.

(37) انظر — مثلا — روض القرطاس، مواضع متفرقة، وابن خلدون، العبر، مواضيع متفرقة.

(38) وصف افريقيا، 1 253—254.

(39) CH. E. Dufourcq. op. cit. P. 476.

(40) م. حجي، الحركة، 1 218—220، و ع. القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، ص 147، وما بعدها.

(41) م. المنوني، ورقات، 291، اعتمادا على مسالك الابصار للعمري
ملاحظة
يورد م. ابن مرزوق في المسند (ص 116 أن عدد النصارى الملازمين لخدمة السلطان ابي الحسن المريني يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف. ويفيد هذا المصدر أن رواتبهم كانت ما بين خمسة دنانير إلى خمسين دينارا كل شهر).

(42) المقصود هنا الاسبان، وقد استخدمها بنفس المعنى ابن خلدون في المقدمة، ص 486، والناصري في الاستقصا 2 237.
كما سجل شارل امانويل دي فور نفس الملاحظة في المصدر السالف الذكر، ص 160 هامش 7.

العمري في مسالك الابصار ــ وهو بصدد الحديث عن فاس ــ في الفقرة التالية «... وربض النصارى المتخذ لسكنى الطائفة الفرنجية[42] المختصة بخدمة السلطان»[43].

ويبدوا أن وجود هذه المليشيات المسيحية أثار بعض المشاكل خاصة في عهد يعقوب المريني التي وقعت في عهده حادثة استيلاء الاسبان على سلا[44]، إذ من المحتمل أن يكون السلطان المريني قد أشار بأصبع الاتهام لهذه المليشيات المسيحية فيما يتعلق باحتلال سلا، وكان شارل امانويل دي فور قد أوضح أن رئيس المليشيات المسيحية في العهد المرابطي(Reveter) كان يعطي معلومات عن المغرب للممالك الاسبانية[45]، فليس من المستبعد، إذن، أن يقوم ضباط هذه المليشيات بنفس الدور الذي قام به سابقوهم، خاصة ان العمل كان مباركا من طرف الكنيسة إذ أن عمليات التنصير أصبحت تجري على قدم وساق بالأندلس وبمرأى ومسمع من الجميع فقد تنصر السويد أبو زيد أخو أبي دبوس باشبيلية، فحلق الفونشو لحيته بيده وكساه حلة ووقفه على رأسه. فلما كساه الحلة صعد على كرسي عال يشرف منه على الناس ثم قال أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود أني قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة وكنت أكتمه وأنا الآن قد أبحته وأظهرته، وان دين المسيح ابن مريم هو الدين القديم الأزلي»[46].

وقد قرر يعقوب المريني أن أن يتخذ موقفا حازما تجاه هذه التطورات العسكرية والسياسية، إذ يذكر ابن أبي زرع أنه «أخرج أجناد الروم الذين يسكنون مدينة فاس عنها، وبنى لهم حظيرة بخارج المدينة وأسكنهم فيها، ورفع أذاهم عن الناس...»[47].

ويذكر نفس المؤرخ في مكان آخر وهو بصدد الحديث عن حوادث سنة 659 هـ : «وفيها أمر أمير المسلمين يعقوب باخراج النصارى من فاس وبنى لهم المرس القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبي العلاء ابن أبي طلحة»[48].

وواضح من خلال النصين، إذن، أن عمل هذه الجالية الاسبانية بالمغرب أصبح بسبب متاعب للسلطة سواء على المستوى الديني أو الاجتماعي أو العسكري، لكن السؤال المطروح : إذا كان الأمر كذلك، لماذا احتفظ المرينيون بمثل هذه الجالية إذا كان أذاهم قد عم الناس ؟

---

(43) م. المنوني، المصدر السابق 273.
(44) م. ابن مرزوق المسند، 116 ونصه «وخص النصارى الخدام بمسلك يميزون به عمن عداهم، وهو الذي استنقذ سلا من ايدي النصاري بعد استيلائهم عليها وتملكهم لها».
وتتضح هنا العلاقة بين عزل الجالية الاسبانية عن فاس والاستيلاء على سلا.
(45) L'Espagne Catalane et le Maghreb, P. 160.
(46) ابن ابي زرع، **الذخيرة السنية**، ص 96.
(47) المصدر السابق ص 91.
(48) المصدر السابق ص 96.

يبرر ابن خلدون وجود هذه الفرقة في الجيش المريني بان قتال الفرق الأخرى للجيش كان بالكر والفر، والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف، فلذلك احتاج الملوك المرينيون أن يتخذوا جيشا من هؤلاء المتعودين للقتال بالمصاف، حيث كانوا يستعملونهم في حروبهم مع غير المسيحيين، أما في الجهاد فلا يستعينون بهم البتة(49).

وواضح من النص أن المرينيين اتخذوا هذه الفرقة لمواجهة خصومهم الداخليين، لأن هذه الفرقة أضمن من مناصرة القبائل لهم.

ونختم القول بالتأكيد على أن هذه الجالية الاسبانية كان لها وجود واضح ومحدد، وأن وجودها، ولا شك، لم يترك بصماته على الجيش فقط، ولكن على بعض مرافق الحياة العامة أيضا بفعل نشاطها داخل المغرب، خاصة انه من المحتمل جداً أن يكون بعضهم قد دخل الاسلام حتى يتجنب الابعاد والتمييز.

ـ الميدان العلمي

يذكر ابن خلدون في هذا الصدد «... وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك المغرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم نصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية، من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة...»(50).

وفعلا فقد توافد على المغرب في هذه الفترة أيضا كسابقتها عدد من علماء الأندلس وأدبائها وشعرائها واستطاعوا أن يتبؤوا مكان الصدارة على الساحة العلمية.

ونسجل الفرق بين المناهج التعليمية لدى هؤلاء ولدى المغاربة في الملاحظتين الآتيتين

ـ اعتياد علماء الأندلس على المناظرة والمحاورة في المسائل العلمية مما أدى الى «حصول الملكة والحذق في العلوم»(51)، في حين اعتمد المغاربة على «الحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم»(52).

---

(49) المقدمة، ص 485ـ486.
(50) المصدر السابق، ص 750ـ751.
(51) المصدر السابق، ص 771.
(52) المصدر السابق، ص 772.

ملاحظة

من الاندلسيين الذين عملوا على نشر هذه الطريقة ايام العصر السعدي نذكر م. القصار، الذي قال في حقه م. العربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 163 وكانت مجالسه تقوم مقام دروس كثيرة، فانها كان يحصل بها من الفوائد ما لا يكاد يحصل في دروس كثيرة. وكان امام عصره تفننا في العلوم وتبحرا فيها، وجودة نظر ودقة فهم وسهولة ماخذ، واختصاصا بايضاح المشكل وتسهيل العويص على وجازة فطر عليها في كلامه وربما لم يتاد معها المقصود لكثير ممن قصر فهمه، فتحاما لذلك الاستفادة منهم كثير منهم، اما اهل التحصيل والفهم الاصيل، فاكبوا على الاخذ والاستفادة منه، فحصلوا على علم عظيم وملكة تامة...».

ـ هناك فرق آخر يتعلق بتعليم الأطفال المغاربة والأندلسيين، ««فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب... وأما أهل الأندلس... فلا يقتصرون لذلك عليه (القرآن) فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية، وحفظها، وتجويد الخط والكتاب...»[53].

تلك كانت تجربة المغاربة من الأندلسيين داخل المغرب وفي الأندلس نفسها طوال ثمانية قرون عرفت مدا وجزرا في مختلف الميادين السياسية والحضارية. وسوف يعرف المغاربة تجربة أخرى مع الأندلسيين في الفترات الموالية. ذلك ما سنتعرف عليه عند استعراضنا لوضعية الأندلسيين في الأندلس نفسها، ومن خلال استعراضنا لهجراتهم الى المغرب.

---

(53) ابن خلدون، المقدمة ص 1038ـ1039.

الباب الأول

الأندلسيون تجاه المد المسيحي

جابه الأندلسيون مصيرهم بإسبانيا، خلال القرنين 16 و17، في مراحل متعددة يمكن تلخيصها، على الأقل، في ثلاث مراحل أساسية

1 ـــ مرحلة الملكين الكاثوليكيين حاول الأندلسيون، في هذه المرحلة مواجهة الموقف، لكن كان كل شيء يسير نحو النهاية، إذ ان تصميم الاسبان على اقتحام آخر معقل إسلامي بإسبانيا فاق أية محاولة قام بها الأندلسيون بالمنطقة للدفاع عن معقلهم الأخير. وتتميز هذه المرحلة كذلك بفرض التعميد الاجباري على المسلمين، أي في الأخير نهاية الاسلام العلني لتبتدئ مرحلة «الاسلام السري» ومحاولة المسلمين في المجتمع الاسباني.

2 ـــ مرحلة شارل الخامس وفيلب الثاني تتميز بالاستمرار في إصدار مجموعة من القرارات الرامية إلى إدماج المورسكيين في المجتمع الاسباني، لكنها تتميز على الأخص بالجهاد البحري الذي كان يساهم فيه المورسكيون لانقاذ إخوانهم ممن بقي بإسبانيا، وذلك بتشجيع من الأتراك.

3 ـــ مرحلة فيلب الثالث تتميز هذه المرحلة باقتناع الملك الاسباني بفشل محاولة الادماج، وبالتالي فقد ارتأى أن الحل النهائي لن يكون إلا بإخراجهم، ومما يمكن تسجيله في هذه المرحلة أيضاً ظروف استقبالهم بمواطنهم الجديدة.

الفصل الأول

الأندلسيون في عهد الملكين الكاثوليكيين

(879 هـ - 922 هـ / 1474 م - 1516 م)

ارتبط المشكل الأندلسي بإسبانيا — خلال عهد الملكين الكاثوليكيين — بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي حددت مسار السياسة الاسبانية تجاه الجالية الاسلامية بها. فإسبانيا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي كانت تعوق هذه الوحدة

— حواجز جغرافية بفعل التفاوت الجهوي العميق الذي تولد عنه انعزال العديد من المناطق التي تمسكت بذاتيتها واستقلالها إلى يومنا هذا (كطالونيا — الباسك — الأندلس).

— حواجز اقتصادية التفاوت الطبقي بفعل وجود قوات فيودالية ذات امتيازات كبيرة، وهي قوات تؤدي إلى التفكك أكثر ما تؤدي إلى الوحدة والمركزية[1]. ففي قشتالة — مثلا — كانت الأسرة المالكة دائما ضعيفة الامكانيات بسبب وجود عدد من الاقطاعيين النبلاء الذين كانوا يشوشون على السلطة، ويضيقون الخناق على كل مشاريعها في تعزيز الوحدة، بالاضافة إلى مدن لها حقوقها القديمة Los Fueros، وإكليروس كان له دور حاسم بسبب تبنيه لحرب الاسترداد **Reconquista**.

لكن العرش القشتالي تمكن في النهاية من التغلب على بعض هذه الصعاب بفضل تحمسه للمسيحية وإخراجه للعرب والاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوزتهم، فكان، إذن، هذا العمل هو المحور الذي دارت حوله الوحدة القشتالية أولًا والاسبانية ثانيا، إذ جعل من قشتالة مركز استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين للمسيحية ظاهريا فقط، فالأطماع الاقتصادية هي التي كانت تحركهم، وذلك بالاستيلاء على الأراضي المنتزعة من يد المسلمين. فجلب العرش القشتالي بذلك الجنود والضباط، أي أنه أصبحت لديه الادارة الفعالة التي تسير به نحو الوحدة.

---

(1) يذكر بروديل F.Braudel هذا الصدد : «ان الدولة الحديثة كانت عدوة النبلاء والاقطاعيين». انظر كتابه : La Méditérranée..., 2 : 20

وقد تجسدت هذه الوضعية في عهد الملكة ايزابيلا الكاثوليكية، إذ جعلت من بين أهدافها إخراج العرب والاستيلاء على أراضيهم وضربهم في آخر معقل من معاقلهم، متجهة إلى الوحدة مع أراجون[3] ممثلة في شخص ملكها فرناندو الكاثوليكي الذي كانت تحركه نفس الأهداف.

وقد كانت لهذه الوحدة نتائج خطيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي

— على الصعيد الداخلي تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام، فالنبلاء أزيل لهم الاعتبار الخاص منذ الحرب الأهلية القشتالية، ودخلوا في صف الملكين الكاثوليكيين، والأوامر العسكرية أصبحت مرتبطة بالعرش، ولم يعد هناك إلا شرطة واحدة هي شرطة الملكين La santa Hermandad، كما خلقت مليشيات قوية ومسلحة وكل إليها محاربة السلب والنهب وأعمال اللصوصية السائدة آنذاك[5].

— على الصعيد الخارجي اتجهت إسبانيا نحو مغامرات خارجية، وبالفعل فقد برزت الوحدة الاسبانية خارج إسبانيا أكثر من إسبانيا نفسها.

تلك جهود الطرف الأول (الطرف الاسباني) لتحقيق وحدته، ولمواجهة العرب، لكن كيف كانت جهود الطرف الثاني ماذا فعل العرب لمواجهة هذه الوضعية، وما هي مجهوداتهم سواء على الصعيدين الداخلي أو الخارجي وكيف حصلت الهزيمة بسقوط آخر معقل عربي إسلامي بالأندلس ؟

ذلك ما سنعرض له في النقط التالية

1 — سقوط مملكة غرناطة

يعتبر سقوط غرناطة حدا فاصلاً بين حضارتين في إسبانيا حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلاً وتقذف به خارج شبه الجزيرة الايبيرية.

---

(2) للمزيد من الايضاح عن حياة ايزابيلا انظر

— Andrés Bernaldez, **Memorias del reinado de los reyes catolicos.**

— Lucio Marineo siculo, vida y hechos de los reyes catolicos.

— T. de Azcona Isabel la catolica.

— Ferrara, Histoire d'Espagne l'Avénement d'Isabelle la catholique.

(3) تختلف آراجون عند قشتالة من حيث بنيتها الاقتصادية، فقد كانت الأولى تعتمد على ازدهارها التجاري ونشاطها الملاحي في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط، في حين كانت الثانية تعتمد على الفلاحة وتحتقر الصناعة التي كانت بيد المسلمين والتجارة التي كانت بيد اليهود.

(4) للمزيد من الايضاح عن حياة فيرناندو الكاثوليكي، انظر بالاضافة الى المصادر الواردة في الهامش 2، ما يأتي

— A. Gimenez Soler Fernando el catolico.

— R. Del Arco Fernando el catolico, artifice de la unidad Espagnola.

— J. M. Doussinagne Politica internacional de Fernando el catolico.

(5) Jean Descola, Histoire d'Espagne, P. 308.

وسقوط غرناطة يحتل مكانة خاصة لدى الاسبان والعرب على السواء، فالاسبان اعتبروه آخر حاجز في سبيل توطيد سلطتهم وتوحيد بلادهم، إذ مباشرة بعد هذا السقوط سيقوم الملكان الكاثوليكيان بعدة إنجازات (وحدوية)، وإلى وقت قريب منا جدا كان الاسبان يحتفلون بيوم استرجاع غرناطة، واعتبره العرب مؤشراً واضحا لأفول سلطتهم لا بالنسبة للأندلس فقط ولكن حتى بالنسبة لمعاقلهم الأولى أيضاً[6]. وقد ظلت لغرناطة مكانة خاصة في نفوس العرب حتى إن كلمة «غرناطي» كانت تعني في أحيان كثيرة «أندلسي» وهذا وضع لم تحتله أية مدينة أندلسية أخرى، فيكف جرت النكسة ؟ وكيف واجهها الغرناطيون ؟ وما هي محاولتهم لانقاذ بلادهم ؟

ظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت، صامدة ضد هجمات المسيحيين. ونستطيع أن نستخلص عوامل هذا الصمود من خلال نص أورده مارمول وهو بصدد الحديث عن غزو غرناطة قائلًا «...كان الأمير أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمر، وقد صار أقوى من تولوا هذه الامارة منذ انقراض خلفاء عبد الرحمان. وقد تأتى له ذلك بسبب ما وقع بين الأمراء النصارى من النزاعات. فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية لأمير من أمتهم، وكانت لديه مدافع كثيرة وذخيرة بالاضافة إلى جيشه من الفرسان والراجلة المجهزين بالبنادق، وقد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولا سيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة، وكان عطاء هؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لأنهم كانوا أعداء الداء للنصارى...»[7].

هناك، إذن، على الأقل ثلاثة عوامل ساعدت على هذا الصمود

– تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة، وتصميم رجالها على الدفاع عن حوزة بلادهم بتأييد من الفقهاء والعلماء.

– تنازع الممالك المسيحية في الشمال، إذ حال ذلك دون اتخاذ تدابير حاسمة ضد المملكة الاسبانية.

– مساعدة بني مرين والمجاهدين المغاربة عموماً، إذ كانت هذه المساعدة تضفي الحيوية على العمليات العسكرية التي تقوم بها مملكة غرناطة.

لكن بمجرد اختفاء هذه العوامل بدأت مؤشرات السقوط تظهر في الأفق، فالبيت المالك أصبح منقسما على نفسه ومملكة قشتالة وأراجون توحدتا وعقدتا العزم على اقتحام آخر معقل إسلامي بالمنطقة، والمغرب لم يعد قادراً على تقديم ما كان يقدمه من مساعدات بسبب أزماته السياسية والاقتصادية التي كان يمر بها آنذاك، وبدأت بذلك مرحلة جديدة تختلف جذريا عن المرحلة السابقة.

---

(6) اي ان الاتراك سوف يعوضون العرب في حماية الاسلام والدفاع عن الاراضي العربية نفسها.
(7) الوثيقا، 1 : 431 – 432

مراحل الصراع

ابتدأت فصول هذا الصراع بمحاولات أبي الحسن (968 هـ — 880 هـ /1464 — 1485 م) إنقاذ حصون المملكة أمام هجومات فيرناندو، إذ انقض هذا الأخير على حصن لوشة Loja سنة 1483، لكنه انسحب أمام المقاومة العنيفة التي أبداها الأمير الغرناطي، غير أن هذا الأخير عندما رجع إلى غرناطة وجد العامة هناك قد انحازوا إلى ابنه أبي عبد الله (الصغير) فارتأى ألا يضيع جهوده في قتال ابنه فسار إلى مالقة حيث كان أخوه أبو عبد الله الزغل (الشجاع)، وفعلا فقد استطاع رد الأخطار على مالقة.

ورغم هذه الانتصارات فإن عامة غرناطة وقفوا ضده وظلوا في ولائهم لابنه أبي عبد الله. ويرجع سبب ذلك إلى سياسته الداخلية التي أثارت حوله كثيراً من السخط، يقول المؤرخ المجهول وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة سنة 883 هـ (ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبو الحسن في التقهقر والانتكاس والانتقاص، ذلك أنه اشتغل باللذات، والانهماك في الشهوات، واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والحفلات، وضيع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان، وثقل المغارم وكثر الضرائب في البلدان، ومكس الأسواق، ونهب الأموال، وشح بالعطاء، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك، وكان للأمير أبي الحسن وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك، فبقيت الحال كذلك مدة والأمير مستغل باللذات، منهمك في الشهوات، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الأموال ويأتي بها ويعطيها لمن لا يستحقها، ويجعل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والاحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثيراً من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها[8].

وقد اعتزم أبو عبد الله الصغير أن يحذو حذو عمل الزغل — حين رده لغارات المسيحيين على مالقة — فانتهز فرصة اضطراب المسيحيين عقب الهزيمة فخرج في قواته في أبريل 1483 متجها إلى حصن اللسانة Lucena لكن الدائرة دارت عليه فهزم وأسر، ولم يطلق سراحه إلا بعد مفاوضات قاسية انتهت بعقد معاهدة مهدت الطريق لاستيلاء الملكين الكاثولكيين — في الأمد البعيد — على غرناطة[9] وسوف تعزز هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى سنة 1486 أكثر استسلاماً من سابقتها[10]، وقد توالى سقوط مدن المملكة، فسقطت مالقة (أواخر غشت 1987) وبسطة (دجنبر 1489)، ولم تبق إلا غرناطة التي أرسل في شأنها الملكان الكاثولكيان رسالة إلى أبي عبد الله الصغير (المشؤوم) يطالبانه فيها بتنفيذ مضمون الاتفاق الاستسلامي السري الموقع في لوشة. ورد في بادئ الأمر بأنه على استعداد للتنفيذ، لكنه وتحت ضغط العامة والفقهاء قرر أن يدخل الجهاد وفتحت بذلك صفحات جديدة من

(8) نبذة العصر، ص 5—6

(9) اسعد حومد، محنة العرب في الاندلس، ص 86

(10) اسعد حومد، المصدر السابق، ص 88.

صفحات الاستماتة والدفاع عن البلد سجلها المؤرخون الاسبان أنفسهم، إذ يقول مارمول في هذا الصدد (... شاع خبر هذه الانتصارات في مختلف الجهات، وخلق أثراً طيباً في نفوس المسلمين، فكان انطلاقة لتذكية حبّ الجهاد في أوساطهم، فثار عرب المناطق الجبلية ووادي البشارى على حكامهم النصارى، وقاد ملك غرناطة بنفسه عمليات حربية ضد مدن مرشان وبيلودوي وألمرية، وقادش، فدخلها مظفرا إذ لم تستطع حاميتها أن تصمد مام جيشه...)[11].

هكذا انتهت فصول هذا النزاع المرير الذي خاضه العرب بالأندلس، وهو صراع كان يدرك وزنه جيدا الاسبان، إذ اعتبروه نقطة تحول هامة في تاريخهم، وهو في نفس الوقت يدل على أهمية المقاومة العربية، ولننظر إلى الوصف الذي تركه المؤرخ الاسباني السالف الذكر وهو يتحدث عن دخول الاسبان قصر الحمراء (... دخل النصارى إلى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال إلى أحد الأبراج بالقصر ونصب فوقه صليباً كبيراً من فضة، ولواء الملكية المسيحية... وما أبصرت الملكة الصليب منصوباً فوق قصر الحمراء، حتى انحنت نحو الأرض، واقفة على ركبتها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية. عند ذلك بدأ فيرناندو وبعض علية القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوها، تقدم نحوه أبو عبد الله ممتطياً جواده، ولما دنا من فرناندو، تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل، شفقة عليه. فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فيرديناد اليمنى وقدم إليه مفاتيح القصر، فتناولها الملك النصراني وسلمها إلى الكونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة...)[12].

نعم أبرمت معاهدة التسليم[13] وفيها مجموعة من «الحقوق والامتيازات» متعلقة بالامير أبي عبد

---

(11) مارمول كربخال، المصدر السابق، 443

(12) مارمول كربخال، المصدر السابق، 447.

(13) توجد الوثائق المتعلقة بمعاهدة التسليم في كل من الارشيف العام بسمنكاس Archivo General de Simancas وسجلات بلدية غرناطة.

ففيما يتعلق بالارشيف العام بسمنكاس توجد هذه الوثائق ضمن مجموعة.

Capitulationes con Moros y caballeros de Castilla

وينظر منها بالاخص الوثائق الآتية

P. R. legII Fol - 207, P.R., leg II FOL 206, P.R. leg II Fol 203.

أما سجلات بلدية غرناطة فهي تحتوي على وثائق مخطوطة عن المعاهدات الاصلية التي ابرمت في تلك الفترة، وكانت ملكيتها تعود الى سكرتير الملكين الكوثولكيين فرناردو دي زافرا، وقد نشرها.

Miguel Garrido Atienza

ضمن وثائق تسليم غرناطة بالعنوان الاتي

Los capitulacionnes para la entrega de Granada.

بالاضافة الى وثائق أخرى تعود أيضا ملكيتها الى سكرتير الملكين الكاثولكيين السالف الذكر عثر عليها Gaspar Remiro ونشرها بالعنوان الآتي

Documentos Arabes de la corte Nazari de Granada.

''Primeros pactos y correspondencia intima entre los reyes catalicos Boabdil''

Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos, madrid, 1910 tomo XXIII, pags. 260-269 y 421-431 y XIII, pags 137-148 y 411-423.

الله وبالمسلمين عامة، تضمن حرية التجارة والتنقل إلى المغرب بمساعدة الاسبان، وحرية ممارسة الشعائر الدينية لكن سوف يتبين فيما بعد أن هدف المعاهدة هو تهدئة الأوضاع ريثما يتم تدبير قرارات جديدة لتصفية الوجود الاسلامي بغرناطة نهائيا، إذ إن «الحقوق والامتيازات» التي أعطيت لهؤلاء هي في الحقيقة نوع من الرشوة لشراء الضمائر أمام عنف المقاومة العربية وخوفاً من تجددها على يد عناصر مازالت لم تستسغ بعد معاهدة الاستسلام. وما إبرام المعاهدة السرية في نفس اليوم الذي أبرمت فيه معاهدة التسليم إلا دليل ساطع على ما أشرنا إليه[14].

وفعلًا لم يمر وقت قصير على المعاهدتين حتى بدأ الاسبان، ينفذون مخططهم القاضي بتنصير المسلمين وبطرد من حاول البقاء على دينه ومن ضمنهم الأمير نفسه الذي اتجه إلى العدوة، يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد

«ثم إن الطاغية ـــ دمره الله ـــ ظهر له أن يصرف الأمير محمد بن علي إلى العدوة فأمره بالجواز وبعث للمراكب أن تأتي إلى مرسى عذرة (Andra بلدة من أعمال المرية) واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز، فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى، وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة المغرب، ثم ارتحل إلى مدينة فاس ـــ حرسها الله ـــ»[15]. ثم تعدى الأمر بعد ذلك إلى عامة الناس ممن حاول البقاء بغرناطة : (... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر، ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فأخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز. عند ذلك عزموا على الاقامة والدجن ولم يجوز النصارى أحدا بعد ذلك إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال، فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركو الجواز وعزموا على الدجن والاستيطان والمقام في الأوطان أخذ في نقض الشروط التي اشترطوها عليه أول مرة ولم يزل ينقضها شرطا شرطا ويحللها فصلًا فصلًا إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة الاسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم، وقطع لهم الآذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين...»[16].

ويصور لنا نفس المؤلف مأساة المسلمين وهم يُطعنون في عقيدتهم (... ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينه كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهراً، إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حزين وكم فيها من الضعفاء والمعدومين ولم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتغل ودموعهم تسيل سيلًا غزيراً مدراراً، وينظرون

(14) انظر نص المعاهدة السرية عند محمد عبده حتامله، **التنصير القسري لمسلمي الاندلس**، ص 46ـــ54
(15) نبذة العصر، ص 43
(16) المصدر السابق، ص 44

أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب ! فيا لها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وأضرها وطامة ما أكبرها[17].

وقد كان وقع السقوط في النفوس كبيراً، ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس، رثاء أحمد الدقون لها بقصيدة هذا مطلعها

أمسنت من عكس آمال وأحوال وعشت ما بين أعمام وأخوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد فالجسم مشتغل من غير اشغال
وكيف لا وبقاع الدين خالية من أرض أندلس من أجل أهوالي
عمت فغمت قلوب المسلمين فيا للمسلمين من أعداء وأنكال[18]

* * *

هذه هي فصول المأساة، وهذه خطوطها العامة، لنا أن نتساءل بعد هذا : هل تمكن الملكان الكاثوليكيان بالفعل — بعد سقوط غرناطة — من إخماد ثورة المسلمين بها ؟ هل استسلم العرب ورضخوا لقدرهم ؟ كيف كانت علاقة الملكين الكاثوليكيين بما تبقى من المسلمين ؟ ذلك ما سنحاول أن نوضحه في الفقرة التالية.

2 — سياسة الملكين الكاثوليكيين إزاء ما تبقى من المسلمين بغرناطة

لخص مارمول سياسة الملكين الكاثوليكيين في كتابه عن حرب غرناطة كما يأتي : (.. منذ أن استولى فرديناندو على غرناطة والأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من إسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذي يودون البقاء، إما التنصر، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وإنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم، بل فيه إنقاذ لأرواحهم، وحفظ لسلام المملكة، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى، أو يحافظون على ولائهم للملوك، ما بقوا على الاسلام...)[19].

وقد كانت أداة تنفيذ هذه السياسة الكاردينال سيسنروس Cisneros مطران طليطلة ورأس الكنيسة الاسبانية[20] والأب ايرنادو دي تالافيرا Hernando de talavera مطران غرناطة[21]. بالاضافة

---

(17) المصدر السابق، ص 44—45

(18) انظر القصيدة عند أ. المقري، ازهار، 1 104—115

(19) Rebelión y Castigo de los Moriscos de Granada, PP. 147

(20) للمزيد من التوسع انظر

— Fernandez de Retana (P.) Cisneros y su siglo, Madrid 1929.

— Starkie (W), la espana de cisneros, Barcelona. 1943

(21) للمزيد من التوسع انظر

— Marmol Carvajal, op. cit. P. 105.

— Caro Baroja (Julio) Razas, pueblos y linajes, Revista de occidente, Madrid 1957.

إلى حاكم غرناطة الذي كان يقدم لهما كل المساعدة لتنفيذ خطتهما. غير أن الأول (سيسنروس) اشتهر من بين هؤلاء جميعاً بما ارتكبه في حق المسلمين بغرناطة، فبالاضافة إلى عمله الشنيع في حق المسلمين ارتكب أفضع جريمة حضارية عرفها التاريخ فقد أمر بجمع الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها، ونظمت أكداساً هائلة في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، ومنها الكثير من المصاحف البديعة الزخرف والآلاف من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النيران جميعاً ولم يسلم منها سوى ثلاثمائة كتاب في الطب والعلوم، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة Alcala de Henares[22]، وذهبت ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات ألوف من الكتب العربية[23]. وقد كان سيسنروس يهدف بذلك إلى إلغاء أي رابط يربط المسلمين بعقيدتهم بفصلهم عن تراثهم وبالتالي يصبح من السهولة تنصيرهم. وبالفعل فقد كانت الفكرة السائدة في السنوات الأولى لاستيلاء الاسبان على غرناطة أن المسلمين سيدخلون في الديانة المسيحية أفواجاً وبدون صعوبات تذكر، فنظمت فرق تبشيرية لهذا الغرض تتكون من رهبان وراهبات، لكن عمل هاته الفرق باء بالفشل فتدخل سيسنروس وفرض التنصير القسري، مستعملاً كل وسائل التعذيب لديه[24]، مما أدى بالمسلمين للثورة معلنين الجهاد ضد الكاردينال وجماعته المتعصبة.

ومما لا شك فيه بأن الملكين الكاثولكيين كانا على اتفاق مع سيسنروس للقيام بهذا الاجراء على الرغم من الادعاءات بأنهما قد فوجئا بعملية التنصير القسري[25].

فقد كان فرناندو يؤمن هو الآخر بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنه من توحيد إسبانيا المجزأة، كما أنه كان يخشى بأس المسلمين، ويرى مع الكنيسة أن احتفاظهم بدينهم يقوي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم في شمال إفريقيا وفي العالم الاسلامي بصفة عامة، ومن ثم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة إسبانيا ووحدتها. فمهما قيل إذن حول الخلاف بين الكنيسة وفرناندو فإن عمل سيسنروس يبقى من عمل الملكين الكاثولكيين ومسؤولية من مسؤوليتهما[26].

---

(22) تسمى في الروايةالعربية بقلعة عبد السلام أو قلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس، أحد روافد نهر التاجه، وهي تقع جنوبا غربي وادي الحجارة في منتصف المسافة بينها وبين مدريد.

(23) يختلف المؤرخون الاسبان في تقدير عدد الكتب العربية التي ذهبت ضحية هذا الاجراء، فيقدرها E.de Robles الذي كتب بعد ذلك بقرن كتابا عن حياة سيسنروس.

Compenido de la vida y Hazanas del Cardinal Ximenez

بمليون وخمسة الاف كتابا، ويقدرها B.de pedraza الذي كتب بعده بقليل، بمائة وخمسة وعشرين الفا في كتابه Historia eclesiastica de Granada.

ويقدرها البعض الاخر بخمسة الاف فقط، ويقدرها كوندي بثمانين الفا، وربما كان تقديره اقرب الى المعقول. انظر

W. Prescott historiy of ferdinand and Isabella the catholic, P. 451-53 et notes.

(24) Dominguez Oritz (Antonio) y Bernard vincent, Historia de ɫos Moriscos Vida y tragedia de una Minoria, PP. 18-19.

(25) F. Breudel, la Méditerranée..., 2. PP. 19-20.

(26) ليلى الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة، مقال بمجلة الاصالة الجزائرية، العدد 27، شتنبر، اكتوبر 1975 ص 119.

وقد كان رد فعل المسلمين بغرناطة في مستوى المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها منطقتهم فأعلنوا الثورة ضد هاته القرارات الجائرة.

انتفاضة البيازين عام 1499

فرض التاج الاسباني على المدجنين ضرائب جديدة باهضة، وقد سيطر القلق والرعب على المسلمين من أهل غرناطة عند صدور تلك الأحكام الجائرة التي كان نتيجتها التمهيد لقيام الثورات المتتابعة[27]، فمنذ اللحظة الاولى لدخول الاسبان غرناطة تم توزيع مساحات شاسعة من الأراضي والأملاك على النبلاء الاسبان وكانت هذه الاملاك للمسلمين الذين أصبحوا فيما بعد أتباع النبلاء[28].

وقد فرضت عليهم الضرائب وعوملوا معاملة سيئة نتيجة لثوراتهم المتتابعة. وفي عام 1498 أجريت عملية عزل العناصر الاسلامية عن المجتمع الاسباني، ووضعوا في أماكن معينة، تحت حدود واضحة المعالم بين السكان الاسبان والمسلمين ليسهل السيطرة والقضاء عليهم في حالة نفورهم[29]، مما زاد الحماس في نفوس المسلمين للثورة. وقد حاول الملك الكاثوليكي تهدئة الأحوال خشية العواقب فبعث سيسنروس ليبرم مع الثوار المسلمين ومع المسلمين من أصل إسباني «Elches»[30] اتفاقاً يعيد المياه إلى مجاريها ولو إلى حين. وكان مقتضى هذا الاتفاق أن يجيز للمسلمين التمسك بعاداتهم ودينهم وضمان احترامهم، غير أن هذا الاتفاق لم يلق أي اهتمام لدى الثوار لكثرة ما مر بهم من اتفاقيات لا تنفذ وزاد الأمر سوءاً اعتداء خدمة سيسنروس على ابنة مسلم من أصل إسباني في ساحة باب البنود في حي البيازين، فهب المسلمون في ثورة عارمة استجابة لصراخ الفتاة ووصلوا إلى المفوض وصاحبه، فدب الهلع والرعب في قلوبهما وفر الخادم، ووقع مفوض الشرطة في يد المسلمين، وسارت حشود الثائرين نحو بيت الكاردنال في القصبة قرب فقصر الحمراء للقضاء عليه، وكلهم ثقة أن هذه الحادثة لم تكن إلا بتخطيطه[31]. ج وقد اختار هؤلاء أربعين من بينهم ليمثلوا حكومة أندلسية مستقلة منفصلة عن الاسبان مقتنعين بأن تعايش هذين الشعبين غدا محالاً، فاحتمى الكاردنال في بيت حاكم مدينة غرناطة الكونت دي تنديا، وأقنعه بإرسال حملة كبيرة تبيد الثوار المسلمين في البيازين عن آخرهم، واتجهت الحملة فعلاً إلى الثوار فذهلت لدى رؤيتها كل الطرق المؤدية إلى الثوار مغلقة. وقد واجهها المسلمون بشجاعة نادرة، وكاد الأمر أن يتطور أبعد من ذلك لولا وساطة مطران غرناطة الأب تالافيرا التي أدت إلى عقد اتفاقية تحترم بمقتضاها الوعود السابقة[32]، فوعد تنديا ألا يعاقب أيا من هؤلاء الثوار، لكن عليهم أن يكونوا رعايا للملكين الكاثوليين، ويؤدوا ما عليهم من إتاوة من منتجاتهم الزراعية، ومن قبل منهم بالديانة المسيحية طوعاً فله أن يحتفظ بعاداته وتقاليده ولغته، ومن أبى تلك الديانة فعليه أن يهاجر من غرناطة.

(27) Dominguez Oritz (Antonio) y Bernard Vincent, op. cit. P.18.

(28) محمد عبده حتامله، التنصير القسري لمسلمي الاندلس، 63، 64

(29) Caro Baroja Julio, Los Moriscos del reino de Granada, PP. 42-47, 55-56.

(30) «Elches» كلمة اسبانية اطلقت على الاسبان الذين اسلموا ثم أخذتهم الكنيسة ليربوا فيها ويجبروا على العودة الى النصرانية ليعادوا الى ذويهم عيونا، كما يفعل بابناء المورسكيين.
انظر محمد عبده حتامله، المصدر السابق، 78.

(31) Marmol Carvajal, op. cit., PP. 116-120.

(32) Marcelino Menendez y pelayo, Historia de espana, p. 145.

ولما سمع الأربعون «أفراد الحكومة الأندلسية المنتخبة» بما ذكر فروا إلى البشرات خشية التنكيل بهم.

وبعد هذه الانتفاضة أصدر التاج الاسباني أمراً يقضي بمنع أي أندلسي من الدخول إلى مملكة غرناطة، حتى لا يختلط ببني قومه فيرفع من روحه المعنوية الثورية(33)، فلم يبق إذن أمام هؤلاء سوى البحث عن ملاجىء تأويلهم في الجبال، ويتخذون منها معاقل لهم، يشنون منها على الاسبان الغارات معتبرينها جهاداً في سبيل الله. وظلوا يمارسون جهادهم بصبر وعزيمة.

ثورة البشرات Alpujarras (1501)

كان من نتائج انتفاضة المسلمين في البيازين أن ثار إخوانهم في منطقة البشرات الواقعة جنوب غرناطة(34)، وقد أرسل الاسبان حملة لإخضاع هذه الثورة، وكانت الحملة تقوم بعمليات تدمير كبير لكل ما تمر به في طريقها، فقد قامت بقتل جميع أفراد قرية «غويخار ــ سيرا»، انتقاماً ممن ذهبوا إلى البشرات(35). ووجدت الحملة مقاومة عنيفة من الثوار أينما حلت مما أدى إلى إبرام معاهدة تعهد فيها الملكان الكاثوليكيان بالوفاء ببعض شروط معاهدة استسلام غرناطة(36). وبعد هذه الاتفاقية نلاحظ أن الثورات اشتعلت من جديد(37) ولم تخمد إلا في سنة 1502 م وقام الاسبان بأعمال أقل ما يقال عنها غير إنسانية ووحشية، ومن أمثلة ذلك ما يذكره الباحث الانجليزي William Prescott عند إشارته إلى العقاب الذي أنزل بمسلمين البشرات (إن الكونت ليرين نسف مسجداً مليئاً بالنساء والأطفال وكان الاسبان يقترفون أبشع الجرائم، وكانت تراق أنهار من الدماء، وفي أثناء هذه الحروب الأهلية كان النصارى يبتعدون كل البعد عن شعورهم الديني، لأن الأندلسيين ــ في نظرهم ــ مجرد عبيد وأتباع ورقيق، ولم يتعرض الأندلسيون لهذا العقاب فحسب، بل للابادة التامة)، ويضيف الباحث ــ مشيراً إلى الملك الكاثوليكي فرديناندو ــ قائلاً (لم يشترك الملك في قتل الأندلسيين ليس رحمة بهم وإنما تكبرا وتغطرساً، لكي لا يلطخ بدماء هذه الوحوش الضارية في البشرات ولذا تنازل فمنحهم بعض الاعتبار)(38).

ونتج عن هذه الأحداث، تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة كبرى، وتحويل مسجد البيازين إلى كنيسة ومدرسة إسمها كنيسة المخلص، وفي مدينة غرناطة وضواحيها نصر قسرا أكثر من خمسين ألف شخص، وحولت جميع المساجد إلى كنائس(39). ويلخص أحد الباحثين الاسبان الهدف البعيد من

---

(33) محمد عبده حتامله، المصدر السابق، 78.

(34) Miguel la fuente Alcantara, historia de Granada, PP. 164-166.

(35) محمد عبده حتاملة، المصدر السابق، 81

(36) Fransisco de Paula villa - Real y valdivia, Lecciones elementales de historia critica de espena, p. 380

(37) Alonso de santa cruz, crónica de los reyes católicos, PP. 242-244.

(38) Historia del reinado de los reyes católicos, P. 193.

(39) Marmol Cervajal, op. cit. P. 112.

Alonso de santa cruz, crónica de los reyes católicos, P. 193.

طرد المسلمين في هذه الفترة (كان المسلمون الذي أخرجوا من ديارهم في الأندلس، يشكلون خطراً كبيراً على أمن الشواطىء الاسبانية، وبصورة عامة على الملاحة في غرب البحر الابيض المتوسط. وقد كثرت — في تلك الفترة — هجمات مسلمي الأندلس، وازدادت حجماً، وزرعت الرعب في قلوب الاسبان، وكانوا يأسرون من سكان الشواطىء مقابل الفدية بإخوانهم الأسرى لدى الاسبان)[40].

وهكذا بعد عام 1502، كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، ودخلوا الديانة المسيحية مكرهين يتظاهرون بقبولهم الدين الجديد[41]، فكانوا يترددون على الكنائس والأديرة، لكي يشاهدهم الاسبان. لكنهم في حقيقة الأمر لم يقبلوا بالمسيحية عن الاسلام بديلًا، إلا في ظاهر الأمر، وقد استمروا في ممارستهم لشعائر دينهم الأصلي سرا أيام الجمعة، وكانوا يؤدون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر شديد، وكانوا يغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة.

هذا بالاضافة إلى أنهم عندما كان يتم تعميد أطفالهم في الكنائس، كانوا يبادرون إلى غسلهم لازالة آثار الصليب عنهم، وكانوا يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الاسلامية سرا بعدما يعقدونها في الكنائس أمام مشهد عام، يحضره الكهنة والرهبان[42].

ونظراً للصفة السرية التي تمارس بها الشعائر الاسلامية في هذه الظروف الحرجة، فقد أصبحت تعاليم الاسلام وممارسة تقاليد موروثة، يتوارثها الأبناء عن الآباء جيلًا بعد جيل في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية.

وقد أشارت الباحثة الاسبانية ميرسدس كَارسيا أرينال M.G.Arenal إلى الدور الذي لعبته المرأة المسلمة في نقل تعاليم الاسلام إلى أبنائها[43].

ونتيجة لذلك فقد أصبح الموركسيون عرضة لمتابعات محاكم التفتيش.

— محاكم التفتيش[44]

يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنيسية الرومانية ظهرت في وقت مبكر. فخلال المجلس الكنائسي الثالث في لتران Latran (1179 م) أصدر البابا ألكسندر الثالث أمراً بمتابعة المارقين وحجز ممتلكاتهم، بل واسترقاقهم[45].

(40) Jose Ma Doussinague, la politica internacional de Fernando el católico, PP. 53-54.

(41) Pascual Boronat y Barrachina, los Moriscos espanóles y su expulsión, P. 116.

(42) Marmol Carvajal, op. cit. PP. 128-129.

(43) Los Moriscos y la inquisición. Procesos del Tribunal de Cuenca, P. 25.

(44) ان بيليوغرافيا محاكم التفتيش كبيرة جدا، فقد احصى Emil Van der Vekene في بيليوغرافيته الصادرة سنة 1963 حوالي 1950 عنوانا، في حين كان عددها لا يتجاوز 620 خلال القرن التاسع عشر، و 739 خلال سنوات 1900—1961. لكن اصبحت هذه البيليوغرافيات الآن متجاوزة، إذ صدرت منذ ذلك الوقت دراسات عديدة سواء في شكل كتب أو مقالات.
انظر : B. Bennassar, l'inquisition espagnol, P. 8.

(45) Guy Testas et Jean Testas, l'inquisition, P. 7.

وقد بدىء بتطبيق الفكرة منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة بتعقيب المارقين والكفرة، وطبق هذا النظام منذ البداية في ايطاليا وألمانيا وفرنسا، فكان مندوبو البابا يحلون في مختلف الأنحاء لتقصي أخبارهم، وتعقد لذلك مجالس كنسية مؤقتة كانت هي النواة الاولى لمحاكم التفتيش.

واتسع اختصاص محاكم التفتيش بمضي الزمن، فلم يبق مقتصراً على مطاردة المارقين والكفرة، بل تعداه إلى السحرة، وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسب الديانة المسيحية كما أخذ عليهم التعامل بالربا.

ويرجع تأسيس محاكم التفتيش بإسبانيا إلى عهد الملكين الكاثولكيين، فقد أرسلا سفيرهما إلى البابا سنة 883 هـ /1478 م للحصول على براءة في هذا الشأن، واتخذت الخطوة الحاسمة بالفعل لتنفيذ المشروع في سنة 1480. وأنشئت محكمة التفتيش الأولى في اشبيلية، وبدأت نشاطها المروع في قشتالة ضد اليهود المتنصرين Conversos، فطاردت ألوفاً منهم. واستصدر الملكان الكاثولكيان براءة أخرى من البابا في فبراير سنة 1482 على إثرها أنشأت محاكم جديدة في قرطبة، وجيان، وشقوبية، وطليطلة، وبلد الوليد، وصدرت براءة أخرى في سنة 1483 بإنشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش (Suprema) له اختصاص مطلق في شؤون الدين.

وبعد صدور قرار التعميد الاجباري ضد الأندلسيين سنة 1502 أصبحت محاكم التفتيش تتابع المورسكيين بصرامة، ففي الوصية التي تركها فرناندوا الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره «بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للايمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد»[46]، لذلك فقد ظل المورسكيون دائماً يحملون الملكين الكاثولكيين مسؤولية إنشاء محاكم التفتيش، فكثيراً ما يتردد في محاضرها قولهم «إن ايزابيلا قد دخلت جهنم، لأنها أنشأت محاكم التفتيش...»[47].

* * *

لقد ناضل الأندلسيون بغرناطة نضالا مستميتاً بإمكانيات ضعيفة لكن بروح معنوية عالية جعلت الاسبان يرضخون لمطالبهم في كثير من المرات، لكن لنا أن نتساءل هل اكتفى الأندلسيون بإمكانياتهم فقط أم أنهم اتجهوا إلى الخارج، إلى العالم الاسلامي، وإذا اتجهوا إليه بالفعل ما مدى فعالية المساعدات المقدمة، إن كانت هناك مساعدات ؟

---

(46) H. Ch. Lea, A. History of the inquisition of Sapin, 1 : 215.

(47) A.H.N. Inq. leg 197 n° 5 in Morisques et chretiens, P. 100

3 — الاستغاثة

اتجه الأندلسيون أولًا إلى المغرب، لأن هذا الأخير كان دائماً وراء العمليات الجهادية التي كان يقوم بها هؤلاء. يقول المؤرخ الأندلسي المجهول في هذا الصدد «إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا...»[48].

ويرجع عدم تمكن المغرب من تقديم المساعدة إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يعيشها آنذاك، وهي ظروف عاينها الأندلسيون بأنفسهم بعد مجيئهم إلى المغرب «... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر...»[49]، كما عاين هذه الظروف أيضاً المؤرخ المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي إذ يقول «... ووقع بفاس وأعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال وفساد عظيم وخراب بلاد وهلاك عباد وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة من مدن منابر العدوة، منها طنجة وأصيلا وغير ذلك... ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا ...»[50]. وقد أكد الجنابي[51] ما أورده عبد الباسط الحنفي، وكذلك الشأن بالنسبة لمارمول إذ نص أن السكان في بعض المناطق اضطروا لبيع أطفالهم ونساءهم للحصول على قوتهم اليومي[52]. فلم يبق، إذن، بعد هذه الوضعية إلا الاتجاه إلى الشرق الاسلامي (مصر والأتراك) خاصة أن الاسبان كانوا يربطون دائماً بين سقوط القسطنطينية وسقوط غرناطة، إذ عوضت هذه الأخيرة الأولى والخطوات التي كان يخطوها الأتراك في أوروبا كانت تقابلها مثيلاتها في إسبانيا[53].

وهكذا فقد استعانت الاندلس بمصر غير ما مرة، نذكر على سبيل المثال قصة السفارة الأندلسية التي بعث بها السلطان أبو عبد الله إلى سلطان مصر الظاهر جقمق في سنة 844 هـ لكنها لم تسفر عن نتائج تذكر. إلا أن حوادث الأندلس المفجعة كانت قد داعت في العالم الاسلامي وأصبح صداها يتردد في بلاط القاهرة، وهذا مؤرخ مصر ابن أياس يسجل في حوادث ذي الحجة عام 886 هـ «... وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد ابن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه، وجرت بينهما أمور يطول شرحها، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين، وملكها الفرنج والأمر لله في ذلك»[54]. وهكذا فقد وضع السلطان المملوكي قايتباي (1460 — 1496) خطة مشتركة مع

---

(48) **نبذة العصر**، ص 39
(49) المصدر السابق، ص 43—44
(50) **الزهر الباسم**، ص 55—56
(51) **البحر الزخار**، ص 527
(52) **افريقيا** 1: 111
(53) المصدر السابق، 448
(54) **بدائع الزهور**، 2 : 216

السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481 — 1512) تنص على أن يرسل هذا الأخير أسطولاً قويا لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئذ من أملاك إسبانيا، فيشغل بذلك اهتمام فرناندو وايزابيلا، وإن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقيا، تجوز البحر إلى الأندلس، لتجنيد جيوشها وقواعدها[55]. لكن الظروف الداخلية للسلطان بايزيد الثاني حالت دون تنفيذ هذه الخطة، واكتفى بتوجيه كتاب إلى الملكين الكاثولكيين، لم يعملا بشيء منه، وكان ذلك بعيد انتفاضة البيازين عام 1499[56]. وقد واصلت مصر جهودها بالرغم من كل ذلك، إذ وصلت سفارة من الأندلس في أواخر سنة 892 هـ، ويصف ابن أياس هذه السفارة قائلا .«... وفي ذي القعدة (سنة 892 هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم، فلما سمع السلطان ذلك، اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقمامة التي بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم، إلى ملك الفرنج صاحب نابل، بأن يكاتب صاحب اشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم، وألا يشوش السلطان على أهل القمامة، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة ويهدمها، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل، أشار السلطان فلم يفد ذلك شيئاً، وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد...»[57].

ولم يكن في موسوع مصر آنذاك أن تلبي نداء الأندلس بفعل ظروفها الداخلية ونزعاتها مع الأتراك فحاولت السبيل الدبلوماسي، ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية، واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى، أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القسيس فرنسيس في بيت المقدس، وعهد إليها بكتب إلى البابا وهو يومئذ أنوصان الثامن، وإلى ملك نابولي فرينادو الأول، وإلى فريناندوا وايزابيلا، وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات. وقد هدد السلطان بأن يعامل رعاياه النصارى بالمثل[58].

ولم ير فرناندو وايزابيلا في مطالب السلطان ووعيده ما يحملهما على تغيير خطتيهما، في الوقت الذي أخذت فيه قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعاً في أيديهما، ومع ذلك فقد كتبا في أدب ومجاملة إلى السلطان : «أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية...»[59].

(55) م. عبد الله عنان، نهاية الاندلس، ص 219، علي محمود حودة تاريخ الاندلس السياسي...، 302.
(56) م. عبده حتاملة، التنصير القسري، 92.
(57) بدائع الزهور، 2 246.
ملاحظة لا يتعلق الامر بحصار غرناطة، ولكن يتعلق بحصار مالقة.
انظر م. عبد الله عنان، نهاية الاندلس، 220.
(58) م. عبد الله عنان، المصدر السابق، 221.
(59) المصدر السابق، 222

ولما استولى الملكان الكاثولكيان على غرناطة بعث Pierto Martiri de Angleria سفيراً له لسلطان مصر وهو آنذاك الملك الأشرف ليقنعه بحسن معاملة الملكين الكاثولكيين للمسلمين بالأندلس، لكن الأندلسيين والمغاربة هناك كانوا يشرحون باستمرار للملك الأشرف ما يلاقيه المسلمون هناك، مما أدى به إلى أن يطلب من السفير الانصراف، لكن هذا الأخير أقنعه بحسن نيته وصدق رسالته(60).

وقد استنجد الأندلسيون أيضاً بالسلطان با يزيد الثاني إذ بعثوا له برسالة محزنة يصف فيها كاتبها في شعر ركيك ولكن مؤثر قوي التعبير ما تفعله إسبانيا برعاياها الجدد وما يصيب «المتنصرين» من تعسف محاكم التفتيش ومطارداتها وعقوباتها، وهذه بعض أبيات هذه القصيدة، بعدما ورد فيها من ديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان بايزيد

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم — بدأ غدرهم فينا ينقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بعضها — ونصرنا كرها بعنف وسطوة
وكل كتاب كان في أمر ديننا — ففي النار القوة بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم — ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله — ففي النار يلقوه على كل حالة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت — بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد — بدين كلاب الروم شر البرية
وآها على تلك الصوامع علقت — نواقسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها — لقد ظلمت بالكفر أعظم ظلمة
ولو أبصرت عيناك ما صار حالنا — إليه لجادت بالدموع الغزيرة(61)

ومن المرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات قمعية سنة 1501، ويبدو مما ورد من أبيات القصيدة بعد ذلك أن السلطان بايزيد كان قد بعث إلى فرناندو الكاثوليكي رسالة للكف عن مطاردة المسلمين، كما يبدو أنهم توجهوا في نفس الوقت بصريخهم إلى مصر، وأن مصر بعثت برسالة مماثلة، ولكن الملك النصراني لم يقم أي وزن لهذه المساعي، وهذا ما جاء في القصيدة موضحاً ذلك

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم — فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة — علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت ارسال مصر إليهم — وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا — رضينا بدين الكفر من غير قهرة(62)

• • •

(60) المصدر السابق، 272، 273.
(61) انظر القصيدة عند أ. المقري، نفح، 1 : 109—115.
(62) نفس المصدر.

هكذا استغاث الاندلسيون بالمغرب أولًا وبالشرق الاسلامي ثانيا، وبذلوا جهودهم للحفاظ على حضورهم بالأندلس، لكن هل حاولوا أن يساءلوا أنفسهم عن أسباب الهزيمة، هل كانوا واعين بخطورة الموقف ؟ هل كنوا واعين بحقيقة الحضور العربي الاسلامي بالأندلس؟

إن هذه الأمور لم تعد واضحة لديهم إلا بعد أن استيقظوا من هول المأساة، فأصبحوا يصرخون للغير ويتأملون لأنفسهم.

4 ــ الأندلسيون أمام مأساتهم

سنختار خمسة مؤلفين أندلسيين عاصروا الأحداث وأعطوا رأيهم بشكل أو بآخر، ولهم مواقف معينة من مأساتهم وسوف نقسمهم إلى مجموعتين

ــ المجموعة الأولى وتضم أناساً ساهموا في الحياة السياسية بالفعل، وخبروا أسرارها، وأدركوا مدى الخطر الذي يهدد كيانهم ووجهوا نداءاتهم بصراحة إلى جمهور الأندلسيين لمواجهة الموقف.

ــ المجموعة الثانية تضم فئة أخرى ارتأت أن تواجه الأزمة بشكل آخر عن طريق الصمود في وجه الأحداث، وذلك بالنضال العلمي المستميت الذي يتلخص في الحفاظ على تراثها الحضاري، لكنها في الأخير وأمام هول المأساة واستنفاذ جميع الوسائل سوف تحاول الحفاظ على هذا التراث بالهروب خارج الحدود. وتلك قضية أخرى تباينت فيها الآراء والمواقف وصدرت فيها الفتاوي العديدة.

أ ــ المجموعة الاولى سوف نركز على شخصيتن أساسيتين ابن عاصم وابن الأزرق.

ــ ابن عاصم في مواجهة المأساة

تولى ابن عاصم[63]، اثنتي عشرة خطة، منها القضاء والكتابة والوزارة والامامة الخطابة في فترات عصيبة بالنسبة للأندلس، وشاهد أمام عينيه مدن الأندلس تسقط الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق بيد المسلمين إلا غرناطة التي بدأ العدو يستعد للوثوب عليها. وقد لاحظ عدم جدية ملوك بني نصر وتهاونهم لاشتغالهم بفتنهم الداخلية، وأفضت به تأملاته إلى تأليف كتاب في شكل «صور» محاولًا البحث عن أسباب المأساة وفي نفس الوقت التحذير من الخطر الداهم، وقد لاحظ المقري ذلك، وهو بصدد نقل نص للمؤلف المذكور قائلا : (عندما رأى «ابن العاصم اختلال أمر الجزيرة ــ أعادها الله ــ وأخذ النصارى ــ دمرهم الله ــ لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة، وما يقرب منها مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ، ثم أفضى الملك إلى بعضهم، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألف كتاباً سماه «**جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى**» وهو كتاب عجيب جدا غريب...)[64].

---

(63) انظر ترجمته عند أ. المقري، أزهار، 1 50ـــ55

(64) أ. المقرى، المصدر السابق، 50

وسنحاول أن نلقي نظرة على كتابه[65] متوخين من ذلك الوقوف على الهدف منه، ومنهجه في تحليل المأساة.

يوضح ابن العاصم أول الأمر الهدف من تأليف كتابه قائلا «إنما قررت من هذا التمثيل ما قررت، وحررت فيه من العبارة ما حررت، ليكون لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري ووثق بما حققت له من اختيار تذكره، ومن غفلة هذه النفوس الامارة بالسوء تبصره...»[66]، ولهذا الغرض فإنه يورد العديد من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وكلام الحكماء وقصص الأولياء، وأحداث تاريخية متنوعة تؤيد ما ذهب اليه. ووضع الكتاب في ست صور

الصورة الأولى أن يكون الابتلاء في المقتنيات العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعا في الاستقبال وليس بواقع الحال.

الصورة الثانية أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال، وهو مأمول الجبر ولا مرجو الزوال.

الصورة الثالثة أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير مأمول الجبر ولا مرجو الزوال.

الصورة الرابعة أن يكون الابتلاء في النفوس أو ما لحق بها من أعضاء وقوى متوقعا في الاستقبال وليس بواقع في الحال.

الصورة الخامسة أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال.

تحت هذه الصورة من الابتلاءات والتمحيصات والاختيارات جزئيات متعددة ينشأ عنها من الحزن والأسف والوجد والتعب والكرب والقلق والهم والنكد وغير ذلك من التأثيرات النفسانية ما يذهل العقل ويشغل الفكر ويغمر القلب ويتعب النفس ويضيق الصدر ويذهب النوم ويطرد الانس، ويتفاوت أثره بحسب مأثره في اللين والشدة والثقل والخفة والكثرة والقلة وبحسب الملاقي له والوارد عليه وقوة الجأش وضعفه ومضاء العزيمة ووهنها»[67]. وهي صور توحي لأول وهلة أنها بين اليأس والرجاء، الا أنه بالتدقيق فيها يتضح أن صور الرجل تميل الى اليأس أكثر من الرجاء، فإنه قد تمرس بالسلطة وعرف رجالها كما أنه خبر قوة المسيحيين ومكايدهم ومدى قدرة واستعداد المسلمين على المواجهة وهذا ما يتضح بجلاء من بين ثنايا الصور ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالاسلام والمسلمين، واعمال الحيلة على المؤمنين، واضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، وأنه مهتم بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يسير حسوا في ارتغائه، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه. فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال. وليت المغمور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه، وقاس

(65) مخطوط خ.ح. بالرباط عدد 2648، وهو في 327 صفحة من الحجم الكبير، أما تاريخ التأليف فهو 854 هـ، وهو برسم الغالب بالله النصري.

(66) **جنة الرضى**، ص 6.

(67) المصدر السابق، ص 13—14

عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه، فانا أناشده الله هل بات قط لمصالح النصارى وسلطانهم مهتما...) [68].

فالرجل واع بخطورة الأساليب التي يتبعها المسيحيون لضرب المسلمين هناك خاصة أنهم استمالوا عددا منهم بدافع المصلحة الآنية، ونداؤه هنا صريح وهو أن التعاون مع هؤلاء هو في حقيقة الأمر تمهيد غير مباشر لسيطرة المسيحيين على ما تبقى من أرض المسلمين، فهو على مستوى العامة يدعوهم الى عدم التعاون مع المسيحيين، وعلى مستوى السلطة يدعوها الى الاتحاد، لأن الفرقة في السلطة تؤدي حتما إلى دب الخلاف بين العامة مما يهيء عاملا إضافيا للقوات المسيحية المتربصة (... فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياساً وسماعا، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز اجماعا، تعلمون حقا ان هذا الوطن الأندلسي كان قد تحين للهلاك بسبب هذا الخلاف، وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف...)[69].

ومن خلال ما أوردناه نلاحظ أن ابن عاصم يركز في تحليله للمأساة على ثلاثة نقط

* أساليب العدو في الاستيلاء على أراضي المسلمين بالمكاييد والحيل.

* الخلاف في السلطة.

* عدم التمسك بالعقيدة (بفعل الحملات التشكيكية القوية التي كان يمارسها المسيحيون).

وهذه العوامل متكاملة الى حد كبير، فاستمالة المسلمين تقتضي التشكيك في عقيدتهم، والخلاف في السلطة يؤدي الى اضعافها وعدم القدرة على مواجهة المحاولات التخريبية التى يقوم بها المسيحيون لهدم الكيان العربي الاسلامي.

لكن يبقى السؤال دائما مطروحا هل وجدت نداءات ابن عاصم آذانا صاغية ؟

إن التاريخ يبين عكس ذلك ! فالمسألة كانت قد استشرت داخل المجتمع الاسلامي الأندلسي بغرناطة الى حد كبير، والاسبان كانوا على الأبواب.

* أبو عبد الله محمد بن الأزرق (ت. 896 هـ / 1491) محاولة تشخيص الداء.

اشتغل ابن الأزرق بأربع وظائف، اثنتين رسميتين، واثنتين تطوعيتين، اما الرسميتان فهما القضاء والسفارة، واما التطوعيتان فهما التدريس والافتاء[70]. وقد شغل هذه المناصب بالأندلس (خاصة مسقط رأسه مالقة وغرناطة) كما شغلها بالقدس الشريف[71]

---

(68) المصدر السابق، 280

(69) المصدر السابق، ص 282

(70) محمد بن الكريم، مقدمة تحقيق **كتاب بدائع السلك**، ص 13.

(71) عبد الرحمان أبو اليمن، **الانس الجليل**، 2 : 256

السفارة

يقول السخاوي في هذا الصدد (ثم خرج (ابن الأزرق) معه (أي مع الملك أبي عبد الله محمد الزغل) الى وادي آش وهما منفصلان (عن منصبهما بغرناطة)، فوجهه ــ قاصدا ــ الى السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد بن أبي فارس، لمساعدة الأندلسيين على عدوهم الكافر، فلم يلبث أن مات أبو عمرو، فارتحل صاحب الترجمة الى الديار المصرية ليحج...)[72].

وظيفة التدريس

باشر وظيفة التدريس بالجامع الأعظم وغيره بغرناطة، وقد اعترف له تلامذته بكفايته ودرايته في هذا الميدان[73].

وظيفة الافتاء

اثبت له عدد من الفقهاء فتاويه مثل تلميذه الوادي آشي، وأحمد الونشريسي[74].

وخلاصة القول فإن ابن الأزرق كانت له مشاركة واسعة في الفقه والعقائد والأدب والتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاته[75]، على ان ما يهمنا على الاطلاق هو كتابة في موضوع السياسة[76]

بدائع السلك، في طبائع الملك

كتبه ابن الأزرق سنة 883 هـ / 1478 ولم يلبث الا مدة حتى سقطت مالقة موطنه سنة 892 ه /1487، فهل استشعر النكسة قبل وقوعها ؟

أوضح ابن الأزرق الهدف من تأليف كتابه قائلا (... قصدت الى تلخيص ما كتب الناس في الملك والامارة، والسياسة التي رعيها على الاسعاد بصالح المعاش والمعاد أصدق إمارة على نهج يكشف عن محيا الحكمة قناع الاحتجاب، ويأتي في تقريره لتهذيب ما فصل وتحريره بالعجب العجاب، لا تخف به من تشوف لهذا الغرض، ولم يعدل فيه من الجوهر الى العرض، من أمير صدقت فيه رغبته وظهرت، ومأمور وضحت له دلائل الافادة به وبهرت...) [77].

وفعلا فالكتاب في كثير من جوانبه تلخيص لما أورده ابن خلدون، فكأنه أراد بذلك أن ينبه الى ما سبق أن نبه اليه الأول عندما استعرض أسباب فساد العمران، وهو إن اختلف مع سابقه من حيث المنهج فإن الهدف مع ذلك واحد، إذ هو مرتبط أساسا بالوضعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها الأندلس آنذاك، فحاول من خلال استعراض (قواعد الملك) أي الأسس التي يجب أن

---

(72) الضوء اللامع، 9 21
(73) أ. المقري، أزهار، 3 303، 305
(74) المعيار، 11 111 ، 112
(75) انظر جملة من تآليفه عند أ. المقري، أزهار، 3 318
(76) هناك تحقيقان للكتاب، احدهما لمحمد بن عبد الكريم والآخر لسامي النشار، وسنعتمد التحقيق الأول.
(77) بدائع السلك، ص 59

يرتكز عليها كل حكم أراد لنفسه الاستقرار والبقاء، فقد وضع الأندلس أمام الصورة بكل وضوح عندما استعرض هذه الأسس، أي أن مخالفتها تؤدي حتما الى هدم الكيان ككل وقيام كيان جديد دخيل وهو في هذه الحالة الاسبان.

ولهذا فكتاب ابن الأزرق اعتبارا لهذه الأسس جميعا تشخيص للداء ومحاولة للبحث عن الدواء.

ب المجموعة الثانية النضال العلمي.

يقول المقري (لما تقلص الاسلام بالجزيرة واسترد الكفار أكثر أمصارها وقراها على وجه العنوة والصلح والاستسلام، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والابصار، ويستنهضون عزماتهم في كل الأمصار) [78].

وهكذا فإن النضال العلمي يسير جنبا الى جنب مع النضال السياسي، فقد حدثنا السراج عن انتصاب أبي عبد الله اللوشي بالجامع الأعظم في غرناطة يقرىء القرآن والحديث محتسبا في ذلك من غير جراية يأخذها[79]. وكما تجلى النضال العلمي في التدريس، فقد تجلى أيضا في الاقبال على تصنيف بعض المصنفات في فنون علمية مختلفة، وفي القيام بالأبحاث والمناظرات والمراجعات مما يتيح احتكاكا فكريا مثمرا.

ولمعت في سماء الحياة الفكرية بغرناطة خلال القرن التاسع أسر علمية أسهمت بنصيبها في الجهاد بالقلم والدعوة الى الاتحاد. وقد رحل العديد من هؤلاء خارج الأندلس (ومنهم من دون رحلته) مما يجعلنا نتساءل لماذا كان يرحل هؤلاء الى الخارج باستمرار ؟ هل يئسوا من نضالهم العلمي بالأندلس فأرادوا تهيئة الرأي العام الاسلامي خارج الأندلس لمساعدتها ؟ هل أرادوا أن يثبتوا لعامة المسلمين أن علماء الأندلس ما زالوا على كفاية ودراية بأمور دينهم، خاصة ان الاتهام الرئيسي الذي كان يوجه اليهم أنهم المسؤولون عن فقدان الأندلس لتفريطهم في دينهم ؟ أم أرادوا أن يثبتوا للعالم الاسلامي أنهم — كما كانوا في الماضي — أساتذة العلم الاسلامي ؟

على كل سنحاول أن نتعرف على ذلك من خلال استعراض ثلاث شخصيات لها ما تقوله في هذا الباب، وتنطبق عليها الكثير من الصفات التي أوردناها سابقا.

أبو عبد الله المجاري (ت. 862 هـ)[80]:

هو شخصية علمية بارزة بشهادة معاصرية، وقد اتجه أولا من غرناطة الى تلمسان، وقصد بعد ذلك تونس عن طريق بجاية، متجها الى مصر، وتتلمذ على المجاري العديد من الشخصيات التى أصبح لها ذكر فيما بعد.

---

(78) ازهار الرياض، 1 63

(79) فهرس السراج، 119

(80) انظر ترجمته ومصادرها عند محمد أبو الاجفان، مقدمة تحقيق برنامج المجاري، ص 9—74.

ألف المجاري «برنامجا» على غرار سابقه[81]، وذلك بعد رحلته المشرقية وبعد شيوخه الأندلسيين[82].

وقد رتب فيه الشيوخ حسب بلدانهم وأماكنهم التي تلقى عنهم فيها، مبتدئا بشيوخ غرناطة ثم تلمسان ثم بجاية ثم تونس ثم مصر.

ـ أبو الحسن علي القلصادي (توفي بباجة افريقية 891 هـ) [83].

من مدينة بسطة، بها تلقى دراسته الأولية على يد شيوخ المنطقة كأبي بكر البياز وأبي عبد الله البياضي الخ.. وقد اتجه في رحلته الى تلمسان حيث تلقى العلم على يد شيوخها وظل هناك حوالي ثماني سنوات، ثم انتقل بعد ذلك الى تونس وعبر عن اعجابه لما رأى فيها (سوق العلم حينئذ نافقة وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة) [84]، ثم اتجه بعد ذلك الى القاهرة ومن هناك الى البقاع المقدسة[85]. وبعد هذه الرحلة التي تواصلت حوالي 15 سنة، انتقل من جديد الى غرناطة، فاشتغل بالتأليف والتدريس خاصة في علم الفرائض والحساب الذي أبدع فيه ايما ابداع[86]. ولما شعر بالخطر يتفاقم في وطنه (تحيل في تخليصه من شرك الشرك)[87]. ولم يبين المترجمون الطريقة التي توخاها لتخليص الوطن من شرك الشرك المنصوب وإنما ذكر المقري أنه خرج لهذا الغرض الشريف فنزل بتلمسان[88] وأقام لدى صديقه ابن مرزوق الكفيف ثم رحل الى باجة افريقية حيث واصل نشاطه العلمي هناك[89]. وقد اشتهر بتآليفه العديدة إلا أن ما يهمنا منها ونحن بصدد دراسة شخصيته هي رحلته، فقد وصف فيها المناطق التي زارها وشيوخ العلم بها، ويبدي تقديرا خاصا للأصدقاء والمغتربين من أهل الأندلس.

ومن خلال الرحلة نستطيع أن نلتمس أن القلصادي نجح الى حد كبير في اقناع مخاطبيه بأهمية العلم الأندلسي، وكونه لم يأل جهدا في الدفاع عن الكيان العربي الاسلامي، فقد حظي بتقدير كبير في تونس، بل (ما زال أهل باجة يبدون اعتزازهم بالقلصادي العالم ويعدونه من الأفذاذ الذين أنجبتهم مدينتهم عبر تاريخها الاسلامي الطويل...) [90].

---

(81) كان لعلماء الاندلس شغف بالغ بالفهارس والبرامج تأليفا ورواية، فقل أن لا ينسب للعالم منهم في ترجمته فهرس شيوخ. ويرتبط هذا الشغف بحب العلم وأهله والرغبة في الالتحاق بالسند والتشوف بالاجازة والعناية بالرواية. وقد ظهرت مصنفات الفهارس منذ العهود الاولى بالاندلس وانصب الاهتمام على تداولها بالقراءة والرواية. ويدلنا على ذلك ما استعرضه بعض العلماء من الفهارس التي أخذوها عن شيوخهم مثل القاضي عياض في آخر كتابه **الغنية** وابن خير الاشبيلي والمنتوري في **فهرستيهما**.

(82) محمد أبو الاجفان، مقدمة تحقيق برنامج المجاري، ص 69.

(83) انظر ترجمة مفصلة عند م. أبو الاجفان، مقدمة تحقيق **رحلة القلصادي**، ص 17ـ78

(84) **رحلة القلصادي**، 115

(85) م. أبو الاجفان، مقدمة تحقيق **رحلة القلصادي**، ص 36

(86) انظر مؤلفاته عند م. أبو الاجفان، المصدر السابق، ص 40ـ48

(87) **الحلل السندسية**، 1 672

(88) م. أبو الاجفان، المصدر السابق، ص 39

(89) نفس المصدر السابق والصفحة.

(90) م. أبو الاجفان، المصدر السابق، ص 55

وهكذا استقر القلصادي بباجة وطاب له المقام هناك، لكن هل نسي الناس مسؤولية الأندلسيين في فقدانهم وطنهم آنذاك ؟

يصعب الاجابة بالايجاب عن هذا السؤال، فان حظي بعض علماء الأندلس باحترام الناس فهذا فقط لعلمهم، ومن قبيل إيجاد العذر لهم. فالقلصادي ناضل نضالًا مستميتا من أجل الحفاظ على العلم الأندلسي، وظل على حاله هذا الى أن وصل الى حد معين جعله يختار بين أمرين : اما البقاء بالأندلس وينتظر العلم الأندلسي مصيره المحتوم، أو الهروب به خارج الأندلس مقابل البقاء عليه، وذلك رهان التاريخ.

أبو جعفر أحمد بن علي البلوي (ت. سنة 938 هـ / 1532)

شهد له معاصروه بقدمه الراسخ في مختلف العلوم والفنون، كما يتجلى ذلك من خلال المصادر التي أرخت له،(91)، ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على ثبته(92) لنتأكد من ذلك. على كل ما يهمنا في هذه المرحلة هو أن نتساءل هل صمد في نضاله العلمي بالأندلس أم أنه فضل الهجرة ؟

سلك مسلك سابقيه، فقد اتجه الى تلمسان — وكانت آنذاك مركز علم وثقافة — ومن هناك نزع الى وهران، ومن هناك الى تونس (منذ أوائل دجنبر 1492 الى غاية ابريل 1493)، ومن تونس ارتحل عن طريق البحر قاصدا القسطنطينية، وهناك استوطن لمدة طويلة. وقد وجد الرعاية في ظل بايزيد الثاني مما شجعه على التأليف والدرس، وقد استمر هذا السند المادي والعلمي في ظل سليم الأول وسليمان القانوني(93).

لنا أن نتساءل من جديد لماذا هاجر البلوي ؟

هناك نص صريح للمقري يوضح هذه النقطة، إذ ذكر عن بني داود (يقصد آل البلوي) — وهو بصدد الحديث عن العلماء الذين خرجوا من الأندلس ونزلوا بتلمسان — ما يأتي (... ومنهم بنو داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وأنه آخذها لا محالة، قوضوا رحالهم عنها فنزلت بتلمسان المحروسة، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب) (94).

لكن بعض الباحثين لا يوافق المقري على كلامه (إن كلام أبي العباس أحمد المقري يوحي بأن هجرة البلويين كانت لأنهم أيقنوا من أخذ غرناطة، إن عاجلا أو آجلا، فكأنهم فروا فرارا من هذا الجو السياسي المضطرب والمعترك الحربي الذي ما فتىء تدور رحاه في ربوع المملكة الغرناطية الى حيث ينعمون بالاستمرار والهدوء والسلام والاطمئنان) (95). ويضيف نفس الباحث قائلا (... انهم في نظره

(91) انظر هذه المصادر عند عبد الله العمراني، مقدمة تحقيق **ثبت البلوي**، ص 11، 99
(92) حققه عبد الله العمراني وقد نشر سنة 1983
(93) انظر عبد الله العمراني المصدر السابق، ص 37
(94) عبد الله العمراني، المصدر السابق، ص 41
(95) عبد الله العمراني، المصدر السابق، ص 41

(نظر المقري) ارتحلوا خائفين وجلين، تدفعهم الروح الانهزامية دفعا، فهو بذلك يسمهم بسيمة الجبن والخذلان.

قد يكون المقري استنتج هذا المفهوم من الظروف المضطربة السائدة، ومن أن بعض الأندلسيين فروا فعلا بدينهم، والتجأوا الى مأمنهم ولكنن لسنا على هذا الرأي، ولا نستطيع أن نصم جميع أفراد هذه الأسرة بوصمة عار، وفيهم شخصيات تعتبر قدوة لغيرها، فهذا الحسن البلوي يصفه بعض الأساتذة بشيخ العصر، وهذا ولده أبو جعفر يصفه المقري نفسه (بالامام)، وكيف ينتظر من الأئمة أن يفروا من القضاء والقدر على اعتبار أن سقوط غرناطة كان حين هجرتهم شيئا لا مناص منه ؟ وزيادة في الايضاح أقول : انه لو كان غرض البلويين الفرار بدينهم لا تجهروا إلى المغرب، فهو أقرب بلد من الأندلس وأقرب ــ بصفة خاصة ــ من ميناء المنكب، فقد كان في إمكانهم ألا يتجسموا كبير مشقة في الرحيل وان يستقروا في المغرب كما استقر بعض أسلافهم من قبل، وكما استقر أبو عبد الله الملك الغرناطي المستسلم من بعد، ان شيئاً من هذا لم يقع، وان أي دليل لم يتوافر لدينا على عزم هذه الأسرة على مغادرة الأندلس نهائيا، ومن ذلك أننا لا نعرف شيئا بهذا الخصوص، ولا تشير المصادر الى أن الأسرة استصفت أملاكها وباعتها قبل الرحيل ــ مثلا ــ ...) ــ (96).

ويخرج بعد ذلك بالملاحظات الآتية

* الملاحظة الأولى : ان رحلة أبي الحسن البلوي وأولاده، لم تكن فرارا من واقع الأندلس المر، وخصوصا أن أفراد هذه الأسرة كلهم علماء، متشبثون بأهذاب الدين.

* الملاحظة الثانية : ان رحلتهم صوب الشرق كانت ترمي الى أداء فريضة الحج أولا، وإلى الاتصال بالعلماء ثانيا، قصد الأخذ عنهم، واعطائهم، سعيا وراء السند العالي.

* الملاحظة الثالثة : لا يقدم في هذا أن البلويين ذهبوا الى الشرق بقضهم وقضيضهم، ذلك أن كثيرا من الأسر الموسرة أو المستورة الحال، كانت تفعل ذلك فتذهب الى الحج جماعات، وفي ذلك أجر مضاعف ولا ريب.

* الملاحظة الرابعة : أثناء هذه الرحلة العلمية وقع ما وقع فسقطت غرناطة في يد المسيحيين واستسلم أبو عبد الله، وهاجر الى افريقية، حيث اختار المغرب وعاصمته فاس التي مكث فيها حتى لبى داعي ربه سنة 940 هـ

ومن الطبيعي ــ والحال على هذا المنوال ــ أن يستقر البلويون في بلد الشرق»(97). ذلك قول المقري، وهذا رد الباحث السالف الذكر، فكيف يمكن تصور الموقف في هذه الحالة ؟

في تقديرنا لا يتعلق الأمر بشجاعة أدبية وعلمية بقدر ما يتعلق بالظرفية التاريخية السائدة آنذاك، والسؤال المناسب في هذه الحالة هو : هل كان بإمكانه فعلا البقاء في ظل سقوط غرناطة في يد

(96) المصدر السابق، ص 40
(97) المصدر السابق، ص 43

الملكين الكاثوليكيين ؟ هل كان بإمكانه أن يبقى في ظل جهاز قمعي صمم العزم على محو أي أثر اسلامي هناك، كما فعل الكاردينال عندما أحرق الكتب العربية ؟

إن الفئة التي ظلت بالأندلس كانت تعرف بالفعل مصيرها المحتوم، وكانت واعية بالظروف المستحدثة، بل ورضيت الى حد ما بها، وكانت تهيء باستمرار للنضال المسلح ضد المغتصبين، كما تجلى ذلك في الثورات العديدة التي قاموا بها هناك، بعبارة أخرى : ان الذين ظلوا هناك هم أولئك الذين لمسوا في أنفسهم القدرة على المقاومة بجميع أشكالها، وانى لعالم مثل البلوي بمثل هذه المواجهة المسلحة ؟

لقد سقطت الأندلس وهي تعج بالعلماء والأدباء والشعراء، مما يحتم معه التساؤل الآتي ما مدى دور هؤلاء جميعا في هذا السقوط ؟

لقد رأينا موقف العلماء ورأيناه يتراوح بين الصمود والانسحاب ؟ فما هو موقف الأدباء والشعراء !

حاول احسان عباس أن يحلل — في دراسة له — دور الأدب في انحلال أخلاق المجتمع وسقوط الأندلس، وأعطى لدراسته تلك عنوانا يحمل أكثر من معنى (هل كان الشعراء في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها أو كان لها مجرد مرآة وانعكاس[98].

وقد حاول أن يبرز في دراسته أن الأدب الأندلسي كان يعيش ضمن ضوابط أخلاقية بفعل خضوعه لضروب مختلفة من الرقابة، منها الرقابة الذاتية والرقابة النقدية والرقابة الرسمية، وعلى ذلك فإنه لم يكن سائبا سادرا دون ضوابط أخلاقية، وان أدب المتعة نفسه كان يقصد به أحيانا كشف جمال الكون (كوصف الطبيعة) وان بعضه الآخر كان تقديرا للذكاء والمهارة الانسانيتين (كوصف القصور والتماثيل) وان قسما ثالثا منه كان نقلا لمشاعر انسانية سليمة (كالغزل العفيف) وانه حتى في بعض صوره الماجنة كان معوانا على الجد، ومن ثم استطعنا أن نقول أنه لم يكن — في الأغلب — يقصد التبذل من أجل التبذل في ذاته...)[99].

ويخرج بعد ذلك بالخلاصة التالية : (... وعلى هذا قد يكون من الصواب ألا نحمل الأدب مسؤولية كبرى في النهاية التي انتهت اليها الأندلس، بل إننا نرى فيه نشاطا انسانيا يتضافر مع سائر ضروب النشاط الانساني من فكرية وتنظيمية واقتصادية وعسكرية ودينية، وانه مرتبط متلاحم معها، يعكس الواقع ويقدم العون، ويصاب بالمد أو الجزر بحسب مد تلك النشاطات وانحسارها...) [100].

★ ★ ★

---

(98) مقال بمجلة «الاصالة» الجزائرية، السنة الرابعة العدد 27، شتنبر — اكتوبر 1975، ص 189—208

(99) المقال السابق، 202

(100) المقال السابق، 206

ونختم هذا الفصل بالاستنتاجات التالية

ـ ان نجاح الملكين الكاثوليكيين في القضاء بسرعة على مملكة غرناطة يرجع أساسا الى عاملين

* الخلافات التي كانت تعرفها المملكة من حين لآخر، وما ترتب عنها من تفكك.

* اختفاء المساعدة المغربية بفعل الظروف الداخلية للمغرب.

ب ـ انتهج الملكان الكاثوليكيان سياسة المراوغة لشراء الضمائر أمام عنف المواجهة العربية، لكن سرعان ما ظهرت النوايا الحقيقية لهما عند فرض التعميد الاجباري، واخلالهم بالعهود المبرمة مع المسلمين.

ج ـ رفض المسلمين المطلق لأية محاولة لادماجهم في المجتمع الاسباني، فأعلنوا الثورة مرارا من أجل المحافظة على هويتهم الحضارية.

د ـ واجه الاسبان هذه الثورات مرارا بعنف ووحشية لادراكهم عمق المشكل المطروح.

كانت تلك تجربة الملكين الكاثوليكيين مع الأندلسيين، وستتلوها تجربة أخرى لملكين آخرين ستبدو فيها الأمور بشكل أوضح.

الفصل الثاني

الموريسكيون في عهدي شارل الخامس وفليب الثاني

عرفت هذه الفترة أحداثا خطيرة نتجت بالخصوص عن اصدار كل من شارل الخامس وفليب الثاني قرارات مجحفة كان القصد منها ادماج الموريسكيين في المجتمع الاسباني. لكن عنف المقاومة كان يحول دائما دون تنفيذ المخطط الاسباني خاصة أن العلاقة لم تعد مقتصرة على طرفين، بل ستدخل فيها أطراف أخرى (أتراك، مغاربة، فرنسيون) مما جعل الصراع يكتسي أبعادا أكبر من تلك التي كان يتصورها الاسبان.

الموريسكيون في عهد شارل الخامس
(925 هـ - 963 هـ / 1519 م - 1556 م)

المواجهات الأولية

يمكن تلخيص سياسة الملك شارل الخامس في : «إقامة السلم بين المسيحيين واعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين»(1)، إذ ان كل الأعمال التي سيقوم بها على الصعيدين الداخلي والخارجي تدخل في هذا الاطار.

واجه شارل الخامس على الصعيد الداخلي أوضاعا سياسية صعبة بسبب القرارات التي أصدرها لتنظيم الأحوال الداخلية بالبلاد خاصة تعيين الكاردينال أدريانو دي اتريش Adriano de Utrech (وهو من أصل غير اسباني) وصيا على عرش ممالك قشتالة وليون، إذ ثار النبلاء والسادة ضد هذا التعيين الذي يفضل شخصا غريبا عليهم. وقدموا عدة احتجاجات ضد الملك، لكنه لم يأبه بها واستمر في سياسته(2).

كان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التي الهبت نار الثورة، إذ انطلقت من طليطلة، وشقوبية (Segovia) وسمورة (Zammora) وشلمنقة (Salamenca)، وابلة (Avila) الى غير ذلك. وشكلت جمعيات (Comunidades) بمدينة ابلة بزعامة الجنرال خوان دي باديا الذي حاول أن يجعل الملكة خوانا المعتوهة (والدة شارل الخامس) على رأس هذه المعارضة. كما نشأت منظمات أخرى في بلنسية عرفت باسم (Germanias)(3)، تعارض سياسة الملك، وتقف أمام مصالح النبلاء والسادة. وكانت هذه المنظمات الأخيرة أقوى من سابقتها وأكثرها عنفا، واستمرت من عام **1519** — الى غاية **1525**.

وازداد الأمر سوءا عندما قرر الملك فصل الكاثوليكية عن البروتستانت نهائيا، ولم يعد يسمح لغير الكاثوليك بالاقامة في ممالكه مما أدى بالبروتستانت الى تشكيل عصبة (Smalcada) مستعينين بفرانسوا الأول ملك فرنسا — الخصم العنيد لشارل الخامس — وهنري الثامن ملك انجلترا.

---

(1) انظر

– Ranon Menendez Pidal "Fromación del Fundamental Pensamientu polotico de Carlos V" in, Chales - Quint et son temps, pp 1-8.

(2) Jose Luis Comellas Historia de Espana Moderna y contemporanea, page 101-106.

(3) للمزيد من الايضاح عن هذه المنظمات انظر

Ricardo Gárcel, las Germanías de Valencia.

وقد تصرف شارل الخامس بقسوة، فقاوم كل من لم يدن بالكاثوليكية، وبذل قصارى جهوده لتحقيق وحدة دينية كاثوليكية، إذ كانت هدفه الأول والأخير. وداخل هذا الاطار يمكن تفسير جميع أعماله ومن ضمنها اجراءاته ضد الموريسكيين.

موقف شارل الخامس من الموريسكيين

قدم النواب الموريسكيون[4] بالمجالس البلدية بغرناطة مذكرة بمظالم اخوانهم تبين ما لحقهم من اضطهاد وأذى على يد كاثوليكيي غرناطة[5]، نتيجة الأحكام القاسية التي كان قد أصدرها الملك عام 1518 بحق الموريسكيين لكثرة ثوراتهم، فاتخذ من هذه المذكرة سبيلا لفتح ملفهم وللتشديد عليهم في نفس الوقت خشية أن يقوم منهم قائم جديد، فأمر أن تثار هذه القضية في مجلس خاص، وشكل لجنة، ظاهرها تقضي الحقائق وباطنها اختبار مدى تمسك الموريسكيين بدينهم الاسلامي. وقد اختار لهذه الغاية شخصيات مهمة لها وزنها بالمنطقة[6]. وبعد أن تحققوا من الظلم والاضطهاد الذي لحق بالموريسكيين غضوا النظر في تقريرهم عن الجرائم المرتكبة في حقهم، وتبينوا أن الموريسكيين — بالرغم من المحن المتتالية — لم يكن بينهم من يدين بالنصرانية[7].

وقد رفعوا تقاريرهم عن تلك المظالم الى الملك، وبعد اطلاعه عليها تبين له أن الموريسكيين كانوا يرغمون على اعتناق النصرانية دون تلقينهم مبادئ الايمان المسيحي، لذلك اجتمع رجال الدين في إطار لجنة خاصة[8] وقضوا بأن الطريقة السابقة في تنصير الموريسكيين قسرا لم تعد مجدية، فلجأوا الى أساليب أكثر دهاء وعنفا

— نقل محاكم التفتيش من بلدة جيان الى غرناطة، لتتمكن من ايقاع القصاص على من يرجع الى الاسلام من الموريسكيين.

— تغفر للموريسكيين كل (الشرور والمغالطات) المرتكبة حتى عام 1526 ضد الايمان الكاثوليكي، وينذرون بأشد العقوبات إذا لم يرتدوا عن غيهم.

---

(4) منهم
— Don Fernando Venegas
— don Miguel de Aragon
— Don Diego Lopez Berusjara

(5) Julio caro Baroja, los Moriscos del Reino de Granada, p. 52

(6) هم
— Don Gaspar de Avalos
— Don Antonio de Guevara
— DR. Juan de Quintana
— DR. Franscisco de Utiel
— El Canonigo Pedro Lopez

(7) Julio Caro Baroja, op. cit. p. 52

(8) انظر اسماء اعضاء اللجنة عند
Luis de Maromol Carvajal, Historia del rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada, tomo I, Libro I, capitulo 21 pags 105-109.

ــ منع الموريسكيين من استخدام اللغة العربية، سواء في الخطاب أو الكتابة، وعليهم أن يتعلموا اللغة الاسبانية، ويكتبوا عقودهم ومعاملاتهم بها.

ــ على كل موريسكي أن يبدل ملابسه حتى تصبح متفقة مع ملابس الاسبان.

ــ يمنع الخياطون والصاغة من الخياطة أو الصياغة على النمط الموريسكي.

ــ حظر عليهم استعمال الحمامات.

ــ منع اقتناء الموريسكيين للعبيد والأسرى لخدمتهم(9).

استمرت المفاوضات السرية بين ممثلي الموريسكيين وبين الملك حتى قر قراره أن يلغي تلك القرارات المجحفة مقابل أن يدفع الموريسكيون للملك 80.000 دوكات (Ducados)(10). وقد نفذ الموريسكيون ما التزموا به، فدفعوا المبلغ المذكور، وألغى شارل الخامس سنة 1526 تلك القرارات، لكن الى حين.

وضعية المسلمين ببلنسية

كان النبلاء وأمراء الاقطاع يعارضون دائما في طرد المسلمين من المنطقة، لما يلحقه الطرد بمصالحهم من ضرر بالغ لأنهم اعتبروا دائما يدا عمالية زراعية نشيطة ومخلصة، لكن الكنيسة كانت دائما ضد هذا الرأي إذ كانت تعمل باستمرار على اثارة الحكام والعامة ضد المسلمين، وحملهم على إساءة معاملتهم واجبارهم على التنصر أو الرحيل. وقد فكر الكاردينال (خميس) ــ مستشار الملكة الذي أصبح وصيا على عرش قشتالة بعد موت الملك فرناندو ــ في تأليف قوة مسلحة تكون في خدمة الكنيسة لتستعملها ضد النبلاء. فألف حرساً وطنياً مرتبطاً بالكنيسة، وأخذ يستخدمه ضد النبلاء كلما دعت الحاجة الى ذلك. ثم جاء شارل الخامس فوجد المنظمة قائمة فأراد أن يستخدمها هو أيضا ضد النبلاء وضد الشعب، ولكنها افلتت من يده، وتحولت ضده.

وفي عام 1520 ألف ثلاثة من الفرسان جمعية من النبلاء في المدن، انضم اليها الكثير من الكبراء والأساقفة، فكانت هذه الجمعية تعبيرا عن شعور الارستقراطية الاسبانية ضد محاولات الكاردينال والملكية لاخضاع النبلاء.

وفي نفس الوقت تألفت منظمة Germanias ــ السالفة الذكر ــ للاحتجاج على تصرفات المحكمة الكنسية. وأراد الملك أن يستخدم Germanias في خدمة أغراضه، فرد عليهم بأنه يوافق على قيام المنظمة ولكن تحت اشراف حاكم بلنسية. وفي عام 1519 انتخبت المنظمة المفوضين النهائيين من الشعب، وكان اعنفهم وأنشطهم يدعى خيين سوررولا Jaen Sorolla، فأصبح رئيسا للجمعية واتخذ

(9) Julio Caro Baroja, op. cit. pp. 52-53.

(10) Miguel la Fuente al Cantare, Historia de Granada, tomo IV, copt. XIX pags. 181-183.

لنفسه حرسا خاصا وأحاط نفسه بمظاهر الأبهة، وأصبح الحاكم الفعلي لبلنسية، وأخذت الحركة في الامتداد الى المدن والقرى[11].

وقد اتجهت أنظار أعضاء المنظمة بعد ذلك للمسلمين بالمنطقة، وأخذوا يشيعون أن العبيد المسلمين أبناء أسيادهم النصارى، فاندفع الناس الى الحي العربي (Moreria) في بلنسية، وهدموه بعد أن نهبوه فقتلوا من صادفوه منهم، وفعلوا في قرى المنطقة ما فعلوا في بلنسية. ويقول أحد المؤرخين ان المسلمين بمدينة (غانديا) Gandia قبلوا التعميد وهم جاثون بين أنقاض بيوتهم وبين جثث نسائهم وأطفالهم[12]. وارتفع أعضاء المنظمة في حق المسلمين أفضع الجرائم كما وقع في قرية (بولب) الواقعة في منطقة دانية Denia ، إذ كان في القلعة 600 من المسلمين متحصنين فيها، ولما هاجمهم المخربون دافعوا عن أنفسهم الى النهاية، وقبلوا أن يضعوا سلاحهم وأن يتعمدوا شرط المحافظة على حياتهم وأموالهم. لكنهم عندما خرجوا من القلعة انقض عليهم أعضاء المنظمة وقتلوهم جميعا.

وقد استمرت أعمال هذه الحركة التخريبية ثلاثة سنين داق فيها المسلمون صنوف العذاب والقتل والتشريد.

التعميد

استطاع شارل الخامس أن يحصل من البابا على براءة سنة 1524 أحل فيها الملك من اليمين التي أقسمها عام 1519 (بالمحافظة على حياة المسلمين، وحريتهم وأموالهم، وامتيازاتهم وقضائهم...)، وحثه على الاهتمام بموضوع تحويل المسلمين إلى النصرانية في مملكة أراغون. ونصح البابا (كليمانت السابع) الملك بأن يكلف أعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير. أما إذا أصر أحد المسلمين على التمسك بالاسلام، فيحسن إخراجه من المملكة تحت طائلة استرقاقه مدى الحياة[13].

كان الضغط المتزايد على المسلمين يدفعهم إلى المخاطرة بأنفسهم وأولادهم في سبيل الهجرة إلى شمال إفريقيا، نجاة بدينهم وحريتهم وأعراضهم، رغم ما في هذه المخاطرة من عواقب وخيمة.

فقد كانت الأوامر الملكية تقضي باسترقاق من يقبض عليه وهو يحاول الهرب، واسترقاق زوجته وأولاده، ومصادرة أموالهم. ولكنهم برغم جميع هذه المخاطر كانوا يتسللون باستمرار إلى شمال إفريقيا بمساعدة المغاربة، إذ يسجل المؤرخون سلسلة من الهجرات المتتالية.

---

(11) للمزيد من الايضاح، وخاصة حول علاقة المنظمة بمحاكم التفتيش انظر
Ricardo García Cárcel, origines de la Inquisición Espanóla El tribunal de Valencia, 1.96-101.

(12) انظر
Contre de Circourt, **Histoire des arabes d'Espagne**, 2 174.

(13) Manuel Danvilla y Collado, La Explusión de los moriscos espagnoles, p. 87.

أول هجرة مؤرخة بسنة 1526 2200 موريسكي غادروا مملكة بلنسية. في سنة 1529 200 موريسكي من بلدة Oliva. في سنة 1532 2000 موريسكي غادروا منطقة Cullera[14].

وأمام هذه الهجرات التي كانت تهدد المملكة بالبوار والخراب، تعالت شكاوي السادة الاقطاعيين، فأمر شارل الخامس بدعوة لجنة مشتركة من كبار رجال الدين وكبار رجال الدولة عام 1525 لمناقشة صحة التعميد الذي تم بالضغط والاكراه، وقد أعلنت اللجنة أن التعميد الذي تلقاه العرب يعتبر صحيحاً، وبالتالي فإنهم مسيحيون حقيقيون، ويجب إجبارهم على الحياة النصرانية، وتعليمهم الدين، وتعميد أبنائهم.

أما المسلمون غير المعمدين، فيجب أن يتلقوا التعميد خلال فترة معينة، وإلا أصبحوا عبيداً مدى الحياة.

وقد جمعوا عرب بلنسية بالفعل في الكنيسة، وأخبروا بأن لهم 10 أيام لإعلان دخولهم في الدين المسيحي وإلا تعرضوا للاسترقاق. لكن المسلمين لم يأبهوا بما سمعوا وشرعوا في بيع أملاكهم وقرروا الهرب للنجاة بدينهم، ولما أدركت السلطت الاسبانية حقيقة الأمر منعت على المسلمين بيع أملاكهم.

وهكذا لم يرض المسلمون بالتخلي عن دينهم مهما كلفهم ذلك من ثمن، فاندلعت في أواخر عام 1525 نيران الثورة في المنطقة وقابلتها السلطات الاسبانية بأعنف وسائل القمع والارهاب. ولم تتمكن مملكة أرغون من التغلب على الثائرين، إلا بعد أن استعانت بجيش من الألمان، وأبلى المسلمون أحسن البلاء في المعارك التي دارت خلال عشرة أشهر، وأدت هذه الثورة إلى قتل عدد كبير من المسلمين، ونسائهم وأطفالهم، واسترقاق عدد كبير منهم، وإلى هجرة عدد كبير إلى شمال إفريقيا، أما الباقون فقد أجبروا على تلقي التعميد[15].

لكن المسلمين لم ييأسوا برغم جميع ما جرى، إذ أنهم كانوا يعرفون الوسيلة التي يتغلبون بها على صلف الاسبان وعجرفتهم، ألا وهي بذل المال وتقديم الرشاوي، إذ كان كل شيء في إسبانيا في ذلك الحين يباع ويشترى الشرف والقانون والأخلاق، حتى أصبح الاعتراف بشرعية أبناء الاكلروس ممكنا[16]. فتابع الفقهاء الأثنى عشر — الذين يمثلون جمعيات المسلمين في بلنسية — جهودهم لايجاد تسوية المواضيع المعلقة، فاتصلوا بكردينال طليطلة، وبديوان التحقيق الأعلى، وبالامبراطور نفسه، وتوصلوا في سنة 1528 إلى اتفاق مع رئيس ديوان التحقيق ومع كردينال طليطلة، قبل به الملك ووافق عليه، وهذه بعض بنوده[17]

---

(14) انظر
Henri Lapeyre, Géographie de l'Espagne morisque, pp. 29-30.

(15) اسعد حومد، محنة العرب في الاندلس، ص 169.

(16) Menuel Danvilla y collado, op. cit. p. 153.

(17) Ibid. p. 102.

ـــ لا يمكن أن يستمر الموريسكيون في الاقامة في مكان يعاملون فيه معاملة سيئة كالتي تلقونها اليوم.

ـــ لايتابع الموريسكيون من طرف محاكم التفتيش خلال أربعين عاماً.

ـــ لا يجبرون على ارتداء الملابس المسيحية خلال عشر سنوات.

ـــ لا يجبرون على استعمال اللغة الاسبانية خلال عشر سنوات.

ـــ يسمح لهم بأن تكون لهم مقابر خاصة بهم بجانب المساجد.

ـــ تنفق أموال المساجد على خدمات الدين المسيحي ما عدا ماهو ضروري لنفقات الفقهاء.

ـــ يسمح للموريسكيين بحمل السلاح.

لكن الملك نقض الاتفاق. ويحاول بعض المؤرخين تبرير ذلك بأن الملك اكتشف مؤامرة أواخر عام 1528، ومنهم من يجعل سبب نقض الاتفاق حملات المجاهدين البحرية ـــ انطلاقا من شمال إفريقيا ـــ على الشواطىء الاسبانية وجزر البليار[18].

غير أن سياسة شارل الخامس كان تجنح أحيانا إلى اللين، فنراه في سنة 1543 يبلغ المحققين العامين بأنه تنفيذا لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام فإنه أصدر أمراً بالعفو عن المسلمين المتنصرين من أهل مدينة «دلكامبو» و «أريفالو» فيما ارتكبوه من ذنوب «الكفر والمروق»، وأنه يكتفي بأن يطلب إليهم الاعتراف بذنوبهم أمام محاكم التفتيش، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابتة والمنقولة التي أخذت منهم[19].

وهكذا لبثت السياسة الاسبانية أمام الامبراطور شرلكان إزاء الموريسكيين، تتردد بين الاقدام والاحجام، واللين والشدة. بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفاً وأكثر اعتدالاً منها أيام فيرناندو وايزابيلا. وفي عهده نال الموريسكيون كثيراً من ضروب الاعفاء والتسامح الرفيقة نوعاً، ولكنهم ظلوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب، عرضة للارهاق والمطاردة، ولبثت محاكم التفتيش تجد فيهم دائماً ميدان نشاطها المفضل[20].

موريسكيو بلنسية أمام محاكم التفتيش معطيات إحصائية.

بلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش (لغاية 1530) 3،3 % من النسبة العامة[21].

---

(18) Ibid, p. 107

(19) A 2. G.S.P.R. Leg 28, Fol. 49.

(20) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص 356.

(21) Ricardo García Cárcel, op. cit. p. 200.

ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين والمعاقب عليها من طرف محاكم التفتيش إلى ما يأتي:

الوضوء — الطهارة — الصلاة — صوم رمضان — الاحتفال بيوم الجمعة — عدم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير — قراءة كتب عربية — القول بأن الديانة المحمدية هي الاصلح — ختان الأطفال.(22)

وقد ظهر الموريسكيون بشكل مكثف أمام محاكم التفتيش خلال سنة 1518، إذ بلغ عددهم في منشور العفو الصادر في 19 أبريل من نفس السنة 219 موريسكيا(23).

والملاحظة الأساسية أنه بالرغم من جميع الاجراءات ظلت الممارسات الاسلامية بنفس الشكل تقريبا(24). وقد سجل المبشر Bartolomé de los angeles في زياراته لمختلف قرى المملكة ما يأتي(25)

Benifairo	3 حالات ختان
La taverna	9 حالات ختان
Cerfuller	8 حالات ختان
Riba - roja	اثنان وجد بحوزتهم القرآن، اثنان تزوجا بدون إذن كنسي، 3 حالات ختان.
Benaguasil	16 زواج على الطريقة الموريسكية.
	11 دفنوا على الطريقة الموريسكية.
	4 بدون تعميد.
	6 حالات ختان.
Beniloba	17 حالات ختان

أما على الصعيد الخارجي فقد كان شارل الخامس يعي جيدا الدور الذي يمكن أن يقوم به الموريسكيون في شمال إفريقيا لمهاجمة الشواطيء الاسبانية، ولاعاقة حملته الصليبية الكبرى ضد المنطقة. فعند احتلاله تونس في صيف 1535 فرض على الملك الحفصي معاهدة ينص أحد بنودها على «أن مولاي الحسن لن يقبل في مملكته أحداً من العرب الأندلسيين (الموركسيين) الذين اعتنقوا أخيراً الدين المسيحي، باعتبارهم رعايا جلالته الامبراطورية سواء أكانوا من بلنسية أو غرناطة أو أي مكان آخر في مملكته، وأن الملك الحفصي لا يسمح لهم بالقدوم وبالاقامة (بتونس) بل، على العكس من ذلك يطردهم من مملكته ويرحلهم تماماً عن طريق ضباطه ويعتبرهم كأعداء....»(26).

(22) A.H.N. Inquisicion de Valencia, leg 799.

(23) A.H.N. Inquisicion de Valencia, leg 597.

(24) Ricardo García Cárcel, op. cit. pp. 200-201.

(25) Bartolomé de los Angeles "Padrón de los moriscos residentes en parte del reino de Valencia. Manuscrito núm. 81 de la biblioteca Univ. de Valencia "in" origense de la Inqusición Espanola" p. 201-202.

(26) Elie de la Primandie, "Documents inédits sur l'histoirede l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) in Revue Africaine, 1876, p. 136.

كما تبدو أهمية الموريسكيين أيضاً بشمال إفريقيا من خلال التقارير الواردة من المنطقة إلى إسبانيا. ففي تقرير سري إسباني عن حالة الجزائر بعث به من بجاية في 29 مارس 1536 ورد ما يأتي «يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك، وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات...»(27).

وقد ظلت هذه الأهمية تزداد باستمرار، فقد ذكر فليب الثاني لسفير فرنسا ــ حسب رواية هذا الأخير ــ أنه «يوجد بمدينة الجزائر 15 ألفاً ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف رجل من العرب الذين نزحوا من إسبانيا في السنوات الأخيرة، وهم من خير الجنود»(28).

الموريسكيون والأتراك

كان الموريسكيون يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذي حققه العثمانيون، وخاصة بالجزائر التي أصبحت حصناً منيعاً يلتجىء إليه المهاجرون الأندلسيون. وقد استطاع خير الدين بربروس أن يلاحق الاسبان بالولاية إلى غاية تدميره حصن البنيون (Penôn) سنة 1529، بل كان يشجع بقوة حركة إنقاذ مسلمي الأندلس(29). وهكذا فقد هاجم مراراً السواحل الشرقية لاسبانيا، وجمع في سفنه كثيراً من الموريسكيين الراغبين في الهجرة، وأسر كثيراً من الاسبان. ومن أهم الغارات التي نظمها خير الدين على السواحل الاسبانية غارة وقعت 1529، إذ أرسل نائبيه إيدين ريس وصالح ريس إلى المياه الاسبانية، واستطاعت أن تجمع 600 من موريسكي بلنسية الراغبين في الهجرة(30). ويذكر لنا المؤرخ كاتب شلبي أن خير الدين تمكن خلال سبع سنوات أن يوجه 36 بارجة إلى السواحل الاسبانية لنقل سبعين ألف موريسكي خلال سنة 1529(31). ويدل هذا على مدى الدور الفعال الذي قام به خير الدين لانقاذ آلاف من مسلمين الأندلس إلى السواحل المغربية(32).

ولقي خير الدين هذا استحساناً كبيراً من لدن مسلمي الأندلس، فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ما يأتي «... وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الاسلام على طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والظماير (كذا)، وانتظم الشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبب خلاص كثير من

---

(27) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص 278.

(28) F. Braudel, "Les espagnols et l'Afrique du Nord de 1942 à 1577 in Revue Africanne, 1928, p. 358.

(29) عبد الجليل التميمي «رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني سنة 1541» مقال بالمجلة التاريخية المغربية، العدد 3، 1975، ص 39.

(30) محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص 386.

(31) تحفة الكبار في اسفار البحار، ص 40.

(32) Charles - André Julien, Histoire de l'Afrique du nord. 2 : 254.

المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الاسلام، وتحت أيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدنية برشك وشرشال ونواحي تلمسان...»[33].

استغاثة المورسكيين بالأتراك

أظهر قادة إسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة المورسكيين مع العثمانيين، فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء «مليشيا» لرد هجمات المغاربة الخطيرة على السواحل الاسبانية[34]. وكان الاسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب العربي لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية[35]، وهم بذلك يقطعون الطريق على رسل المورسكيين إلى اصطنبول لطلب النجدة، ومما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على إسبانيا قد أثرت في بلاط مدريد[36]. وبعد فشل حملة شال الخامس على الجزائر سنة 1541، والأصداء التي تركتها خاصة لدى المورسكيين، بدأ هؤلاء يتطلعون إلى نجدة السلطان سليمان القانوني. وبالفعل ففي أقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان العثمان يوضحون فيها له

أولا ما يقاسي المورسكيون من طرف محاكم التفتيش، والقرارات الجائرة التي سلطت عليهم «... فإن عبيد الفقرا (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم تلثمائة ألف وأربعة وستون ألفاً منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاسات (كذا) التضييق والاضرار، وجور أهل الشرك أثناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار...»[37].

ثانيا الشكاية من أهل المغرب وطالت بنا الأيام، وعاتت فينا يد النكاية والايلام، وخذلنا جيراننا ببلاد المغرب من أهل الايمان...»[38].

ثالثا اعتبر محررو هاته الرسالة أن المدد المرسل إلى الجزائر هو تعزيز شوكة المسلمين، ولذا طالبوا بإعادة تعيين خير الدين باشا على الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الاسباني، وإنقاذ مسلمي الأندلس وهم عازمين (كذا) ـــ الاسبان ـــ على الجزائر والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل

---

(33) عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 45ـــ46.

(34) P. Chaunu, L'Espagne de Charles Quint. p. 242.

(35) L. Guin, "Quelques notes sur les entreprises des espagnoles pendant la première occupation d'Oran in Revue Africaine, n° 178, 1886, p. 313

(36) John Lynch, Spain, Under the Hasburgs, p. 214
أورده عبد الجيل التميمي في المقال السالف الذكر ص 41.

(37) عبد الجليل التميمي، المقال السابق، ص 45

(38) نفس المصدر والصفحة.

الاسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان... وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكو (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الاسلام لازال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بأن بعثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشة (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير (كذا)...»[39]. ونتيجة لهذه العلاقات القوية بين المورسكيين والأتراك وما كانت تسببه من مشاكل تعوق تنفيذ مشروعه (وحدة الجبهة المسيحية) فإنه كان يتصور فتح القسطنطينية من جديد وإعادة وحدة الامبراطورتين الغربية والشرقية لوضع حد (لانتهاكات) السلاطين هذه الوحدة التي ستتوج عرشه بالنصر الخالد، نصر الكنيسة والمسيحية[40].

إن هذه الحمية الدينية المتأصلة في شارل الخامس، هي التي كانت تبلور سياسته والتي كان محورها الأساسي في نظرته ورؤيته وحدة العالم المسيحي التي لا تنفصم، خاصة أنه كان يعتبر نفسه المسؤول والحارس الأول عن سلامة العقيدة المسيحية[41]. وهذا ما جعله أيضاً يعتبر الاسلام عنصراً تهديد خطير لمشروعه، وبالتالي يجب تسخير كل الوسائل للقضاء عليه مما يسبب له هذه المقاومة الموريسكية العنيفة في الداخل والخارج.

المقاومة المورسكية المسلحة

اعتبر الاسبان هذه المقاومة ضمن أعمال اللصوصية **El bandolerismo** التي كانت سائدة بإسبانيا آنذاك نتيجة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها المنطقة، لكنها كانت غير ذلك بالنسبة للمورسكيين، فهي تدخل في إطار المواجهة الحضارية المستمرة بين المسلمين والمسيحين، وبالتالي فإن الأعمال التي كانوا يقومون بها لم تكن في نظر المورسكيين قط أعمالاً إرهابية أو لا أخلاقية وعفوية، بل كانت أعمالاً هادفة ومخططاً لها مسبقاً، فهي من قبيل الأعمال الفدائية وحروب التحرير لمقاومة موجات القمع الاسباني الموجه ضدهم لمسخ حضارتهم ونفي كيانهم.

وترتكز هذه المقاومة على ثلاثة عناصر أساسية

1 — Gandules هم أعضاء المليشيات المسلحة بالمدن، وينظم إليها غالباً الشبان. وهي مستعدة دائماً للقيام بأعمال عنف داخل المدن ويبدو أنه كان لها دور كبير في انتفاضة 1568 بغرناطة[42].

2 — Piratas وهم في مفهوم النصوص الاسبانية أولئك المجاهدين الذين ينطلقون من شمال إفريقيا انطلاقاً من الجزائر وتطوان العرائش وسلا للقيام بغارات على السواحل الاسبانية. وهم يعملون

---

(39) المقال السابق، ص 46.

(40) Hugo Hantsch, le problème de la lutte contre l'invasion turque dans l'idée politique générale de Charles-Quint, in Charles - Quint et son temps, p. 55.

(41) Ibid, p. 56.

(42) B. Vincent, "Les bandits morisques en Andalousie au XVI, siècle, "in Revue d'Histoire moderne et contemporaine 1974, XXI, p. 389.

دائماً بنفس الطريقة. ويقود هؤلاء بعض المورسكيين المهاجرين. وينزلون أول الأمر في مكان خال، ومن هناك ينطلقون إلى قرية ما ويقومون بعمليات انتقامية ضد المسيحين، والعمليات من هذا النوع متعددة خلال القرن السادس عشر على السواحل الاسبانية، انطلاقاً من قادس إلى جزر البليار[43]. وكثيرا ما تؤدي هذه العمليات إلى خراب العديد من القرى. ويرجع نجاح هذه العمليات إلى المشاركة الفعالة للمورسكيين بالمنطقة الذين غالباً ما يكونون على علم بالحملة[44]. وقد اعتبر Garo Baroja هذه العمليات كمظهر من مظاهر القرصنة البربرية خلال القرن السادس عشر[45]. واعتبرها Braudel أخت القرصنة البحرية[46].

وقد كانت للمجاهدين البحريين شبكة قوية من المعلومات داخل إسبانيا بواسطة (المنفيين) Monfies[47].

3 — Monfies المنفي في قاموس الأكاديمية الاسبانية هو المغربي أو المورسكي الذي يشكل جزءاً من عصابات Salteadores بمنطقة الأندلس بعد عمليات إعادة الغزو، فالمنفي بالنسبة للاسبان هو عبارة عن مجرم لا غير[49].

فالمنفي بالنسبة للمورسكيين بطل الحرية، بل هو رمز الورع والصلاح[50]. ولهذا السبب نرى أن المورسكيين يتعلقون به كثيراً ويجلونه باعتباره رمز تحررهم من قمع الكنيسة. وهم يهاجمون فقط المسيحيين من رجال دين وأصحاب فنادق وتجار. فالنسبة لرجال الدين لا يخفى أن الرهبان كانوا دائماً محطة أنظار المورسكيين، إذ كانوا بالنسبة رمز القمع. أما بالنسبة لأصحاب الفنادق فقد كانوا بالضرورة مسيحيين وكانوا يستخدمون كمخبرين للسلطات الاسبانية. وبالنسبة للتجار فإنهم يصادفونهم في الطريق المفضل لديهم للقيام بعملياتهم الانتقامية.[51] وقد كانت هذه المقاومة تقلق بال الاسبانيين باستمرار كما يتجلى ذلك من خلال المطالب التي قدمت للسلطات لمواجهة هذه الأعمال[52].

---

(43) B. Vincent, op. cit. p. 390.

(44) Ibid, p. 390.

(45) Les Moriscos del Reino de Granda. pp. 159-166.

(46) La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2. 83 et 123 sq.

(47) B. Vincent, op. cit. p. 390.

(48) Slteadores آتية من Saltea أي الذي يهاجم بالسلاح

(49) B. Vincent, op. cit. p. 390.

(50) C. Bernaldo de Quiros et L. ARDICA, "ElBandolerismo andaluz" in, les Bandits morisques en andalousie", p. 390.

(51) A.G.S. CAMARA Cedulas, n° 255 Fol. 65, in "Les Bandits morisques..." p. 391.

(52) Archives Municipales de grenade, Provisiones, I. fol. 162. in "les bandits morisques..." p. 391.

الموريسكيون في عهد فليب الثاني
(963 هـ - 1006 هـ / 1556 م - 1598 م)

صار فيليب الثاني في نفس الستراتيجية العامة التي حددها له أبوه، فقد بادر إلى بذل مجهوداته قصد وضع حد للتناقضات السياسية الصارخة بينه وبين فرنسا وإنجلترا، وتوج عمله بعقد معاهدة كاتوكمبريسيس (Cateau - Gambrésis) بتاريخ 2 و 3 أبريل سنة 1559[53]، وأصبح في استطاعته تحويل اهتمامه إلى الخطر الأساسي الخارجي المتمثل في التوسع المخيف للعثمانيين وبحارتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط والذي يهدد ليس فقط النظام السياسي والاقتصادي والتجاري للقارة الأوروبية، بل أيضاً الدول المسيحية على الاطلاق[54]. وقد عبر فليب الثاني عن هذه المشاغل في رسالة كان قد وجهها إلى دوق فلورنسا «برضاء من الله تمت المعاهدة وإقامة السلم مع المسيحي الغيور الملك الفرنسي، فقد بدا لي أنه طاعة لله وخدمة للدين المسيحي، وحتى لا تبقى جميع السفن التي تحت امرتي بإيطاليا عاطلة عن التحرك خلال هذا الصيف، فإننا سنستعملها، للقضاء على القراصنة لنضمن الحرية البحرية... وعلى هذا الأساس فقد أذنت بالحملة على طرابلس الغرب...»[55].

ويدخل في هذا الاطار أيضاً ما أورده السفير الاسباني في البندقية غارسي هرنانديز (Garci Hernandez) في رسالة بعث بها إلى ملكه يخبره فيها أن العدد الكبير من المورسكيين الفارين الذين نجحوا في عام 1560 في الوصول إلى القسطنطينية عبر البندقية قد استخدمتهم تركيا جنوداً ومترجمين وجواسيس، ويبدو أنهم في هجرتهم كانوا يكونون أحياناً جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم.

وعندما استجوب بعضهم حول علاقتهم مع الأتراك العثمانيين فإنهم أجابوا ليس هناك من موريسكي واحد لا يقدم نفسه طواعية للأتراك في ظروف المعاملة السيئةالتي تلاحق بها اسبانيا المورسكيين»[56]. كما أن التقارير الواردة إلى مدريد من الجزائر تفيد أن مدينة شرشال قد عمرت تماماً من طرف المورسكيين، وأن علاقتهم قوية مع أقاربهم وإخوانهم بالسواحل الاسبانية.[57]

لم يكن المشكل الموريسكي إذن ينحصر بين طرفين — أو كما كانت تدعي إسبانيا مشكلاً داخليا — بل مشكلا عالمياً يؤثر على العلاقات بين القوتين العظيمتين إسبانيا وتركيا، وبالتالي كان على فليب الثاني أن يتخذ إجراءات أكثر زجرية في حق من يساعدون أعداءه

(53) F. Braudel, la méditerranée... 2 : 279.

(54) عبد الجليل التميمي «الخلفية الدينية للصراع الاسباني — العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر»، مقال بالمجلة التاريخية المغربية العدد الثالث، سنة 1975، تونس، ص 13.

(55) F. Braudel, op. cit, 2œ 282.

(56) Ibid, 2. 348.

(57) Ibid, 2. 301.

فليب الثاني تجاه المشكل الموريسكي

قضى فليب الثاني على آخر ما تبقى من السياسة المعتدلة التي حاول أن ينتهجها أبوه، فأصدر عدة مراسيم تبين من جهة مدى الفزع الذي أصابه من غزو إسلامي جديد للمنطقة، وتبين من جهة أخرى مدى التأثير الذي كان يمارسه رجال الكنيسة على الملك لجعل السياسية في خدمة الدين.

وهذه جملة مراسيم أصدرها الملك وكلها تدور في نفس الاتجاه

1 — أصدر قراراً في عام 1560 يحرم فيه على المورسكيين اقتناء العبيد السود حتى لا يدينوا بالاسلام. وقد تقدم المورسكيون بطلبات تظلم إلى الملك يوضحون فيها مدى الآثار السلبية المترتبة عن هذا القرار. وبقيت المسألة كذلك إلى حين صدور قرار الملك في مطلع سنة 1563 برفض شكوى المورسكيين.

2 — في 14 ماي 1563 أصدر الملك أمراً :

— يجدد فيه الأمرين الصادرين عامي 1526 و1552 المتعلقين بتحريم اقتناء الأسلحة بدون رخصة.

— ويأمر الموريسكيين بتقديم جميع أسلحتهم لختمها في مدة أقصاها خمسون يوماً، كما ينص المرسوم على أن يمتنع عن تسليم أسلحة بعد انتهاء المدة المذكورة يعرض نفسه للأشغال الشاقة لمدة ست سنوات، ولا يجوز لأي موريسكي أن يقتني الأسلحة إلا أن تكون مختومة بخاتم الحاكم العام(58).

وفوض الملك إلى الحاكم العام لمنطقة غرناطة أمر تحديد العقوبة المترتبة على مخالفات حمل السلاح. وبناء على هذا التفويض جعل الحاكم العام الاعدام عقوبة للمخالفين، ووافق الملك على ذلك. وقد أدى هذا الأمر إلى مآسي كثيرة، وإلى ملاحقات غير مشروعة، وإلى ابتزاز أموال المورسكيين. ولم يكن أمامهم أمكنة يلتجأون إليها غير الكنائس وأراضي السادة الاقطاعيين، ولكن الملك سد الطريق أمامهم، إذ أصدر أمراً حدد فيه حق اللجوء إلى الكنائس بثلاثة أيام، وحرم على السادة الاقطاعيين ايواء الهاربين. لذلك لم يبق أمامهم غير اللجوء إلى الجبال والانضمام إلى طوائف «المنفيين»، إذ استمرت تقوم بأعمال فدائية كبيرة بالمنطقة، وتعاظم أمرها إلى أن سيطرت على النطقة الممتدة من جبال البشرات إلى روندة، وبلغ من جرأتهم أنهم كانوا يصلون إلى أبواب غرناطة متحدين بذلك السلطات. ومنذ ذلك الحين بدأت تختمر فكرة القيام بالثورة وبدأ الاعداد لها.(59).

---

(58) Maria Soldad Carrasco Urgoiti, El problema morisco en Aragon al comienzo del reinado de Felipe II capt. IV. pags 56-57.

(59) اسعد حومد، محنة العرب في الاندلس، ص 178.

3 ــ الأوامر الصادرة عام 1566

تدخل هذه المرة البابا، إذ أبلغ فليب الثاني بضرورة اتخاذ تدابير صارمة بحق الموريسكيين، وأنه يعتبر الملك مخطئاً في «التسامح» الذي يبديه في ترك الموريسكيين يقيمون على عاداتهم وتقاليديهم الاسلامية القديمة.

وقد تألفت لجنة لوضع الاقتراحات اللازم اتخادها على الأنظمة المطبقة على الموريسكيين(60). واقترح الرهبان والقساوسة أن تزداد التدابير الواردة في الأمر الملكي الصادر عام 1526. وقد أصدرت عدة توصيات منها

ــ منع استعمال اللغة العربية، ويمنح الموريسكيون مهلة ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، ولا يسمح بعد ذلك بالتكلم بها. وكل المعاملات والعقود بهذه اللغة تعتبر باطلة، ويجب تسليم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوماً(61).

ــ منع استعمال الألبسة العربية، إذ يستعمل منها فقط ما كان مطابقاً لألبسة النصارى.

ــ إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوهن(62).

ــ إجبارهن على ترك أبواب بيوتهن مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.

ــ يمنع الموريسكيون منعاً كليا من امتلاك العبيد(63).

وافق الملك على هذه التوصيات وأصدر أمره بتنفيذها. ورغم المحاولات التي بذلها الموريسكيون سواء في غرناطة أو لدى العرش الاسباني نفسه فإن السلطات الدينية استمرت في تنفيذ القرارات

---

(60) لم يشترك في هذه اللجنة أحد من الموريسكيين.

(61) بالرغم من هذا القرار ظلت الكتب العربية متداولة، ففي رسالة بعثت بها السلطات الدينية الاراجونية (9 يناير 1979) نجد أنها تخبر المحقق العام بأن جهودها سوف تنصب أساسا على الفقهاء واعيان الموريسكيين الذين يقومون بترويج هذه الكتب.

وفي 15 فبراير 1593 أصدرت السلطات الكنسية في سرقسطة بيانا أوضحت فيه أن الموريسكيين الذين يقومون بتسليم الكتب العربية سوف يحظون بعفو الكنيسة.

ونجد بمحاضر محاكم التفتيش العديد من المعلومات عن هذه الكتب وأصحابها وطريقة نسخها، والادوات المستخدمة بذلك، وثمنها، والجهات المتداولة فيها وكذا أماكن خزنها (اكتشفت مكتبة سرية موريسكية بمنطقة Almonacid de he sierra سنة 1884). وقد احتلت تهمة حيازة الكتب العربية مكان الصدارة لدى محاكم التفتيش، إذ نجد من بين 900 موريسكي حوكموا من طرفها بأراجون 400 موريسكيا حوكموا بتهمة حيازة كتب عربية.

انظر

Jacqueline Fournel Guérin, les morisques **aragonais** et l'inquisition de saragosse (1540-1620), thèse inédite. montpellier III, 1980. pp. 155-176.

(62) حول وضعية المرأة الموريسكية ومدى مواجهتها لقرارات محاكم التفتيش، انظر المصدر السابق، ص 183 ــ ص. 197.

(63) Julio Caro Baroja, Les moriscos del reino de granada, p. 169.

الملكية بكل قساوة معتبرة «أن الموريسكيين جبناء، ولا سلاح لديهم ولا حصون»(64)، وبالتالي فإن تطبيق الاوامر الملكية لن يعترضها أي حاجز، لكن الأمر كان على العكس تماماً، إذ اندلعت الثورة الكبرى بغرناطة متحدية بذلك جميع القرارات الصادرة عن العرش الاسباني.

الثورة الموريسكية الكبرى(65).

اندلعت الثورة في أواخر سنة 1568 ولعل هذا التوقيت كان مخططاً له مسبقاً، إذ ان إسبانيا كانت منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة وجندت العديد من سكانها لهذا الغرض، كما أن السواحل الأندلسية كانت مقفرة بسبب الحرب والخوف من الغارات البحرية الاسلامية(66). وقد كان لهذه الثورة صدى على الصعيدين الداخلي والخارجي وشغلت الاسبان والأوروبيين بصفة عامة لمدة سنتين.

كان زعيم الثورة فرج بن فرج قد بدأ عدته وأخبر مواطنيه بذلك، وبعث برسله إلى المغرب والجزائر، لكن العملاء المندسين بين صفوفهم بلغوا رئيس المجمع الملكي بذلك مما جعل الثورة مكشوفة أمام الاسبان(67). إلا أن الثوار عادوا مرة أخرى إلى تدبير الثورة، وفي اليوم الموعود بعث علي باشا والي الجزائر التركي إمدادات إلى الموريسكيين نزلت على الساحل الاندلسي في جهتي ألمرية ومربلة ثم سارت

---

(64) Prescott, Philp II of spain, 3. 12-29.
عن محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس... ص 361.

(65) للمزيد من الايضاح عن هذه الثورة انظر
أولا المصادر الأساسية

— Marmol carvajal, **Histoire del rebellón y castigo de los moriscos del reino de Granada.**

— Hurtado de Mendoza **de la guerra de Granada.**

— Perez de Hita, **Guerras civiles de Granada.**

ثانيا الدراسات

— Julio caro Baroja, **los moriscos del reino de Granada**. pags 175-236.

— Mercedes García Arenal,**los moriscos**, pags 63-65.

F. Braudel, **la mediterrannée...; 2/124-126.**

— **Bernard Vincent, l'expulsion des morisques du royaume de Grenade et leur repartition en Castille (1570-1571), In "Mélanges de la casa de Velázquez**, VI, 1970, pp. 210-246.

— ليلى الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة، مقال بمجلة **الاصالة** الجزائرية، السنة الرابعة، العدد 27، شتنبر — أكتوبر 1975، ص 116 — 175.

— محمد عبده حتامله، **التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد فليب الثاني**، ص 27 — ص 96.

— اسعد حومد، **محنة العرب في الاندلس، ص 209 — 246.**

— **محمد فشيلو، محنة الموريسكوس في اسبانيا**، ص 34 — ص 66

— محمد عبد الله عنان، **نهاية الاندلس**، 361 — 376.

(66) ليلى الصباغ، «ثورة مسلمي غرناطة» مجلة **الاصالة** الجزائرية، العدد 27، شتنبر — أكتوبر 1975، ص 147.

(67) موريسكي مجهول، ص 117.
عن محمد عبده حتامله، **التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملك فليب الثاني، ص 33.**

إلى الأماكن المحددة لها[68]. ولم تمض أيام حتى انضم إلى ابن فرج موريسكيون آخرون من البشرات ومن جميع أنحاء مملكة غرناطة. وقد قدر عدد الثوار في مطلع الثورة بـ (4000) ثائر. ويذكر Saull صولي — وهو عميل جنوة السياسي في إسبانيا — لحكومته «إن بعض الناس يقولون أنهم أكثر من ذلك بينما يؤكد آخرون أنهم أقل... وأن بينهم بعض الأتراك... وقد خرج عدد وفير من الفرسان والمشاة من قرطبة وغيرها من الأماكن...»[69]. وإذا كان صولي لايظهر قلقه من الحركة فإن فوركفو — سفير فرنسا — كان أكثر تشاؤما[70].

ويبدو أن الثورة لم تكن لمطلب آني، كرجوع الحكومة الاسبانية عن قرارها السابق، أو السعي لرفع مختلف ضروب الظلم والتعسف عن الموريسكيين، أو الالحاح على معاملتهم كمواطنين كاملي الحقوق كغيرهم، وإنما كانت ذات هدف ثوري ايجابي عميق هو اعادة تكوين مملكة غرناطة، وهكذا أعلنوا استقلالهم[71]. والتفوا حول شاب من حي البيازين ينسب الى سلالة بني أمية يدعى فرناندو دي فالوراي قرطبة). وكان من أعين قرطبة ومستشارا في بلديتها. وقد يكون لاختياره دلالات بعيدة المدى، كإعادة الحكم في اسبانيا كلها للمسلمين كما كان الأمر في عهد الخلافة الأموية الأندلسية، واحتفل المسلمون بتتويجه ملكا عليهم في احتفال ديني مهيب في 29 دجنبر 1568، واعطى الاسم العربي (محمد بن أمية)[72]. وقد كان أول اجراء قامت به السلطات الاسبانية هو ارسال المال الى القائد العام لغرناطة للعمل على تمويل الجند، وكذلك لحاكم مرسية. وفي الوقت نفسه اخطرت السفن الاسبانية لتحرس الشواطىء الأندلسية وتعزل الثوار عن شمال افريقيا، ويمنع كل ما يمكن أن يأتي من نجدات منها[73].

ومهما كان الحجم الحقيقي لثورة غرناطة في الخارج، واستغلالها على المستوى الدولي، فإنها في اسبانيا قد هزتها هزا عنيفا. فقد أثبت لها مرة أخرى أن مراس المسلمين لا يزال شديداً، وان قواهم الجهادية كانت لا تزال في عنفوانها.

ومع كل العنف الذي صاحب الثورة، ومع أنباء الاخفاق الاسباني في اخمادها، فإن فليب الثاني لم يظهر تشاؤمه، فقد ادعى أن الأتراك لديهم مشاغل غير هذه الثورة، وأن النجدة الجزائرية غير ممكنة لأن حراسة السفن على السواحل الأندلسية شديدة، إلا أن عملاءه السياسيين في الخارج لم يكونوا يشاطرونه هذا الرأي لأن أخبار حربه مع ثوار غرناطة، واخفاقها كانت مدوية في الخارج، وقد ضخمتها

---

(68) موريسكي مجهول، ص 123 — 124.
عن محمد عبده حتامله، المصدر السابق، ص 37.

(69) F. Braudel, op. cit. 2 368.

(70) Ibid, 2 368.

(71) Marmol, op. cit. IV. cop VII

(72) Marcelino Menendez y Pelayo, Historia in de Espaná,p. 149.

(73) F. Braudel, op. cit. 2/299.

الاشاعات المختلفة، حتى ان عميله في لندن أعلمه بأن الأمر سيصل بالناس الى الاشاعة بأن ممالك اسبانية أخرى قد ثارت ضد الملك[74]. وهذا بسبب رأيه انتقاص من هيبته.

وفي الواقع لقد اقلقت هذه الثورة الاسبان والعروش الكاثوليكية في أوروبا لأنها جاءت وسط تحركات دينية ثورية بروتستانية كانت تمزق أوروبا، وهذا ما عبر عنه سفير فرنسا (فوركفو) عندما قال «إنها دليل آخر على أن هذه الأزمنة هي أزمنة ثورات الرعايا ضد أمرائهم الشرعيين، فبالأمس كانت ضد شارل التاسع في فرنسا، وضد ماري ستيوارت في اسكتلندا، وضد الملك الكاثوليكي في فلندرا، فالعالم اليوم نازع الى الثورة، والرعايا متجهون الى التمرد...»[75]. وقد رد شارل التاسع على سفيره قائلا «انني آمل أن يعاقب هؤلاء الثوار، وكل أولئك الذين حملوا السلاح مثلهم بهدف بلبلة دولة ملكهم وسيدهم»[76].

وقد ازدادت مخاوف فليب الثاني بشكل كبير، فقد قال (فرانسيس دو آلافا) ــ سفير اسبانيا في باريس ــ لسكرتير الدول في رسالة متبادلة «كل ما ارجوه أن يعاقب الله ثوار البشرات قبل أن يستطيع هذا الكلب (كذا) ــ أي السلطان العثماني الذي علموا باستعدادته العسكرية ــ أن يعبىء قواته»[77].

بل خشيت اسبانيا كذلك أن تمتد الثورة الى خارج مملكة غرناطة، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الثوار 30.000 ثائرا إنما 100.000 ثائرا[78].

وعلى الرغم من اغتيال محمد بن أمية نتيجة مؤامرة دبرت له من طرف فرق الأتراك العاملة مع الثوار[79]، فإنهم تداركوا الأمر بسرعة، وأحلوا محله قريبه (ديغولوبيث) الذي تلقب بمولاي عبد الله بن عبو، ووافق على انتخابه علي باشا والي الجزائر وبعث له ببعض التعزيزات[80]. وقد كانت له جولات كثيرة مع الاسبان كان النصر حليفه في العديد منها رغم ما جنده فليب الثاني من امكانيات مادية ومعنوية لايقاف زحفها.

وقد ظلت الثورة بين مد وجزر، وظل المورسكيون يقاومون بكل ما لديهم في الجبال والسهول، في المدن والقرى، كما حاول القادة الاسبان الذين تعاقبوا على قيادة الجيوش المحاربة للمورسكيين أن يستخدموا كل وسائل العنف والسلب والنهب والتشريد لبث اليأس في نفوسهم، لكن المورسكيين ظلوا يحاربون الى حين استنفاد الوسائل المتوفرة لهم آنذاك، فوضعوا السلاح الى حين.

---

(74) F. Braudel, op. cit. 2-361.
(75) Ibid. 2.361.
(76) Ibid, 2. 361
(77) Ibid. 2.362.
(78) F. Braudel, op. cit? 2.362
(79) انظر محمد عبده حتامله، المصدر السابق، ص 67. S.I.H. 1er Série France 1.291.
(80) محمد عبده حتمله، المصدر السابق، ص 69.

واثر ذلك صدر قرار في 28 أكتوبر 1970 ينفي الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية، مع السماح لهم بحمل الأموال المنقولة فحسب.

ويقدر عدد من شملهم قرار النفي بـ 80.000 موريسكي[81]، رحلوا الى قشتالة وغيرها في ظروف جد سيئة مما سبب المرض والموت للكثير منهم أثناء الطريق[82].

غير أن بعض المؤرخين يعتبرون أن الثورة قضي عليها من الخارج، وليس من الداخل، وذلك بهزيمة الأتراك في معركة ليبانتو سنة 1571.

إن نجاح الأتراك وتقدمهم نحو نابولي وصقلية كان سيبعث الأمل في نفوس الموريسكيين، ويستجمعون قواهم للنهوض من جديد[83].

ويشير بعض المؤرخين إلى أن موقف الوالي التركي بالجزائر كان فاترا[84]، وانه أظهر اهتماما بتحصين مدينته أكثر من اهتمامه بمساعدة ثوار غرناطة[85]، وانه استغل الثورة ليحقق مطامع شخصية في توسيع ولايته بفتح تونس[86].

هذا الموقف يؤدي بنا الى التساؤل حول نقطة أساسية ما هو الهدف من تقديم المساعدة للموريسكيين ؟ هل هو احتلال اسبانيا واعادتها للمسلمين ؟ هل الضغط على الحكومة الاسبانية للتخفيف من وطئتها على الموريسكيين ؟

إذا اعتبرنا الهدف الأول، فإن الجزائر غير قادرة على ذلك وحدها، ولا بد لها من استشارة القسطنطينية، فهي المؤهلة عمليا لأن تهيىء الأجواء الدبلوماسية والعسكرية للقيام بهذا العمل.

أما إذا اعتبرنا عامل الضغط على اسبانيا لتغيير موقفها تجاه الموريسكيين، فهذا ما كانت تقوم به بالفعل. والشهادة تأتي من الداخل، أي من اسبانيا، ومن جهازها القمعي نفسه. إذ ان محاضر محاكم التفتيش زاخرة باعترافات الموريسكيين حول حقيقة المساعدات التي كانت تقدمها الجزائر للموريسكيين أثناء الثورة وبعدها[87].

وإذا كان موقف الجزائر واضحا في حدود امكانياتها، فإن موقف القسطنطينية أثار الكثير من النقاش.

---

(81) Bernard Vincent, op. cit. p. 239.

ملاحظة هناك من يقدر عدد المنفيين بـ (150 ألف)،
انظر

H. Lapeyre, Géographie de l'Espagne morisque, p. 122.

(82) Bernard Vincent, op. cit. p. 239 note 3.

(83) ليلى الصباغ، المقال السالف الذكر، ص 175.

(84) محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، 368، ومحمد عبده حتامله، المصدر السابق، 38.

(85) F. Braudel, op. cit, 2. 364.

(86) Ibid, 2.364.

(87) Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit., pp. 279-299.

نلاحظ أولا أن المصادر التاريخية تذكر أن الصدر الأعظم محمد الصقلي كان يخطط للهجوم على اسبانيا، لغرض مساعدة موريسكيي غرناطة الثائرين، وانه اقترح على السلطان القيام بحملة على اسبانيا بدل قبرص[88]. لكن بطانة السلطان وخاصة مستشاره اليهودي (جوزيف ناسي)، كانوا يؤيدون بكل قواهم فكرة الاتجاه الى قبرص لاستخلاصها من البندقية، فالنصر سريع، ويعيد الى حاشية السلطان حظوتها، ويدعم مركزها، ويزيد من نفوذها[89]. كما أن استجابة فرنسا للتحالف مع الأتراك كانت ضعيفة جدا، لأن الملك شارل التاسع كان يعيش أوضاعا داخلية صعبة تحت وطأة رجال الدين الكاثوليك. خاصة ان الأجواء في البحر الأبيض المتوسط في شتاء سنة 1570 كانت أسوأ من سابقاتها، وبالتالي يصعب القيام بأي عمل عسكري بدون مخاطر كبيرة[90].

ويضيف (بروديل) الى العوامل السالفة الذكر عاملا آخر يتلخص في بعد المسافة، حتى انه ينفي تماما تفكير الدولة العثمانية في غزو اسبانيا ومساعدة ثوار غرناطة[91].

وعلى كل، فمهما قيل عن دور الأتراك في ثورة غرناطة فإن المشكل المورسكي كان يشغلهم باستمرار، وإن اختلفت طرق معالجتهم له تبعا للظرفية السائدة. وهكذا نلاحظ بهذا الصدد فرمانين موجهين الى المورسكيين.

ففي الفرمان الأول الذي وجه الى والي الجزائر بتاريخ 16 أبريل 1570 أظهر المسؤولون العثمانيون معرفتهم الجيدة والدقيقة لمسألة «أهالي الأندلس» — حسب تعبير الرسالة — وبالمحن التي الحق بها مضطهدوهم، وقد طلبوا من والي الجزائر أن يقدم جميع المساعدات وبكل الوسائل الممكنه، وهذا في انتظار قدوم الأسطول العثماني[92]. أما الفرمان الثاني الذي وجه الى الأندلسيين فقد أشار الى أن عدد الثوار بلغ العشرين ألفاً وأن مائة ألفا أخرى تنتظر السلاح والذخيرة[93]، وأعلن أن الدولة العثمانية قد طلبت من والي الجزائر أن يقدم الأسلحة والذخيرة والمؤونة اليهم وان رجال الدولة العثمانية يعبرون عن أملهم في انتصار الاسلام «انه على ضوء امري شريفي الى بيلرباي الجزائر، فيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والاعانات اليكم، وذلك كما أظهرتموه من همة اسلامية وغيرة في الدفاع على الدين وعدم تركِكم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار أذلهم الله، إذ انكم أبديتم كل أنواع الاقدام والشجاعة، وحين يكون النصر ميسرا لنا في ذلك الجانب فإن العلماء والصلحاء وساير أهل الاسلام سوف لن يتخلوا عن الدعاء لنا بذلك، وان لا تتخلوا عن اعلامنا دائما بأحوالكم

---

(88) عبد العزيز محمد الشناوي، **الدولة العثمانية**، 2 925
عن عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية المورسكيين، مقال، **بالمجلة التاريخية المغربية — تونس، العدد 23 — 24، نوفمبر 1981 ص 197**.

(89) Edward S. Crusy, **History of the Ottoman Empire**, p. 217.

(90) ليلى الصباغ، المقال السالف الذكر، ص 171.

(91) **La méditerrannée...** 2 370

(92) عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 197.

(93) نفس الرقم قدمه السفير الفرنسي Fourquevaux فوركفو.
انظر F. Braudel, op. cit. 2 : 362

وأوضاعكم في تلك الجهة»[94]. وقد جاء في هذا الفرمان انه بعد فتح الدولة العثمانية لقبرص، فإن الأسطول العثماني سوف يتحول الى اسبانيا لمساعدة الموريسكيين[95].

بعد هذا لنا أن نتساءل عن نتائج هذه الثورة على أقطار المغرب العربي والوضع في البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة ؟

أولا ان آلاف الموريسكيين التجأوا الى الجزائر والمغرب والدولة العثمانية بفعل فشل هذه الثورة. وقد نشطوا نتيجة لذلك حركة التصدي للاسبان وساعدوا القيادات العثمانية، بفضل معرفتهم اللغة القشتالية والأماكن الجغرافية والطرق البحرية.

ثانيا ان سياسة فليب الثاني أصبحت مهتمة جدا بسواحل شمال افريقيا وعلى الخصوص قلعة حلق الوادي، وكان يخطط لتحصينها أكثر والعمل على تصفية ولاية الجزائر الخطيرة على أمن السواحل والبواخر الاسبانية.

ثالثا إن رد فعل علي باشا كان تخطيطه ضرب النفوذ الاسباني في تونس والقضاء على الحفصيين، محميي الاسبان، وبالفعل قد تم له ذلك.

رابعا ان خنق الثورة الموريسكية أعطى بعدا جديدا لحركية الاسبانيين وحتم عليهم خلق أرضية جديدة تتجلى في النشاط الذي تزعمته اسبانيا والباب الذي كان وراء الحلف المقدس ومعركة ليبانتو التي أدت بدورها الى احتلال تونس بصورة فعلية وطرد العثمانيين منها سنة 1573. وهذا ما يؤيد ترابط الاحداث بالبحر الأبيض المتوسط[96].

صدى الثورة

إن صدى الثورة ظل سنوات يلازم آذان محققي محاكم التفتيش، فكثير هي المحاضر التي نلاحظ فيها ذكرا لهذا الحدث أو ذاك، إذ كان الموريسكيون يذكرون هذه الحرب باستمرار ويعتبرونها رمزا ايجابيا لقدرتهم على الثورة. لكن محاكم التفتيش كانت دائما لهم بالمرصاد، فبمجرد ذكر الثورة يؤدي بصاحبه الى السقوط بين أيدي جلادي محاكم التفتيش، وهذا ما حدث بالفعل لأندرس لوباز Andrés lopez أحد موريسكيي يابس Yepes والذي ثار أثناء استراحة في الحقل : حوادث بلاده غرناطة والسنوات التي قضاها بها وحرب البشرات الأخيرة، وقد ختم كلامه «معبرا عن أمله في استرجاع هويته العربية قبل أن يموت»[97].

---

(94) انظر نص الرسالة عند عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 201 — 204.

(95) راجع نص الفرمان عند عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 201 — 204.

(96) عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية — المغربية، في القرن السادس عشر، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 29—30، يوليوز 1983، ص 92—93.

(97) A.H.N. leg. 194 n° 24 (d'après Louis Cardaillac, **Morisques et chrétiens**, p. 16).

وكان المسيحيون بعد الثورة يعيشون تحت خوف انتفاضة عامة للموريسكيين، وقد تناقل الناس انهم لا ينتظرون لهذا الأمر الا وقته المناسب، وانهم ساعون لجمع الأسلحة، ومنذ ولادة طفل لهم فإنهم يبدأون في جمع الأموال، حتى يتمكنوا، عندما يبلغ الطفل سن العاشرة، من شراء سلاحه»(98).

وفي مثل هذا اليوم، كم هو سعيد ذلك المسيحي الذي اتخذ من الموريسكي صديقا ! وارتاعت الأقليات المسيحية بأراجون عندما وصلتها هذه الشائعات وأبلغوا ذلك في الحين الى محاكم التفتيش(99).

وقد كان هناك عدد كبير من النواب قد عرضوا على الملك الأخطار التي يمثلها الموريسكيون للمملكة، ويتأسفون انه خلال عشرين سنة لم يستطيعوا حل هذا المشكل : «ففي أثناء الاجتماعات الأخيرة، رجونا من سموكم السعي للعثور على علاج شامل للمرض العالي والمستقبلي الذي يمثله هذا العدد الكبير من موريسكيي مملكة غرناطة، وانه حتى يومنا هذا لم نعالج الموضوع، وان الوضعية ما فتئت تستفحل»(100). غير انه وجدت طائفة من الشخصيات الاسبانية التي لم تكن راضية على الطريقة التي تصرف بها الجيش الاسباني أثناء الثورة، وظلت تردد هذا النقد الصريح باستمرار، فقد ذكر الشهاب الحجري ما يأتي

«... وطلبت منه (القسيس) أن يكون سندا للأندلس لأنهم ذلال عند النصارى (كذا). قال لي اعلم انني من جانبهم في كل زمن، وحين قاموا على السلطان كنت أنا قاض القضاة بهذه المدينة (غرناطة)، وجاء اليها أخو السلطان (غير الشرعي ضون خوان النمساوي)، وقبض من أعيان الأندلس بهذه المدينة مائة وأربعين رجلا وقتلهم. كل ذلك ليأخذ أموالهم، وكان الحق أن يتركهم لأنهم كانوا من القوام وأصحاب المال والنعمة، ولا يسعون إلا في أمور العافية لينعموا فيما عندهم بخلاف غيرهم...»(101).

ورغم أن السلطان الاسبانية نفت ما يقرب من 80 ألف موريسكي الى قشتالة، فإنه ظلت مع ذلك هناك مجموعتان كبيرتان من الموريسكيين الأولى بأراجون، وقد بلغ تعدادها لغاية 1603 نحو 63.400 موريسكي أي 21 % من مجموع سكان أراجون. والمجموعة الثانية ببلنسية(102).

وكانت الحراسة تشد عليهم باستمرار، فقد كان نواب الملك ــ خاصة الكونت ايتونا Conte D'Aytona، الذي حكم بلنسية من 1581 الى غاية 1594 ــ يسعون الى تجريدهم من السلاح، وابعادهم عن الشواطىء، ومنع الاتصال بعضهم مع بعض أو مع العثمانيين والبروتستانت. لكن تطبيق سياسة السلطة المركزية هذه كانت تحول دونها عدة حواجز، من بينها على الخصوص انعدام الأمن

---

(98) A.H.N. Inq. leg 452911 in "**Morisques et Chrétien**, p. 21

(99) Louis cardaillac, op. cit, p. 21 et note 37.

(100) Guadalajara y Xavier, **Prodición y destierro de los Moriscos de Castilla**, F° 3r°.

(101) **ناصر الدين على القوم الكافرين**، ص 20 ــ 21.

(102) Dominguez Ortiz, A. et B. Vincent, **Historia de los moriscos, vida y tragedia de una minoria**, PP. 76-77.

بالمنطقة بسبب الأعمال الفدائية المتعددة التي يقوم بها الموريسكيون، والتي تنسف دائما أي مخطط أمني بالمنطقة[103]. وأمام هذه الوضعية ازدادت وحشية محاكم التفتيش، فاستخدمت مختلف وسائل القمع البوليسية ضدهم، إنها — كما يقول رفائيل كراسكو — «تهدف، بكل بساطة، الى التصفية النهائية للموريسكيين بالمنطقة»[104]. خاصة ان فكرة الطرد بدأت تفرض نفسها منذ الثمانينات، فقد اجتمع مجلس الدولة الاسباني في لشبونة سنة 1582، وقرر أن أي حل ممكن في هذا الشأن[105]. كما ذكر الشهاب الحجري في هذا الباب أيضا ما يأتي «...وهذا فليب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يزمموا[106] جميع الأندلسيين صغارا أو كبارا، حتى التي في رحم النساء، بظهور الحمل، ولا علم لأحد ما السر في ذلك، ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زماما[107] آخر مثل الأول — كما أعلمونا بمراكش — ولم يدر أحد السر في ذلك حقيقة. ولكن قال لسان الحال انهم أرادوا يعلموا (كذا) هل كانوا في زيادة أم لا ؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب ذلك باخراجهم»[108]. وتورد الوثائق الاسبانية المعاصرة نفسها هذه الفكرة، فكل الدلائل تشير الى أنه بدأ الحديث عن فكرة الطرد انطلاقا من سنة 1582، وان السلطة الملكية كانت تنتظر فقط الظروف المناسبة[109]. فقد كتب محقق من أرجون الى المجلس الأعلى يقول «يبدو أنه آن الأوان لتنفيذ فكرة الطرد، فهم اليوم مسيحيون سيؤون»[110]. ولكن السياسة الأمبراطورية لفليب الثاني، بتورطه في الأراضي المنخفضة، وحربه ضد فرنسا وانجلترا، اعطت للموريسكيين مهلة اضافية[111]. وبعد العودة الى السلم وتجنيد الأسطول الحربي الاسباني أصبح الوضع يوحي من جديد ان من الممكن اخراجهم، خاصة أن الأتراك منهمكون في حرب دائمة مع الفرس[112]. وعلى كل، وان لم تنفذ فكرة الطرد في عهد فليب الثاني إلا أنه سار خطوات في رسم القرار النهائي الذي سيصدر في عهد فليب الثالث سنة 1609.

لنا أن نتساءل بعد هذا ما هو موقف الموريسكيين من كل المخططات التي كانت تحاك ضدهم ؟ هل كانوا واعين بخطورة المرحلة، وبحقيقة المشاريع المدبرة ؟ ما هو أسلوبهم في مجابهتها ؟

---

(103) Raphaïl Carrasco, Peril Ottoman et solidarité morisque, in **Revue d'histoire maghre- bine,** N° 25-26 Juin 1982, Tunis, pp. 33-34.

(104) Ibid. P. 34.

(105) Raphaïl Carrasco, op. cit. p. 34.

(106) يزمموا يقصد يسجلون

(107) زماما يقصد مسجلا.

(108) **ناصر الدين على القوم الكافرين** ص 106.

(109) Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p. 311.

(110) A.H.N. Inq qLibro 100, F.34, d'après Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit. p. 311.
وعن مشاريع الطرد انطلاقا من سنة 1582 انظر
P. Bornat. **los moriscos espanôles, 1/300**

(111) Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit. P. 311

(112) Ibid, p. 311.

نجزم منذ البداية أنهم كانوا واعين بهذه المرحلة، إذ انهم كانوا على اتصال فيما بينهم داخل اسبانيا نفسها من جهة، وبينهم وبين المغاربة الأتراك من جهة أخرى، وان مقاومتهم ما فتئت تندلع بين الفينة والأخرى. وقد أحبطوا فعلا كثيرا من المخططات التي كانت تستهدف طمس حضارتهم.

المقاومة ومراحلها

انطلقت المقاومة أساساً من (الجماعات) Aljamas [113] الغنية، والمألوفة في كل من أراجون وبلنسية. وقد كانت هذه الثورات متعددة، لكن أهمها هي التي واجهتها محاكم التفتيش في كل من بلنسية وسرقسطة فيما بين سنتي 1575 و 1585، إذ وجهت فيها النداءات المتكررة الى جميع موريسكيي الأندلس، والى الدولة العثمانية، والى البروتستانت. ففي سنة 1575 توصل محققو بلنسية وسرقسطة الى أن موريسكيي المنطقة، مدفوعون بالموريسكيين المطرودين من غرناطة، يهيئون انتفاضة عارمة بمساعدة الأسطول العثماني وسفن جزائرية[114]. وهؤلاء الذين نجدهم في جميع الانتفاضات الموريسكية، ليسوا فقط أولئك الذين طردوا الى قشتالة، ولكنهم أيضا اولئك الذين شاركوا في حرب البشرات، وسقطوا نتيجة لذلك في الرق، وفروا من مستعبديهم القشتاليين محاولين الفرار الى شمال افريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط بمساعدة موريسكيي أراجون وبلنسية. وقد ظلوا دائما معتصمين بالجبال، ولا يخضعون لأية سلطة رسمية، وهم أكثر عداء للمسيحيين، وأكثر عدوانية تجاههم. وكانوا صلة وصل بين الموريسكيين الباقين بالمنطقة، وبين ذويهم الذين هاجروا الى العدوة الأخرى، كما كانوا صلة وصل بين (الجماعات) Aljamas والأتراك، يحملون السلاح والرسائل والكتب[115].

وقد كان حضور هؤلاء الغرناطيين يخيف السلطات، إذ كان شبح ثورة 1569 مخيما على الأجواء الاسبانية[116].

---

(113) Aljamas (الجماعات، تنظيمات موريسكية سرية كانت تقوم بربط الاتصال بين الموريسكين بعضهم ببعض من جهة وبينهم وبين الاتراك من جهة اخرى. وكانت تضم اعيان الموريسكين واغنياءهم، أي من الذين كما كانت لديهم الوسائل المادية والمعنوية لتنفيذ مخططاتهم، كما كانت تتكون من المثقفين الذين يستطيعون ضمان استمرارية المجتمع الموريسكي. وهكذا فقد كانت هذه التنظيمات تحث باستمرار الموريسكين على الحفاظ على دينهم والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يشوش على عقيدتهم، كما كانت تدعو الموريسكين للحفاظ عن تماسكهم.
انظر

Raphaïl Carrasco, op. cit. PP. 41-47.

(114) Ibid, p. 34.

(115) Ibid, p. 34

(116) Ibid. p. 34.

ملاحظة
اشار رفائيل كراسكو الى ان نشاط الغرناطيين بعد فشل ثورتهم يحتاج الى دراسات متعمقة، خاصة انا نجد معلومات كثيرة حول هذا الموضوع في إطار وثائق محاكم التفتيش.
انظر المصدر السابق، هامش 4.

ومن جهة أخرى فإن استنطاقات محاكم التفتيش لا تترك أي مجال للشك في أن المو سكيين كانت تحذوهم رغبة قوية في الانتقام، وانهم كانوا يعملون على تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها أثناء الثورة الكبرى.

وقد كانت المرحلة حاسمة خلال سنوات 1578 — 1580 إذ أفادت المعلومات الواردة من جواسيس محاكم التفتيش أن مبعوثا من الحكومة التركية يدعى جوان دوارت Juan Duarte زار مناطق موريسكية، وعقد عدة اجتماعات مع الموريسكيين، وذلك للتخطيط للانتفاضة المقبلة. وكان هذا المبعوث يصرح في التجمعات بأن الحكومة التركية بعثته لمعرفة حالة الموريسكيين لتقديم المساعدة لهم(117).

وبموازاة ذلك استطاع المحققون أن يضعوا أيديهم على مشروع تعاون موريسكي بروتستانتي. اذ ألقت السلطات الاسبانية القبض سنة 1575 على الفرنسي فرانسسكو ناليلس Fransisco Nalias، وقد اعترف بأنه استخدم كواسطة بين البارون دي روس Baron de Ros، اللوثري، من بيارن Bearnain، وبين لوبي دي أركوس lope de Arcos الموريسكي، إذ كان من المنتظر أن يتوصل البارون ب 12.000 دوكة Ducats) من (الجماعات) Aljamas مقابل مساعدة عسكرية بروتستانتية. وقد حكم على الفرنسي أولا بالحرق، لكن أرسل بعد ذلك الى أشغال التجذيف الدائمة(118). كما اعترف الفرنسي بيرنار سيرا Bernard Serra انه كان يقوم بتسهيل الاتصالات بين اللوثريين والموريسكيين الاغنياء، كما أكد اعترافات مواطنه السابق، وكان على علم بأن الموريسكيين أرسلوا أيضا الى الأتراك يطلبون منهم المساعدة(119).

وهناك طائفة من الاسبان كانت تساعد الموريسكيين، كما هو الحال بالنسبة لجوان دي اوريولا Joan de Oriola، الذي اتهمته محاكم التفتيش بأنه كان على رأس خلية موريسكية لاعداد انتفاضة في منطقة قريبة من بلنسية، كما اتهم بأنه استقبل مبعوثين مسلمين (أحدهما تركي والآخر أوروبي دخل الى الاسلام حديثا) حملا معهما رسائل من الجزائر بشأن الانتفاضة(120).

انتظر الموريسكيون الأسطول العثماني في صيف 1577، وانتظروه سنة 1578 و 1579، وهكذا كانت الانتفاضة تؤجل كل مرة، وكانت الاتصالات جارية باستمرار بين الموريسكيين من جهة، والجزائر والقسطنطينية من جهة أخرى، وظلت الوضعية كذلك الى غاية 1583 حيث تأكدت السلطات الاسبانية أن أي انتفاضة بمساعدة الأتراك لم تعد ممكنة(121).

---

(117) Ibid, p. 37.

(118) Ibid. p. 37

(119) Ibid, p. 37

(120) Ibid, p. 37

(121) ذلك ان الظروف الدولية قد تغيرت تماما، فالاتراك بدأوا يهتمون بشرق البحر الابيض المتوسط بالخصوص، وفليب الثاني اصبح يهم أكثر بالمشاكل الاوروبية والاطلنتية. ثم ان محاكم التفتيش توصلت الى زيف كثير من الادعاءات حول حقيقة هذه الاتصالات والانتفاضات، ولعل ذلك يرجع الى بعض الموريسكيين كانوا يقومون بابلاغ محاكم التفتيش حول انتفاضات وهمية، وذلك بغرض التشويش على السلطات الاسبانية لابعادها عن المدبرين الحقيقيين للانتفاضة.

غير ان الأعمال الجهادية البحرية ظلت دائما قائمة بفعل تدفق المهاجرين المستمر على الايالات المغربية، وحث هؤلاء السلطات التركية على انقاذ إخوانهم[122]. وفعلا فقد تمكن درغوث باشا أثناء غارة كبيرة قام بها على السواحل الاسبانية من حمل 1500 موريسكي. وفي سنة 1570 استطاعت سفن المجاهدين أن تحمل جميع موريسكيي بالميرا، وفي سنة 1584 سار أسطول من الجزائر الى بلنسية واستطاع أن يحمل معه 2300 موريسكي[123]. وقد تواصل نشاط البحارة الجزائريين أمثال حسن فينزيانو الذي تمكن في نفس السنة من نقل أكثر من 2000 موريسكي من نواحي اليقانت Alicante كانوا ينتظرون نجدته[124].

وفي السنة الموالية استطاعت سفن المجاهدين أن تحمل جميع موريسكيي مدينة كالوسيا[125]. وبلغت حملات المجاهدين البحرية على السواحل الاسبانية بين سنتي 1528 و 1584 حوالي 33 حملة، هذا عدا الحملات التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموركسيين المهاجرين[126]. وقد وصف لنا الكاتب الاسباني الكبير سيرفانتيس Cervantes هذه الغارات البحرية في صور مثيرة[127].

ورغم المجهودات المكثفة التي بذلتها السلطات الاسبانية لمنع أي اتصال بين الموركسيين داخل اسبانيا والمجاهدين فإن تبادل الرسائل ظل مستمرا بنفس الشكل تقريبا، وذلك بغرض تدبير عمليات انقاذ الموركسيين، وارسال الأسلحة، وهذا ما أكده الكونت دي ميراندا Comte de miranda سنة 1588 عندما صرح بأن «الموركسيين يجتازون البحر في كل ربيع الى شمال افريقيا»[128]. لقد أصبحت شرشال مختصة في «صناعة مرور الموركسيين الى شمال افريقيا»، فهي مأهولة بموريسكيي غرناطة وبلنسية واراجون، وتوجدخلفها الغابات الضرورية لصناعة السفن الصغيرة التي تتميز بسرعة الحركة والهجوم. وفعلا فقد انتظم «موركسيو شرشال» في جماعات خاصة تقوم بهجومات سريعة وخاطفة على السواحل الاسبانية، إذ بمجرد ما تصل إليها تخفي سفنها الصغيرة داخل الرمال، وتنطلق نحو الداخل لتخليص ذويهم، ولأسر المسيحيين الذين يباعون في سوق الجزائر[129].

---

(122) ناصر الدين السعيدوني، الجالية الاندلسية بالجزائر، مجلة **أوراق** — مدريد — العدد 4، 1981، ص 115.

(123) محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص 388.

(124) Haëdo, D. **Histoire des rois d'Alger**. p. 38.

(125) محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص 388.

(126) نفس المصدر والصفحة.

(127) كان هو نفس من ضحايا الحملات البحرية، إذا سر في الغارات التي وقعت سنة 1575، وحمل اسيرا الى الجزائر، ولبث يرسف في اسره بضعة اعوام حتى تم افتداؤه سنة 1580.
ملاحظة للمزيد من الايضاح حو الجهاد البحري انظر
Jean Monlaï, **Les Etats Barberesques**
وبذيل الكتاب دراسة لمختلف مصادر ومراجع الجهاد البحري.

(128) F. Braudel, "conflits et refus de civilisation espagnols et Morisques au XVII siècle", in **Annales, Economies, sociétés, Civilisation**, II, Octobre-Décembre 1947, n° 4. P. 402.

(129) Ibid, p. 402

وأمام عنف وجرأة هذه العمليات أصدرت السلطات الاسبانية عدة قرارات تمنع الموريسكيين من الدخول الى المناطق البحرية، إذ صدر قرار بهذا الشأن سنة 1579، وصدر قرار ثان سنة 1586، مما يدل على أن الأول لم تكن له فعالية تذكر[130].

المواجهة ورفض الاندماج

أشار بروديل الى :«ان المشكل الموريسكي صراع ديني، وبمعنى آخر أعمق صراع حضاري، وهو بهذه الصفة يصعب حله وبالتالي فهو مدعو لأن يستمر»[131].

وبالفعل فقد كان كل طرف مشبثا بهويته الحضارية، بل ويحاول أن يستوعب الآخر، فمن خلال مناقشة جرت بغرناطة بين الشهاب الحجري وقس هناك، سأل هذا الأخير الشهاب الحجري قائلا «انتم الأندلس (كذا) فيكم عادة غير محمودة... انكم لا تمشون إلا بعضكم مع بعض، ولا تعطون بناتكم للنصارى القدما (كذا)، ولا تتزوجون مع النصرانيات القدما (كذا)...»[132]، فأجاب الشهاب الحجري «... لماذا نتزوج النصرانيات القدما، وكان بمدينة انتقيرا رجلا من قرابتي عشق بنتا نصرانية، ففي اليوم الذي مشوا فيه بالعروسة الى الكنيسة ليتم النكاح احتاج يلبس العروس الزرد المهند من تحت الحوايج، وأخذ عنده سيفا لأن قرابتها حلفوا أنهم يقتلونه في الطريق، وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل اليها أحد من قرابتها، بل يتمنون موته وموتها...»[133]، ويضيف الشهاب الحجري قائلا «وما ذكرت له عن الأندلسي والنصرانية كان صحيحا، وأسلمت على يده، وحسن اسلامها غاية الحسن، وأسلمت على يدها أمها عجوزة»[134]. فالموريسكيون، إذن، لم يكتفوا بالصمود أمام حملات التبشير القوية التي كانت تمارس ضدهم، بل كانوا يحاولون باستمرار أن يقنعوا قدماء المسيحيين بوجهة نظرهم للدخول في الاسلام.

لقد كان للموريسكيين أسلوب خاص لمواجهة هذا المد المسيحي، يرتكز أساسا على مبدأ التقية، إذ يقول الشهاب الحجري في هذا الصدد «وكانوا يعبدون دينين دين النصارى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس. وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت... من عشرين سنة قبل خروجي منها...»[135]. وهو يشير هنا الى محاكم التفتيش وما كانت تقوم به تجاه الموريسكيين، فما زال هذا الجهاز القمعي الى يومنا هذا — بوثائقه — يجسد هذا الصراع المرير بكل أبعاده، أو كما قال لوي كاردياك «ان قضايا محاكم

---

(130) Ibid, p. 403

(131) Ibid, p. 402.

(132) ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 21.

(133) نفس المصدر والصفحة.

ملاحظة

انتقير (Antequera) احدى مدن منطقة الاندلس، وتبعد عن مالقة بنحو 60 كم.

(134) نفس المصدر والصفحة.

(135) المصدر السابق، ص 3 — 4.

التفتيش ما زالت لحد الآن ترتجف بالحياة، إذ من خلال شهادات الشهود ومرافعة المهتمين أو اتهام الوكيل العام تنبثق أمام أعيننا الطائفة المسيحية وعلاقتها مع الأقلية الموريسكية...»[136].

المساجد والفقهاء أعمدة الحياة الدينية لدى الموركسيين

ظل الأندلسيون الى غاية 1525 يتمتعون بمساجدهم وفقهائهم لكن بعد فرض التعميد الاجباري أعطيت الأوامر باغلاق جميع المساجد، وأصبحت بذلك العبادات تمارس داخل المنازل وفي مساجد سرية، ففي 22 مارس سنة 1574 توصل محققوا سرقسطة الى وجود مسجد قري كلاندا Calanda بين الجبال، إذ كان يذهب اليه الموركسيون بانتظام. واستمر هذا المسجد نفسه في العمل، إذ حوكم الفقيه أمادورسا مبيرويلو Amador Sampervelo سنة 1593 بتهمة تدريس القرآن داخله، كما ورد بعد ذلك في محضر تحقيق الفلاح الموركسي باسكوال رايس Pascual Raez، الذي اتهم بأنه كان يصلي فيه[137].

وإلى غاية فترة الطرد ظل دور المسجد أساسيا، ففي مدينة Villa Feliche كان الموركسيون يتمتعون بمسجدهم سنة 1609، وقد كتب المحققون أن الموركسيين كانوا يدخلون اليه ويخرجون علانية تماما كما كان يدخل المسيحيون الى كنائسهم ويخرجون[138]. وكذلك الشأن بالنسبة لمسجد Purroy، استمر الموركسيون في الذهاب اليه رغم أن نصفه خرب تماما سنة 1608، وكان الفقيه مكيل كالفو Miguel Calvo يعلم فيه القرآن لمواطنيه[139].

ورغم المتابعات المتواصلة التي كان يقوم بها المحققون فإن الفقهاء ظلوا يؤطرون الموركسيين ويعلمونهم مبادىء دينهم، ويحثونهم على التمسك بها، وعدم الانجراف وراء حملات التبشير التي كان يقوم بها الرهبان. وكان هؤلاء الفقهاء يمارسون عدة مهن تكون أحيانا متواضعة، لكنهم غالبا ما يكونون على علم بأمور دينهم[140]. وكانت مهامهم متعددة فقد كانوا يمارسون مهمة الوعظ والارشاد، ويساعدون المرضى، ويقومون بنسخ القرآن. ففي مدينة Belchite، كان الفقيه ميكيل دي لافوينتي Miguel de La Fuente يمتهن النسخ ويقوم بمهمة التعليم في نفس الوقت إذ كان يستقبل الموركسيين لديه في الليل، ويقوم بتعليمهم القرآن مقابل «كيس» من القمح، كما اتهم الفقيه الكسندر بنيالوصا Alexandre Peñalosa بأنه كان يقوم بنسخ الكتب الدينية[141] كما كانوا يقومون باستقبال المبعوثين من شمال افريقيا، حاملين معهم الكتب الضرورية لنسخها وبيعها للموركسيين[142].

---

(136) **Morisques et Chrétiens**, p. 13.
(137) Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit. p. 128.
(138) Ibid, p. 128.
(139) Ibid, p. 128.
(140) Ibid, p. 128.
(141) Ibid, p. 129.
(142) Ibid, p. 130.

وكان دورهم بارزاً أثناء المناسبات الدينية، فقد كانوا مكلفين بجمع الصدقات، وتوزيعها على المعوزين، كما كانوا يشرفون على عمليات ختان الأطفال(143).

لقد حافظ المورسكيون، والى اللحظة الأخيرة، على فقهائهم وتنظيماتهم الدينية، إذ أشار Fonseca الى الدور الذي لعبه هؤلاء ساعة الرحيل، وكيف كانوا يرشدون مواطنيهم(144). ولا غرابة في هذا الدور الخطير الذي كانوا يقومون به، فقد اتصفوا بالصبر والثبات حتى في أحلك الظروف : ظروف السجن. ففي سنة 1601، وبسجن طليطلة كان الفقيه خيرونيمودي روخاس Geronimo de Rujas يجادل المسيحيين المسجونين معه ويقول لهم : «... انه يرغب في انقاذ أرواحهم، وان الله سوف يبصرهم وينقذهم من العمى والجهل الذي يحيط بهم...»(145). صرح Aznar Cardona — وكان قد مارس مهنته التبشيرية طويلا لدى المورسكيين — بأنهم ظلوا يمارسون عباداتهم الى آخر يوم من طردهم(146)، وهذا ما أوضحه الشهاب الحجري قائلا «... ولتعلموا ما بين عبادة الكافرين وعبادة المسلمين، ولنشكر الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس، والجامع الطاهر النقي من الأوثان والأذران، لأنها من أعظم النقم»(147). وكثيرا ما واجه المورسكيون مخاطبيهم بما يكنونه في صدورهم، فايزابيل Izabel امة دونيا خوانا Doña Juana من طليطلة صرحت من «أن عقيدة العرب أفضل من عقيدة المسيحيين»(149).

وقد توبع المورسكيون من طرف محاكم التفتيش على الصوم، والوضوء والصلاة، والصداقة، بل الحج.

إذا كان الوضوء صعبا (مجرد الغسل بانتظام يعتبر في نظر محاكم التفتيش وضوءا يعاقب عليه»، فإن الصلاة على العكس من ذلك مارسها المورسكيون بضيع مختلفة، وكانوا يقومون فيها في إطار عائلي أو في اطار جماعي تحت امرة إمام يختارونه لهذا الغرض(150). وكانوا متمسكين بها الى أقصى حد ممكن، مارسوها وهم في السجون وهم تحت التعذيب، وهم ذاهبون الى الحرق، وكثيرا ما اكتشفوا من طرف جواسيس محاكم التفتسش وهم يمارسونها(151).

---

(143) Anzar Cardona, op. cit. I F° 49V°
(144) Fonseca, **Relación**... pp. 89-90
(145) Louis Cardaillac, op. cit. p. 65
(146) **Explusión Justificada**... II. F. 49
(147) المصدر السابق، ص 44
(148) Louis Cardaillac, op. cit. p. 16
(149) Ibid, p. 16.
(150) Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit. p. 132
(151) Ibid. p. 133

كما حافظوا على قدسية يوم الجمعة، إذ تتوقف في هذا اليوم جميع الأنشطة التجارية، ويرتدون الألبسة النظيفة،[152]، وقد اتهم امادوربيون Amador Peon من كلاندا Calanda سنة 1579 بأنه يغير كل يوم جمعة ملابسه، وانه يعتبره كيوم الأحد[153].

كذلك حافظ المورسكيون على صوم رمضان رغم شبكة الجواسيس الخطيرة التي كانت تحيط بهم، إذ يتغير في هذا الشهر سلوك المورسيكيين تماما، مما يثير معه شكوك المسيحيين. وتتجند طائفة كبيرة منهم لحث المورسكيين على الصوم والتشبث به، فقد شهد المسيحيون الذين يشتغلون مع المورسكيين في معصرة للزيت بقرية البالات Albahate سنة 1607 بأن جميع موريسكيي القرية يصومون رمضان، وان عاداتهم تتغير تماما معهم[154]. ولمجابهة هذه الوضعية كان المرسكيون يحاولون ما أمكن الابتعاد عن المسيحيين أثناء فترة الأكل، أو التظاهر أمامهم بأنهم يأكلون[155]. وعلى العكس من ذلك إذا كان جميع العمال مورسكيون فإن الصوم يكون سهلا، بل ويذهبون الى حد الاتفاق مع رب العمل على تغيير أوقات عملهم بما يتناسب وهذا الشهر[156].

وكثيرا ما أثار الصيام نقاشا حادا بين المورسكيين والمسيحيين، كما هو الحال بالنسبة للشهاب الحجري وهو يناقش «قاضي الأندلس»[157] بباريس إذ يقول في هذا الصدد «... فالقاضي ابتدا بالكلام، اعني قاضي الأندلس، وقال لي هل عندكم صيام في دينكم فرض ؟ قلت له عندنا شهر قمري في العام، قال لي كيف هو صيامكم ؟ قلت له نمسك عن الأكل والشرب من انشقاق الفجر الى غروب الشمس، قال نحن عندنا صيام فرض في كل سنة... وهو تسع (كذا) وأربعون يوما متوالية، قلت له كيف هو صيامكم ؟ وأنا عارف به قال في نصف النهار ساعة معتدلة، ثم نمسك عن الأكل الى الليل، وفي أوله نأكل أقل طعاما مما أكلنا في نصف النهار. قلت له ما السر في الصوم والمراد به ؟ لأننا في ديننا هو لنرد النفس عن الشهوات، ونزيل من قوتها بالصوم، قال لي ونحن كذلك، قلت له بل تزيدون في قوتكم بهذا الصيام...»[158].

امتنع المورسكيون بصفة عامة عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر رغم الضغوط الكبيرة التي كانت تمارس ضدهم.

دأب المورسكيون على تعليم أطفالهم الامتناع عن لحم الخنزير منذ صباهم، وهذا ما فعله الموريسكي لوبي البلنسي Lope Valenciano عندما أودع أبناءه لدى المسيحيين، وأوصاهم ألا يعطيهم

---

(152) Ibid. p. 133

(153) Ibid. p. 133.

(154) Ibid. p. 136

(155) Ibid. p. 136

(156) Ibid. p. 136

(157) يقصد القاضي الذي كان يفصل في قضايا المورسكيين بفرنسا.

(158) المصدر السابق 49 — 50.

خمرا أو لحم خنزير، مما أدى به الى الوقوع بين أيدي جلادي محاكم التفتيش[159]. كذلك كان النقد اللاذع يوجه الى المسيحيين من طرف المورسكيين عندما يقدمون اليهم طعاما تشم منه رائحة لحم الخنزير[160]، فخوان هرادور Jaun Herrador بالقلعة Alcala قد رفض الأكل في صحون بها لحم خنزير، ولهذا السبب كان يقطع كل ما وجب أكله بأصابعه[161]. ونفس هذا الأمر لمورسكية من كاتلانيا التي حضرت ذبح أحد الخنازير عند جزار القرية،، فقد صاحت «أنها لا تأكل لحم الخنزير حتى ولو توجوها ملكة»[162].

وأثار الامتناع عن أكل لحم الخنزير أيضا مجادلة بين المرسكين والمسيحيين، فقد أورد الشهاب الحجري ما يأتي : «قال لي القاضي[163] ولحم الخنزير، لماذا هو ممنوع عندكم؟ قلت لأنه نجس، لأنه لا يأكل إلا النجاسات، وحتى في الأنجيل هو ممنوع، قالوا : ليس بممنوع، وأين المنع في الانجيل..»[164].

كان الامتناع عن شرب الخمر عاما[165]، إذ كان المورسكيون يراوغون كثيراً محاكم التفتيش، فقد كانوا — مثلا — يملكون مزارع العنب ليظهروا أنهم «مسيحيون طيبون»، غير أن هذا الجهاز القمعي المروع كان يفطن أحياناً لحيل المورسكيين، فقد ألقي القبض بطليطلة على خوان هرادو Jaun Herrado لأنه يملك العنب ويصنع منه الخمر قصد «إخفاء نيته السيئة، إذ هو في الواقع لا يشرب الخمر»[166].

وكما أثار الامتناع عن أكل لحم الخنزير جدالًا بين المورسكيين والمسيحيين، فقد أثاره أيضاً الامتناع عن شرب الخمر، فقد أورد الشهاب الحجري في هذا الصدد: «... وانتقل إلى مسألة أخرى، وقال: ما السبب حتى منعكم نبيكم من الخمر؟ قلت: منعه الله تعالى، لأن أفضل ما تكرم به على بني آدم هو العقل، والذي يزيله هو الخمر، وهو أقبح المسائل كلها، قال حتى عندنا هو ممنوع أن يشرب الانسان منه حتى يسكر، قلت، ظهر لي أنه ممنوع لكلم في الانجيل ولا انتبهتم له، قالوا في أي موضع؟ قلت في الدعاء الذي أمركم به سيدنا عيسى — عليه السلام — أن تدعوا به، وأوله أبونا الذي في السماء... إلى أن تقولوا : ولا تدعنا نقع فتنة النفس وآخرون يترجمون «ولا تدخلنا التخريب» وهم الأكثر،.. والأول عندي هو الصحيح...[167]. إن حقد المسيحيين على الموريسكيين تطور بشكل

---

(159) Jacqueline Fournel-Guérin, op. cit. p. 141.

(160) Ibid. p. 141.

(161) Louis Cardaillac op. cit. p. 24.

(162) Ignocio Bauer y Landauer, **Relaciones y manuscritos (Moriscos)**. p. 60.

(163) يقصد القاضي السالف الذكر.

(164) المصدر السابق، ص 53.

(165) Louis Cardaillac, op. cit. p. 24

(166) Ibid. p. 24

(167) المصدر السابق، ص 50 — 51.

سريع من حقد ديني إلى حقد عام وشامل لجميع التقاليد والعادات الموريسكية، فهذا أزنار كاردونا يلاحظ «أن طريقة تناولهم الأكل تترجم عن همجيتهم، فهم يأكلون على الأرض دون مائدة ولا أي شيء آخر...، وبنفس هذه الطريقة ينامون على الأرض، على «المضربة»[168] Almadraba...»[169]، كما أصبحت هذه التقاليد والعادات علامة على اتباع الموريسكيين للدين الاسلامي، كما هو الشأن بالنسبة لأكل الكسكس «فخيرونيما لافرانكا Geronima la franca وكذلك أعضاء عائلته مع أشخاص موريسكيين آخرين نجدهم متربعين وواضعين الكسكس في إناء وسطهم، ليأكلوا بأيديهم على شكل كرات حسب عادة العرب، وهم بهذا يداومون على اتباع دين محمد...»[170].

---

(168) ما زالت الكلمة مستعملة الى يومنا هذا بالمغرب.

(169) Explusión... II. F° 33. r°.

(170) Ibid, II F° 33 r°

ونختم هذا الفصل بتسجيل الملاحظات الآتية

ـ كانت سياسة شارل الخامس أقل عنفاً من سياسة الملكين الكاثولكيين، إذ نلاحظ أنه كان يتبع سياسة اللين في أحيان كثيرة، ويرجع هذ أساساً إلى الآثار الاقتصادية الناجمة عن هجرة عدد كبير من الموركسيين وبيع أملاكهم.

ـ مواجهة الموريسكيين لقرارات شارل الخامس بقوة، واحتفاظهم بتنظيماتهم السرية رغم حملات القمع الموجهة ضدهم.

ـ تدخل الأتراك لمساعدة الموركسيين على الهجرة أذكى حماسهم، وجعلهم يربطون اتصالات مباشرة معهم في شأن القيام بثورات داخل إسبانيا نفسها، مما كان يثير مخاوف الاسبان باستمرار، لأن هذا التعاون كفيل بإفشال المشروع القاضي بوحدة الجبهة المسيحية.

ـ تراجع فيلب الثاني عن سياسة أبيه المعتدلة، وذلك نتيجة فزعه الشديد من غزو إسلامي جديد للمنطقة، فقد أصدر مجموعة من القرارات التي من شأنها التضييق على الموركسيين، وجعلهم تحت قبضته لمراقبتهم.

ـ كان رد الفعل الموركسي خطيراً بإعلان «الثورة الكبرى»، إذ إن الآثار الناجمة عنها تتجاوز كل التقديرات، فقد كانت لها أبعاد سياسية وحضارية يدل على ذلك الوزن الذي أعطاه لها الموركسيون والاسبان على السواء، وكذلك الإجراءات التي اتخذها الاسبان بعد هذه الثورة مخافة أن تتكرر.

ـ استمرت موجة المقاومة ضد السلطات الاسبانية رغم الاجراءات المتخذة، وظل الموركسيون متشبثون بهويتهم الحضارية مما أقنع فليب الثاني بفشله، وجعله يفكر آخر أيامه بإخراجهم. وهذا ما سيقوم به بالفعل ابنه فليب الثالث.

الفصل الثالث

الموريسكيون في عهد فليب الثالث

(1006 هـ ـ 1030 هـ / 1598 م ـ 1621 م)

استمر فليب الثالث في السياسة التي انتهجها أبوه تجاه المورسكيين والتي تنبني أساساً على القمع والمراوغة، وسوف نتعرض في هذا الفصل لمركزين مورسكيين خطيرين، يستمد الأول خطورته من تراثه النضالي بالمنطقة وامتداد هذا التراث داخل المغرب، بينما يستمد الثاني خطورته من كثافة سكانه.

موريسكيو هورناتشوس HORNACHOS

نبدي أولًا ملاحظات عامة تساعدنا على وضع إطار عام للموضوع

الملاحظة الأولى إن اهتمامنا بموريسكيي هذه المنطقة يأتي من كونهم يمثلون نموذجاً فريداً من بين جميع النماذج الموريسكية المعروفة[1]، إذ يبرزون بخصوصيات معينة تميزهم عن باقي موريسكيي إسبانيا[2]، فقد اعتبروا رمزاً للخطر الموريسكي، وبالتالي كان «خطرهم هذا» من أهم العوامل التي أدت إلى طرد الموريسكيين من إسبانيا[3].

الملاحظة الثانية اعتبرت مجموعة موريسكيي هورناتشوس مجموعة متماسكة، وهاجرت إلى المغرب وهي متماسكة، وهذا لم يتوفر في أي مجموعة مهاجرة أخرى[4].

الملاحظة الثالثة حمل الهورناتشيون معهم إلى قصبة الرباط تراثهم النضالي والسياسي، مما أضفى صبغة جديدة على الوجود الموريسكي بالمغرب[5].

الملاحظة الرابعة حمل هورناتشيون معهم ثرواتهم المالية وخبرتهم الصناعية والتجارية، مما سيدعم مركزهم بالمنطقة[6].

ـ المجال الطبيعي والبشري

تقع قرية هورناتشوس وسط منطقة اكستراماادورا Extramadura في إقليم Badajoz على بعد 50 كلم من Merida على نهر Matachel أحد روافد Guadiana.

ولا ينتمي موريسكيو هورناتشوس إلى الموريسكيين الذين قدموا من غرناطة إبان ثورة 1568[7].

(1) Julio Fernández Nieva, El enfrentamiento entre Moriscos' y cristianos viejos. el caso de Hornachos en Extramadura, in "**Les morisques et leur temps**", p. 271.

(2) Bartolomé Bennassar, **un siècle d'or espagnol**, p. 288.

(3) Bernard Vincent, "Les morisques d'extrémedure au XVI• siècle, in **annales de démographie historique**, p. 431.

(4) Guillermo Gozalbes Busto, **La república andaluza de Rabat en el Siglo XVII**, p. 50.

(5) Guillermo Gozalbes Busto, Loc, cit.

(6) Roger Coindreau, **Les corsaires de Salé**, p. 36.

(7) B. Vincent, op. cit. p. 436.

فهم موريسكيون «أصليون» كما تدل على ذلك الوثائق المحلية[8]لذلك كان الهورناتشيون يشعرون دائما بأن جذورهم متأصلة بالمنطقة، وهذا مايفسر من جهة أخرى تشبثهم بتراثهم النضالي. وقد ظلت هورناتوشس إسلامية لفترات طويلة إلى غاية 1234 بعد أن سقطت في أيدي الاسبان[9].

ومن المؤكد أن المجموعة الاسلامية ظلت موجودة بالقرية، معترفة بسلطة الملك، وتؤدي الخراج لعرش قشتالة، التي كانت تسمح لها بالمقابل أن تمارس شعائرها الدينية وهي الفترة التي اصطلح على تسميتها بفترة المدجنين. وظل هذا التسامح الديني هو الغالب إلى نهاية القرن الرابع عشر (1348)[10]

وظل التعايش منذ ذلك التاريخ بين مد وجزر إلى غاية 1502 عندما فرض الملكان الكاثوليكيان التعميد الاجباري بالمنطقة، إذ جابهه الهورناتشيون بقوة[11].

وقدر Salazar de Mendoza (زار المنطقة في بداية القرن السابع عشر) عدد سكانها بحوالي 1000 كانون[12]، في حين قدرها Jaime Bleda بحوالي 1200 كانون[13]، وقدرها Marcos de Guadalajara بحوالي 1000 كانون[14]، فيكون العدد، إذن، ما بين 4000 إلى 5000 نسمة[15]. ولكن الوثائق الكنائسية لا تتحدث إلا عن خروج 3000 موريسكي، ويمكن تفسير هذا بكونهم تركوا أطفالهم الذين لا تتجاوز أعمارهم أربع سنوات.

وعلى كل فإن أهم ما يميز هذه القرية هو طابعها الموريسكي فمن بين 4000 أو 5000 موريسكي لم يوجد أكثر من 100 مسيحي بينهم 20 راهباً، وهذا ما يفسر قوتهم[16].

وقد مارس السكان نشاطات تهم على الخصوص الفلاحة والتجارة، إذ إن القرية بالفعل كانت مركزاً فلاحياً وتجارياً[17].

---

(8) ينتمون الى قبائل نفزة وكتامة ومصمودة، وقد قدموا الى المنطقة في بداية القرن الثامن الميلادي.
انظر
— Andrés Sanchez Pérez, los moriscos de Hornachos, p. 12.

(9) J. Fernández Nieva, op. cit. p. 275.

(10) وجدت وثيقة بالمنطقة تشير الى زواج شابين حسب الاعراف الاسلامية.
انظر
J. Fernández Nieva, op. cit. p. 277.

(11) اختار البعض منهم طريق الهجرة، اذ هاجر منهم 34 موريسكيا الى البرتغال، لكن الاغلبية الساحقة فضلت البقاء في ارض الأجداد، مفضلة المواجهة المباشرة.
انظر في هذا الصدد
J. Fernández Nieva, Loc. cit.

(12) S.I.H.M. 1ère série, France,.3. 187.

(13) **Crónicade los moros de Espana**, p. 921.

(14) **Memorable expulsión**... p. 122.

(15) B. Vincent, op. cit. p. 435.

(16) B. Vincent, op. cit. pp. 435-436.

(17) B. Bennassar, op. cit. p. 288.

وكانت تزرع بالمنطقة الحبوب والخضر والفواكه التي لم تكن تتوفر في كثير من المناطق الاسبانية الاخرى، مثل الرمان والكروم والليمون[18]. كما كانوا يعتنون بتربية النحل[19]، وبتربية الماشية تربية كثيفة[20].

وعلى العموم فقد كانت هورناتشوس قبيل الطرد مدينة غنية ذات فلاحة متنوعة وكثيفة[21]. وبعد الطرد، وبالضبط في سنة 1672، بعد أن عمرت من جديد من طرف الاسبان، زارها الفرنسي A.jouvin فلاحظ أن الأراضي الزاعية فيها مجهورة[22].

المواجهة

كل الذين زاروا المنطقة أو عاصروا أحداثها أكدوا على خطورة هذا المركز بالنسبة لباقي المراكز الأخرى، وقد كانت المواجهة طويلة وعنيفة، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة فروع أساسية

يقول Salazar de Mendoza «كان الهورناتشيون يتعاملون فيما بينهم في إطار جمهورية لها مجلسها Consejo de Estado الذي يجتمع في أحد كهوف جبال المنطقة، وكانوا يشتغلون بالنقل لأنهم يعرفون الطرق الاسبانية جيداً كما ضربوا سكة مزورة، وكانت لهم مراسلات مع الأتراك والمغاربة. وكانوا يأتون إلى طليطلة (للتباحث مع موركسيين آخرين) بواسطة طريق خالية تسمى Moruna»[23].

واستخدموا جميع الوسائل للمحافظة على هذا (الكيان المستقل)

— فقد حصلوا من فليب الثاني على حق حمل السلاح مقابل 30 ألف دوكا[24].

— وبفضل الرشوة المقدمة إلى رجال القصر ومحاكم التفتيش تمكنوا من الإفلات في فترات عصيبة من المتابعة[25].

— كما كانت لهم أماكن لضرب السكة المزورة السلاح داخل الكهوف[26]، وذلك بفضل

---

(18) J. Fernandez Nieva, op. cit. p. 273.

(19) Andrés Sánchez Pérez, op. cit. p. 14.

(20) J. Fernández Nieva, op. cit. p. 273.

(21) Guillermo Gozalbes Busto, op. cit. p. 44.

(22) J. Fernández Nieva, Loc. cit.

(23) 8S.I.H.M. 1ère série, France, 3 187-188, note 4 Jaime Bleda, op. cit. p. 921. Fr. Marcos de guadalajara, op. cit. p. 122

(24) R. Coindreau, op. cit. p. 36, Jacques Caillée, **Histoire de la ville de Rabat**, 1 213.

(25) J. Bleda, Loc. cit. Jean-Marc Pelorson, "Recherches sur la comedia los moriscos de Hornachos" in **Bulletin Hispanique**, vol. LXXIV, Janvier-Juin 1972 n° 1-2 P. 11.

(26) كان لديهم ثلاثة صناع بالاضافة الى عدد كبير من الشركاء وتورد المصادر الاسبانية بعض الاسماء المشهورة مثل Francisco Blanco الذي كانت تبحث عنه السلطات الاسبانية باستمرار.
انظر Andrés Sanchez Pérez, op cit p. 34

استغلالهم للمعادن بالمنطقة مثل الفضة والرصاص والفحم[27]، كما كانوا يصنعون داخل المناجم نفسها[28].

وبالاضافة إلى هذا النشاط المكثف داخلياً، فقد كانوا على اتصال دائم مع الخارج، إذ أكد راهب هورناتشوس Diego de Cuenca في رسالة بعثها إلى مجلس الدولة الاسباني (قبيل الطرد) أن الهورناتشيين يستقبلون سفراء من سلطان المغرب (زيدان) قصد الثورة ضد إسبانيا[29].

وكانت هورناتشوس مركزاً إسلامياً وسط أرض مسيحية[30]، وهذا ما يوضحه 133 محضراً من محاضر محاكم التفتيش[31].

— فقد كان سكان هورناتشوس يستغلون انعزالهم الطبيعي (بعملهم في الحقول) لأداء الصلوات الخمس اليومية (داخل مغارات الصخور).

— ويصومون رمضان.

— ويحتفلون بيوم الجمعة كعيد ديني، إذ يقومون بزيارة بعضهم البعض، ويقدمون الصدقات لفقرائهم.

— ويدفنون موتاهم حسب القواعد الاسلامية، إذ يغسل ويكفن ويتلون عليه القرآن، ولا يتركون أي مسيحي يقترب منهم[32].

— ولا يأكلون لحم الخنزير، ويمنعون الآخرين من تربيته.

— كما كانوا يحفظون القرآن ويتعلمون العربية، إذ أكد J.Bleda في هذا الصدد «أنهم لا يعرفون اللغة القشتالية، ويعرفون فقط اللغة العربية»[33] وأكد النبيل الألماني Erich lassota de steblovo الذي زار المنطقة في 6 يونيو منذ سنة 1580 أنهم «يتكلمون العربية فقط»[34]، وقد توصلت محكمة التفتيش لِيرِينا lerena إلى مجموعة من الكتب العربية وأرسلتها إلى اشبيلية لترجمتها[35]، ويفسر وجود

---

(27) Andrés Sanchez Pérez, Loc. cit.

(28) andrés Sanchez Pérez, Loc. cit.

(29) انظر نص الرسالة عند

Jean-Marc, Pelorson, op. cit. pp. 41-42.

(30) B. Bennassar, op. cit. p. 288.

(31) كانت هورناتشوس تابعة لمحكمة تفتيش lerena ، وقد ازداد نشاطها كثافة فيما بين سنتي 1585—1610، انظر

J. Fernández Nieva, **La Inquisición y los moriscos Extremenos**, p. 18.

(32) Andrés Sanchez Pérez, Loc. cit.

(33) J. Belda, Loc. cit.

(34) J. Fernandez Nieva, El en Frentamiento entre moriscos y cristianos viejos, in **Les morisques et leur temps, p. 272.**

(35) Ibid, p. 272.

هذه الكتب بأن جميع التجمعات العائلية كانت منصبة أساساً على التعليم الديني، إذ أن فقهاء هورناتشوس كانو يدرسون السيرة النبوية، وكانت هذه الكتب تأتي بالخصوص من غرناطة(36).

وهكذا فإن المصادر المعاصرة أكدت أن الهورناتشيين كانوا يرفضون بصفة قاطعة كل طابع مسيحي لقريتهم(37). فقد قاموا بتخريب تمثال القديس Saint Jacques وتمثال القديس Saint Pierre(39)، كما كانوا يغسلون أبناءهم من آثار التعميد في أماكن خاصة يسمونها Morquiés(40) ونتيجة لذلك فقد بعث مجلس الدولة الاسباني بالقاضي Gregorio Popez Madera الذي حكم على العديد منهم بالشنق أو التجذيف في البحار(41). وأصبحت هورناتشوس بالفعل تشكل قلقا دائما لمجلس الدولة الإسباني.

لم يكتف الهورناتشيون بالصمود أمام المد المسيحي، بل إن عملهم في هذا المجال كان أقوى من باقي المناطق، وذلك بالتصدي لجميع المحاولات المسيحية التي من شأنها أن تفكك هذا التجمع الاسلامي الصامد، فقد أكدت المصادر الاسبانية أنه «كان لديهم عدد من المجاهدين كانت مهمتهم تعكير صفو السلام بين المسيحيين»(42)، كما كانوا يقومون بتصفية كل من يمر بقريتهم من المسيحيين(43). وكذا تصفية كل من يحاول المساس بنظام الحياة عند المورسكيين(44)، بالاضافة إلى أعمال «السلب والنهب والسرقة» ضد المسيحيين(45). ونتيجة لذلك فقد قام Madera بعدة تحريات أدت إلى اكتشاف عدد كبير من القتلى في مغارات الجبال المحيطة بالمنطقة، وهذا كان يدخل الرعب في نفوس الاسبان، وينفرهم من الاستقرار بالمنطقة أو المرور قربها، مما كان يهيء الظروف الملائمة للهورناتشيين لتنفيذ مخططاتهم بمنأى عن أعين الرهبان ومحاكم التفتيش. وقد فشل جميع الحكام الذين توالوا على النطقة في مواجهتهم للهورناتشيين(46)، وتكونت بذلك قناعة بضرورة اتخاذ قرار حاسم تجاه

---

(36) B. Bennassar, op. cit. p. 288.

(37) J. Bleda, Loc. cit.

(38) H. De Castries, les trois républiques du Bou Regrag, in **I.S.H.M**, 1ère série, Pays-Bas, 5 p. 6.

(39) Henri Lapeyre, **Géographie de l'Espagne morisque**, p. 147.

(40) Jean-Marc Pelorson, op. cit. p. 41.

(41) Henri Lapeyre, op. cit, p. 147.

(42) J. Bleda, Loc. cit.

(43) Fr. Marcos de Guadalajara. Loc. cit.

(44) J. Bleda. Loc. cit.

(45) F.R. Marcos de Guadalajara. Loc. cit.

ملاحظة

من المعلوم ان المصادر الاسبانية تسمي ما يقوم به المورسكيون (قتلا وسلبا ونهبا) في حين يعتبرو المورسكيون جهادا في سبيل الله القصد منه المحافظة على (الكيان العربي الاسلامي) بالمنطقة.

(46) انظر لائحة الحكام الذين توالوا على المنطقة عند :

J. Fernández Nieva, op. cit. p. 281.

هؤلاء، خاصة أن الأمر لم يكن مجرد قضايا دينية تعرض على محاكم التفتيش بل اكتشفت اتصالات هؤلاء القوية مع المورسكيين داخل إسبانيا، واتصالاتهم مع العالم الاسلامي (خاصة المغرب) لتنظيم ثورة عارمة في إسبانيا تعيد لهم جزءا مما ضاع منهم. وكان بالفعل أن اتخذ القرار الحاسم في دجنبر 1609 يقضي بطرد مورسكيي غرناطة ومرسية والأندلس، ونفس القرار ينص أيضاً على طرد موريسكيي هورناتشوس رغم ان هذه القرية لا تدخل في حدود هذه الممالك[47]. وهكذا عمد Madera إلى تجميع أكثر من 3 آلاف مرسكي ونقلهم إلى شبيلية انطلاقاً من يناير سنة 1610، مستثنياً من ذلك الأطفال الذي يتراوح أعمارهم بين 4 سنوات و6 سنوات، وقد أدت هورناتشو وحدها 22 ألف دوكا كواجب الانتقال إلى المغرب[48].

---

(47) J. Bleda, op. cit. p. 1038.

(48) Andrés Sanchez Pérez, op. cit. p. 38.

ملاحظة

هناك من يعتقد ان الهورناتشيين كانوا يعلمون بنوايا مجلس الدولة الاسباني فهاجروا طواعية الى المغرب، وهذا اعتمادا على اشارة عابرة للاب DAN في كتابه

Histoire de la Barbarie et ses corsaires p. 175)

ولكن كل الوثائق المتوفرة لدينا حاليا تشير إلى أنهم لم يغادروا هورناتشوس إلا بعد صدور الطرد في 9 دجنبر 1609.

انظر في هذا الصدد :

H. de Castries, op. cit. p 7.

J. Caillé, op. cit. 1 : 213 note 5.

موريسكيو بلنسية

زار فليب الثالث بلنسية سنة 1599 وتدارس المشكلة الموركسية مع حاشيته هناك واتفق الجميع على ضرورة الاستمرار في تنصير الموركسيين قسراً، وأصدر بشكل مواز مراسيم ملكية بالعفو إذا اعترفوا (بجرائمهم) وطلبوا الصفح. كما طلب إلى رجال الدين التوقف من ملاحقتهم وإيذائهم إذا هم نفذوا ما طلب منهم، وطلب في نفس الوقت أن تكثف عملية تلقين المسيحية على الوجه الأكمل للموركسيين(49).

وهكذا نلاحظ أن الملك لم يكن راغباً في بداية الأمر بتهجير الموريسكيين وإن قر قراره على تبشيرهم بالمسيحية بشكل كاف وسريع. لكن العملية لم تمر بالشكل الذي أراده الأساقفة فقد أعلن المحقق العام لمحاكم التفتيش أنه لم يعتنق المسيحية طوعية إلا 84 موريسكيا، كما اعترف رئيس أساقفة بلنسية بأنه فشل في مهمته حينما حاول منذ سنتين تنصير الموركسيين بحسن المعاملة، وعلى ضوء ذلك طلب من الملك ومن رئيس وزرائه الدوق لرما Lerma تهجير الموريسكيين عن المملكة(50). ومع ذلك فقد أصدر البابا بولو الخامس (Paulo V) عفوا عاما لمدة سنة، وأخبر الموريسكيون في نفس الوقت أن هذه آخر فرصة لديهم وإلا اتخذ في شأنهم الاجراءات الزجرية الحاسمة، لكن الموركسيين واصلوا المقاومة والتصدي لهذه القرارات الزجرية. ولما رأى أسقف بلنسية أن الملك والدوق لم يتخذا أي قرار عملي فوري لتهجير الموريسكيين بعث بتقريرين جديدين إليه يوضح فيهما خطر المورسيكيين على البلاد وتزايد حركتهم واقترح ثانية تهجيرهم تدريجياً.

بدأت المسائل تقترب من النهاية عندما اتفق الموركسيون مع السفير الفرنسي Panissoult الذي بعث به الدوق de la Force حاكم منطقة Béarn على موعد للثورة. لكن الأب Jaime Bleda استطاع أن يكتشف المؤامرة ويبلغ عنها قبل التنفيذ، فأحبطت وأعدم رؤساؤها شنقاً، وإثر ذلك أصدر الأمر إلى نائب الملك ببلنسية بإلقاء القبض على أي موريسكي يحاول الهرب من بلنسية برا أو بحرا(51). وقد طلب أسقف بلنسية استبدال تعذيب الموركسيين بتهجيرهم «لأنهم كافة لا يؤمنون بالدين المسيحي، إضافة إلى أنهم على صلة تكاد لا تنقطع بمجاهدي البحر المغاربة، وبهنري الرابع ملك فرنسا، وهم وراء اختفاء مجموعة كبيرة من الأطفال والنساء الاسبان، إذ يختطفهم هؤلاء ليصدوهم عن دينهم في شمال إفريقيا، وإذا أهملت إسبانيا الموركسيين ومؤامراتهم فستنهار قريبا لا محاله...)(52). وقد شكر الملك ورئيس وزرائه الدوق لرما الأسقف على إخلاصه للكاثوليكية لكنها لم يتخذا أي قرار عملي في هذا الشأن.

(49) Boronat y Barrachina, **los moriscos espanoles y su expulsión**, 2, 8-10.

(50) Boronat y Barrachina, Loc. cit.

(51) A. Dominguez Ortiz y B. Vincent, **Historia de los moriscos...**, pp. 173-174.

(52) Henry Kamen, **la Inquisicion Espanola**, p. 126.

وقد ازدادت الوضعية استفحالاً مما اضطر معه مجلس الدولة إلى الاجتماع من جديد وأقر على أنه من الضروري أن ينصر الموريسكيون ثانية، ويطلبوا بياناً بالعفو، وأن يعلموا أصول الدين المسيحي. أما من يرفض التنصير فيجب تهجيره من المملكة آخذين برأي الدوق ليرما الذي كان يقول دائماً «لا تصبح مما لك إسبانيا نقية طاهرة إلا بإقصاء الموريسكيين عنها»(53).

لكن هذا القرار ظل أثره محدوداً إلى أن صادق مجلس الدولة الاسباني على قراره الحاسم في 4 أبريل 1609 والذي يقضي بطرد جميع الموريسكيين من إسبانيا خاصة أن الظروف الدولية أصبحت مواتية له(54).

(53) Joan Regla, **Estudios sobre los moriscos, p. 49**

(54) سبق لاسبانيا ان عقدت اتفاقية مع انجلترا سنة 1604، كما عقدت اتفاقية هدنة لمدة 12 سنة مع هولندا سنة 1609. انظر في هذا الصدد :

F. Braudel, op. cit, 2 : 128, H. Lapeyre, op. cit. p. 51

قــرار النـفــي

يمكن تلخيص الاسباب التي أدت إلى طرد المورسكيين في ثلاثة أسباب

السبب الأول فشل سياسة الادماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الاسبانية، فقد كتب الملك يقول في الديباجة «... إنكم لعلى علم بمحاولاتي مدة سنين طويلة لتنصير موريسكيي هذه المملكة (بلنسية) وكذلك موريكسيي قشتالة، وبإصداري أوامر العفو منة مني عليهم، وبمساعي لتفقيههم في ديانتنا المقدسة، وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها، إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد، بل على العكس لم يزدد إصرارهم إلا حدة...»(55).

وهذا ما أكدته الترجمة التي أوردتها المصادر الأندلسية للقرار فقد كتب الشهاب الحجري في الترجمة التي قام بها للسلطان مولاي زيدان ما يأتي «... قد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدود (كذا) الأندلس (كذا) أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والارشاد لاثباتهم في ديننا المجيد وايماننا ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيراً لأنه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة...»(56)، وكذلك الأمر بالنسبة لابن عبد الرفيع حيث يقول في ترجمته للقرار «... والتجربة أظهرت لنا عياناً أن الأندلس (كذا) الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مراراً وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم... مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم ورجوعهم رجوعاً صالحاً من قلوبهم لدين النصرانية، وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا...»(57).

السبب الثاني الذي أورده النص الرسمي الاسباني يقول «أنه من المعلوم أن موريسكيي هذه المماليك قشتالة تقدموا أكثر فأكثر في تنفيذ مشاريعهم الشنيعة، وبما أني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة أنهم في إصرارهم على الردة والضلال أرادوا ويريدون دائماً الشر والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم، وكذلك بسبل أخرى...»(58).

وبذلك لم يوضح هذا النص ما هي هذه المشاريع الشنيعة ؟ ولا ما هو الشر والفساد الذي كان يسعى إليه المورسكيون للمملكة ؟ وإلى من كان هؤلاء السفراء ؟

وما هي السبل الأخرى التي كان يستخدمها المورسكيون ؟

(55) انظر القرار عند
Mercedes Gerciá Arnela, **los Moriscos, PP 251-253.**

(56) ناصر الدين على القوم الكافرين 106 /107.

(57) الانوار النبوية في اباء خير البرية، 331.

(58) Mercedes Garciá Arenal, loc. cit.

ذلك ما توضحه المصادر الأندلسية بتفصيل فقد أورد الشهاب الحجري في ترجمته السالفة الذكر ما يأتي «... ونحن في هذا تحققنا وصح من وجوه، أنهم بعثوا للتركي الكبير باصطنبول ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم وأنهم عندهم مائة وخمسون ألف رجلا مسلمون مثل الذين ببلاد المغرب الافريقية، وأيضاً لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا (كذا) أنهم يعينهم ببعفونهم (كذا) وأما سلطان اصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس، لأنه كان يشغله، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها، وإذا تفرقوا جميعاً مع هؤلاء نرو (كذا) نفوسنا في الأمر الدذي لا يخفى...»(59).

أما ابن عبد الرفيع فقد أورد الترجمة على الشكل الآتي ...وظهر منهم العناد بعيشهم فيه بصفة دائمة واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات إلاسلامية ومعاملات دينية، وقد تلقيت ذلك من إخبارات صادقة وصلت إلي، ومع هذا إن أحداً منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يديرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم...»(60).

واضح، إذن، أن النص الرسمي الاسباني كان يشير بذلك إلى علاقة الموريسكيين مع المغرب والأتراك وكذا مع الفرنسيين.

السبب الثالث : لم يتعرض له البيان الرسمي الاسباني ولكن الموريسكيين كانوا يعرفونه جيداً، فقد سئل الشهاب الحجري — أثناء سفارته بهولندا — عن السبب الذي أدى بفليب الثالث إلى طرد الموريسكيين فأجاب «... اعلم أن الأندلس كانوا مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الاسلام ويحكمون فيهم، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم ولا كان يحمل منهم أحداً إلى الحروب، وهي التي تفني كثيراً من الناس، وكان أيضاً يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم، والبحر يفني كثيرا من الرجال، وأيضاً في النصارى كثيرون قسيسون، ورهبان، ومترهبات وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهبان ولا مترهبات، إلا جميعهم يتزوجون، ويزداد عددهم بالأولاد وبترك الحروب، وركوب البحر. وهذا الذي ظهر في على إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون...»(61).

وفعلاً فإن الموريسكيين كانوا يزدادون بنسبة أكبر من نسبة ازدياد الاسبان، فمن خلال إحصاء 1565 / 1572 إلى غاية الطرد (1609) ازداد الاسبان بنسبة 44،7% في حين ازداد الموريسكيون بنسبة 69،7%، وهذه النسبة المرتفعة كانت تشكل قلقاً دائماً بالنسبة للاسبان إلى أن وجدت «الحل» أخيراً(62).

---

(59) ناصر الدين على القوم الكافرين، 107.
(60) الانوار النبوية في آباء خير البرية، 331.
(61) ناصر الدين على القوم الكافرين، 103—104.
(62) P. Chaunu, "Minorités et conjoncture, l'explusion des Morisque, en 1609", in **Revue historique**, Paris 1961, cc xx v, n° 1, p. 90.

رأينا أن السلطان زيدان كان يرسل مبعوثيه إلى إسبانيا قصد البحث عن إمكانية تقديم الدعم للموريسكيين(63).

ويرى الباحث الاسباني Julio caro Baroja أن انتصارات السلطان زيدان على الشيخ المامون هي التي دفعت مجلس الدولة بالتعجيل بطرد الموريسكيين، لأن الاسبان كانوا يعلمون بالدور الذي كان يقوم به زيدان، ومشاريعه لغزو الأندلس(64)، ولهذا سوف يقوم الاسبان بأعمال موازية داخل المغرب تمكنهم من ضمان سلامة شواطئهم بعد استقرار الموريسكيين به، خاصة أن المشكل لم يكن يمر بسهولة على المغاربة، فقد عمل مع زيدان حوالي 500 من مهاجرة الأندلس في مواجهة أخيه المامون(65)، وكان الموريسكيون كذلك يعملون باتصالاته في هذا الشأن مع الباب العالي ومع الهولنديين(66) في حين سجل الموريسكيون للمامون عدة مواقف خيانية

— فقد سجلوا خيانته لهم وهو بإسبانيا، ذلك «أن المسلمين لما كانوا في بلاد النصارى أعلمه رئيسهم بأن جلهم في الجيش وأنهم مستعدون وأنهم أقوام كثيرة نحو ثمانية آلاف رجل يقومون على النصارى ويستندون عليه في قيامهم عليهم ظنا منهم فيه أنه مسلم ينصر المسلمين ويعنيهم، ففضح بسرهم عند سلطان النصارى وأراد أن يحرق جموعاً منهم فتشفع فيهم لأجل صداقته له واستشار فيهم معه فأشار عليه أن يخرجهم من أرضه فكان الأمر كذلك...»(67).

— وسجلوا خيانته الثانية عند تسليم العرائش للاسبان سنة 1610 مقابل 200 ألف دوكا(68). وقد كانت مرفأ هاماً لعمليات الجهاد البحري التي يقوم بها الموريسكيون، بالاضافة إلى أنها كانت ملجأ لعدد من الموريسكيين الذين قرروا الاستقرار بالمنطقة، إذ تذكر المصادر الاسبانية في هذا الصدد أن المدينة عند احتلالها كان بها حوالي 150 من الموريسكيين المطرودين يشتغلون بالزراعة في الحقول والبساتين وبأعمال البناء، إلا أن أكثرهم لم يكن محل ثقة من طرف الاسبان إذ أبعدوهم عن المدينة ولم يتركوا إلا 30 موريسكيا «برهنوا على تمسكهم بالمسيحية واتقانهم لمهمة الترجمة والتجسس»(69).

وفعلاً فقد توصل حاكم العرائش Valdés برسالة من الدوق ليرما (قائد عمليات طرد الموريسكيين من إسبانيا) يخبره فيه بأن موريسكيا من تطوان سيفجر حصن Nuestra senóra بمدينته(70).

(63) Jean-Marc Pelorson, Op. cit. PP. 41-42.

(64) **Los Moriscos del Reino de Granada**. PP. 224-225

(65) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 93

(66) **S.I.H.M.** 1ère série, Pays Bas, 1.670

(67) المؤرخ المجهول، المصدر السابق ص 96.

(68) S. I. M. 1ère serie, Pays Bas, 1 628.

(69) Tomas Garcia Figueras y Carlos Rodriguez Joulia,. saint cyr, Larache, datos para su historia en el siglo XVII, P. 191

(70) Tomas Garcia Figueras, op. cit. p. 108.

— وسجلوا خيانته أيضاً عندما أوعز إليه الاسبان بقتل «حارس البحر مراد برتقيش» وهو من المتعاونين مع المورسكيين، يقول المؤرخ المجهوا في هذا الصدد «... وتصرف في تطاون قائده حمو بودبوز وقتل مراد برتقيش في غرض النصارى، كان — رحمه الله — رجلًا تركيا وسكن تطاون وكانت له فركاطة يدخل بها في كل شهر أربعة غنائم أو خمسة فضاقت منه النصارى أهل جبل الطر مع أهل سبتة فأرسلوا إلى الشيخ العدو، المخذول يشكون أذى حارس البحر فقتله الشيخ ليلًا وغيبه في غرض النصارى...»(71).

— كما سجلوا احتياله لاغتيال المقدم أحمد النقسيس بتطوان(72).

— وصل به الأمر في الأخير إلى أن أسرى المسلمين كانوا يفرون من طنجة فيرجعهم إليها(73).

وهكذا وصل المامون في علاقته مع المورسكيين إلى خط عدم الرجعة، إذ يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد «وبغشه لأهل الأندلس وغدره إياهم وبإعطائه مدينة العرائش ختم أفعاله...»(74). وتكونت قناعة لدى مجاهدي تطوان بضرورة تصفيته، وفعلًا تمت تصفيته سنة 1022 / 1613 «وبقي في فج الفرس مطروحاً خمسة أيام بلياليها والناس يأتون يشاهدونه وكانت عليه سمة النصراني...»(75).

أما بالنسبة للجانب الاسباني فقد انتشر احتلال العرائش بسرعة، وبعث فليب الثالث برسائل إلى جميع سفرائه يخبرهم بالحدث وقرر مجلس الدولة الاسباني الاحتفال بهذا الحدث «الذي أتى ليعزز عملية طرد المورسكيين من إسبانيا «فأقيمت الصلوات والأفراح ونظمت الاستعراضات ابتهاجاً بانتصار المسيحية في جبهتين داخلية بإتمام طرد المورسكيين، وخارجية باحتلال العرائش(76). لنا أن نطرح سؤالًا بعد هذا كله هل تمكن الاسبان بالفعل من الحد من عمليات الجهاد البحري باستيلائهم على العرائش ؟ بمعنى آخر هل تحقق غرض الاسبان بالوقوف في وجه العمليات ألتي كان يقوم بها المورسكيون بالمغرب ؟

لم يحل المشكل إطلاقاً فعمليات الجهاد البحري ازدادت كثافة، إذ تحول إلى مصب سبو حيث مرفأ المعمورة، ومن هناك أخذوا يكيلون الضربات للاسبان، مما جعلهم — مرة أخرى — يفكرون في الاستيلاء عليها، وقد ظلوا بالفعل يناورون إلى أن تمكنوا من الاستيلاء عليها سنة 1614(77).

وباحتلالها للمدينتين السالفتين أصبحت تراقب النقط الستراتيجية الآتية وهران، المرسى الكبير، مليلة، حجرة بادس، سبتة، طنجة، العرائش، الجديدة، المعمورة، وكل ذلك في إطار خطة دفاعية القصد منها حماية شواطئها من المجاهدين، وحماية سفنها الذاهبة إلى العالم الجديد(78).

(71) تاريخ الدولة السعدية، ص 95.
(72) المصدر السابق ص 94—95
(73) المصدر السابق، ص 95
(74) المصدر السابق، ص 97
(75) المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 97
(76) Tomas Garcia Figueras, op. cit. p. 90.
(77) Tomas Garcia Figueras, op. cit. p. 114
(78) Tomas Garcia Figueras, op. cit. p. 90.

لكن عمليات الجهاد البحري لم تتوقف وازدادت حدة بعد أن انتقلت إلى مصب أبي رقراق. وأصبحت أشد عنفاً مما كانت عليه(79).

الموقف التركي

كانت الدولة العثمانية على علم بقضية الموريسكيين عن طريق عدد من المراسلات التي كانت ترد إليها سرا، وكذلك بفضل عدد آخر من الوسطاء أمثال Jeronimo Enriguez(80). وكان الموريسكيون هم الآخرون على علم بكل ما يجري بالدولة العثمانية، وكلما تحرك الأسطول العثماني في عرض البحر الأبيض المتوسط إلا وقوي أملهم في النجدة والمساعدة وبرر ذلك تحركهم السري، بل إن الموريسكيين الذين أمكن لهم النجاة والهجرة خارج إسبانيا، كانوا يعتقدون أن ذلك بفضل التدخل العثماني(81). وقد سعت الدولة العثمانية تمتين علاقاتها مع المغرب، إذ أرسل السلطان أحمد الأول الامرال خليل باشا في مهمة إلى المغرب بتاريخ 2 شتنبر 1613، الظاهر منها، كما يقرره المؤرخون، هو تمتين العلاقات بين الدولتين وتبادل السفراء(82)، غير أن المتتبع والمتأمل في سياسة الباب العالي، في هذه الفترة بالذات، لا ينفي أن تكون مهمة خليل باشا لها علاقة مباشرة بقضية الموريسكيين(83).

ولكن الذي يسترعي انتباهنا أكثر هو المساعي الحثيثة التي قام بها السلطان العثماني أحمد الأول لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية، لمساعدة الموريسكيين بتسهيل تحولهم إلى أراضي الدولة العثمانية، إذ كلف السلطان الحاج إبراهيم أغا بالسفر إلى لندن ومقابلة ملكها جاك الأول Jacques 1er وطلب مساعدته في تسهيل نقل الموريسكيين إلى أراضي الامبراطورية، إلا أن بريطانيا لم تستجب لهذا الطلب نتيجة معاهدتها السالفة الذكر مع إسبانيا (1604)(84).

وقد بعث السلطان أيضاً سفارة أخرى لفرنسا لنفس الغرض فلبت فرنسا الطلب(85).

كما ناشد السلطان دوق البندقية في رسالة بعث بها إليه تقديم كل إعانة لهؤلاء الموريسكيين، كما طلب إليه أن لا «يتدخل في أمورهم أو يتعرض لهم ولأرزاقهم وأموالهم ودوابهم... وهذا أثناء مرورهم بالمنازل والمراحل ليصلوها آمنين سالمين...»(86)

---

(79) سنتعرض الى ذلك بتفصيل في الفصل الثالث من الباب الثاني.

(80) H. Lapeyre, op. cit. p. 178

(81) عبد الجليل التميمي، رسالة من السلطان العثماني احمد الاول الى دوق البندقية حول الموريسكيين «مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 7 /8 يناير 1977 ص 9

(82) Chantal de la Véronne, "Relation entre le Maroc et la Turqui dans la seconde moitué du XVI - in , **Revue de l'occident Musulman et de la méditerranée**, n° 15-16, aix en Provence, 2e semestre, 1973, p. 398.

(83) عبد الجليل التميمي، المصدر السابق ص 10.

(84) نفس المصدر والصفحة.

(85) نفس المصدر والصفحة.

(86) انظر نص الرسالة في المصدر السابق ص 14.

أما بالنسبة لفرنسا فيكفي الرجوع إلى محاضر محكم التفتيش لنتأكد من الاتصالات التي كانت قائمة بين الموريسكيين والفرنسيين، بل لقد اقترحوا قبيل الطرد على هنري الرابع أن يساعدوه في احتلال منطقة Gascogne لكنه رفض رغم تحمس Sully(87).

موقف الموريسكيين

اعتبر فريق من الموريسكيين أن النفي «فرج من الله»

«... وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة (1018 هـ) فرج الله تعالى على مسلمي الأندلس الذين كانوا فيها تحت قهر سلطان البلاد المسمى بفلب الثالث...»(88)، ويذكر ابن عبد الرفيع في هذا الصدد أيضا «ولا يخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة، لما كنا فيه معه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال، فسبحان رب السماوات والأرض الذي إذا أراد أمرا قال له كن ! فيكون ! فيا لها من أعجوبة ما أعظمها ! ومن فضيلة ما أشرفها !...»(89) ويقول موريسكي آخر استقر بتونس «...الحمد لله الذي انتزعنا من أيدي هؤلاء الكفرة (الاسبان)، فقد كان الحقد يزداد والا تابعتنا محاكم التفتيش، وانتزع منا أبناؤنا، وانتهبت أموالنا، ومست أعراضنا، وفي لحظة خاطفة كنا نجد أنفسنا في سجن مظلم كظلمة أغراضهم الدنيئة... ولهذا كنا نطلب من الله تعالى باستمرار أن يزيل عنا هذا الكرب ويسهل لنا أمر الخروج الى دار الاسلام... وظل الأمر كذلك الى ان أوحى الله تبارك وتعالى الى فليب الثالث ومستشاريه باخراجنا من اسبانيا...»(90)، وسئل فقيه موريسكي عن سبب اغتباط الموريسكيين أثناء الهجرة فأجاب «انهم كثيرا ما سعوا الى شراء قارب أو سرقته للفرار الى المغرب مستهدفين لكثير من المخاطر، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجانا، ألا ننتهزها للعودة الى أرض الأجداد حيث نستظل بحماية سلطاننا، سلطان الترك، وهناك نعيش أحرارا مسلمين لا عبيد كما كنا»(91).

على أننا لا يجب أن نفهم أن هذا الموقف كان موقفا استسلاميا، فقد كانوا يعتبرونه موقفا مرحليا فقط الغرض منه الالتجاء الى الأتراك لاسترجاع ما ضاع منهم، وهذا ما سجله الرهبان الذين قادوا عمليات الطرد إذ صرح Aznar Cardona «بأن الموريسكيين كانوا يخرجون وهم يهددون الاسبان بأنهم سيرجعون بمساعدة الأتراك لاعادة الاسلام الى اسبانيا»(92)، كما أن العروض منهم ظل لوقت طويل يحتفظ بمفاتيح بيوته بالأندلس على أمل الرجوع(93). ورفض الفريق الثاني الهجرة، وعرض على

---

(87) L. Cardaillac, **Le Passage des Morisques en languedoc**, thèse inédite Monpellier, 1970, p.7.

(88) الشهاب الحجري، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، 2.

(89) ابن عبد الرفيع، **الانوار النبوية في آباء خير البرية**، 336.

(90) Henri Pieri, l'accueil par des tunisiens aux Morisques in **Etude sur les Moriscos andalous en Tunisie**, p. 132.

(91) محمد عبد الله عنان، **نهاية الاندلس**، ص 398.

(92) Jacqueline Fournel - Guerin, op. cit. p. 314.

(93) ناصر الدين السعيدوني، «الجالية الاندلسية بالجزائر»، مقال بمجلة **اوراق**، مدريد، العدد الرابع، 1981. ص 121.

الملك — من خلال النبلاء والسادة ونائبه ببلنسية — مبالغ كبيرة، وعرضوا عليه كذلك أن يفتدوا الأسرى الاسبان الذين كانوا بأيدي مجاهدي البحر المغاربة والأتراك مهما كان الثمن، وعرضوا عليه في الأخير العمل في السفن (التجذيف) مقابل بقائهم، لكن الملك لم يأبه لتلك العروض واستمر في تنفيذ مخططه فلم يبق لهم إذن إلا الدفاع عن بقائهم بأرض أجدادهم بالقوة، وهكذا فقد التجأوا الى الجبال وتجمعوا قرب Gandia، واعتصمت جماعة أخرى منهم بين دانية والكوى Denia y Alcoy وأعلنت ثورتها، وانضمت اليها عشرون قرية في جبال Bernia. وقد قدر عدد الثائرين بحوالي 20 ألف تجمعوا في وادي الهار Vallé de Alhar فقتلوا وكيل الشرطة المكلف بتهجيرهم ونجح الفقيه عميرة في اشعال الثورة في كوفرنتيس Cofrentes وخلانثي Jalance فتبعه موريسكيو مويله دي كورتيس Muela de Cortes وهناك نصبوا عليهم ملكا يقودهم[94]، واستمرت الثورات بعد ذلك في عدة مناطق أخرى. لكن كان كل شيء قد انتهى بالنسبة للموريسكيين داخل اسبانيا، إذ تجندت هذه الأخيرة — بمساعدة الدول الأوربية — (لتسوية) هذه المسألة.

أما بالنسبة للطرف الآخر (الجانب الاسباني) فإن النبلاء والسادة وقفوا ضد هذا القرار، نظرا للأرباح الطائلة التي كان يجنيها هؤلاء من خلال العمل الشاق والمتقن الذي كان يقوم به الموريسكيون، لذلك فقد ارسلوا مندوبيهم الى الملك والد وق ليرما، وأوضحوا له الخسائر والأخطار التي تهدد البلاد في اقتصادها وأديرتها وجامعاتها[95].

كم بلغ عدد الموريسكيين المطرودين من اسبانيا ؟

بالنسبة للمؤرخين الذين شاركوا في الأحداث أو على الأقل عاصروها نجد

Bleda يقدرهم بحوالي	340.672 موريسكي
Penalosa يقدرم بحوالي	310.000 موريسكي
Salazar de Mondoza يقدرهم بحوالي	313 000 موريسكي

(94) مؤرخ موريسكي مجهول، ص 175 — 180
نقلا عن محمد عبده حتامله، «موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فليب الثالث»، بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية، تونس، 1983.

(95) Jacqueline Fournel-Guerin, op. cit. p. 312.

وهناك مؤرخون آخرون من القرن السابع عشر أعطوا أرقاما أخرى

Moncada	400 000 موريسكي
Escolano	600 000 موريسكي
Rodrigo Mendez Silva	900 000 موريسكي (96)

وهناك مؤرخون أوربيون آخرون أوصلوا الرقم الى غاية مليون موريسكي مطرود لكن Lapeyre استبعد تماما هذا الرقم، إذ كيف يتم نقل مليون شخص بوسائل بداية القرن السابع عشر ؟ (97)

اما المصادر الموريسكية فتقدر هذا العدد كالآتي :

الشهاب الحجري	800 000 موريسكي (98)
ابن عبد الرفيع	600 000 موريسكي (99)

وعلى كل فإن جل الباحثين يركزون على رقم 000 300 موريسكي كانوا باسبانيا آنذاك، وان عدد المطرودين منهم بلغ حوالي 000 275 موريسكي، أي ان حوالي 25 ألف موريسكي استطاعت البقاء في اسبانيا بعد فترة الطرد(100).

بقي لنا أن نتساءل بعد هذا عن الآثار الناجمة عن فقدان اسبانيا لحوالي 275 ألف نسمة من سكانها البالغ عددهم آنذاك حوالي 8 ملايين نسمة.

الآثار الناجمة عن الطرد

أدى الطرد على المستوى العمراني الى فراغ العديد من المراكز، ففي خلال سنتي 1613 و 1614 عند ماكان Juan Bautista يزور منطقة الأراجون لاحظ الفراغ المهمول بها

Longares لم يبق بها الا 15 ساكنا من أصل 1000 ساكن كانوا بها قبل الطرد.

(96) H. Lapeyre, op. cit. p. 206, Pierre Chaunu, op. cit. PP. 87-88

(97) H. Lapey, loc. cit.

(98) ناصر الدين على القوم الكافرين، 41.

(99) الانوار النبوية في اباء خير البرية، 335

(100) H. Lapeyre, op. cit. 206, P. Chaunu, op. cit. PP. 87-88 F. Braudel, op. cit. 2 129.

Jean Monlau, **les etas Barbaresques**, collection que sais-je ? n° 1097. P. 73.

120	من 3	Alfamen
300	من 100	Clanda
700[101]	من 80	Miedas

وكان للطرد آثار سلبية على الميدان الفلاحي باسبانيا، فقد ظلت الضياع مهجورة مخربة لوقت طويل نتيجة تخريب السدود والقنوات، وأهملت العديد من الزراعات كزراعة قصب السكر والقطن وتربية النحل ودودة القز. وحاول النبلاء والسادة تعويض الموريسكيين بمزارعين آخرين لخدمة أرضهم لكن جهودهم لم تعط أية نتيجة[102].

وهكذا فقد لاحظ المركيز de Aytona سنة 1610 ان الملكيات الزراعية قل ثمنها نتيجة وفرة العرض على الطلب بفعل نقص الأموال وقلة السكان[103].

وتضررت اسبانيا كثيرا في الجانب الصناعي والتجاري، إذ كان الموريسكيون يمارسون الصناعة والتجارة بمهارة فائقة كانت تدهش الاسبان أنفسهم، فقد اختفت بعض الصناعات من بعض المناطق مثل سرقسطة التي اختفت منها صناعة الأسلحة[104]، وأغلقت في مناطق أخرى مصانع الورق والحرير والأقمشة[105].

(101) F. Braudel. loc. cit.

(102) للمزيد من الايضاح انظر
Pierre Ponsot, les Morisques, la culture irriguée du blé, et le problème de la décadence de l'agriculture espagnole au XVII• siècle in **Mélanges de la casa de velázquez**, VII, 1971, PP. 237-262.

(103) Jacqueline Fournel Guérin, op. cit. P. 321.

(104) Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. P 318.

(105) للمزيد من الايضاح، انظر
Joan Regla, la expulsión de los Moriscos y sus consecuencias in **Estudios sobre los Moriscos**, pp. 41-191, la expulsión de los Moriscos y sus consecuencias en la economia Valenciana, op. cit., PP. 219-243.

الانتقال

سجل الموريسكيون معاناتهم في البحار وهم في طريقهم الى المغرب «... واتفق لكثير من المسلمين الأندلسيين عند خروجهم أن نهبهم في البحر النصارى وأكثرهم الأفرنج البحرية الذين اكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على ان يبلغوهم في عافية وأمان الى بلاد المسلمين، وخانوهم كل واحد من الرياس في سفينته، وبعد أخذ كلما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين.

وأربعة من تلك السفن المنهوبة خرجت بالمغرب الأقصى، فأحسن المسلمون البربر بالأندلس، وجاءوا الى مدينة مراكش وهي دار سلاطين المغرب وطلبوا من السلطان مولاي زيدان... ان يأذن لهم في ارسال بعض من أصحابهم مع رجال (من) الأندلس الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة، وأسفر نظرهم ان نمشي بأصحابهم وأعطانا السلطان كتابه...»(106).

وهكذا ورغم أن البيان الرسمي الاسباني قد أكد على أن المقصود هو عملية الطرد فقط، وان الاساءة الى الموريسكيين أثناء هذه العملية تعرض صاحبها لعقوبة زجرية، فإن الانتهاكات واضحة سواء داخل التراب الاسباني نفسه أو أثناء عملية نقلهم في البحار، فقد استغلها الاسبان فرصة لنهب وسلب الموريسكيين سواء في البر أو البحر. وقد شارك في هذه العملية الشنيعة أرباب السفن الفرنسيين الذين لم يتوانوا عن ارتكاب أفضع الجرائم في حق هؤلاء البؤساء وهذا بشهادة المحاكم الفرنسية نفسها.

وازداد الأمر سوء ما لقيه هؤلاء على يد الأعراب بشمال افريقيا. وقد سجل المقري هذا الانتقال وبين أماكن استقرارهم وما تعرضوا له أثناء عملية انتقالهم «... فخرجت ألوف بفاس وألوف بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكر جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال...»(107).

الانتقال الى المغرب

وكان انتقال الموريسكيين الى المغرب عن طريق المراكز التي يحتلها الاسبان طنجة، سبتة، مليلية... ومن هناك تسربوا الى الداخل(108)، وينتمي هؤلاء الى بلنسية ومنطقة الأندلس وقشتالة،

(106) الشهاب الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، 2 /3

(107) نفح الطيب، 4 528

(108) Juan Penella, le transfert des Morisques Espagnols en Afrique du nord, in **Etude sur les Moriscos andalous en Tunisie, p. 85.**

وغرناطة، ومرسية، وبعض العناصر من الأراجون وكطالونيا[109].

كما انتقل موريسكيون آخرون من وهران الى المغرب بعد ان ضاقت بهم المدينة[110]، وحسب Juan Luis de Rojas فقد تجمع عدد كبير من الموريسكيين بتطوان والقصر الكبير والعرائش لكي يكونوا على مقربة من اسبانيا[111]، وقد أكد هذه الحقيقة الدوق de Medina Sidonia إذ أنه أكد أنه كان يوجد بمدينة تطوان وحدها في سنة 1613 حوالي 10.000 موريسكي[112]. كما استقر عدد آخر بمصب أبي رقراق كما هو معلوم. وبصفة عامة فإن المصادر الاسبانية تقدر عدد الموريسكيين الذين استقروا بالمغرب بحوالي 40.000 موريسكي[113] في حين تقدره المصادر الموريسكية بحوالي 60 ألف موريسكي[114]، لكن المصادر الاسبانية تشير في نفس الوقت الى عمليات التقتيل الجماعية التي تعرض لها الموريسكيون، مما أدى الى ابادة مجموعات كاملة منهم وبالتالي أدى ذلك الى تناقصهم باستمرار[115]. غير ان Lapeyre يتحفظ كثيرا من كلام تلك المصادر ويعتبر أنها بالغت في تقدير عدد القتلى، وان الموريسكيين تعرضوا للسلب والنهب أكثر ما تعرضوا للقتل، وحتى الذين ماتوا فقد كان غالبا موتهم ناتجا عن الجوع والارهاق[116]، يدل على ذلك العديد من محاولات الرجوع سرا الى اسبانيا، إذ لوحظت في هذا الصدد تجمعات موريسكية ضخمة حول سبتة وطنجة[117]. هذا على المستوى العام، أما على مستوى السلطة، فإن المصادر تشير الى الاستقبال الذي حظي به الموريسكيون لدى السلطان مولاي زيدان واهتمامه بقضاياهم وتصفية مشاكلهم، وتفهمه لكل ما يطرحون من قضايا

وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء، ودخل كثير منهم في سفن من الأفرنج من أربع سفن وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة يطلب منهم وكالة ليطلب بالشرع عنهم ببلاد الفرنج، واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجالا (كذا) من المنهوبين لهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج، واتفقوا انني نمشي لهم، وأعطاني السلطان كتابه وركبنا البحر المحيط بمدينة أسفي»[118].

وفعلا فقد أنجز مهمته بنجاح في باريس اعطوني (السلطات الفرنسية) كتاب السلطان

(109) Juan Penella, **Los Moriscos Espanoles Emigrados al norte de Africa, (Resumen de la tesis)** p. 17.

(110) Juan Penella, le transfert des Morisques Espagnols en Afrique du Nord, op. cit. p. 86.

(111) H. Lapeyre, op. cit. p. 207.

(112) H. Lapeyre, loc cit.

(113) Damian Fonseca, **Justa expulsión de los Moriscos de Espana**. p. 200.

(114) الشهاب الحجري، مخطوط المكتبة الجامعية بمدينة Bologne (ايطاليا) ورقة 156 ظ نقلا عن Louis Cardaillac, op. cit. p. 83 note 8

(115) J.L. de Rojas, **Relacion de algunos sucessos prosteros de Berberia** F. 24 V°, 25 V° Fonseca, op. cit. P. 185 sq.

(116) H. Lapeyre, op. cit. p. 207

(117) H. Lapeyre, loc. cit.

(118) الشهاب الحجري، **ناصر الدين على القوم الكافرين**، 30.

بطابع الديوان الكبير للحكام على كافة الدواوين التي ببلاد الفرنج، والأمر فيه ان جميع ما يجد من نهب الأندلس أن يدفعوه لي، وذكر قائد طابع السلطان أن في بلده باولونه واحد وعشرين رئيسا، كل واحد بسفينته نهب الأندلس الذين اكتروها، وكان فيهم واحد من الذين نهبوا احدى السفن التي كانت لي الوكالة عليها...»[119].

ولكن لم يتحقق الأمر الثاني وهو معاقبة الجناة الفرنسيين لسبب يوضحه الشهاب الحجري قائلا «... وأما المسألة التي جئنا اليها بكتاب السلطان لقبض الرياس الذين نهبوا الأندلس وكانوا بالونه، فلم نقض شيئا هنالك، وأظن أن قائد الطابع قبض منهم شيئا لنفسه...»[120].

ونختم عرضنا هذا حول انتقال المورسكيين الى المغرب بملاحظة يوردها الكثير من الباحثين الاسبان ويتعلق بنوعية الفئة المورسكية المهاجرة الى المغرب، ويقارنون في هذا المجال بينها وبين الفئة المهاجرة الى تونس، فيذكرون في هذا الصدد ان الفئة المهاجرة الى تونس فئة متعلقة (من منطقة اراجون) وبذلك ساهمت في تطوير الحياة الثقافية والاجتماعية بتونس، في حين استقرت بالمغرب فئة المورسكيين المجاهدين الذين كانوا يطمحون الى الانتقام من اسبانيا، وبذلك ساهم هؤلاء في تطوير التاريخ الدولي للمغرب أكثر من تطوير تاريخه الداخلي»[121].

الانتقال الى الجزائر

تقاطر عدد كبير من المورسكيين على الجزائر حتى بلغ عددهم في العاصمة وحدها 25.000 موريسكي[122]. وكان استقبالهم على العموم في البداية حسنا بفعل وجود جالية مورسكية مهمة كانت مستقرة بها قبل الطرد، فقد ذكر الأب Haedo على أن عددهم كان يبلغ حوالي 1000 كانون[123].

غير ان هذا الاستقبال الحسن لم يكن في باقي المناطق فقد استقبلت وهران حوالي 22.000 مورسكي لكنها لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم، فاضطر فريق منهم مكون من 500 الى 600 مورسكي الى التوجه الى تلمسان لكن الأعراب نهبوهم، واتجهت جماعة أخرى مكونة من 40 مورسكيا إلى مستغانم لكن كان مصيرها هو مصير الجماعة الأولى[124]. وقد وصف المقري هذا الحادث في عبارته البليغة «فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم[125]، «وانتهى بهم الأمر الى قتلهم وبقر بطونهم مما يظنون ابتلاع الجوهر...»[126]. وقد أثار هذا

---

(119) المصدر السابق، 55.

(120) ناصر الدين على القوم الكافرين، 63.

(121) Juan Penella, **los Moriscos Espagnoles Emigrados al norte de Africa**, Resumen de la tesis, p. 17

(122) Jean Monlaii, **Les Etats Barbaresques**, collection Que sais-je n° 1097 p. 108.

(123) Topografia e historia general de Argel, Folio 9.

(124) H. Lapeyre, op. cit. pp. 55-56.

(125) أحمد المقري، المصدر السابق، 4 528.

(126) المهدي البوعبدلي، مقدمة كتاب الشعر الجماني، ص 27.

استنكار وغضب الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل الذين دعوا إلى معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة الموريسكيين، وكان في طليعتهم الشيخ محمد اقدار التوجيني الذي استنهض الشيخ احميدة العبد وحثه على أن يغزو بعشائر سويد قبيلة هبرة لاعتدائها على الموريسكيين بنواحي ارزيو[127]، وحسب أبي راس الناصري في كتابه **عجائب الأسفار** «فإن احميدة المذكور أتاه بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه **صحيح البخاري**، ثم ساروا ولقتهم جموع هبرة، فانهزمت وركبت سويدا أكتافهم فقتلتهم كيف شاءوا»[128].

لكن الأمر لم يقتصر على الأعراب وحدهم بل تعداهم الى الأتراك أنفسهم، ففي الجزائر العاصمة بعد وصول الموريسكيين بقليل سنة 1512 حل بها جفاف خطير وحُمل الموريسكيون مسؤوليته فصدر أمر من عميد الشرطة التركي بطردهم من العاصمة في ظرف 3 أيام، وطبق هذا القرار بصرامة، حتى ان المرضى والفقراء الذين لم يستطيعوا الخروج قتلوا عنوة[129]، وقد وقع لهم نفس الأمر عندما كانوا بفرنسا إذ اعتبر سكان Narbonne ان الموريسكيين هم الذين يتحملون مسؤولية عدم سقوط المطر بهذه المنطقة وطالبوا بطردهم. وهكذا — كما يقول لوي كارداياك Louis Cardaillac فإن مأساة الموريسكيين انهم كانوا يحملون ماضيهم معهم أينما حلوا وارتحلوا، فهم في اسبانيا وفرنسا مسلمون، وهم في شمال افريقيا مسيحيون[130]. وأمام هذه الوضعية حاول العديد منهم العودة الى اسبانيا، نذكر على الخصوص المحاولة التي قاموا بها سنة 1610 بمساعدة القبطان Garett [131]، والمحاولة التي قاموا بها في نفس السنة بمساعدة القبطان Barret [132].

الانتقال الى تونس

أكد الشهاب الحجري ان جل الموريسكيين انتقل الى تونس «... بلغ نهاية جميع الاندلس بصغارهم لثمان مائة ألف مخلوق، أكثرهم خرج بتونس...»[133]، كما أكد المقري نفس الملاحظة بقوله «... فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس..»[134]، وسارت على نفس المنهج المصادر الاسبانية إذ اعتبرت تونس البلد الذي استقبل أكبر عدد من الموريسكيين، أكبر من العدد الذي استقبله المغرب نفسه[135]، فما هو إذن هذا العدد الذي استقبلته تونس ؟

---

(127) ناصر الدين السعيدوني، المصدر السابق، ص 117.

(128) نفس المصدر والصفحة.

(129) Louis Cardaillac op. cit. p. 62

(130) Louis Cardaillac, loc. cit.

(131) H. Lapeyre, op. cit. p. 207

(132) Juan Penella, le Transfert des Moriscos Espagnols en Afrique du Nord, op. cit., p. 85.

(133) **ناصر الدين على القوم الكافرين**، 41.

(134) **نفح الطيب**، 4 528.

(135) Juan Penella, op. cit. p. 83

صرح القبطان الانجليزي Robert Elliatt ان عدد المورسكيين بلغ بتونس سنة 1615 حوالي 8000 عائلة[136]، وقد حاول الباحث الانجليزي Latham أن يستخرج رقما تقريبا من العدد المذكور فقدره بحوالي 50 ألف مورسكي (بمعدل 6 أفراد لكل عائلة)[137]، لكن المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب يقدر عددهم بحوالي 80 ألف موريسكي[138].

وعلى كل فإن المورسكيين كانوا يتقاطرون على تونس باستمرار إذ لوحظ في سنة 1610 بميناء Agde الفرنسي فقط حوالي 30 ألف مورسكي من الأراجونيين صحبة القنصل التركي الذي كان ينصحهم بالتوجه الى تونس لأنها أضمن لهم[139].

أما عن ظروف انتقال هؤلاء، فقد استغل Miguel de Epalza نوعا جديدا من الوثائق، ويتعلق الأمر بارشيف القنصلية الفرنسية بتونس[140]، إذ استغل حوالي 256 وثيقة لها مساس بالموضوع. ويوضح بعض هذه الوثائق ما عاناه المورسكيون أثناء انتقالهم على يد ربابنة السفن الفرنسية، ومن أمثلة ذلك القضية التي عرفت في المحاكم الفرنسية بقضية Estienne، إذ استولى هذا القبطان على ممتلكات المورسكيين وأنزلهم في شاطىء فارغ قرب بنزرت في 8 يناير 1610، وبعد شهر قام المنهوبون بتقديم شكوى الى محكمة Montpellier، وبعد فترة أصدرت المحكمة حكمها ويقضي باعدام هذا القبطان وحجز سفينته وممتلكاته لتعويض الخسائر التي سببها للمورسكيين[141].

أما بالنسبة لنوعية المورسكيين الذين استقبلتهم تونس، فإننا نلاحظ في هذا المجال أن الأراجونيين يحظون بنصيب الأسد 2/3، بالاضافة الى عدد من البلنسيين والقشتاليين وغيرهم[142]. ولهذه الوضعية آثارها على صعيد استقرار المورسكيين بتونس، فقد اعتبر فئة الأراجونيين هي الفئة الأكثر تعليما في جميع شبه الجزيرة الايبيرية، وبالتالي فإن تأثيرها سيكون بليغا في مختلف مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بتونس[143].

---

(136) Latham, contribution à l'Etude des immigrations Andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie, in **Etude sur les Moriscos Andalous en Tunisie**, P. 30.

(137) Ibid, p. 30.

(138) Coup d'œil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie, in **Etude sur les Moriscos andalous en Tunisie, p. 18.** Jean Monalaii, **op. cit. 73.**

(139) Latham, op. cit. p. 30.

(140) انشئت هذه القنصلية سنة 1582، وقد احتفظت بوثائقها في حالة جيدة، ونشرها P. Grandchamp في 8 اجزاء بعنوان La France en Tunisie au XVIII• siècle, (1920-1930).

(141) Miguel de Epalza, Moriscos et Andalous en Tunisie au XVII siècle, in **Etude sur les Moriscos Andalous en Tunisie**, p. 158.

وقد درس لوي كاردياك القضية بتفصيل في اطروحته

Le Passage des Morisques en Languedoc, PP. 31-36

كما نشر نص الحكم الصادر في الصفحة 166 من نفس الاطروحة.

(142) Juan Penella, op. cit. p. 82.

(143) Juan Penella, op. cit. p. 83, litterature Morisque en Espagnol en Tunisie, op. cit. pp. 178-198

وقد استقبل الموريسكيون استقبالا حسنا سواء على المستوى العام أو المستوى الرسمي. فعلى مستوى الرسمي أشارت المصادر الموركية بحسن استقبال عثمان داي (1593 — 1610) لهم

وكان عثمان داي أميرا فيها (تونس)، وتكفل امورهم بالسكان في المدينة وغيرها في القرى، وأحسن اليهم غاية الاحسان — أحسن الله اليه — ...»[144]، كما أشار الى ذلك المؤرخ التونسي ابن أبي دينار قائلا وفي هذه السنة (1017 / 1608) والتي تليها، جاءت الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب اسبانية، وكانوا خلقا كثيرا، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد، وفرق ضعفاءهم على الناس، واذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا، فاشتروا الهناشير، وبنوا فيها، واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن. ومن بلدانهم المشهورة، سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبرية وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بلدانهم واحضرها، والعالية والقلعة وغير ذلك، بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا، فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين، ومهدوا الطرق بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد»[145].

وتضيف المصادر الأوربية امتيازات أخرى لم تذكرها المصادر العربية.

— فقد أعفاهم من ضريبة الدخول.
— وأعطاهم وسائل الدفاع عن أنفسهم.
— أعفاهم من الضرائب لمدة ثلاثة سنوات، إذا اعتبروا «انكشارية بدون راتب».
— ولم يكونوا يخضعون لأحكام القادة الأتراك[146].

ويمكننا أن نصنف الموريسكيين بتونس الى ثلاثة فئات

الفئة الأولى فئة الأعيان.

استقرت بالعاصمة وانشأت لها أحياء خاصة مثل «حومة الأندلس»، و «زقاق الأندلس»، وهي تضم الأغنياء والوجهاء والمثقفين.

الفئة الثانية الفئة المتوسطة.

استقر بالقرب من العاصمة (اريانة، الجديدة. .).

وتضم الصناع والحرفيين ومنتجي الخضر والفواكه الذين نجحوا في تصريف منتجاتهم، كما أنشأ الصناع أسواق للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية ونسج الحرير ونقش الرخام والجبس والزليج.

الفئة الثالثة وتتكون من الفلاحين، وهي أكبر عدد من باقي الفئتين السابقتين، وقد استقرت

---

(145) ابن ابي دينار، المؤنس في اخبار افريقية وتونس، 193.

(146) Latham, loc. cit.

في المناطق الشمالية في الأراضي الخالية أو القليلة السكان، وكانوا يبحثون باستمرار عن الأراضي الخصبة القريبة من المياه، وهكذا نلاحظ أن 9/10 المناطق الفلاحية المستثمرة تقع على ضفتي نهر المجردة(146 مكرر).

بقيت هناك فئة أخرى آثرت الاستمرار في جهادها ضد من طردها من أرضها، وهذه الفئة وجدت أيضا لدى عثمان داي كل التفهم والمساعدة، يقول ابراهيم مرباش في هذا الصدد «... وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي — رحمه الله — وقدمني على مايتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسماية سلطانية ومايتي مكحلة ومايتي سكينا وغير ذلك مما يحتاج اليه في سفر البحر..»(147)، واستمر في جهاده هذا «... ركبنا البحر وسفرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم ونحن بقرب مدينة مالقة... والتقينا بأحد عشر غرابا... ووقعت الحرب الشديدة ومات من الجانبين خلق كثير...(148).

ولم يكتف بالجانب العملي من الجهاد بل كان يولي الجانب التقني حقه أيضا، إذ كان يبحث باستمرار عن نقط الضعف وهو الخبير في الميدان الى أن اهتدى اليه أخيرا. «... ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل وانهم لا يعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل، عزمت على تصنيف هذا الكتاب (العز والمنافع)...»(149).

ولم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية، فقد بادر التونسيون أيضا الى تقديم كافة المساعات لهؤلاء المورسكيين، وهذا ما سجلته المصادر المورسكية نفسها. فقد كان «الولي الشهير سيدي أبو الغيث القشاش يعطيهم في كل يوم نحو ألف وخمسمائة قرصة من الخبز صدقة..»(150)، كما سجل ابن عبد الرفيع في هذا الصدد أيضا ان أبا الغيث القشاش كان يقول في شأنهم «سلم لي هؤلاء الانصار الأطهار الأخيار، فإنه لا يحبكم الا مؤمن ولا يبغضكم الا منافق...»(151). ورددت المصادر التونسية صدى هذا الاستقبال أيضا ولما ان جاء الأندلس الى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى سماطه وجرى معهم الشيخ — رضي الله عنه — كالريح المرسلة في إطعام وكسوة العريان، حتى اني أحصيت ما يخرج لمؤنتهم اثني عشر ماية خبزة...»(152).

ويقول في مكان آخر «وكان الأندلسيون ممتثلين لأمر الشيخ... سامعين له مطيعين في كل أمر، وكان يحسن اليهم... ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم في كل ما يحتاجون اليه فيه وكان أقربهم

---

(146) مكرر Hassan Husni Abdul-Wahab, op. cit. P. 18.

(147) العزو والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، 10.

(148) نفس المصدر والصفحة.

(149) المصدر السابق، 11.

(150) الشهاب الحجري، المصدر السابق، 41

(151) الانوار النبوية، 334

(152) المنتصر القفصي نور الارماش في مناقب القشاش، ص 70

ملاحظة : اعتمدنا النص الذي نشره عبد المجيد التركي، حوليات الجامعة التونسية، العدد 4، سنة 1967.

اليه سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي...»(153). ويكفي أن نعرف أنه بعد موت أبي الغيث القشاش وعثمان داي ستواجه العامة بقساوة هؤلاء، فقد انتقدوا لباسهم وعاداتهم وتقاليدهم وكانوا يغارون بالخصوص منذ ثرواتهم الطائلة التي حملوها معهم(154)، ووصل البعض منهم الى حالة من اليأس أصبحوا خلالها نادمين على فردوسهم المفقود(155).

على ان السمة البارزة في هذا الوجود الموريسكي بتونس انهم «انصرفوا عن السياسة انصرافا كاملا ولم يسعوا من قريب أو بعيد للتدخل في ما يمت بصلة الى مجالات الحكم وميادين الوظائف السامية، فلا تجد منهم من شبت على يديه نار ثورة أو أعان عليها، كما لا تجد من بينهم طامعا في وظيف هام أو ساعيا اليه، وإنما اتجهوا فور وصولهم البلاد الى نقل المظاهر الحضارية الأندلسية في شتى الميادين من علمية وصناعية وزراعية(156).

الانتقال الى فرنسا

انتقل البلنسيون الى شمال افريقية عبر البحر (حوالي 116 ألف موريسكي)، في حين اجتاز الآخرون جبال البرانس للتوجه الى فرنسا، ومن هناك يتجهون الى شمال افريقيا(157). وهكذا اجتاز الحدود الاسبانية الفرنسية حوالي 50 ألف موريسكي على دفعات (ينتمون الى اراجون ووقشتالة وغرناطة). واتجهوا إلى ثلاثة موانئ رئيسية ميناء Saint - Jean - de - luz، ومن هنا كانوا ينقلون إلى المغرب، وميناء Agde ومرسيليا إلى كل من الجزائر وتونس(158).

وقد نشر لوي كاردياك 56 وثيقة تتعلق بالوجود الموريسكي بفرنسا، وهي تضم بالخصوص القرارات الصادرة عن برلمان تولوز وبروفانس والقرارات الصادرة عن الملك في شأنهم، وكذا الأحكام التي أصدرتها محاكم المنطقة في هذا الشأن(159).

اعتبر هنري الرابع نفسه أنه ملتزم سياسيا مع الموريسكيين، إذ كان يحاول دائما خلق مصاعب لفليب الثالث عن طريقهم(160)، فكان أن اصدر مجلس الدولة في 22 فبراير 1610 قرارا باستقبالهم

---

(153) نفس المصدر والصفحة.

(154) Louis Cardaillac, op. cit. P. 62.

(155) Henri Pieri, op. cit. P. 130.

(156) محمد الحبيب الهيله، مقدمة تحقيق كتاب الحلل السندسية، ص 58.

(157) فرض الاسبان على الموريسكيين الذين يهدون اخذ ابنائهم (مادون السابعة) معهم ان يتجهوا الى بلاد مسيحية. انظر في هذا الصدد

Louis Cardaillac, Morisques en Provence, in **Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie**, P. 94.

(158) H. Lapeyre, op. cit., P. 208.

(159) **Le passage des Morisques en Languedoc**, PP. 87 - 220.

(160) Louis Cardeillac, op. cit. P. 14.

شريطة اعتناقهم الكاثوليكية وشريطة أن يجتازوا La Garonne و La Dordogne. وكان يرمي بذلك الى ابعادهم عن الحدود الاسبانية خوفا من تآمرهم مع الاسبان ضده(161).

وقد تلقى أسقف المناطق التي استقر بها الموريسكيون أمرا بمراقبة هؤلاء تحت طائلة حكم الاعدام. أما الذين يرفضون اعتناق المسيحية فيسمح لهم باجتياز جنوب فرنسا الى شمال افريقيا وتعهدت الحكومة الفرنسية بسلامتهم أثناء وجودهم بالتراب الفرنسي أو أثناء تنقلاتهم البحرية، وأرغمت قبطان كل سفينة تنقل الموريسكيين على تقديم شهادة من هؤلاء تثبت سلامة العملية. لكن أمام تدفق الموريسكيين على فرنسا لم تستمر قرارات هنري الرابع السابقة الا بضعة أشهر، فانطلاقا من 25 ابريل 1610 أصدر مرسوما بطرد جميع الموريسكيين من فرنسا وان يجمعوا في الموانىء الرئيسية قصد ترحيلهم الى شمال افريقيا(162)، وازداد الأمر سوءا بعد اغتيال هنري الرابع(163)، إذ أصدرت الملكة Marie de Médicis (الوصية على عرش ابنها لويس الثالث عشر) أمرها لحاكم منطقة Béarn الدوق De la Force بان لا يسمح لأي موريسكي اجتياز الحدود، خاصة عندما علمت أن هناك حوالي 30 ألف موريسكي على الحدود ينتظرون الدخول للتوجه الى تونس أو المغرب(164)، ولم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية، بل ظهر لبعداء جليا حتى بالنسبة لسكان المناطق الفرنسية التي استقربها الموريسكيون(165).

على أن هذا العداء لم يقتصر فقط على الوجود الموريسكي بالتراب الفرنسي، بل برز بوضوح أثناء عمليات نقلهم عبر البحر إلى شمال إفريقيا، إذ تعرض الموريسكيون إلى السلب والنهب من طرف أرباب السفن الفرنسية، وقد عرضت بالفعل بعض هذه القضايا على المحاكم الفرنسية وأصدرت فيها أحكامها(166).

*****

ونختم هذا الفصل بتسجيل الملاحظات الآتية.

— بروز موريسكي هورناتشوس ككيان له خصائص معينة يتميز بها عن باقي الموريسكيين الآخرين.

— اعتماد فليب الثالث في سياسته على القمع والمراوغة، وهكذا نجد قرارات العفو تسير جنباً إلى جنب مع قرارات القمع لكنه عندما فشل في ذلك أصدر قرار الطرد.

---

(161) Ibid, P. 15

(162) Ibid. P. 15.

(163) كان الفرنسيون يعتقدون ان للاسبان يدا في اغتيال ملكهم. انظر
H. Lapeyre, op. cit. P. 208.

(164) Louis Cardaillac, op. cit. PP. 17.-18.

(165) عن اسباب هذا العداء تجاه الموريسكيين، انظر
Louis Cardaillac, op. cit. 54-59.

(166) Louis Cardaillac, op. cit. PP. 31-45.

ـــ اختلاف موقف المورسكيين من الطرد إذ اعتبره البعض «فرج من الله» بينما رفضه البعض الآخر وقدم عدة اقتراحات في شأن البقاء.

ـــ أصبحت الآثار الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن قرارات الطرد مشاهدة للعيان، تعترف بها السلطات الاسبانية نفسها.

ـــ لم تكن ظروف انتقال المورسيكيين إلى شمال إفريقيا ظروفاً مواتيه، بل تعرضوا إلى السلب والنهب رغم قرارات التطمين الصادرة في هذا الشأن.

ـــ اختلاف ظروف استقبال هؤلاء من طرف سكان شمال إفريقيا من منطقة إلى أخرى ومن فترة إلى أخرى.

• • •

لقد حاول المورسكيون أن يصارعوا مصيرهم بإسبانيا، وظلوا لسنوات عديدة يعيشون تحت وطأة جهاز القمع الاسباني (محاكم التفتيش)، لكنهم لم يستسلموا قط لمصيرهم المحتوم بل ظلوا، إلى آخر لحظة من وجودهم بالأندلس، معتزين بتراثهم الحضاري يقاومون في سبيل المحافظة عليه. وعلينا أن نشير في نفس الوقت أن مقاومتهم لم تكن اعتباطية ولا ظرفية، بل كانت دائما تجري في ظلّ معطيات محددة، فقد كانوا على اتصال بالمغرب وبالأتراك وبالفرنسيين من أجل تنفيذ مخططاتهم، ولنا أن نتساءل من جديد ماذا أثمرت هذه الاتصالات ؟ لم تؤد هذه الاتصالات إلى ما كان يرجوه المورسكيون لكنها، على الأقل، كانت تجعل المورسكيين يقتنعون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، بل هناك من يهتم بقضيتهم، وبالتالي فقد جعلهم هذا الموقف يواصلون جهادهم وهم على ثقة من أن كرامتهم ستعود لهم يوماً ما كما تدل على ذلك مخطوطاتهم الخميادية غير أن أهم ما كان يخرج به المورسكيون آخر كل ثورة قاموا بها هو ضرورة الاعتماد على النفس، إذ إن جميع الأطراف التي كانت تساعدهم كانت لها ظروفها الخاصة، وتتصرف أحياناً طبقاً لمصلحتها الخاصة. وعلى كل فتلك تجربة قاسية حملها معهم الأندلسيون إلى المغرب ليضيفوا إليها تجربة أخرى أفرزها تعاملهم مع المغاربة، ذلك ما سنراه في الباب الثاني من هذه الدراسة.

الباب الثاني

الهجرات الأندلسية إلى المغرب

توالت الهجرات الاندلسية الى المغرب خلال فترات متعددة يمكن أن نقسمها الى ثلاث فترات متميزة

ـــ فترة العهد الوطاسي حيث كان المغرب يعيش ظروفا قلقة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، مما كان لها تأثير على استقرار أفراد هذه الجالية الاندلسية به.

ـــ فترة العهد السعدي الأول، وهي فترة كان المغرب يعيش فيها عيشة استقرار في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فوجد الاندلسيون مجالات العمل مفتوحة أمامهم.

ـــ فترة العهد السعدي الثاني، المتميزة بالخصوص باستقرار المهاجرين الاندلسيين في مصب أبي رقرار وتطوان، وبمحاولتهم خلق كيان خاص بهم نتيجة الاضطرابات التي عرفها المغرب آنذاك.

الفصل الأول

الهجرة الأندلسية الى المغرب في العهد الوطاسي

(876 هـ - 961 هـ / 1471 م - 1553 م)

انتقلت الجالية الاندلسية إلى المغرب في هذه الفترة في ظل ظروف خاصة

* كانت السلطة المركزية ضعيفة بفعل الأزمات السياسية الخطيرة التي كانت تعيشها إمارات مستقلة، غزو إيبيري متواصل للسواحل المغربية.

* ولا نبالغ إذا قلنا أن الفترة كانت فترة أزمات اقتصادية واجتماعية مجاعة، وأوبئة، وقحط، وغلاء، ونقص ديمغرافي خطير.

فماذا كان موقف الجالية الاندلسية تجاه هذه الوضعية ؟

* هناك جماعات عبرت عن رأيها صراحة بأن الوضعية غير ملائمة لها، وهي بالتالي تفضل الرجوع إلى اسبانيا.

* جماعات أخرى فضلت ــ بالرغم من كل ذلك ــ البقاء والتعاون مع الوطاسيين سواء ضد البرتغال والاسبان أو ضد خصومهم السعديين.

* وهناك جماعات أخرى على العكس من ذلك، فضلت أن تعيش في شبه الاستقلال عن السلطة المركزية، وتدبر أمورها بنفسها.

تعاقب على المغرب منذ مقتل ابي عنان المريني اربعة عشر سلطانا في ظرف يسير ولم يكن من بينهم من يستطيع أن يأخذ زمام الامور بيده. وقد قام آخرهم عبد الحق بن ابي سعيد المريني بمذبحة الوطاسيين الرهيبة، وبإسناد الوزارة إلى اليهوديين هارون وشاويل انتقاما من أهل فاس الذين تأكد انحرافهم عنه، فساءت سيرة اليهوديين وكثر تعسفهما ومصادرتهما لاموال تجار المسلمين، وانتهى الامر بثورة عارمة قضت على حياة اليهوديين وعبد الحق جميعا (863هـ / 1465م)، وحاول الادارسة في فاس بعد ذلك استرجاع ملكهم القديم لكن محاولتهم آلت الى الفشل، ثم قام على إثر ذلك محمد الشيخ الوطاسي (876هـ — 910هـ / 1471 — 1505) بالدعوة الى نفسه في أصيلا وفاس، فكانت له ولأبنائه من بعده سلطة محدودة في الشمال تقل كلما ابتعدت المنطقة عن المدينة الادريسية لتصبح مجرد سلطة اسمية في حوز مراكش.

وقد سهلت هذه البيئة المختلة مهمة الايبريين في غزو الشواطىء المغربية لأنهم كانوا يعتبرون عملهم بالمغرب امتدادا لما قام به في شبه الجزيرة الإيبرية[1]، اذان تصفية الوجود الاسلامي بشبه الجزيرة يجب أن يعزز بتطويق المسلمين بشمال افريقيا — خاصة المغرب — لضرب اي محاولة من شأنها التفكير في اعادة غزو جديد لشبه الجزيرة[2].

وكل تصرفات الايبريين تدل على هذا احتلال الثغور المغربية المواجهة أو القريبة من السواحل الايبرية (غساسة، مليلة، أصيلا، العرائش...)التي يمكن ان تكون كقواعد لانطلاق المجاهدين، أي في النهاية ابعاد المغاربة عن البحر خاصة أن المواجهة لم تعد مقتصرة على طرفين، فقد دخل الاتراك حلبة الصراع، وأصبح بإمكان سكان شمال افريقيا الاعتماد عليهم[3]. وهذا مايبرر أيضا الاسراع بتكثيف المخطط التبشيري بالمغرب، وتسخير جميع الوسائل لتنفيذه. وقد سخر الايبريون كل الوسائل المادية والمعنوية للتعميد، وبالفعل فقد «ارتدت طائفة من المغاربة، وشغلت هده «الردة» الرأي العام المغربي،

(1) كان ملوك البرتغال حريصين على محاربة المسلمين بالمغرب والعمل على محو الاسلام منه، وتعويضه بالمسيحية، وتحويل المساجد الى كنائس وانشاء الاسقفيات، وارسال الكهان والرهبان للعمل بها. كما تتجلى هذه الروح في الشعائر والطقوس الدينية التي تسبق كل هجوم على المغرب، وفي محاولة الملوك البرتغاليين دفع ملوك المسيحية الاخرين الى الاقتداء بهم.
انظر رسالة الملك يوحنا الأول الى ملك الارغون وخطاب سفير البرتغال لدى المجمع الديني سنة 1516.
M. Witte ; les Bulles... XL VIII
عن احمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي**، ص 148.

(2) كان البابا Calixe 3 (وهو من اصل اسباني) — بعد ان عاين الانتصارات التركية — يخشى زحفا اسلاميا من ناحية الغرب تكون نتيجته الحتمية دخول المسلمين الى اسبانيا، بلده والى البرتغال. لذا عمل كل ما في وسعه لتشجيع البرتغاليين على الاحتفاظ بسبتة، وعلى الاحتلال مدن اخرى. المصدر السابق، ص 150.

(3) A. Temimi ; lettre de la population Algeroise au Sultan Selim 1er en 1519, in **Revue d'Histoire maghrébine**, n° 5, janvier 1976, Tunis, pp. 95 - 101.

وكانت أحيانا موضوع مراسلات بين الوطاسيين والبرتغاليين[4]. لكن هناك سؤال يفرض نفسه ما مدى مصداقية هذه «الردة» ؟

كل القرائن تشير الى أن المغاربة لم يرتدوا قط فقد رفض المغاربة التعميد وهم غرباء عن بلدهم في شبه الجزيرة الايبرية نفسها[5] فكيف يقبلون بها وهم في بلدهم ؟

ويمكن حصر الاسباب التي جعلتهم يتقمصون دور «المسيحي المخلص» في ثلاثة

ـ الاسر الذي ينتج عنه تحويل الضحية إلى عبد، فقد تعود له حريته بالتنصر، وذلك في حالة ما إذا تعذر عليه تحرير نفسه[6].

ـ مشاكل معاشية : تكثر حالات الردة في فترات الجفاف وانعدام المواد الغدائية، لأن المغاربة كانوا يعتقدون أن النصارى يملكون باستمرار هذه المواد[7].

ـ كان بعض ضعاف النفوس يجدون في التنصير، وخدمة البرتغاليين وسيلة للاغتناء وتحسين أوضاعهم المادية[8]. وقد أكد البرتغاليون انفسهم حقيقة المغاربة «المرتدين» إذ كتب القبطان (ليط) إلى ملك البرتغال يخبره بأن عددا كبيرا من المسلمين المتنصرين، رغم انهم ارتدوا من تلقاء انفسهم، فإنهم لايزالون يعيشون على الديانة الاسلامية، وطلبوا لعدة مرات من السلطان الوطاسي القدوم لاخذهم واقترح نفيهم الى احدى جزر المحيط ليضطروا هناك الى اعتناق الديانة النصرانية وليصدقوا في تنصرهم[9].

* * * *

اتجهت اعمال القاومة إلى ضرب مراكز المحتلين، وإلى اختطافهم وأسرهم[10]. كما تعرضت

---

(4) انظر مثلا، S. I. H. M., Portugal, 1 : 48

(5) عن المرسكيين باسبانيا ومدى مواجهتم لمحاكم التفتيش انظر ما سبق أما عن المورسكيين بالبرتغال، انظر S. I. H. M. Portugal. 1 48

أحمد بوشرب الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال، مقال بمجلة المناهل العدد 24، يوليو 1982، ص 354—392.

نفس الكاتب محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية، مجلة المناهل، العدد 21، يوليو 1981، ص 224—278.

(6) انظر الطريقة التي يتم بها اسر المغاربة وتنصيرهم عن المؤرخ البرتغالي المعاصر Bernardo - Rodrigues في مجلة **Hespéres tamuda, vol. XV, Fascicule unique, 1974. PP. 93-95**

(7) B. Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidémies au Maroc, in, **Hespéris - Tamuda, vol. XIV Fascicule unique, 1973, PP. 125 - 127.**

(8) احمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي، ص 341.**

(9) S.I.H.M. Portugal 1 576. R. Ricard, les **Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557 ; PP. 114-115.**

(10) تذكرنا هذه الاعمال بما كانت تقوم به طائفة «المنفيين» بغرناطة ضد الاسبان، مما لا يستبعد معه وجود بعضهم ضمن المجاهدين خاصة انهم خبروهم بغرناطة.

محاصيلهم — وكذا محاصيل حلفائهم — للحرق[11]

ومنعوا دخول القوافل الى الثغور، لمنع اي تعامل مع المحتل مهما كان نوعه. لقد كان المغاربة يدركون حقيقة الآثار الناجمة عن الغزو الايبيري للمغرب لذلك لم يتهاونوا بشأنه[12]، خاصة أن صدى سقوط الثغور الاندلسية مازال مدويا[13]. ووقفوا في وجه كل من تعاون مع المحتل وان كان الحاكم نفسه[14]. وتزعم هذه الحركة العلماء إذ أحصى ابن عسكر 50 شخصية علمية لها صلة مباشرة بقضية الجهاد.

ونكتفي في هذا الصدد بذكر شخصيتين كان لهما الاثر الفعال في هذه الحركة.

دعا ابن يجبش التازي[15] مواطنيه الى الجهاد منبها اياهم إلى الأخطار المحدقة بهم «...ماهذه الغفلة العظيمة التي أضحت على القلوب مقيمة، وركنت الىها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ؟ أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مشتغلون بكل حيلة في نيل الوصول إليكم، قد جمعوا من العدد ما لايحصى له عدد، وأرسلوا جيوشهم وعيونهم في كل بلد...»[16].

ويقول في التفجع على سوء أحوال المسلمين وما يلاقونه من هوان واسترقاق على يد المسيحيين في عدوتي المغرب والأندلس «..واجمعوا — بدد الله شملهم — فيما بلغنا عنهم من الخروج لهذه البلاد ولم يقنعوا ما تمكنوه في تلك القضية من الأموال والعباد، قد ابدلوا بعد العز والفرح ذلا وحزنا، واستولى عليهم الكرب والترح حسا ومعنى، قد اوثقوا بالسلاسل والحديد، وهم في كل يوم في عذاب شديد، وصاروا من جملة المماليك والعبيد، كانوا بالأمس أغنياء آمنين، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين. انتهبت اموالهم، وتغيرت أحوالهم، فرقت عنهم نساؤهم، وأخذت منهم بناتهم، وصار الكفرة يتنافسون في بيعهم

---

(11) S. I. H. M. ; Portugal, 1 576.
R. Ricard, les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557, PP. 114 115.

(12) كان الشيخ محمد بن يحيى البهلولي يقوم بالجهاد في الثغور الهبطية، وعند عودته وجد زوجته قد توفيت، ووجد الناس على وشك الانتهاء من دفنها، «فقال لهم مهلا، فتقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه، فتقدم الناس اليه بالنكير في تكرر الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين، فقال لهم على البديهة صلاتكم فاسدة لكونها بغير امام، فقالوا كيف يا سيدي ؟ فقال إن من الشروط الامام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم، لان الذي لم يتقلد سيفا قط في سبيل الله ولو يضرب به ولا يعرف الحرب كما كان نبينا عليه السلام، ولم يتصف بالسيرة النبوية فيكف يعد إماما ذكرا ؟ بل امامكم والله من جملة النساء...»
انظر م. بن عسكر، **دوحة الناشر**، ص **60**.

(13) جعل الشيخ محمد بن يحيى البهلولي من نكبة الاندلس مثالا لترهيب الناس من أن يحل بالمغرب ما حل بها.

قم للجهاد رعاك الله منتهجا ... نهج الرشاد الى الاقوام لو فهموا
من بعد اندلس ما زالت محتدما ... لو كان يمكنني في الليل احتزم

(14) جاء في **دوحة الناشر** (ص 60) أن الشيخ محمد بن يحيى البهلولي عندما بلغه خبر الهدنة التي عقدها السلطان الوطاسي محمد البرتغالي مع الاعداء (آلى على نفسه الايلقى السلطان المذكور ولا يمشي إليه، ولا يقبل منه ما كان ولده عينه له من جزية اهل الذمة بفاس لقوته).

(15) انظر ترجمته عند م. حجي، **الحركة**، 2 435، والمصادر بالهامش.

(16) **تنبيه الهمم العالية**، ص 125.

بالأثمان، وجعلوا يفرقونهم في كل البلدان، ويريدون أن يفتنوهم عن دينهم ويفسدوا عليهم قوة يقينهم...»[17].

ويذكر مأساة أصيلا قائلا

فقصة أصيلا عرفتم جميعها — وما فعل الأعداءمن شر غدوة
وأضحت على الاسلام تبكي رسومها — كذي سكن قد صار في أرض غربة
مساجدها تبكي على فقد أهلها — كأن لم يكن فيها مردد سورة
صوامعها قد عطلت عن آذانها — كأن لم يكن فيها آذان مصوت[18]

وكذلك فعل ابو عبد الله الهبطي[19] في دعوته مواطنية للجهاد وتنبيههم للأخطار المحدقة بهم

إن الجهاد أكبر المعين عليه تبنى أمور الدين
كانت تباع النفس دون ريب بلذة عظيمة في القلب
وعندما مال الى الزوال دين الهدى ذ العز والمعال
انتثر الايمان قل من عقده شيئا فشيئا بانقضاء ذره[20].

وقد ازدادت مكانة الوطاسيين في الداخل اثر الانتصار الذي احرزوه على البرتغال بجزيرة المليحة بوادي اللكوس سنة 1489[21]. غير أن تقاعس محمد الشيخ عن نجدة غرناطة، واحتلال الاسبان لمليلة سنة 1497 أثار الاستياء من جديد ضد الوطاسيين مما جعله يوالي حملاته ضد البرتغاليين محاولة منه لاسترجاع مكانته لدى العامة، كما أرسل مبعوثه الحسن الوزان الى السودان وإلى الأتراك لخلق تحالف اسلامي ضد الايبيريين[22]. لكن محاولاته لم يكتب لها النجاح، وقد كان بوسعه أن يكرر المحاولة مع ملوك المسلمين في الشرق والغرب لولا إشتغاله بالاحداث الداخلية وخاصة فيما يرجع لإنتشار الدعوة السعدية التي أخذت تعم بلاد السوس والجنوب المغربي، إذ أدرك الوطاسيون مدى خطورتها على دولتهم[23].

وهكذا نلاحظ أن وزن أي مسؤول مغربي على الساحة آنذاك كان مرتبطا بمدى فعالية الأعمال التي يقوم بها ضد المحتلين وبالتالي فإن مصيره كان يحدد على أرض المعركة وليس داخل القصر.

* * * * * *

(17) المصدر السابق، ص 126.
(18) المصدر السابق، ص 146.
(19) انظر ترجمته عند م. حجي، **الحركة**، 2 466—467، والمصادر بالهامش.
(20) **الألفية السنية**، باب ما وقع من التغيير في الجهاد بسبب تغير الايمان.
(21) انظر محمد الكراسي، **عروسة المسائل**، ص 15—17
أحمد بوشرب، وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة المليحة، **مجلة كلية الاداب بفاس**، العددان الثاني والثالث لسنة 1979 — 1980، ص 376—387.
(22) عبد الكريم كريم، المصدر السابق، 30
(23) المصدر السابق، ص 31.

تردد كثيرا حديث الجالية الاندلسية التي قدمت المغرب عن أوضاع اجتماعية واقتصادية متردية، فهذا صاحب **نبذة العصر** يذكر في هذا الصدد «... وكان من قضاء الله تعالى وقدره انه لما جاز الامير محمد بن علي وسار الى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة، وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الامر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الامر ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فاخبروا بتلك الشدة، فقصر الناس عن الجواز، عند ذلك عزموا على الإقامة والدجن....»[24].

ولم يقتصر الأمر على الجالية الاندلسية، بل لاحظ ذلك ايضا عدد من المؤرخين، نذكر من بينهم على الخصوص عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي سجل بهذا الصدد : «...ووقع بعد ذلك[25] بفاس واعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال وفساد عظيم وخراب بلاد وهلاك عباد وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة من مدن من بر العدوة، منها طنجة، وأصيلا وغير ذلك... ولازالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بذلك البلاد مدة سنين بل الى يومنا هذا...»[26]، كما سجل الجنابي في هذا الصدد أيضا «... في عام 927 هـ وقع في بلاد فاس وباء شديد، وغلاء عظيم بحيث لم يعهد بمثله في قديم من الزمن...»[27].

تلك هي الوضعية كما سجلها المؤرخون، فما هي حقيقتها واسبابها ؟ عرف المغرب اوبئة خطيرة خلال سنوات (1441 — 1442)، (1468 — 1469)[28]. وقد استمر الوباء الأول حوالي 18 شهرا، واستطاع أن ينتزع من مدينة فاس وحدها من 400 الى 500 ضحية، أما الثاني فقد كان مروعا للغاية إذ انتزع حوالي 400.000 ضحية من المدن وحوالي 100.000 ضحية من البوادي[29].

وسوف يعرف المغرب بعد سقوط غرناطة اوبئة أخرى، إذ حمل اليهود الذين لجأوا إلى المغرب امراضا خطيرة[30].

وقد منع هؤلاء من دخول مدينة فاس خوفا من انتشار العدوى بين سكانها، وعين لهم مكان بالقرب من ابواب مدينة فاس،خاصة أن عددهم كان كبيرا جدا (حوالي 000. 10 نسمة)[31].

---

(24) ص 43—44.

(25) يقصد فتنة اليهوديين هارون وشاويل.
انظر كتابه **الزهر الباسم في حوادث العمر والتراجم** ، ص 45، 49، 51، 52...

(26) المصدر السابق، ص 55.

(27) **البحر الزخار والعيلم التيار**، ص 527.

(28) H.P.J. Renaud, **Recherches historiques sur les épidemies du Maroc**, pp, 368 370, R. BrunschviG, **La Berbéries orientale sous les hafsides**, 2 : 257, 2 : 257.

(29) B. Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidemies au Maroc, in **Hespéris Tamuda**, vol XIV -Fascicule unique, 1973, P. 113

(30) Ibid, p. 113.

(31) I.D. Abbou, **Musulmans andalous et Judéo - espagnols**, P. 293.

ورغم هذه الاحتياطات التي اتخذتها السلطات بمدينة فاس، فإن الأوبئة استمرت في الانتشار بمدينة فاس، إذ كان من ضحاياها أكثر من 20.000 نسمة[32] لذلك قرر اليهود الرجوع الى اسبانيا و«اعتناق الديانة المسيحية».

وبصفة عامة فإن الأوبئة التي انتشرت في هذه الفترة بالمغرب ترجع في جزئها الكبير إلى المهاجرين الاندلسيين، سواء كانوا مسلمين أو يهوداً[33]، وقد أثرت هده الأوبئة حتى على الجيش المغربي، إذ لم يستطع محمد البرتغالي سنة 1511 أن يجمع ما هو ضروري لمواجهة خصمه عمر ابن راشد، وذلك بسبب الأوبئة التي كانت تفتك بعناصر الجيش[34]. ولاشك أن الوباء الذ ظهر بسوس سنة 917 هـ / 1511 — 1512 هو امتداد للوباء السابق، غير انه كان مصحوبا بمجاعة مروعة[35].

كما أشارت المصادر البرتغالية أنه خلال سنة 1516 — 1517 عرفت السهول المحيطة بأزمور نقصا خطيرا في الحبوب مما تتطلب معه جلب حاجيات المنطقة من منطقة الاندلس باسبانيا[36]، وسجلت ايضا نفس المجاعة بأكادير سنة 1518[37]. وفي سنة 1520 أصاب المغرب جفاف خطير نتيجة انحسار الأمطار، مما سبب معه مجاعة كبيرة، مصحوبة بارتفاع الأسعار، وتكرر نفس الأمر سنة 1522، إذ ظل المغاربة يبحثون باستمرار عما يقتاتون به[38]. وقد أحدثت هذه الأزمات نقصا ديموغرافيا خطيرا بالمغرب، فقد لاحظ المؤرخ البرتغالي المعاصر **Bernardo Rodrigues** سنة 1521 خرابا مهولا شمال المغرب، انطلاقا من مقر إقامته بأصيلا، كما سجل أنه من بين 40.000 فارس أخدهم معه الامير الوطاسي لمحاصرة أصيلا لم يبق منهم إلا 3000 فارس في مجموعة مملكته[39].

وقد زاد الأمر سوءا أن السلطة كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة هده الأزمات بفعل وجود جهاز اداري ومالي ضعيف، وإلى هذا يشير الحسن الوزان قائلا « إن لملك فاس مملكة كبيرة، ولكن ليس له سوى دخل صغير، لايكاد يبلغ ثلاثمائة ألف مثقال، ولايصل الى يده حتى خمس هذا المبلغ، لأن الباقي ينفق في الأوجه التي ذكرناها....»[40].

---

(32) Ibid, p. 293

(33) H.P.J. Renaud, op. cit. pp 373 - 374.

(34) Damiao de Gois **Les portugais au Maroc de** 1495 à 1521, pp. 78 79 note 1.

(35) Justinard "Notes sur l'histoire du sous, au XVI siècle, in **Arch. Marocaines**, t XXIX, 1933, p. 182.

(36) B. Rosenberger et H. Triki, op. cit. P. 117

(37) S.I.H.M. Portugal 2 187.

ملاحظة

عرفت شبه الجزيرة الايبيرية نفس الوباء سنة 1518، وكان مصحوبا بالقحط والمجاعة، لكن استطاعت السلطات هناك أن تتغلب في كثير من المرات على هذه الأزمات بفعل الوسائل المادية والمعنوية التي كانت لديها.

(38) Bernardo Rodrigues, Anais de ARZILA, 1 370, in **Hesperis - Tamuda**, Vol. XIV, 1973, P. 120.

(39) Ibid, P. 128.

(40) وصف افريقيا، 1 : 223.

الهجرة أو البقاء ؟

تردد الاندلسيون في مسألة الهجرة أو البقاء بالاندلس، فعرضوا أمرهم على علماء العدوة المغربية قصد البث في الأمر، وسنعرض لمسألة فتاوي الهجرة من خلال ثلاث فتاوي، اثنتان منه لأحمد الونشريسي[41]، والأخيرة لأحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني[42]، وكلاهما يسير في اتجاه معين.

الونشريسي وجوب الهجرة من دار الحرب

الفتوى الأولى[43]

كتب هذه الفتوى في شأن أندلسيين هاجروا الى المغرب لكن ظروف العيش لم ترق لهم به ذلك أنهم «ندموا على الهجرة بعد حلولهم بدار الاسلام وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة، وأنهم لم يجدوا بدار الاسلام التي هي دار المغرب.. بالنسبة إلى التسبب في طلب أنواع المعاش على الجملة رفقا ولا يسرا ولا مرتفقا، ولا إلى التصرف في الأقطار أمنا لائقا...»[44]، وذهبوا إلى أبعد من هذا عندما صرح بعضهم أنه «ان جاء صاحب قشتالة الى هذه النواحي نسير اليه، فنطلب منه أن يردنا إلى هناك...»[45]. وقد كان جواب الونشريسي واضحا في هذا «أن الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فريضة الى يوم القيامة... ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية ـ لعنه الله ـ على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه وحال الوطن والمال، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع.

قال تعالى إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولائك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا... وأما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام...»[46]. وقد أصدر حكما صارما في حقهم عندما

---

(41) انظر ترجمته عند م. حجي، مقدمة تحقيق المعيار، 1 (أ ــ ك).

(42) هو مفتي وهران، واصله من Almagro، وقد توفي ما بين سنتي 930 ــ 920 هـ 1514ــ1524. انظر

J. Cantineau, lettre du mofti d'oran aux musulmans d'andalousie, in **Journal asiatique**, Janvier-Mars 1927. PP. 5-7

(43) اسنى المتاجر، في بيان احكام من غلب على وطنه النار ولم يهاجر، وما يرتب عليه من العقوبات والزواجر. مخطوطة الاسكوريال رقم 1758 (من الورقة 83 إلى 95)، وقد نشرها حسين مؤنس **بصحيفة معهد الدراسات الاسلامية** بمدريد ــ المجلد الخامس ــ العدد 1 ــ 2، 1957، 129ــ147. وقارنها بتلك الواردة في **المعيار** 2 119ــ133.
وكتب الفتوى قبل سقوط غرناطة سنة 890 /1484.
ملاحظة سنعتمد في الاحالة على نص الفتوى الموجودة في المعيار.

(44) **المعيار**، 2 /119.

(45) المصدر السابق، ص 120.

(46) المصدر السابق، ص 121ــ122.

صرح «بما ذكرت عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام وسب دار الاسلام، وتمنى الرجوع الى دار الشرك والأصنام وغير ذلك من الفواحش المنكرة التي لاتصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا والآخرة وينزلهم أسوأ المنازل. والواجب على من مكنه الله في الأرض ويسره لليسرى أن يقبض على هؤلاء وأن ويرهقهم العقوبة الشديدة والتنكيل المبرح ضربا وسجنا حتى لا يتعدوا حدود الله، لأن فتنة هؤلاء أشد ضررا من فتنة الجوع والخوف ونهب الأنفس والأموال...»[47].

الفتوى الثانية تأكيد الهجرة

كتب هذه الفتوى 901 هـ / 1495، في شأن أحد مسلمي الأندلس، يريد البقاء باسبانيا لمساعدة مواطنيه على حل مشاكلهم لدى السلطات الاسبانية، فهو «يتكلم عنهم مع حكام النصارى فيما يعرض لهم معهم من نوائب الدهر ويخاصم عنهم ويخلص كثيرا منهم من ورطات عظيمة بحيث يعجز عن تعاطي ذلك عنهم أكثرهم بل قل ما يجدون مثله في ذلك الفن إن هاجر، وبحيث أنه يلحقهم في فقده ضرر كبيرا ان فقدوه...»[48]، وقد كان جواب الونشريسي هنا أيضا برفض «لأن مساكنة الكفار، من غير أهل الذمة والصغار لاتجوز ولاتباح ساعة من نهار، لما تنتجه من الأدناس والأوصار، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار...»[49].

وبعدما سيتعرض مختلف قواعد الاسلام وصعوبة القيام بها هناك يصل إلى «نقص صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وجهادهم وإخلالهم بإعلاء كلمة الله وشهادة الحق، وإهمالهم لإجلالها، وتعظيمها وتنزيهها عن ازدراء الكفار، وتلاعب الفجار، فكيف يتوقف متشرع أو يشك متورع في تحريم هذه

---

(47) المصدر السابق، ص 132.

ملاحظة انتقد حسين مؤنس هذه الفتوى قائلا «... فهذا الشيخ الذي تصدى لابداء الرأي في مصير المسلمين المتخلفين في الاندلس لم يكلف نفسه، عندما جلس يكتب هذه الفتوى، عناء البحث عن أحوال من يفتي فيهم ويتقصى اخبارهم ويعرف الاسباب التي تضطرهم الى البقاء في الاندلس، وتحول بينهم وبين الهجرة الى المغرب، ولم يذكر انهم أولا وقبل كل شيء بشر ضعفاء عسر عليهم مغادرة الأوطان ومعاهد الحياة الطويلة التي تقلب فيها الاباء والاجداد قرونا متطاولة...».

انظر مقاله السابق، ص 133—134.

ويقول في مكان آخر (ص 144—145) وقد فاته ان ضعفاء الناس أكثر من الاقوياء وأن العاجزين عن الرحلة والهجرة هم الغالبية العظمى، وأن الهجرة لم تكن إذ ذاك رحلة هينة تتوقف على رغبة المسلم الذي وقع في ذلك المأزق، بل كانت أمرا عسيرا كل العسر حافلا بالصعوبات والمخاطر والمكاره إذ كان لابد للعازم عليها أن يؤدي قدرا من المال ذهبا حتى تأذن له السلطات في الانتقال...» وختم حسين مؤنس كلامه (146) قائلا لقد كان لفتوى الونشريسي وامثالها أسواء الاثر على مصير الجماعات الاسلامية الباقية في الاندلس، فقد حكم عليها بالكفر وهي مقيمة في الجحيم الذي كانت تعانيه، وما دام فقهاء الاسلام قد حكموا بكفرها فأي شيء أهون عليها من عذاب الارض الذي كانت تعانيه...»

(48) المعيار، 2 137.

(49) المصدر السابق، 138

الاقامة مع إستصحابها لمخالفة جميع القواعد الاسلامية الشريفة الجليلة...»(50).

فتوى احمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني(51)

وجهت هذه الفتوى من مفتي وهران الى مسلمي غرناطة الذين أجبروا على اعتناق المسيحية ـ نلاحظ في البداية أنها تتكون من مقدمة تشجع فيها الأندلسيين على التشبث بدينهم إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم، فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته... وارثو سبيل السلف الصالح، في تحمل المشاق، إن بلغة النفوس الى

---

(50) المصدر السابق، 139.

ملاحظة سار على نهجه احمد بن المامون البلغيثي في كتابه «حسن النظرة في احكام الهجرة» إذ قسم كتابه الى أربعة فصول

الفصل الاول متى يتحقق وجوب الهجرة ؟

الفصل الثاني إذا لم يقدر المهاجر على حمل عياله فهل تجب عليه الهجرة وحده، ولو تركهم عرضة للضياع ؟

الفصل الثالث إذا لم يجد بلاغا في هجرته الا بالمال الحرام فهل تسقط عنه الهجرة حينئذ أو تبقى واجبة ؟

الفصل الرابع إذا توفرت دواعي الوجوب فهل ترك الهجرة حينئذ ردة أو كبيرة فقط ؟

(51) يوجد حاليا ثلاث نسخ من هذه الفتوى

1 ــ النص العربي يوجد بمكتبة الفاتيكان (Borgiano arabo) رقم 171 من الورقة 2 إلى الورقة 4. وقد نشرها محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الأندلس، ص 342ـــ344. وأعاد نشرها الباحث الانجليزي Harvey مع ترجمة انجليزية، ضمن «أعمال المؤتمر الاول للدراسات الاسلامية بقرطبة» (نشر بمدريد سنة 1964).

والنسختان الاخريتان ترجمة بالالخاميادو للنص العربي توجد احداهما بمكتبة الاكاديمية الملكية للتاريخ رقم 13 وقد نشر الباحث الاسباني P. Longas جزءا منها في كتابه La vida Religiosa de los moriscos (P. 305-307) وأعاد نشرها كاملة الباحث الانجليزي السابق الذكر.

أما النسخة الثانية فتوجد بمكتبة Méjanes بمدينة Aix-en-Provence رقم 1223 من الورقة 130 الى الورقة 138 وقد نشرها المؤرخ Cantineau في مقاله السالف الذكر.

وأرخ النصان العربي والالخامي ومدريد ببداية رجب سنة 910 هـ (بداية دجنبر 1504) في حين ارخ نص Méjanes برجب 909 هـ (دجنبر 1503). ويبدو ان نص مدريد ترجم سنة 1563، إذ ما زال مسجلا هناك، مما يدل على ان الفتوى ظلت تكتسي اهمية بالغة بالنسبة للموركسيين إلى غاية النصف الثاني من القرن السادس عشر.

ونشرها ــ أخيرا ــ الباحث المغربي محمد قشتيليو في كتابه «محنة الموركسيين في اسبانيا (ص 115ـــ117).

ملاحظة اثارت ليلى صباغ الانتباه الى ثلاث نقط تهم هذه الفتوى

1 ــ رغم ان الفتوى حققت وحللت اربع مرات، وترجمت الى الانجليزية والفرنسية فإنها تلاحظ ان عدة ثغرات في هذه الاعمال فكثير هي التعابير التي لم توضع في عمقها الاسلامي لتبين مدى تمسك الموركسيين بدينهم.

2 ــ لم يقارن بعد بدقة بين النسخ الثلاث للفتوى، لانه ــ حسب اعتقادها ــ هناك بعض الاختلافات بين النسخة العربية ونسختي الالخاميادو.

3 ــ هناك هفوات في الترجمة الفرنسية والانجليزية التي قام بها كل من Cantineau et Harvey وهذا راجع ــ حسب رأيها ــ ان نص الفتوى المختصر يجعل فهمه صعبا بالنسبة للمترجمين ــ انظر مقالها

«La religion des morisques entre deux Fatwas» in les morisques et leur temps, pp. 49-50

التراق...»[52]، ويدعوهم الى التزام التقية[53] لأن الاسلام سيسمح لهم بذلك[54].

وأعطاهم «حلولا» لما يمكن أن يتعرضوا له أثناء ممارستهم لعبادتهم وإن أكرهوكم في وقت صلاة الى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله... وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم...وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم...»[55].

وينتقل بعد ذلك إلى «الحل» «...وأنا أسأل الله أن يديل الكره للاسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الأتراك الكرام...»[56]. هكذا نرى أن فتوى المغراوي لاتطرح فكرة الهجرة، بل على العكس من ذلك تدعوهم الى البقاء والتمسك بدينهم على «الطريقة الموركسية» أي إعتناق المسيحية ظاهرا والتمسك بالدين الاسلامي باطنا. وهناك من يرى أنه ليس هناك أي تعارض بين فتوى الونشريسي وفتوى المغراوي، ففتوى هذا الأخير ليست إلا تتمة لفتوى الأول، ذلك أن فتوى الونشريسي تبيح للمستضعفين أن يبقوا في اسبانيا وفتوى المغراوي أتت لتعطي حلولا لهذا البقاء، أي كيفية التلاؤم مع الأوضاع الجديدة[57].

إننا لا نتفق تماما مع هذا الرأي، فالذين ظلوا في الأندلس ليسوا «مستضعفين» بل ربما العكس هو الصحيح !

إن الموركسيين ظلوا في الأندلس أقوياء منظمين داخل «الجماعات» «Aljamas» تحت زعامة فقهائهم الذين كانوا يأطرونهم، ودخلوا في اتصالات عديدة مع شمال افريقيا وتركيا ودول أوروبية متعاطفة معهم وكانوا عازمين بالفعل على استرجاع مجدهم بالأندلس، ويكفي أن نلقي نظرة على وثائق محاكم التفتيش نفسها لنتبين من ذلك.[58]

---

(52) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص 343.

(53) عن التزام الموركسيين بالتقية، انظر
L. Cardaillac, **Morisques et chrétiens**, pp. 87-101.

(54) طبقا للآية الكريمة «من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم».
سورة النحل، الآية 106.

(55) انظر م. عبد الله عنان، المصدر السابق، 343.

(56) انظر م. عبد الله عنان، المصدر السابق، 344.

(57) Leila Sabbagh, La religion des morisques entre deux Fawas, in **les morisques et leurs temps**, p. 53.

(58) انظر ما سبق حول الموركسيين في عهد فليب الثاني.

أصبحت فكرة الهجرة هي السائدة منذ سقوط غرناطة، إذ توافد على المغرب نتيجة لذلك أندلسيون من فئات مختلفة.

انتقال الأمير الغرناطي إلى المغرب

لم يرتح الملكان الكاثولكيان لوجود الأمير الغرناطي باسبانيا مخافة أن يكون مصدر قلق وفتن بالنسبة لهم، ويذكر صاحب **نبذة العصر** في هذا الصدد : «ثم ان الطاغية دمره الله ظهر له أن يصرف الأمير محمد بن علي إلى العدوة، فأمره بالجواز وبعث للمراكب أن تأتي إلى مرسى عذرة بلدة من أعمال المرية...»[59]. وفعلا فقد استأذن السلطان محمد الشيخ الوطاسي في القدوم إلى فاس فرخص له[60]. وتذكر المصادر أنه : «اجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز...»[61]، فقد كان عدد السفن التي وضعت رهن اشارة المهاجرين عشرة من بينها سفينة الملكين كراكاس Caracas التي أقلت السلطان وحاشيته وقواده والفقهاء والقضاة والأطباء والعلماء والحكماء، وبلغ ما نقلته هذه السفن 1.130 شخصا[62]. بينما بلغ العدد الكلي الذي رافق أبي عبد الله من مرسى عذرة 2.919 شخصا، وفي نفس الوقت أبحر من مرسى المنكب نحو 1166 شخصا[63].

وقد بعث الأمير الغرناطي برسالة إلى الأمير الوطاسي يستجير فيها ويعتذر له فيها عما أصاب الاسلام في الاندلس على يده متبرئا مما نسب إليه من اثم وتفريط، فهي بهذه الصفة دفاع عن النفس امام المغاربة الذين كانوا يرون فيه أنه يتحمل القسط الأكبر من مسؤولية السقوط.

وقد كتب هذه الرسالة وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العربي العقيلي[64]، وسماها الروض العاطر الانفاس، في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس[65].

يبدأ الرسالة بقصيدة مطلعها

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا ... وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم[66]

---

(59) نبذة العصر، ص 43

(60) ذكر أ. المقري انه «كان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك...» انظر النفح، 4 527

(61) نبذة العصر، ص 43.
وذكر في مكان آخر ص 47 انه اجتمع معه نحوا من سبعمائة رحيل.

(62) La Fuente y Al cantara, historia de Granada, 4 : 81

(63) رسالة فرناندو دي ثافرا الى الملكين، ارشيف سيمنكاس، Negociado Mar y tierra ملف 1315.

(64) انظر ترجمته عند أ. المقري، نفح، 4 548—553.

(65) انظر كاملة عند، أ. المقري، نفح، 4 : 529 — 548، وازهار الرياض، 1 : 72—102.

(66) المصدر السابق، 4 : 529

ومنها في التوسل والاعتذار

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه ... واعطف ولا تنصرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم ... نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
فما أطقنا دفاعا للقضاء ولا ... أرادت أنفسنا ما حل من نقم[67]

ويذكر بجهاد بني مرين في الأندلس

هم بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل ما يفتك السرحان بالغنم[68]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الرسالة قائلا «... وما الذي يقول من وجهه خجل، وفؤاده وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل، بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر واحترام اليه أكبر اللهم لابريء فأعتذر، ولاقوي فأنتصر، لكن مستقيل مستقيل مستعتب مستغفر... على أني لاأنكر عيوبي فأنامعدن العيوب، ولا أجحد دنوبي فأنا جبل الذنوب، الى الله أشكو عجري وبجري، وسقطاتي وغلطاتي...[69].

ثم يذكر بعد ذلك لجوءه الى السلطان «..ولم نفزع الى غير بابكم المنيع الجناب، المنفتح حين سدت الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبس الملك من الأثواب وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان..»[70]. ويشير الى أنه تلقى دعوات من المشرق للاقامةبه لكنه آثر المغرب : «.. ووصلت أيضا من الشرق الينا، كتب كريمة المقاصد لدينا، تستدعي الانحياز الى تلك الجنبات، وتتضمن ما لايزيد عليه من الرغبات، فلم نختر إلا دارنا التي كانت. دار أبائنا من قبلنا ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وصل حبلنا، وبريش نبله ريش نبلنا، إدلالا محل أضاء متوارث لا عن كلالة، وامتثالا لوصاة أجداد لانظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة، إذ قد روينا عمن سلف من اسلافنا، في الايصاء لمن يخلف بعدهم من اخلافنا، أن لا يبتغوا إذا دهمهم داهم بالحضرة المرينية بديلا...»[71].

وقد استقر الأمير الغرناطي بمدينة فاس في ظل الوطاسيين، وبنى بها قصورا على الطراز الأندلسي، رآها ودخلها المقري[72]. كما يذكر أنه توفي بفاس سنة 940 هـ وأنه دفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة[73].

في حين تذكر الرواية الاسبانية أنه قتل أثناء مشاركته في معركة أبي عقبة التي جرت بين الوطاسيين والسعديين سنة 943 هـ / 1536، إذ يقول مارمول في هذا الصدد «...وقتل أبوا عبد

(67) المصدر السابق، ص 530.
(68) المصدر السابق، ص 532.
(69) النفح، 4 536
(70) المصدر السابق، ص 541
(71) المصدر السابق، ص 542
(72) نفس المصدر، ص 529
(73) نفس المصدر والصفحة

الله وهو يدافع عن عرش أجنبي بعدما تخلى عن التضحية بحياته دفاعا عن مملكته..»(74). وقد استمر عقبه متصلا معروفا بفاس لغاية 1027 هـ لكن المقري يذكر أنهم كانوا «يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعدون منجملة الشحادين»(75).

ويطرح قول المقري هذا عدة أسئلة تتعلق بالسبب الذي أوصلهم الى هذا المستوى، خاصة أننا نعلم أن الأمير الغرناطي حمل معه أموالا ضخمة استطاع أن يبني بها قصورا فخمة على الطراز الاندلسي ؟ فهل أساءوا التصرف في ثورة أبيهم ؟ أم أنهم جوبهوا من طرف السعديين على اعتبار أنهم كانوا مؤيدين للوطاسيين ؟ أم هل حوربوا من طرف العامة على أساس أنهم السبب في ضياع الاندلس ؟ وقد ذكر نفس المؤرخ أن الأمير الغرناطي خلف ولدين : احمد ويوسف(76). وذكرالقادري من جهته «..وقد أدركنا قوما بفاس يقال لهم أولاد يوسف المذكور، والآن، انقرضوا ولم يبق أحد منهم...»(77).

انتقال أفواج من عامة الناس

ظلت الهجرة متواصلة الى المغرب أثناء فترات الصراع بين الاندلسيين والملكين الكاثولكيين حول مختلف ثغور الأندلس الباقية. فبعد سقوط المرية وقادس سنة 1489، سمح الاسبان بالهجرة الى شمال افريقيا، والتزموا بحرية العبور ومجانيته خلال سنة كاملة، كما سمح للمهاجرين بحمل أمتعتهم أو بيعها(78).

وبعد معاهدة تسليم غرناطة شجع الملكان الكاثولكيان الهجرة الى المغرب، لكن سمحا لهم في نفس الوقت بالعودة الى التراب الأندلسي خلال ثلاث سنين إذا ما رغبوا في ذلك(79).

وقد باع كثير من المهاجرين أمتعتهم — بثمن بخس — سواء للمسيحيين أو الأندلسيين استعدادا للهجرة. لكن بعضهم لم ترق لهم الأوضاع داخل المغرب بفعل الأزمات االاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مما اضطروا معه الى الرجوع الى اسبانيا للعيش تحت الوعود الزائفة لفرناندو الكاثوليكي(80). وهكذا أصبحت الحجرة بطيئة خلال السنتين اللتين تلتاسقوط غرناطة(81)، مما أدى

(74) افريقيا، 1 459

(75) النفح، 4 529

(76) نفس المصدر والصفحة

(77) نشر المثاني، 1 146

(78) Rachel Arié, l'Espagne musulmane au temps des nasrides, p. 175.

(79) Ibid, P. 313.

(80) Ibid, P. 313.

(81) يمكن ملاحظة هذا من خلال الانطباعات التي سجلها الطبيب Jérome Muzer من (Nuremberg) خلال زيارته لاسبانيا. فقد لاحظ أنه في قرية Tabernas لا يوجد إلا مسيحي واحد، يعيش وسط المسلمين. كما لاحظ في غرناطة والمرية ومالطة وجود نسب كبيرة من المدجنين
Viaje por España y portugal (1494-1499). d'après Rachel Arie, op. cit p. 314.

معه الى وجود نسب كبيرة من الاندلسيين، لكن سرعان ما اكتشف هؤلاء النوايا الحقيقية لفيرناندو الكاثوليكي فشرعوا في الثورة انطلاقا من السنة **1499**، وترتب عن ذلك هجرات جديدة الى المغرب.

وقد حاول صاحب **نبذة العصر** (ص 48) أن يرسم لنا صورة لهذه الهجرة **بما يلخصه هذا الجدول**

المدينة الاندلسية المهاجر منها	الوقت الذي استغرقته الهجرة	المكان المهاجر إليه
مالـقـة	ثلاثة أيام	بادس
المـريـة	نصف يوم	تلمسان
الجزيرة الخضراء	نصف يوم	طنجة
رندة، بسطة، حصن موجر (Zujar)، قرية قردوش، حصن مرتيـل		تطوان وأحوازها
تـرقـة		المهدية
منسين		بلاد الريف
دانية، جزيرة صقلية	أربعة أيام	تونس، الجزائر، القيروان.
لوشة Loja قرية الفخار، بعض من غرناطة، مرشانة، أهل البشرات AL pujarra		قبيلة غمارة بزاوية سيدي أحمد الغزال
بربرة Barbara، برجة Berja، بولة Bula، اندراش Andrax		ما بين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم الى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة

مرينية	يوم واحد	أصيلا وما قرب منها
بليش Velz-malaga شيطة، شريش jerez		سـلا
مابقي من أهل غرناطة	خمسة عشر يوما	بجاية، وهران، برشيد، زوالة، (هي زويلة بتونس قرب صفاقس)، ومازونة (بالجزائر قرب وهران)، نفطة (بتونس قرب توزرا)، قابس، صفاقس، سوسة
طريفة	يوم واحد	أسفي، أزمور، أنفا
القلعة ALcalà		أجدير

الجالية الأندلسية بمليلة

برايد اهتمام الاسبان بمليلة لعدة أسباب، من بينها

— إستيعاب المنطقة لعدد كبير من المهاجرين الاندلسيين وهم في طريقهم الى فاس وتلمسان[82].

— عامل استراتيجي، ويتلخص في كون المنطقة تقابل السواحل الأندلسية وخاصة ساحل المرية وهي بهذا الموقع كانت منطلق العديد من العمليات الجهادية البحرية ضد السواحل الاسبانية[83].

— عامل توسعي، إذ بالاستيلاء على مليلة «تتأتى السيطرة على غساسة وقلعية بل وعلى جميع أراضي ملوية والزحف الى تازة وفاس»[84]. و«ربح أراضي اسلامية جديدة مثلما حدث بالنسبة لغرناطة»[85].

وقد بدأ الاسبان بالفعل في هذا المخطط، إذ استغل سكرتير الملكين الكاثوليكيين Fernando de Zafra حالة الانهيار المعنوي الناتج عن سقوط غرناطة، فاستمال بعض الاندلسيين من الذين كان لهم

(82) حسن الفكيكي، قلعية ومشكل الوجود الاسباني بمليلة، رسالة جامعية غير منشورة محفوظة بمكتبة كلية الاداب بالرباط، 1 77

(83) Nicolás Cabrillana ciezar, Rebelión, guerra y espulsión de los moriscos de Almería, in **cudeinos de la Biblioteca española de tetuan, n° 13-14 Junio, Diciembre, 1976, p.7**

(84) رسالة Fenando de Zafra بتاريخ 25 ابريل 1494 ارشيف سمنكاس مجموعة Negociado Mar y tierra رقم 1315.

(85) Barrantes Maldonado, **Ilustraciones de la casa de Niebla**
عن حسن الفكيكي، المصدر السابق، 1 : 83

نفوذ في الدولة النصرية مثل قاضي البشرات، وابراهيم الزيات أحد قواد السلطان أبي عبد الله وطلب مهم أن يراسلوا الاندلسيين المستقرين بالساحل المغربي باسم الملكين الكاثوليكيين، وذلك لتسهيل تدخل الاسبان بمدن الساحل الشمالي المغربي(86). كما أن عمليات نقل الاندلسيين الى المغرب في أوائل اكتوبر 1493 ركزت في ذهنه فكرة المشروع التوسعي، إذ نظمت 13 رحلة ترأسها كبار ضباط البحرية الاسبانية، واطلعوا أثناءها في عين المكان على الامكانيات الممكن استخدامها لتنفيذ المشروع(87). وكانت جماعة اندلسيي متريل Motril المستقرة بمليلة(88)، احدى هذه الامكانيات، فقد كانت ترغب في العودة الى الأندلس محاولة الاستفادة من شروط الاتفاق الغرناطي الذي يبيح للاندلسيين الرجوع في ظرف ثلاث سنين(89). لكن العرقلة التي تقف في وجه الجماعة هي أن مغادرتها لساحل متريل قبل عقد الاتفاق قد حرمها من الحصول على ما يسميه الاتفاق «بطاقة التصريح» وهو إذن مكتوب كان الاسبان يقدمونه لكل من غادر مرسى عذرة أو المنكب أو شلوبينة في أوائل اكتوبر 1493. فكان على جماعة متريل أن تبذل الجهود لتقديم البديل، ولكن يكون هذا البديل إلا تسهيل دخول الاسبان لمليلة(90). وقد استغل سكرتير الملكين الكاتولكيين بالفعل هذا العرض، وأرسل جماعة من رجاله إلى المنطقة، وهؤلاء هم الذين دبروا مع جماعة متريل تمرد مليلة على الحاكم الوطاسي في بداية فبراير 1494(91). وبالفعل فقد سيطر المتمردون على الوضع بالقصبة والمدينة، لكنهم لم يلبثوا أن انقسموا إلى فئتين متنافستين، إلا أن الهدف، كما تصوره الرسائل المنقولة الى سكرتير الملكين الكاتوليكيين، كان واحداً التسابق الى نيل الحظوة لدى الاسبان لاسترجاع الأراضي التي كان يملكها كل فريق بمتريل، ووصل فعلاً ممثلا الفريقين الى قرطبة لدى Zafra الذي حاول جهد الامكان التوفيق بينهما تمرير مخططه(93). لكن ماذا كان موقف المغاربة من كل ذلك ؟ لقد ابعدت جماعة متريل الأندلسية عن تسيير شؤون المدينة(94). وطلب القادة الجدد النجدة من محمد الشيخ الوطاسي. لكن الظروف كانت معاكسة تماما، فالاسبان كانوا على الأبواب، ومساعدة السلطان الوطاسي تأخرت(95)، فما كان من السكان إلا مغادرة المدينة وفي هذا يقول الحسن الوزان «وقد أرسل ملك اسبانيا في

---

(86) Rafael Fernando de Castro y pedrera **Melilla, Prehisprennica**, p. 440

(87) حسن الفكيكي، المصدر السابق 1 79.

(88) غادرت هذه الجماعة الاندلس قبل ثلاث سنوات من سقوط غرناطة، وكانت تملك الاراضي بأحواز المدينة، وعلى جانب كبير من الثروة، واستطاعت ان تخلق لنفسها مرتبة عالية بمليلة التي اختارتها مكانا للاستقرار. انظر حسن الفكيكي، المصدر السابق، 1 72.

(89) Rachel Arié, op. cit. p. 313.

(90) حسن الفكيكي، المصدر السابق، 1 79

(91) رسالة Zafra الى الملكين مؤرخة ب 12 فبراير و 25 منه سنة 1494 مجموعة Negociado Mar y tierra ارشيف سمنكاس رقم 1315.

(92) نفس المصدر

(93) حسن الفكيكي، المصدر السابق، 1 81.

(94) تأكد هذه الجماعة مؤخرا أن الاسبان كانوا يخططون لاحتلال المدينة دون مساعدتهم.

(95) كانت مساعدة ضعيفة جدا، إذ قدر مارمول عدد جنود الحملة ب 500 جندي، **افريقيا**، 2 284.

هذه الأزمنة الحديثة أسطولا لحصار مليلية، لكن السكان اعلموا به قبل وصوله، فطلبوا النجدة من ملك فاس... فأرسل إليهم كتيبة خفيفة. أما أهل ميليلة الذين كانوا على معرفة تامة بأهمية الأسطول الاسباني فإنهم خافوا ألا يقدروا على التصدي للهجوم، فأخلوا المدينة فارين بأمتعتهم إلى جبال بطوية. ولما رأى ملك فاس ذلك أضرم النار في جميع المنازل وأحرق المدينة عقابا لأهلها ونكاية في المسيحيين.»[96]. هكذا رأينا هذا السلوك الانتهازي لهذه الجالية الأندلسية بالمنطقة، فقد كانت مستعدة للتضحية بأي شيء في سبيل الرجوع إلى ثرواتها بالأندلس، ولو كان ذلك على حساب البلد الذي آواهم وهيأ لهم ظروف السلطة والجاه والنفوذ. غير أن هذا السلوك شاذ فهناك جاليات أندلسية أخرى بالمنطقة آثرت المقام بأرض الاسلام والجهاد لصدّ المعتدين والانتقام لمجدها الضائع بالاندلس.

الجالية الأندلسية تجاه الأحداث

عندما أتت الجالية الأندلسية إلى المغرب وجدت نفسها أمام حدثين رئيسيين كان المغرب يعيشهما آنذاك الغزو الايبيري والصراع الوطاسي السعدي، فانضموا إلى السلطة التي آوتهم وأذنت لهم بالاستقرار (سلطة الوطاسيين)، وحاربوا معها السعديين[97]. كما أنهم استخدموا لمواجهة الايبيريين فقد كلف السلطان الوطاسي عامله على تادلة القائد أحمد العطار الأندلسي بالهجوم على أزمور سنة 1521[98]. وبعد فشل الحصار الذي ضربه محمد البرتغالي على مراكش كلفه بالدخول في مفاوضات مع قبطان أزمور[99]، كما كلف أيضا بالتفاوض مع برتغاليي أسفي[100].

أما فيما يتعلق بمواجهة الغزو الاسباني في الشمال، فقد كلف محمد الشيخ الوطاسي علي العطار الاندلسي[101] باسترجاع مليلة من أيدي الاسبان. وفعلا فقد استقر بغساسة استعدادا للانفضاض عليها وبعد استيلاء الاسبان على غساسة، تصدى لهذا الغزو أحد قواد الأندلس[102]،

---

(96) وصف افريقيا، 1 266.

(97) مارمول، افريقيا، 1 458، 2 230.

(98) Luiz de Soussa, **les portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557, P. 24**

(98) Luiz de Soussa, les **portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557**, P. 24

(99) S.I.H.M. Portugal, 2 335 note 2, 321 note 2.

(100) **S.I.H.M.** Portugal, 3 382.

(101) هو ابن قائد لوشة علي بن ابراهيم العطار، وكان ابوه ابراهيم من أشهر قواد السلطان ابن الاحمر، والمعروف بأعماله الحربية دفاعا عن غرناطة ولوشينة. اجتاز البحر برفقة السلطان ونزل بغساسة، ثم انتقل الى فاس. ومن هناك اختار محمد الشيخ ابنه عليا لمهمة تفقد احوال قلعية الجهادية، ويعود هذا الاختيار الى خبرة الاسرة وممارستها للاعمال الحربية بالاندلس.
انظر، حسن الفكيكي، المصدر السابق، 101—102.

(102) رجح حسن الفكيكي أن يكون هذا القائد هو علي العطار السالف الذكر استنادا على عدة معطيات أوردها.
انظر المصدر السابق، ص 157—158.

فطلب من السلطان الوطاسي الاذن بإعادة بناء تزوطا لتكون منطلقا للعمليات الجهادية لتحرير غساسة وغيرها، وفي هذا الصدد يذكر الحسن الوزان «فطلب أحد قواد ملك فاس، وهو من أصل أندلسي وعلى جانب كبير من الشجاعة أن يؤذن له بإعادة بناء تزوطا وأذن الملك بذلك، وأعيد بناء المدينة»[103]. وفعلا فقد استقر القائد العطار في منصبه متزعما للمجاهدين بتزوطا برفقة من جلبهم معه من الأندلسيين. وهذا ما سجله الحسن الوزان قائلا «وتقوم اليوم بين نصارى غساسة ومسلمي تزوطة حرب دائمة وغارات متوالية، تكون الدائرة يوما فيها على هؤلاء ويوما على أولائك»[104]. ومن الأسر الأندلسية التي لعبت دورا مهما في الجهاد البحري والتجارة أسرة أع ٠

نذكر من بين أفرادها علي أعراص الذي كان يجمع بين قيادة القبيبة والاشراف على الجهاد، فأمام عجز الوطاسيين، واتضاح تعاونهم مع الاسبان اتجه إلى محمد الشيخ السعدي الذي أعطاه تعليمات بتحرير مليلة[106]. وفعلا فقد حاصر المدينة المحتلة، خاصة بعد التجاء أبي حسون الوطاسي صحبة قواده إليها، وظهور النوايا الحقيقة للاسبان من وراء ذلك. وقد كان علي أعراص يخبر مخدومه بجميع التطورات التي تشهدها المنطقة، وكان هو بدوره يمده بكل ما يحتاج إليه. والذي يثير الانتباه في هذه الفترة هو الخبر الذي أروده الاسبان عن تمرد جنود مليلة على حاكم المدينة، إذن أنه توصل إلى اكتشاف مؤامرة نسج خيوطها (Gaspar)، وهناك من يرجح أن الموريسكيين كانت لهم اليد الطولى في هذه المؤامرة[107].

---

(103) وصف افريقيا، 1 266.

(104) المصدر السابق، 1 267

(105) وثيقة نسب قلعية (كتاب الانساب)، ضمن مجموع، مخطوط خ.ع بالرباط عدد 1275 ك.

(106) S.I.H.M. Espagne, 1 183

(107) اعتمادا على انه كان ضمن قائمة جنود مليلة لسنة 1553 من كان اسمه كاسبار العربي Gaspar Y roby.
انظر حسن الفكيكي، المصدر السابق، ص 191.

الجالية الأندلسية بتطوان[108] المواجهة المباشرة مع الاسبان والبرتغال.

طلب القائد علي المنظري من محمد الشيخ الوطاسي الاذن له بتجديد بناء مدينة تطوان[109]، وذلك حتى تتمكن الجالية الأندلسية المصاحبة له من اتخاذها مقرا دائما لها[110]، وأذن له فعلا

---

(108) للمزيد من الايضاح حول الجالية الاندلسية بتطوان، انظر احمد الرهوني، **عمدة الراوين في اخبار تطاوين**، الجزء الثاني، الفصل الحادي عشر، مخطوط الخزانة العامة بتطوان رقم 318.
محمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد الأول، ص 86—124.
Emilio de Meneses, **correspondencia del conde de tendilla**
وهو يحتوي على مراسلات حاكم غرناطة للمنظري.
Padre Gabriel de Arandra, **vida del Siervo de dios... el venerable Padre Fernando de** contreras, 1692
والمعنى بالامر زار تطوان، ورأى حفيد المنظري سنة 1540. والكتاب يوجد بالخزانة العامة بتطوان.
Carranza Fernando de Reguera, "Sidi Abul Hassan Ali, Al Manziri, in **Archivo del Instituto de Estudios Africanos, 1950**, n° 13.
وانظر كذلك رسالة Guillermo Gozalbes Busto بعنوان «المغرب في العصور الوسطى المتأخرة» وهي تتعلق بالخصوص بمساهمة الاندلسيين في بناء تطوان وشفشاون.
رسالة جامعية غير منشورة مخطوطة بمكتبة جامعة مدريد المركزية Complutense يناير 1983.
«ولنفس المؤلف دراسة أخرى بعنوان الحضور الموريسكي في تطوان وشفشاون»
Presencia de los moriscos en tetuan y XAUEN
وهي دراسة قدمها للمؤتمر العالمي للدراسات الموريسكية الذي انعقد بتونس في شتنبر 1983، وقد نشرت ضمن أعمال المؤتمر سنة 1984.
Religion Identité et Sources Documentaires sur les morisques Andalous, 1 361-374.

(109) هناك اختلافات في تاريخ بناء مدينة تطوان، فعبد السلام السكيرج في مخطوطه «**نزهة الاخوان**» يذكر أنها بنيت سنة 888 هـ، وفي مخطوط قديم يذكر صاحبه أنها بنيت سنة 889 هـ (نقلا عن محمد داود المصدر السابق، ص 95). غير أن الحسن الوزان يذكر أن البناء تم بعد سقوط غرناطة (**وصف افريقيا** ، 1 247). وإلى هذا الرأي يميل محمد داود اعتمادا على تقييد للعربي الفاسي (صاحب كتاب **مرآة المحاسن**، والمتوفى بتطوان سنة 1052هـ)، إذ ذكر ما نصه : «إن هذا البناء الاخير كان على يد جماعة من الاندلسيين قدموا إلى هذه العدوة حين استولى الكفرة — دمرهم الله — على الجزيرة أعادها الله للاسلام، وذلك في شعبان لسبع خلت منه عام 989 هـ) أورده محمد داود، المصدر السابق، ص 95—96).
ويرى G.G. Busto أن البناء تم سنة 1483، اعتمادا على عدة حجج أوردها (انظر دراسته الأخيرة السالفة الذكر). وعلى كل فمن المرجح أن تكون المدينة قد بنيت على مراحل مما خلق معه هذا الاضطراب في التواريخ.

(110) هناك أيضا اختلاف في عدد المهاجرين الاندلسيين الى تطوان، ففي **نزهة الاخوان** «يذكر السكيرج أن عدد المهاجرين نحو الثمانين، ويذكر العربي الفاسي في تقييده السالف الذكر أنهم كانوا 46 رجلا و 10 نسوة في حين يذكر صاحب مخطوط قديم كتب بتطوان انهم كانوا نحو 40 دارا (أورده محمد داود، المصدر السابق، ص 86).
ويرى داود أنه ليس هناك أي خلاف بين هاته الروايات جميعا، إذ ان عدد المهاجرين كانوا 80 شخصا منهم 46 رجلا و 10 نسوة ونحو 20 طفلا، وانهم كانوا يسكنون 40 دارا» وذلك اعتمادا على كناش قديم وقف عليه يذكر عدد المهاجرين في بيتين

وكان عدة الرجال الابرار ميم وزاي ليس ثم أكثر
وعدة النساء نقط الياء فهؤلاء أسسوا البناء

فمدلول حرف الميم والزاي سبعة وأربعون، ومدلول حرف الياء عشرة، **تاريخ تطوان** ، ص 86—87). وقد ذكر صاحب **نبذة العصر** (ص 48) أن تطوان واحوازها استقر بها أهل رندة، وبسطة، وحصن موجز، وقرية قردوش، وحصن مرتيل. =

بذلك[11]، غير أن أمر الاستقرار لم يكن سهلا، فقد تصدت له القبائل المجاورة بدعوى أن هذه الأرض تدخل في إطار ملكيتهم، وأن الاستقرار بالمنطقة يضر بمصالحهم ومن هذه القبائل بني حرمز وبني صالح وبني سالم[112]. وتجاوز الأمر حد المواجهة إلى محاولة التعاون مع الاسبان ضد الوافدين الجدد[113]، وقد طلب المنظري المساعدة من سلطان فاس فأمدهم بأربعين من أهل فاس وأربعين من أهل الريف لحمايتهم من اعتداءات القبائل المجاورة[114]. كما اشتكى المنظري أيضا لقائد شفشاون علي ابن راشد[115]، فبعث إليه بنحو أربعمائة فارس، وبوجودهم ساد الأمن إمارته وتمكن القائد الأندلسي من اتمام البناء[116].

وكانت إمارته شبه مستقلة مما ترك له حرية الحركة، فقد ذكر الحسن الوزان في هذا الصدد «وكانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين، وكثيرا ما ضيق الخناق على سبتة والقصر وطنجة، وكان معه دائما ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة، فجعل يجوب أنحاء البلاد بهذا الجيش ويأخذ العديد من المسيحيين يحتفظ بهم كأسرى ويستخدمهم في أعمال التحصين. ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير مسيحي لابسين جميعا سترات من الصوف، ينامون ليلا مقيدين في الاصفاد داخل سراديب تحت الأرض...»[117].

كما ذكر مارمول أن المنظري كان يخرج على رأس 400 فارس أتى بهم من الأندلس مع من ينضم إليهم من المغاربة لمهاجمة حدود سبتة والقصر وطنجة، وأنه كان يهاجم الشواطىء الاسبانية لأنه كان يملك بعض السفن الصغيرة السريعة الحركة، حتى اجتمع لديه نحو 3 آلاف من الأرقاء كما يجبرهم على العمل طول النهار في بناء الأسوار ويسجنون ليلا في مطامير وبأيديهم الحديد»[118].

= **ملاحظة** انفقد داود رواية بعض الباحثين الاجانب من كون بعض المهاجرين الاندلسيين حملوا معهم مفاتيح منازلهم، انتظار لرجوعهم، إذ يذكر داود في هذا الصدد «... وهذا شيء ربما كان في القديم، أما في عصرنا فإننا لا نعرفه ولم نسمعه من أحد من أهل بلدنا». المصدر السابق، ص 88. وقد اتصلنا بالمهدي الدليرو (وهو من أصل اندلسي) المحافظ السابق للخزانة العامة بتطوان فأكد لنا أن هذه المفاتيح كانت موجودة بالفعل ولكنها ضاعت بعد حرب تطوان سنة 1860، كما أكد لنا عبد الله العمراني (استاذ بكلية اصول الدين بتطوان) أن بعض العائلات ما زالت تحتفظ بهذه المفاتيح.

(111) وصف افريقيا، 1 247

(112) عبد السلام السكيرج، نزهة الاخوان، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق، 1 97.

(113) تقييد العربي الفاسي، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق 1 97.

(114) عبد السلام السكيرج، نزهة الاخوان، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق، 1 97.

(115) انظر عن هذا القائد، عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها، ص 86—90.

(116) مخطوط قديم لمؤلف مجهول، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق، 1 97—98.

(117) وصف افريقيا 1 257.

(118) افريقيا، 2 106.

ملاحظة انظر بعض المستندات المتعلقة بافتداء الأسرى في مجلة Mauritania، طنجة، عدد 182، يناير 1943.

وانظر كذلك م. داود، المصدر السابق، 1 : 114—116.

استخلاص

إن أهم ما يمكن تسجيله في نهاية هذا الفصل هو انتقال جالية أندلسية مهمة إلى المغرب واختلاف مواقف أفراد هذه الجالية. فهناك فئة كانت تتحفز باستمرار للذهاب إلى الأندلس، وكانت مستعدة للتضحية بأي شيء في سبيل تحقيق هذه الرغبة، وهناك فئة أخرى فضلت البقاء وآثرت المساهمة في الأحداث السياسية التي كانت يعرفها المغرب، وذلك بالانضمام إلى الوطاسيين في حربهم ضد السعديين، وهي تريد بذلك الحصول على نفوذ ما، في حالة الانتصار يعوضها عن ما ضاع منها بالأندلس. وفئة ثالثة اتجهت إلى الجهاد لكن على الطريقة الأندلسية، أي العيش في استقلال تام عن السلطة المركزية، محاولة بذلك أن تعيد مجدها بالأندلس.

إن هذه المواقف في الواقع متطابقة، وان بدت لنا في الظاهر مختلفة، فإذا بحثنا في حقيقة هذه المواقف فإننا نجد أنها ترمي بالأساس إلى تحقيق كيان أندلسي ما بالمنطقة التي يستقرون بها. وهكذا نجد أن الفئة الأولى فضلت الهجرة لأنها لم تستطع تحقيق هذا الكيان بالمغرب، وبذلك فهي اتطمح إلى تحقيقه في منطقة أخرى، وقد آثرت أن تبدأ بموطنها الأول.

والفئة الثانية شاركت في الأحداث السياسية أملا في تحقيق نفوذ داخل البلاط الوطاسي يمكنها من تحقيق وجود أندلسي ما داخل هذا البلاط نفسه، والفئة الثالثة كانت صريحة أكثر عندما تصرفت في حرية تامة عن السلطة المركزية.

وعلى كل فتلك مواقف أفراد هذه الجالية في ظل دولة ضعيفة تواجه أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة، فكيف ستكون مواقف أفراد هذه الجالية بعد أن تستقر الأوضاع، وينتقل الحكم إلى سلطة مركزية قوية ؟

ذلك ما سنراه حين الحديث عن أوضاع هذه الجالية في ظل العهد السعدي الأول.

الفصل الثاني

الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد السعدي الأول

حاول الملوك السعديون في فترة إقبال دولتهم أن يفتحوا الباب على مصراعية لمهاجرة الأندلس ويقدموا لهم كل المساعدات سواء على صعيد العمليات الجهادية، أو على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، بل تعدى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدات للموريسكيين بإسبانيا نفسها، رغم المحاولات التي كانت تقوم بها هذه الأخيرة لمنع أي اتصال بين الموريسكيين داخل إسبانيا وخارجها. لكن الضغط التركي أفشل الكثير من المشاريع الجهادية التي كان الملوك السعديون ينوون القيام بها ضد الاسبان. والتجأ بعضهم في الأخير إلى البحث في الجانب الآخر، لدى المعسكر البروتستانتي، عن حلفاء جدد يعوضون بهم الأتراك.

6

الجالية الأندلسية في عهد محمد الشيخ

كان لأنباء الانتصارات التي حققها محمد الشيخ على المسيحيين الصدى الواسع سواء لدى الجالية الأندلسية بالمغرب أو لدى الموركسيين بإسبانيا، وقد حاول جهده استغلال كل ذلك في سبيل تحرير باقي الثغور المحتلة، ولتقديم المساعدة إلى موريسكيي اسبانيا فاتجة إلى الأتراك للقيام بعمليات مشتركة ضد الاسبان لكن اختلاف وجهات النظر حال دون ذلك، مما أضاع على المغرب فرصة ثمينة لتوجيه ضربة قاضية للاسبان داخل الثغور المحتلة، وتقديم المساعدة الفعالة للمورسكيين باسبانيا نفسها.

لقد كان تأييد الجالية الأندلسية بالمغرب لمحمد الشيخ تأييدا مطلقا، خاصة أنهما يشتركان في نفس الهدف، وحفظ الشريف السعدي للأندلسيين هذا التأييد فثبت القائد المنظري لمدى الحياة في تطوان[1]. وكان موريسكيو غرناطة يتقاطرون باستمرار على فاس للانضمام إلى محمد الشيخ، وكانوا يحثونه على توجيه ضربة للاسبان في الصميم، وذلك بالهجوم عليهم في أحد معاقلهم الرئيسية وهي سبتة، إذ يذكر اعلان Pedro Hernandez (يوليوز 1549) في هذا الصدد «إن أنباء تروج في بادس مفادها أن محمد الشيخ سيحاصر سبتة براً وبحراً، وان موريسكيي غرناطة يتوافدون يومياً على فاس، وانهم يحثونه على أخذ سبتة لأن هذا العمل يسبب مضايقة كبيرة للاسبان...»[2] ومن المعلوم أن لهؤلاء الموريسكيين تجربة كبيرة في محاربة الاسبان، وبالتالي فإنهم سيقدمون خدمات كبرى لمحمد الشيخ إذا ما أقدم على عمل مثل هذا.

وقد تعدى صدى انتصارات محمد الشيخ الحدود ليصل إلى موريسكيي اسبانيا، إذ كان لهم أمل قويّ في أن يأتي الشريف السعدي لخلاصهم على أساس أن يقوموا بثورة في الداخل متى شعروا باقترابه من اسبانيا، كما يتجلى ذلك في مذكرة Ignacio Nunes Gato المؤرخة بسنة 1549، إذ يذكر أنه (نزل أحد المورسكيين في مكان بعيد بتسع مراحل عن مالقة، وأوهمه أنه ابن قائد من قواد محمد الشيخ، وطلب من الموريسكي المذكور أن يمدّ له يد المساعدة، وقد أجابه بأنه هو ومواطنيه لهم أمل كبير في أن يأتي إليهم محمد الشيخ لتخليصهم وأنه بمجرد الاقتراب من اسبانيا فإن 200 ألف موريسكي سيعلنون ثورتهم في ممالك مرسية وبلنسية وغرناطة، وأنه لديهم معدات عسكرية مهمة مخبأة في الجبال»[3].

(1) Lettre de Pedro de Herrera à Luis de Rueda, tetuan,, 23 Août 1549. S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 337-339

(2) S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 321-223

(3) S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 : 294-297

والملاحظة الأساسية في كل هذا أن الموريسكيين كانوا في هذه الفترة يميلون بقوة إلى محمد الشيخ في مواجهة الأتراك إذ كانوا يكرهونهم، لأنهم كانوا يخشون من تحالفهم مع الاسبان. وهكذا نجد في اعلان Pedro Hernandez «ان موريسكيي بلنسية وارجون الموجودين بكثرة بالجزائر طلبوا من محمد الشيخ أن يرسل لهم ابنه، وأنهم سيؤيدونه فوراً، وذلك حقداً منهم للأتراك...»[4]، كما «استقبل محمد الشيخ وفداً يمثل أهالي تلمسان والجماعات الأندلسية المقيمة بها، وأكدوا له انضمامهم إليه ومساعدته على فتح تلمسان كرهاً منهم للأتراك..»[5].

لكن بادي الأمر فضل محمد الشيخ أن يعرض مشروعه على الأتراك للتعاون فيما بينهما، ففي تقرير بعث به حاكم وهران Comte d'Alcaudete إلى حكومته (21 أبريل 1549) ذكر أن محمد الشيخ كتب إلى باشا الجزائر يعرض عليه القيام بعمليات مشتركة لفتح وهران والمرس الكبير... وأنهما يستطيعان أن يعلنا بعد ذلك الحرب على اسبانيا...»[6]، وقد أخذ الاسبان والبرتغال يترقبون بالفعل تعاون السعديين والأتراك ضدّ المراكز المحتلة في شمال افريقيا، خصوصاً وقد تأكد لديهم اتفاق محمد الشيخ مع الأتراك على ذلك، إذ نجد في الرسالة التي بعثها من جبل طارق Luis de Ruedo بتاريخ 6 فبراير 1549، بعد أن تعلن عن خبر استيلاء الشريف السعدي على فاس تشير إلى أنه على اتفاق مع الأتراك، وأنه يسعى لبناء أسطول لتحرير جميع السواحل المغربية، وللجهاد ضدّ المسيحيين بل للعمل لإستعادة اسبانيا نفسها...[7].

لكن مشروع محمد الشيخ[8] لم يكتب له النجاح نتيجة الأطماع التركية في المغرب[9].

---

(4) S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 321-323

(5) S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 208

(6) S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 246-248

(7) S.I.H.M. 1ère série, Espagne, 1 451

Andrzej Dziubinski "l'armée et la flotte de guerre marocaines", in **Hespérin-tamuda**, vol. XIII - Fescicule unique, 1972, P. 92

(8) كان مشروع محمد الشيخ بعيد المدى، فقد كان يهدف اولا الى استرجاع باقي الثغور المحتلة بمساعدة الموريسكيين الذين يتوافدون على المغرب باستمرار، كما انه كان يهدف ايضا الى تقديم المساعدة لموريسكيي اسبانيا، وذلك بالضغط على هذه الاخيرة لكي تحسن معاملتهم.

(9) حول العلاقات المغربية التركية، انظر

— A. Cour, l'**Etablissement des dynasties des chérifs et leurs rivalités avec les Turcs de larégence d'Alger (1509-1830)**.

— Ch. de la Véronne, "Relations entre le Maroc et la Turquie dans la Seconde moitié du XIVè Siècle et le début du XVII siècle (1554-1616), in **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée** (R.O.M.M), n° 15-16, AIX, 1973.

محمد حجي العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر، مقال **بالمجلة التاريخية المغربية**، تونس، العدد 29—30 يوليوز 1983، ص 151—160.

محمد مزين «الكتابات التاريخية المتعلقة برصد الخطاب المعتمد في علاقات المغرب العثمانيين مقال **بالمجلة التاريخية المغربية** تونس العدد 29—30 يوليوز 1983، ص 457—481.

ابراهيم شحاته حسن، **العلاقات المغربية العثمانية**.

عبد الله غالب أمام التجربة

ظلّ الوجود الأندلسي قوياً في المغرب بعد موت محمد الشيخ، فقد ذكر أحد البحارة الألمان المقيمين باسطنبول (حوالي سنة 1560) ان الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود 80 ألف أندلسي قد التجأوا إلى فاس، وأنهم عازمون على الانتقام من محاكم التفتيش الاسبانية[10]. لكن إن كان الأمر عادياً في عهد محمد الشيخ ولم يثر أية مشاكل، إذ أن الجالية الأندلسية بالمغرب أيدت تأييداً مطلقاً الشريف السعدي سواء في مواجهته للمسيحيين أو الأتراك فإن الأمر يختلف تماماً بالنسبة لأبنه عبد الله الغالب الذي سيدخل في علاقات جديدة معها، خاصة عندما اتخذ اجراءات خطيرة في حقهم، ذلك أنه «في عام سبعين وتسعمائة (1562 — 1563) أمر الغالب بجمع أهل الأندلس الذين خرجوا في الجالية على يد شيطان كان من أهل قرية بجبل غرناطة اسمه سعيد بن فرج الدغالي، وأخاه أحمد خرج بتطوان، وكانا بحريين بها، فنزلا على كبير دولة الغالب الحسن بن أبي بكر، فزين للغالب جمع أهل الأندلس على يد هذا الدغالي فرسم له بذلك، ودار عليهم في بلاد المغرب وجمعهم طوعاً وكرهاً، وكتب منهم في الديوان أربعة عشر ألفاً، ونقلهم إلى مراكش فاقطعهم الجانب الغربي منها وهو روض الزيتون سكنى... من المزارع والضياع واتخذوا فيه البساتين، وأعطوهم السلاح وسموا قائداً.. عليهم الدغالي...»[11].

لكن ماذا كان موقف الجالية الأندلسية تجاه هذه الاجراءات التي اتخذها عبد الله الغالب ؟

ذلك ما سيوضحه نفس المصدر في النص الآتي : «... وكان أهل الأندلس أكرههم على الجندية وقهرهم عليها، وولى عليهم من لا يرضون ولايته، فكانوا يتمنون له النكب ليخرجوا من ربقة الرقية إلى الحرية...»[12].

وهنا يمكن طرح سؤال رئيسي :

لماذا أمر عبد الله الغالب بجمع الجالية الأندلسية بالمغرب وادخالها إلى الجيش، هل كان بدافع الحاجة أم أن الأمر كانت وراءه أسباب خفية ؟

سنحاول أن نجيب من خلال عدة ملاحظات حول هذا الاجراء :

---

(10) Cuy Turbel - Delof, l'Afrique Barbaresque dans la littérature Française aux XVIè Siècles P. 230.

ملاحظة : ربما كان هذا الرقم (80 الف) فيه مبالغة الا انه يدل في نفس الوقت على ان العدد كان كبيرا جدا.

(11) ابو القاسم الزياني، الترجمان المعرب، ص 350.

ملاحظة كان عبد الله الغالب قبل ذلك (حوالي سنة 1560) قد عين لليهود المطرودين من اسبانيا مكانا خاصا لهم بمراكش، وظلوا في نفس المكان الى غاية القرن العشرين.

انظر Pierre Flamand, Diaspora en terre d'Islam, PP. 120-121.

(12) ابو القاسم الزياني نفس المصدر والصفحة.

ـــ نشير أولا إلى أن النص يذكر أنهم جمعوا «طوعاً وكرهاً»، أي أن طائفة من هذه الجالية أتت «كرهاً» وللأمر خطورته.

ـــ ضخامة الرقم (14 ألف)، فهو رقم كبير جداً إذا ما قورن بعدد القوات التي كانت لجيش عبد الله الغالب (حوالي 30.000 جندي)[13]، فهل أراد بذلك أن تكون هذه الجالية عامل توازن تجاه مختلف عناصر الجيش المغربي، ويمكن استخدامها في جمع ثورات داخلية وتكون بالتالي أداة طيعة في يده، أي بعبارة أخرى «انكشارية أندلسية» داخل الجيش المغربي.

ـــ كما يشير النص إلى أنه أقطعهم مزارع وضياع في حيّ رياض الزيتون بمراكش، الا يمكن أن يكون هذا الاجراء ترضية لهذه الجالية مقابل الخدمة العسكرية، وتعويض لها مما ضاع منها في الأندلس، وخاصة أن مهارتهم في الميدان الفلاحي معروفة إلى جانب مهارتهم العسكرية ؟

ـــ ويشير النص أيضا إلى أنّ أعيان أهل الأندلس وبيوتاتهم كانوا يحقدون على عبد الله الغالب ضد هذا الاجراء، إذ أدخلهم جميعا في الجندية، والأمر يتجلى بوضوح إذا علمنا أن كثيرا من أفراد هذه الجالية كانوا يمارسون التجارة والصناعة والفلاحة مما يدر عليهم الأرباح الوفيرة، وان ادخالهم إلى الجندية ربما سيحرمهم من كل ذلك.

ـــ ويشير النص أيضا إلى أنهم لم يكونوا راضين بتولية سعيد ابن فرج الدغالي، ولا شك أن لهم أسباب موضوعية ضد هذه التولية إما لماضيه بالأندلس، أو لعلهم كانوا يعْلمون مسبقا أن العملية كلها كانت في سبيل التقرب من السلطان السعدي وكسب نفوذ لديه، أي بالتالي مصلحة ملموسة له ولحاشيه.

ـــ يشير النص ـــ أخيراً ـــ إلى أنهم اعتبروا هذه العملية بمثابة استرقاق لهم وانهم يتمنون الخلاص منه ومن اجراءاته وهذه قضية خطيرة ستكون لها الآثار السلبية على المدى البعيد.

هذا عن علاقة عبد الله الغالب بالجالية الأندلسية داخل المغرب وردود الفعل تجاه اجراءات السلطان السعدي، فما هو موقفه من التطورات الجديدة التي ستعرفها قضية الجالية الأندلسية باسبانيا نفسها بعد اعلان هذه الأخيرة لثورتها سنة 1568، خاصة أنها كانت تدخل في حسابها مساعدة عبد الله الغالب وجاليته الأندلسية.

موقف عبد الله الغالب من ثورة غرناطة[14]

تشير المصادر إلى أن محمد بن أمية قائد الثورة بعث بسفارة برئاسة فرناندو الحبقي (أحد قادة

(13) Andrzej Dziubinski "l'armée et la flotte de guerre Marocaines" in **Hespéris-tamuda**, Vol. XIII - Fascicule unique, 1972, P. 66.

(14) سبق ان تعرضنا لمراحل هذه الثورة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي، وكذا موقف الجزائر والاتراك بصفة عامة من هذه الثورة، وذلك عند حديثنا عن الموريسكيين في عهد فليب الثاني.

الثورة) إلى السلطان السعدي[15] كما أكد ذلك المؤرخ الجنابي قائلا «وفي سنة سبع وتسعين (وتسعمائة) قام أهل الأندلس على اسبانيا واجتمعوا بالجبل الأخضر بقرب غرناطة وأمروا عليهم من رجلا من أولاد الملك أبي سعيد ابن الأحمر، فاقتتلوا مع قائد عسكر اسبانية فهزموه، فنال الكفار منهم خوفا عظيما، وأرسل هؤلاء إلى الشريف مولاي عبد الله يستمدونه فلم يمدهم بسبب قلة الأغربة والمراكب عنده ولعلة أخرى...»[16].

غير أن صاحب **تاريخ الدولة السعدية** له رأي مغاير في الموضوع، إذ ذكر — وهو بصدد الحديث عن الثورة — فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونهم الله في الاغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أرضهم، وكان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده، فأمرهم غشاً منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة وكذب عليهم، غشاً منهم ولدين الله عزّ وجل ومصلحة لملكه الزائل...»[17].

وعن السبب الذي جعل عبد الله الغالب لا يقدم المساعدة للموركسيين في ثورتهم، يذكر نفس المصدر «... وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات وانه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم منه بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه، فلما قاموا على النصارى عن أذنه وانشغلوا معهم بالقتال أرسلوا رؤسائهم وكبراءهم وذوي شأنهم إلى العدوة ليستغيثوا بالسلطان وبجماعة المسلمين في الاعانة وتركوا أهل الأندلس كلهم متمنعين في جبال غرناطة وهم يقاتلون النصارى، فلما وصل إليهم تراخى عنهم وطول عليهم مقامهم فاتتهم المكاتبة من أهلهم بأنهم اطلعوا على مكاتبات بين السلطان وبين النصارى ومصادقة وتدبير على المسلمين فصح عندهم ذلك وظهر بالامارات الدالة عليه من كثرة قعودهم ومرور الأيام عليهم بلا فائدة فأمروهم أن يصطلحوا مع النصارى على أن يتركوهم يجوزوا لهذه العودة فأجابهم النصارى لذلك فقطع جلهم وتفرقوا في بلاد المغرب...»[18].

وفعلًا فقد فشلت الثورة وهاجر عدد منهم إلى المغرب واستخدمهم الشريف السعدي في الهدف الذي أراده «وأخدم الجيش من أهل الأندلس الفارين بدينهم من الكفر، وجعل يشق عليهم في

---

(15) محمد عبده حتامله، **التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد فليب الثاني**، ص 43.

ملاحظة

اورد المؤلف في الهامش 1 من نفس الصفحة عددا من المصادر الاسبانية التي اعتمدها.

(16) **البحر الزخار والعيلم التيار**، ص 535

(17) **تاريخ الدولة السعدية**، ص 37، 38.

(18) **تاريخ الدولة السعدية** ص 38

ملاحظة

ورد في رسالة السفير الفرنسي بمدريد الى شارل التاسع انه وقع اتفاق يسمح للموركسيين بموجبه بالخروج الى المغرب او غيره من بلدان شمال افريقيا وان عددا كبيرا منهم قد جاز الى المغرب.

S.I.H.M. 1ère série, France, 1 : 318

الخدمة، وجمع منهم جيشاً عظيماً ليتعصب بهم ويتقوى بجمعهم، فصلح بذلك ملكه وعهد سلطانه...[19].

إنه بقدر ما كان صاحب التاريخ المذكور متحاملاً على عبد الله الغالب بقدر ما كان الجنابي (وهو قريب من الأحداث) موضوعيا إذ أوضح أن السبب في عدم تقديمه المساعدة يرجع إلى عاملين

- قلة الأغربة والمراكب.
- وعلة أخرى

ولنبدأ بالسبب الثاني (أي بالعلة الأخرى).

لقد تخلص الجنابي من ذكر السبب بطريقة ذكية، إذ ترك الأمر عاما بدون تخصيص.

إن «العلة» التي تجنب ذكرها تتلخص في كون عبد الله الغالب التجأ إلى التقارب في سياسته مع دول أوروبا الغربية والعمل على مهادنتها[20]، وذلك تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، فقد كانت علاقاته بأوروبا الغربية تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الأطماع التركية، أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة أما التنازل عن نقط معينة للمسيحيين أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك ولا علاقة بين ما يورده المؤرخ المجهول عن شخصية عبد الله الغالب وبين ما تورده المصادر التاريخية المعاصرة له، إذ تؤكد هذه المصادر على أنه عرف بالورع والصلاح، وان المغرب لم يكن في عهد أبدا غافلاً عن القضية الأندلسية، فهذا المؤرخ الجنابي وهو بصدد الحديث عن السبب الأول الذي أدى إلى عدم تقديم المساعدة إلى المورسكيين (قلة الأغربة والمراكب) «فمن ذلك اليوم (أي منذ فشل ثورة المورسكيين بغرناطة) شرع في تجهيز الأغربة وإنشاء المراكب حتى حصل عنده نحو ثلاثة غرابا، وهم يسيرون الصيف والشتاء في وجه البحر فيحتمون من الكفار ويأسرون منهم. وبلغنا أنه عمال منشغل بتكثير الأغربة ويجتهدون فيها، وكان قلة الأغربة عندهم بسبب قلة الأخشاب الصالحة لذلك عندهم، فالآن أذن لهم في نقل الأخشاب من الروم إلى فاس. فجد الشريف المذكور في أمر العمارة والناس يقولون مراده فتح الأندلس لأنه علم أن ذلك هين بسبب الرعايا المتمكنين فيها...»[21].

وهذا نصّ واضح ودليل على مدى تعاطف عبد الله الغالب مع القضية الأندلسية وانشغاله بها، خاصة أن المغرب ـــ رغم الظروف المحيطة به ـــ لم يبق مكتوف الأيدي أمام اندلاع الثورة، ففي رسالة بعث بها السفير الفرنسي إلى شارل التاسع مع مدريد (5 نونبر 1569) ذكر أنه خرجت 9 مراكب من

---

(19) المصدر السابق ص 39

Andrzej Dziubinski, Op. Cit. PP. 67-68

(20) سمح للاسبان بالاستيلاء على بادس وتراجع عن فتح البريجة (الجديدة) المحتلة من طرف البرتغال، وتنازل للفرنسيين عن القصر الصغير.

(21) البحر الزخار والعيلم التيار، ص 535

العرائش في 22 شتنبر 1559 تحمل عددا من المجاهدين الذين قاموا بنهب جزيرة Lanzerotte وموانىء جزر الكناري، واحرقوا المدينة والكنائس واسروا العديد من المسيحيين وكانوا يصرحون بأنهم سيقطعون الطريق بين اسبانيا والعالم الجديد[22]، ومن المعلوم أن المقصود من هذه العملية أن تنشغل اسبانيا في جبهتين أو أكثر، لتشتيت مجهوداتها قصد التخفيف من الضغط على الثورة، وللانتقام في نفس الوقت من الأعمال الوحشية التي يقوم بها الاسبان ضد رجال الثورة[23].

الطائفة الأندلسية

انطلق زعيم هذه الطائفة محمد الأندلسي من الحي الذي أنشأه عبد الله الغالب للجالية الأندلسية بمراكش (رياض الزيتون)، والأمر له خطورته لأن الزعيم الأندلسي سوف يجد سنده في جاليته التي كانت تنتظر الفرصة للظهور. وبالفعل فقد تحولت في ظرف وجيز إلى حركة دينية سياسية تسعى لكسب وتأييد العامة والعلماء على السواء.

ويبدوا أنه هاجر إلى مراكش مع أبيه بعد سقوط غرناطة[24]، وليست لدينا معلومات عن تكوينه العلمي غير ما ذكره ابن عسكر «... أخذ عن أشياخ جمة وعول على الشيخ أبي الحسن على بن أبي القاسم... »[25]، ويضيف نفس المؤلف بأنه «كان مولعا بعلم الاقتباس وسرّ الحرف وعلم الكمياء والرياض والطبّ وعلم الهيئة والطبيعة... »[26]، مما سينتج معه على أنه كان على دراسة بالعلوم التقنية بالاضافة إلى تضلعه في العلوم الشرعية، أي أنه بعبارة أخرى كانت لديه أدوات المواجهة. ويذكر ابن عسكر أنه كان كثير الوقوع في الأئمة فنحا منحى ابن حزم الظاهري، وشاع ذلك عن أصحابه، فافتى فقهاء مراكش بتضليله، وانهوا ذلك إلى السلطان فأمر بسجنه، وبقي فيه مدة ثم فرج عنه، ثم شيعوا عليه أيضا أنه يقول «الاشتغال بالصلاة على النبي ﷺ فتور عن الذكر وأشياء مستغربة، فسجن أيضا ثم خلي سبيله...»[27].

هكذا كان محمد الأندلسي ينحو منحى ابن حزم الظاهري ويبالغ في انتقاد أئمة الاسلام، وخصوصا مالك بن أنس، حتى لقب أنصاره بالمحمدية وغيرهم بالمالكية «... وتلقبت شيعته بالمحمدية، ويسمون من خالفهم بالمالكية نسبة إلى الامام مالك... »[28]، إشارة إلى أن هؤلاء ابتعدوا عن رسول الله وتشبثوا بغيره[29]. كما نال هؤلاء من قدر الرسول — عليه السلام — تستراً وراء تقديس

---

(22) S.I.H.M. 1ère série, France, 1 290.

(23) انظر حول انشاء اسطول لتحرير الاندلس من طرف محمد الشيخ وعبد الله الغالب
Andrzej Dziubinski, op. cit. pp. 92-93.

(24) يستنتج هذا من كلام صاحب الدوحة ص 109 بقوله «نزيل مراكش»

(25) م. بن عسكر، دوحة، ص 109

(26) نفس المصدر والصفحة.

(27) نفس المصدر والصفحة

(28) نفس المصدر والصفحة

(29) محمد حجي، الحركة الفكرية، 1 : 241

الخالق القديم تعالى وتنزيهه عن أن يشاركه في قدسيته مخلوق مهما كان نبياً أو غيره، ولنستمع إلى مناظرة وقعت بين عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري عليوات وبين بعض دعاة هذه الطائفة فقلت له سمعت منك أنكم لا تحتاجون إلى نبينا محمد في شيء، وانما هي أنا وربي حاضر لا يغيب، فتقول يارب ! فيقول ياعبد ! فقال نعم ! وما تنكر من ذلك ؟ أليس نبيك محدثاً وهو من جملة خلق الله تعالى والله خالق كل شيء وإليه ترجعون ؟ فقال سلمت هذا ؟ قلت نعم ؟ سلمته وأنا قائل به لكن بقي لي أن نزيد هذا بيانا : فقال : وما ذلك ؟ فقلت له : ولماذا تقرأون القرآن وتحتج عليه بنصوصه وهو انما نزل على سيدنا محمد...»[30].

فهذه الأقوال إذن خطيرة، ولكن خطورتها لا تنسجم مع ما يشير إليه نص ابن عسكر من كونه كان يفرج عليه باستمرار كلما ألقي عليه القبض، فالردّ لم لكن في مستوى ما تدعيه هذه الطائفة. إن السرّ في ذلك يكمن فيما أورده ابن عسكر نفسه قائلًا... فانتشر صيته وبعد ذكره وكثر أتباعه ووقع بينهم وبين الفقراء خطب عظيم، وانتشر بسبب ذلك شغب في العامة، وكثر التعصب ووقعت المجاهرة بالقتال وسفك الدماء... لقيته مراراً وتكلمت معه فكان يتنصل من أكثر ما نسب إليه ويظهر التمسك بالسنة والاضراب عن القول بالرأي والقياس ويعيب طريقة الفقهاء...»[31].

فقد استخدم أسلوب التمويه مدعياً أن مبدأ الدين الاسلامي نفسه ليس موضوع نقاش، وإنما انتقاده موجه أساسا إلى الأساليب الجامدة لبعض الفقهاء، مما جعل الآراء تختلف حوله فيكثر خصومه وأنصاره.

لكن سيضع محمد الأندلسي نهايته بنفسه عندما سيتحول من حركة دينية إلى حركة دينية سياسية تقف وراءها الجالية الأندلسية وتؤازرها، إذ شاركت طائفته في الأحداث السياسية التي أدت إلى خلع محمد المتوكل وتولي عبد الملك المعتصم، وإلى هذه يشير ابن عسكر قائلا «... وبقي في نفوس العامة شيء إلى أن دخل السلطان أبو عبد الله محمد ابن الغالب عبد الله بن محمد الشيخ مدينة مراكش عند خروج عمه السلطان عبد الملك عنها بالحركة إلى الجبل في ذي حجة من سنة أربعة (كذا) وثمانيين، فوجه إليه القائد محمد بن كرمان التركي ليأتيه به فثار به أصحاب الشيخ الأندلسي فقتلوه، فأمر السلطان بإحضار الأندلسي والبحث عنه حيث كان، فأخرج من دار الشيخ أبي الحسن ابن أبي القاسم، فثار به العامة فقتلوه وصلبوه في التاريخ المذكور»[32]، وإلى هذا التحول يشير ابن القاضي أيضا «... قتله السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشريف الحسني المخلوع فاز رحمه الله بقتله أياه، لكن قتله له ليس هو على بدعته وإنما قتله لكونه رئيس الأندلس الذين غرروه وكان ذلك سبب خلعه...»[33].

---

(30) سراج الغيوب في اعمال القلوب، ص 622—623.
(31) دوحة الناشر، ص 109.
(32) نفس المصدر والصفحة
(33) درة الحجال، 2 : 35

لنا أن نتساءل بعد هذا هل انتهت الحركة بانتهاء محمد الأندلسي ؟ يشير ابن القاضي إلى أن الحركة استمرت بعد موته «... وتمسك بها أصحابه من بعده كعبد الخالق الومغاري... وابراهيم الراشدي، وكإبراهيم رفيق، ومن تبعهم. أبعدهم الله وأذلهم ــ»[34]. كما ذكر في ترجمة عبد الخالق الومغاري «... وهو رأس الطائفة الأندلسية الملعونة، ولقد شاهدت بمدينة مكناس ثلمة عظيمة في الدين، أجلسوه على كرسي بجامعها الأعظم، وهو يتكلم في التصوف بزعمه، ويضل العامة بمذهبه الشنيع ــ أهلكها الله ــ من طائفة مضرة بالسنة السمحة ــ بمحمد وآله. وهو حيّ من أهل العصر وله نظم ولم أذكره، بغضاً في جانبه وطريقته وغيرته على أهل السنة : أهل الله.

وإنما ذكرته لا حذر منه، أبعده الله تعالى منه»[35].

كما ذكر عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري السالف الذكر (توفي بعد 1099هـ/ 1687) قلت وقد وقعت لي مناظرة مع بعض أكابر الطائفة الخبيثة بقرية وليّ الله تعالى سيد عمر الراعي ــ رحمة الله عليه ــ بمحضر جمّ غفير من المسلمين عامتهم وخاصتهم وكان هو الطالب لذلك وتغيبت له في الناس ولا زال يبحث علي من طلوع الشمس إلى الزوال، حينئذ ذلّ علي وقيل له هذا فلان. وكان فصيح اللسان جرىء الجنان قويّ المنطق فدار بنا الناس وكانوا مهما تكلم سيتلذون قوله وينصتون له فاتركه إلى حين يتنفس فاتكلم بكلمات تبطل له ذلك، حتى صار أكثر الناس ينهرونني عن جوابه لشدة حلاوة منطقه فقلت في نفسي هذا لا أقهره إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد والله ناصر دينه...»[36].

أما فيما يتعلق برد فعل فقهاء المغرب تجاه هذه الطائفة فنشير أولًا إلى أن تعاليم هذه الطائفة قديمة في الأندلس ترجع إلى القرن السادس الهجري أو ما قبله، وقد ردّ عليها القاضي أبو بكر بن العربي (ت 545/ 1156) في كتابه **عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي**[37].

ويمكن تلخيص تعاليم هذه الطائفة فيما يأتي :

الاجتهاد في الأحكام الشرعية جرياً على ظاهر الكتاب والسنة وعدم تقليد مالك أو غيره من الفقهاء.

ــ إنكار أحكام جزئية مشهورة عند جمهور المسلمين فقالوا بعدم مشروعية الدعاء دبر الصلوات، وعدم وجوب إعادة الصلاة إذا خرج وقتها.

ــ استنكار ذكر النبي ــ عليه السلام ــ مع الله تعالى في الشهادة وغيرها «لأن المحدث لا يفيد، ولا يفيد إلا ذكر الله القديم سبحانه، بل قالوا أن الاكثار من ذكر النبي عليه السلام حجاب عن الله»[38].

---

(34) المصدر السابق، ص 36

(35) المصدر السابق، 3، 168

(36) سراج الغيوب في اعمال القلوب، ص 622—624.

(37) ابن القاضي، المصدر السابق، 2 36.

(38) محمد حجي، المصدر السابق 1 /242

وقد تصدى جماعة من فقهاء المغرب لهذه الطائفة وبينوا أضاليلها، فبالاضافة إلى ما أوردناه عند ابن القاضي وعليوات نذكر أيضا

ـ أبا القاسم ابن سلطان القسنطيني خطيب جامع القصبة بتطوان في تأليف له في مجلدين، «فقد أبدع فيهم، وزيف أقوالهم، وبين فسادها»[39].

ـ أحمد بن حسن الورياكلي المعروف بالصغير، كان في بداية أمره أندلسي المذهب ثم انفصل عنهم وبالغ في الردّ عليهم وتسفيه آرائهم، وألف في ذلك كتابا مختصرا وقف عليه عبد الرحمان الفاسي مؤلف **ابتهاج القلوب** بخط المؤلف[40] «وكان يؤذيهم كثيرا فغضبوا لذلك، وعظم الأمر لديهم، فقتلوه ـ رحمة الله عليه ـ وأخزى طائفتهم»[41].

المؤلف المجهول صاحب تبصرة الرئيس الأمين، ذكر في الباب الخامس الفرقة الأندلسية ومواطن انتشارها مقارنا بينها وبين العكازية «وإما الطائفة الأندلسية ـ أذلهم الله وأخلى منهم الأرض، فشرذمة قليلون. ونبغ شيخها وذبيحها بمراكش، وانتشرت بدعتها بسلا وظهر شيء منها بمكناس الزيتون، وخفي أمرها بفاس إلا النادر لكثرة الفقهاء والاشراف بفاس»[42]. ثم بين واجب السلطان تجاه هؤلاء المبتدعين بقوله «فيجب على الامام إذا ظفر بواحد منهم تعزيره بما يراه من الضرب والسجن حتى يفيء إلى السنة والجماعة»[43].

---

(39) ابن القاضي، المصدر السابق، 2 36—37

(40) عبد الرحمان الفاسي، **ابتهاج القلوب**، ص 122

(41) ابن القاضي المصدر السابق، 2. 37
وانظر ايضا ابن ابي محلي، **الاصليت**، ص 58.

(42) نقلا عن محمد حجي، **الحركة الفكرية** 1 : 243

(43) نفس المصدر والصفحة.

الجالية الأندلسية في عهد عبد الملك المعتصم

ظلت الجالية الأندلسية تتحين الفرص للتخلص من عبد الله الغالب وابنه محمد المتوكل، وذلك بالاتصال بعبد الملك المعتصم وهو بالجزائر (... وكان معه (المتوكل) في الجيش ألف وثمانمائة من أهل الأندلس وكان رؤساؤهم يكتبون لمولاي عبد الملك بالقدوم عليهم غير مرة لأنهم كانوا يكرهون مولاي عبد الله وولده مولاي محمد لخيانته لهم في الاتفاق معه على القيام على النصارى وخذله لهم بعده فكانت عداوتهم له ومكرهم به في قلوبهم إلى أن يجدوا فرصتهم فيه أو في ولده...»[44].

وقد أقدم أفراد هذه الجالية بالفعل خدمات جلى للمعتصم وهو بالجزائر وسنركز على ثلاث شخصيات منها

أبو الفضل الغري : كان هو الواسطة بين المعتصم وشيعته بالمغرب ويفصل لنا الفشتالي المراحل التي خطاها في سبيل تمهيد الطريق لمخدومه «... وكان «أبو الفضل الغري» ممن قذفت به النوى عندما عصفت بالأندلس رياح الكفر وطوحت به الطوائح إلى الجزائر فنزل على أمرائها من الأتراك فرسموه بديوانهم واثبتوا له الجراية لديهم. ثم حصلت له من بعد ذلك المداخلة التامة هنالك بالمعتصم — رحمه الله — فتقرب إليه بالبحث عن أخبار المغرب ونقلها بما كان يعلم ميله لذلك وتشوفه له، ثم أفضى الحال إلى أن أشخصه المعتصم إلى المغرب عينا له وسفيرا عنه إلى اشياعه، ومن كان يداخله في أمره، فوصل إلى مراكش بعهد الغالب بالله في صورة التاجر وحمل معه أحجاراً من الياقوت فكان يطوف بها على منازل الأكابر توصلًا إلى مكالمة أشياخ المعتصم وإيصال كتبه إليهم.

ثم رجل لفاس، وكان المتوكل وليّ العهد أميرها حينئذ وتلطف حتى اتصل به ورسمه في خدمته، ثم عقد له على حصة من جيوش النار لديه، وهو في ذلك كله حاطب في حبل المعتصم مرسله والمتوكل ووالده في غفلة من أمره...[45].

محمد زرقون يفصل الفشتالي أيضا هنا خدماته للمعتصم قائلا (... وخلص محمد زرقون هذا فيمن خلص من تلك الورطة (ثورة غرناطة) وعبر البحر إلى المغرب، فانتظم في جيوش النار لعهد الغالب بالله، ثم نزع إلى الجزائر عند الأتراك فأقام لديهم متحيزاً إلى فئتهم إلى أن أجلب بهم المعتصم على المغرب وكان قد داخله وصحبه أيام الاغتراب بالمشرق إلى أن صارت إليه الخلافة فرعي له تلك السوابق ورفع منزلته وأوفى برتبته على سائر الرتب وألقى زمام الدولة وصرف إليه تدبير عساكر النار فانفرد بالتكلم في أموالهم وملك بذلك زمامهم...)[46].

---

(44) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية ص 48.
(45) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 46—47
(46) المصدر السابق، ص 45

سعيد بن فرج الدغالي لعب سعيد بن فرج الدغالي دوراً بارزاً في الصراع بين المعتصم والمتوكل غير أن دوره برز أكثر في الإجراءات التي اتخذها عبد الله الغالب في حقّ الجالية الأندلسية بالمغرب «... ثم عبر (سعيد بن فرج الدغالي) البحر إلى العودة في سبيل الجولة ومطاوعة جنون الصبوة وطغيان الشباب ونزل بتيطاوين من ثغور المغرب، وولع بالسفر في البحر خليج الرسن، ثم اتصل لعهد الغالب بالله بعظيم دولته أبي علي الحسن بن أبي بكر، واختلف لداره بفاس أيام رياسته فجذب بضبعه ومكن قومه عند الخليفة وعقد له على الغرباء من قومه النازعين إلى المغرب من بلاد الأندلس، فجمعهم من كل قطر وتألف منهم على يده جيش كثيف من النار بمراكش وأقطعتهم الدولة أراضي فسيحة بالجانب الغربي من فحصها الأفيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات، وحصلوا من استغلال ذلك إلى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به...)(47).

وبمجرد ما نزل عبد الملك بالمغرب أعلنت الجالية الأندلسية مبايعتهم له «وأول من بعث إلى عبد الملك عسكر أهل الأندلس، قالوا : نحن بايعناك فأمرنا نفعل، فقال لهم إن كنتم على أمرنا فانزلوا، علينا ليلا، فلما أمسى المساء ارتحل أهل الأندلس ونزلوا على عبد الملك ولما أصبح شاع في العساكر أن عسكر أهل الأندلس غدروا ونزلوا على عبد الملك، فبلغ ذلك السلطان وكان بقصره بفاس فركب من وقته في حاشيته وأتباعه وتوجه راجعاً لمراكش...)(48). وهكذا فقد انضم سعيد بن فرج الدغالي بقواته البالغ تعدادها 1800 من الرماة الأندلسيين في معركة الركن بأحواز فاس (سنة 1576)، وجعل الكفة ترجع لصالح المعتصم، فكان بذلك أول انتصار فعلي تقدمه الجالية الأندلسية له(49).

وكلف المعتصم أخاه أحمد بمتابعة المتوكل في السوس وجعل أهل الأندلس تحت أمرته(50)، ثم أرسل له بعد ذلك سعيد بن فرج الدغالي على رأس ألف من المشاة لنجدته في قلعة تحصن بها في

---

(47) المصدر السابق، 41—42

(48) ابو القاسم الزياني، الترجمان المعرب، ص 353

(49) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 49

م. الافراني، نزهة الحادي، ص 62

ملاحظة فسر Juan Bautista (الراهب الاسباني وصديق عبد الملك المعتصم) في كتيب له بعنوان اخبار عن حياة واعمال المقتدر مولاي عبد الملك «في الفصل الثالث انضمام الاندلسيين المعتصم بما ياتي «... كان مع مولاي محمد (المتوكل) قائد اندلسي (سعيد بن فرج الدغالي) رأى الظلم الذي نزل بعبد الملك من جانب اخيه، المعتدي فايقن ان عبد الملك هو ملكه الشرعي فانضم اليه مع 1800 من الرماة الاندلسيين كانوا تحت امرته...».

عن مرسيديس غرثيا ارينال «كتاب الراهب خوان بوتيستا عن عبد الملك، مقال بمجلة القنطرة الاسبانية عدد 2 ص 167—192.

وقد ترجمته امنة اللوه في مجلة البحث العلمي العدد 34، 1984 ص 113.

(50) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 54

تارودانت وتغلب القائد الغرناطي ــ بالرغم من قلة جنوده ــ على المتوكل وقتل عددا كبير من رجاله(51).

وقد سجل الفشتالي الحدث قائلا فاشتبكت الحرب واشتعلت وأشار أيده الله (المنصور) على سعيد بن فرج الدغالي وكان قائد جيش الأندلس وممن يدلى بالصرامة والشجاعة أن يصمم بعسكره من جيش النار تجاه المتوكل...»(52)، كما سجل المساهمة الكبيرة لجيش الأندلس في انتصار المنصور : «... واحصيت القتلى في الملحمة فكانوا أربعة آلاف، ويقال قتل رجلان من جيش النار وحدهما تسعين شخصاً من الخوارج، فكانت هزيمة لم يسمع بأعظم منها ولا أشنع من خطبها...»(53).

هكذا صار أهل الأندلس يكونون ركناً أساسيا في جيش المعتصم «... وهو أول من اتخذ الجيش من فاس فجمع جيشا عظيما مع ما كان عنده من أهل الأندلس...»(54).

كما أنه اهتم بالميدان الذي يتقنه الأندلسيون كثيرا، وهو ميدان البحار «... وأمر بإنشاء السفن في العرائش وسلا وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر مه أخل المغرب وضيقوا بالنصارى أشدّ تضييق، وكثرت الغنائم...»(55).

وقد كان البرتغال والاسبان يدركون بالفعل خطورة تعاون الأندلسيين مع عبد الملك المعتصم في الميدان البحري، لذلك الحوا دائما على ضرورة احتلال السواحل المغربية لإبعاد المغاربة عن البحر (... وكان للنصارى عند وصوله (المتوكل) إليهم (البرتغال) تدبير عظيم على مولاي عبد الملك، فقال بعضهم لبعض أن هذا السلطان رأى مملكة الترك ورأى منافع البحر، فأول ما أمر به إنشاء السفن، إذا كملت العمارة يقطع إلى بلادنا مع أهل الأندلس وهم أقرب إلينا من غيرهم في الرأي ولا يشتغلون إلا بنا لا محالة، ونحن ندبر على ملكنا قبل أن يصح سلطانه ويتمكن أمره وأول التدبير عندنا أن تخرجوا وتتمكنوا بالسواحل وتحتووا عليها وتقاتلوه في بلاده وأرضه، فاجتمع رأيهم على ما ذكر وقالوا لمولاي محمد نحن خارجون وأنت معنا فإن ظفرنا بالبلاد فلا قسم لنا معك فيها إلا السواحل وما دونها فهو لك...»(56).

غير أن ثقة المعتصم في هؤلاء لم تكن مطلقة خاصة أن لهم ماض معين مع عبد الله الغالب وابنه المتوكل، ويعرف تقلباتهم واتصالاتهم المريبة مع الأتراك لذلك فقد كان يحترز منهم، فقبل وقوع

---

(51) (1566—1621) Vida de don Felipe de Africa
«حياة مولاي الشيخ بن محمد المتوكل»
نقلا عن محمد العربي الخطابي «امير سعدي في خدمة البلاط الاسباني مجلة المناهل، العدد 13، دجنبر 1978، ص 80.
ملاحظة
هذا الامير السعدي هو الذي تزعم المصادر الاسبانية انه تنصر.

(52) مناهل الصفا، ص 33.

(53) نفس المصدر والصفحة.

(54) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 53

(55) نفس المصدر والصفحة

(56) المصدر السابق ص 59.

معركة وادي المخازن بقليل بدأت تظهر بالفعل بعض نواياهم الخفية إذ ذكر الفشتالي وهو بصدد الحديث عن تقلباتهم السياسية (... واما ثالثا فباستيام الثورة والاستبداد بالسوس في مغيب المولى المنصور عنه لتشريد المتوكل إلى أرض النصارى...)[57].

وفعلًا عندما تأكد أحمد المنصور — عندما كان ينوب عن أخيه في تتبع المتوكل بالسوس — من النوايا المبنية للغدر أمر بمراقبة أهل الأندلس ولو م بعيد «... وقد أنس المنصور منهم (عسكر أهل الأندلس) الغدر لكن لم يتهيأ لهم مع وجود المنصور وفراسته. لكنه لما أراد التوجه للجهاد خاف أن يقع منهم الغدر في غيبته فترك معهم جند الموالي وجند البربر، وترك خاله الحاجب عبد ا لكريم بن يحيى عينا على الدغالي وابن أخيه محمد والكاهية محمد زرقون وأبا الفضل الغريّ، لما اشتهر غدرهم مع الغالب ومع المتوكل، وترك في مقابلتهم أيضا عساكر الشراقة من بني عامر وبني تسنوس وسقونة والاحلاف، وكل هؤلاء من عساكر النار، وهذا حرزاً من عسكر أهل الأندلس إن يميلوا إلى شيعة المتوكل ويفسد عليهم الجهاد...»[58].

ورغم ذلك فإن نفير الجهاد أعلن، وجرت المعركة وشارك فيها كثير من الأندلسيين[59]، إذ أن الجيش البرتغالي كان يضمّ عددا كبيرا من الاسبان، فوجدها الأندلسيون سبيلا سهلا للانتقام، وقد كانت آثار هذه المعركة بعيدة المدى على القضية الأندلسية إذ أن فليب الثاني بدأ يفكر جدياً في طرد الموريسكيين من اسبانيا، بل واتخذ قرارا في هذا الشأن[60]، وهذا كله خوفا من التعاون بين الموريسكيين داخل اسبانيا وخارجها وخوفا من تقديم الموريسكيين للمساعدات لكل من المغرب والأتراك لغزو اسبانيا.

لنا أن نتساءل بعد هذا لماذا لم يستغل المعتصم هذه الجالية الأندلسية الضخمة لتقديم المساعدة للموريسكيين باسبانيا ؟

إن الجواب واضح وهو يتكرر دائما، وبنفس الصورة تقريبا ألا وهو الضغط التركي الذي كان يحول دون تقديم هذه المساعدة، إذ سعى عبد الملك أيضا — كسابقيه — إلى عقد محالفات مع الاسبان ضد الأتراك، فقد أرسل سفارة أولى يذكر بأنه يعتبر الأتراك أعداء له وهو لذلك يعرض على اسبانيا مشروع حلف دفاعي — هجومي يبرم بينه وبين فليب الثاني[61].

كما أرسل سفارة ثانية يعرض فيها بنود مشروعه التي تنصّ فيها على إقرار السلم بين البلدين وحرية التجارة لرعاياهما، وعدم مديد المساعدة ضد بعضهما البعض[62].

(57) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا**، ص 42

(58) ابو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب**، ص 354

(59) J. Caro Baroja, **los Moriscos del reino de Granada**, P. 240 59

(60) انظر ما سبق الموريسكيون في عهد غليب الثاني.

(61) **Vida de don Felipe de Africa**

نقلا عن محمد العربي الخطابي، المصدر السابق، ص 87.

(62) **S.I.H.M.** 1ère serie, sugleterre, 1 : 214.

الجالية الأندلسية في عهد المنصور

كانت سياسة المنصور تجاه الجالية الأندلسية تتميز بصفة عامة بالاهتمام المشوب بالحذر، فقد واجه هؤلاء وهو في أوائل حكمه، فكان حسمه في الأمر في مستوى ما تتطلبه المرحلة، لكنه من جهة أخرى لم يفتأ يدافع عن القضية الأندلسية في المحافل الدولية، ويبحث عن حلفاء له لتنفيذ مخططه في تقديم المساعدة للموريسكيين داخل اسبانيا نفسها، وتسهيل سبل الانتقال إلى المغرب، وفتح مجالات السعة والارتزاق به، أي بمعنى آخر فإن المنصور كان يقدم كافة المساعدات لأفراد هذه الجالية ما دامت تعمل تحت سلطته، وما دامت تحترم التزاماتها بالكف عن التعامل مع أعدائه، خاصة الأتراك، أما إذا أبدت طموحا ما نحو السلطة والنفوذ فإنه كان يتصدي لها وبقوة.

* * * * * *

لقد تأكد المنصور — ومنذ أيام المعتصم — من النوايا الخفية لقواد الأندلس ومن علاقاتهم بالأتراك. وازداد الأمر وضوحا مباشرة بعد معركة وادي المخازن، وإبان ثورة ابن أخيه داود بن عبد المومن، إذ كانوا يرغبون في تولية عميل لهم بالمغرب مما جعلها تتحول إلى مؤامرة أندلسية بحماية تركية، لذلك بادر المنصور إلى حسبها منذ البداية.

سعيد بن فرج الدغالي وابن أخيه محمد اكتشف المنصور أمره وهو بعد بالسوس، لذلك كان حذرا منه فبعد معركة وادي المخازن أتت جموع القبائل من السوس إلى مراكش ومنها إلى فاس لتهنئة الخليفة الجديد، إلا أن الدغالي تخلف بمراكش لأنه كان عازما على الثورة، لكنه تحت ضغط القبائل، اضطر للاتيان معهم إلى فاس[63] غير أنه ما لبث يناور للتخلص من بقاءه بجوار المنصور بفاس «... ولم يلبث الدغالي أن استعمل المرض وشكى إلى الخليفة وخامة المنزل وفساد مزاجه بفاس، وطلب منه الاذن في القدوم لسلا بما كانت تحت ولايته من عهد المعتصم يستنيب بها محمد بن أخيه، فتفطن الخليفة لمكره وانطوائه على النكث واعتل عليه في الأذن، وأظهر له غاية الحاجة إلى حضوره بمجلسه للمفاوضة معه في أمور سلطانه وصالح مملكته، توثقا بنصحه، واعتدادا بمخالصته..»[64]. ورغم رفض المنصور منحه الاذن بالذهاب فقد مضى في تنفيذ مخططه «... فلم يصرفه بذلك كله عزمه وصمم على الغدو وألح في الطلب فسدد له الخليفة باب الاذن، فاجترأ حينئذ لحتفه... مع الجهد والفضاضة إلى الغاية فخرج نهارا من غير إذن...»[65]. فبعث له المنصور أولا مع القائد أبي عبد الله محمد بن سليمان لكي يرجع عن ما صمم عليه، لكنه استمر في تنفيذ مخططه، إذاك اتخذ المنصور قراره الحاسم بأن سرح إليه القائد أبا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني وأحمد الزواوي، وحدو الزواوي، وعبد العزيز

---

(63) انظر عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 52—43

(64) المصدر السابق، ص 43

(65) نفس المصدر والصفحة.

بن يخلف اليفرني وعبد الله التلمساني، وكان هذا الاختيار مقصوداً (لاستحداث العداوة بينهم وبين عساكر الأندلس)[66].

وقد كانت خطورة ما كان يهدف إليه الدغالي معروفة إلى حدّ كبير فهذا ابن القاضي ـــ مثلا ـــ يسجل في ترجمته «... وكان سعيد هذا قائد جماعة الأندلس غدر بجماعته، وهرب إلى عبد الملك، فكان سبب خراب ملكه... وخدم مولانا أبا العباس أحمد المنصور، وراح إلى السوس في بعض أغراض الملك، فحدثته نفسه هناك بالثورة على مخدومه، وغدره أيضا، فما زال به المخدوم حتى قبض عليه، وقتك به وبجماعة من طائفته المفسدين لشقهم العصا، وخلعهم ربقة البيعة من أعناقهم...»[68].

محمد زرقون الكاهية لم يكن أقل خطر من سابقه، فقد (... جمع كلمة الأجناد كافة على أفساد، فاضطربت الأحوال ومرج أمر الناس، وتحقق أمير المؤمنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده في هدم بناء دولته، وسعيه في فساد ملكه، وتفريق أمر الجماعة...[69] وكان القائد الأندلسي يهدف بذلك إلى تولية الأمير داود بن عبد المومن الذي كانت تربطه علاقات قوية مع الأتراك، فهي في النهاية مؤامرة أندلسية بحماية تركية، لكن المنصور حسم في الأمر من جديد، وفوت بذلك على الأندلسيين ضرب الدولة وهي في مهدها.

أبو الفضل الغري كان مصيره مثل مصير سابقيه إذ كشف أمره «... صار (القائد الأندلسي) يسمو بنفسه إلى العظام التي ليس لها بأهل من تقليد الأعمال وولاية الثغور بقود عساكر الأسنة، وكان قد دخل أيضا الدغالي ظهيره في الخلاف ومساعده بغدر في شأن استيام الثورة التي جنح إليها واحتمل في أمرها بالسوس، ولما سطا أمير المؤمنين بالدغالي وعلم ما بينهما من الخلة واجتماع الكلمة على الشرّ حذر مغبة أمها له وأكد ذلك ما كان من انقباضه عن مجلس الخليفة في تلك الأيام باستعمال المرض، فاستراب لذل به وتقبض عليه يوم الفتك بالدغالي وأصحابه وجنب إلى مصرعه، فألحقه بهم وقتل النفر الأربعة، جميعا ليوم واحد في شهر رجب من عام ستة وثمانين ـــ شتنبر 1578»[70].

وقد عد قتلهم انتصارا كبيرا لسياسة المنصور وحذره، خاصة أن مكانتهم في الدولة كانت كبيرة جدا، وكانوا على اتصال دائم مع الأتراك (... واعتدوا (المغاربة) قتلهم فتحا ثانيا لما عقبه من التمهيد واطمئنان الأحوال، واقتلعت جرثومة الشقاق باقتلاع جدوعهم، واستقامت أحوال الجند من

---

(66) نفس المصدر والصفحة.
(67) المصدر السابق ص 44.
(68) درة الحجال، 3 302ـــ303.
(69) مناهل الصفا، ص 46
(70) المصدر السابق، ص 47.

يومئذ رهبة ورغبة، واستوت قدم أمير المؤمنين في ملكه، وأجمع الرحلة لمراكش دار الخلافة وعنصر الدولة...»[71].

علاقة الأندلسيين بثورة الأمير داود بن عبد المومن

كانت للأمير داود علاقة قوية بالقادة الأندلسيين وبالأتراك على حد سواء، لذلك بادر المنصور ـــ بمجرد القضاء على القادة الأندلسيين ـــ إلى فرض نوع من الاقامة الاجبارية عليه (وتوفي لذلك ما ينشأ عن بقاء داود وراءه، وحذر مغبته، فرأى جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة...)[72]، لكنه تمكن من الفرار وإعلان الثورة ضد عمه بسوس (شعبان سنة 987/ 1579) بجيش يضم العديد من الأندلسيين والأتراك (فلحق بالسوس ونزل على المنحرفين عن الطاعة من أهله، فاجتمعوا إليه ثم صرخ في سائر القبائل بالخلاف والعصيان، وكان عهدهم بالطاعة حديثا لم ترسخ فيهم قواعدها كل الرسوخ، فلبوا داعيته واعلنوا بالعصيان وتوطأوا على الشقاق كافة...)[73]. وقد كان داود يسعى إلى الوصول إلى درعة والصحراء المغربية الشرقية من أجل الاتصال بالأتراك في الجزائر[74]، لكن المنصور كان حازما أيضا في مواجهته للثورة إذ أرسل أحد قواده المشهورين (محمد بن ابراهيم ابن بجة) للحسم في أمرها وتمكن من ذلك بالفعل.

هكذا ضاعت على المنصور ـــ أمام ضغط الأتراك[75] ـــ فرصة تقديم المساعدة للموريسكيين باسبانيا بل وتحرير ما تبقى من الثغور المحتلة[76]، إذ اضطر للتقارب من الاسبان[77].

ومن الطبيعي أن يكون للتقارب المغربي الاسباني آثار سلبية على الموريسكيين باسبانيا، ففي صيف 1580 اكتشفت مؤامرة موريسكية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين أفشوا سرها للاسبان[78]. وكان المنصور يراقب أفراد هذه الجالية الأندلسية، ويتتبع تحركاتها، فمن

---

(71) المصدر السابق، ص 47

(72) المصدر السابق، ص 56

(73) المصدر السابق، ص 57

(74) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، ص 111

(75) اعطيت الاوامر الى علوج علي قائد الاسطول العثماني لغزو المغرب وقد وصل علوج الى الجزائر في جمادي الثانية 989هـ / يونيو 1581 بينما كان المنصور يرابط بقوات جرارة عند نهر تانسيفت.
انظر **مناهل الصفا**، ص 61

(76) كان العلماء يلحون كثيرا على ضرورة استغلال نصر معركة وادي المخازن في سبيل استرجاع الثغور المحتلة، وهذا الشيخ رضوان الجنوي ـــ مثلا ـــ يذكر في رسالة موجهة للمنصور «... والى هذا فالله، الله في الحزم وامضاء العزم وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز الفرصة الممكنة في هذا الوقت، من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة واصيلا وسبتة فانهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما امكن الله منهم، ولا اظن ـــ نصركم الله ـــ مثل هذا يخفى عليكم حتى تحتاج ان نذكركم به...».
انظر احمد المرابي الاندلسي، **تحفة الاخوان**، ص 432ـــ424.

(77) ذهب المنصور الى حد انه وعد الاسبان بالتنازل لهم عن العرائش انظر
— **S.I.H.M.** 1ère série, pays-Bas, 1 191-194.
— **S.I.H.M.** 1ère série, France, 1 512.

(78) F. Braudel, **la Mediterranée...**, 2 : 126.

الممكن أن يتصلوا ببعض أفراد البيت المالك نفسه ممن لهم طموح ما (كما فعلوا مع داود بن عبد المومن). ومن الممكن أن يقدموا مساعدات للأتراك قصد غزو المغرب لذلك فهو (يتفقد أمر عدوه قبل أن تشتد شوكته وتكثر شكته، ويعالجه قبل أن يعضل داؤه ويعجز دواؤه»(79).

قضية الأندلس في علاقات المنصور الدولية

كانت قضية الأندلس تشكل ركنا أساسيا في سياسة المنصور الدولية، فقد اتجه إلى كافة الدول التي تكن عداء ما للاسبان للتحالف والتنسيق معها قصد تحقيق أهدافه في تحرير الثغور المغربية، وفي تقديم المساعدة للمورسكيين باسبانيا في مرحلة أولى وغزو الاسبان في عقر دارهم في مرحلة ثانية، فكل تصرفاته كانت تسير في هذا الاتجاه المحدد مسبقا. هكذا اتجه المنصور أولا إلى التعاون مع الانجليز ضد فليب الثاني وكان محرر هذا التعاون حلّ المشكلة البرتغالية، وذلك بتقديم المساعدة لدون أنطونيو قصد استرجاع عرشه(80)، وقد تعززت الرغبة في التعاون بعد فشل الاسبان في حملة الأرمادا (Armada) ضد الانجليز (30 يوليوز — 10 غشت 1588) إذ أرسلت الملكة اليزابيت بالبشرى إلى المنصور مخبرة أياه بأن الأمير دون كرستوف بن دون أنطونيو سيبقى رهينة عنده بالمغرب مقابل المساعدة المادية التي سيقدمها لدون أنطونيو لاسترجاع عرشه(81)، كما أن المنصور كتب إلى ولاته يطلعهم على الأمر ويؤكد لهم في نفس الوقت زوال الخطر الاسباني الذي كان يهدد المغرب، بل عزمه على تقديم المساعدة للمورسكيين في اسبانيا نفسها «... كان ذلك (انتصار الانجليز في الأرمادا) والمنة لله لهذا الأمر العزيز عنوان الاقابل والظفر، وعلامة على إنجاز وعده المنتظر، في الاستيلاء بحول الله على بلاده وأقطاره، ومنازلته بجنود الله المظفرة في عقر داره، واستنقاذ النقدة المتغلب عليهم في الأعصر السالفة والدول الماضية من بين أنيابه وأظفاره، وبخاصة بلاد الأندلس التي هي بحول الله على سيوفنا أهون مطلوب، وأيسر موهوب، فهي الوديعة المستردة بحول الله على أيدينا، والقلادة التي خبأتها الأيام لجيدنا وقد آذن بدنو زمان ذلك إن شاء الله وميقاته، وبلوغ ساعته البادية الاشتراك وأقاته..»(82). وفعلا فقد سر المورسكيون بهزيمة الاسبان، واعتبروها مؤشرا للخلاص، فأعلنت الثورة باراغون في نفس السنة (1588)(83)، ولا يستبعد أن يكون للمنصور يد في ذلك «... وهو الآن — أيده الله — لهذا العهد من عام سبعة وتسعين (وتسعمائة) واقف على قدم الأهبة والاستداد لذلك توصلا بما ينشأ عن ذلك من اتساع نطاق الملك وامتداد جناح السلطان وانفساخ مجالا الأعمال وكثرة الاتفال إلى التفرغ لما صرف إليه — أيد الله — عزمه وجعله قصده وهمه من جهاد المشركين واغراء أرضهم في الجنوب والشمال يعساكره الأمامية وموالات البعوث إلى أقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في إعلاء كلمة

---

(79) احمد بن القاضي، المنتقى، 1 417.

(80) S.I.H.M. 1ère serie, France, 1 513.

(81) S.I.H.M. 1ère serie, France, 2 151.

(82) رسائل سعدية، ص 155

(83) F. Braudel, **la Méditerranée...**, 2 : 127.

الحق..»[84]. وقام بعمل موازٍ لذلك داخل المغرب نفسه، إذ أمر الجالية الأندلسية بتطوان بالهجوم على سبتة في شهر دجنبر من نفس السنة (وكادوا أن يتسولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور...»[85].

كما شاركت الجالية الأندلسية بمراكش في مظاهرة عدائية ضد الاسبان، إذ قصدت بيت السفير الاسباني بالمغرب Diego Marin وقامت بإضرام النار فيه، مما أجبر السفير الاسباني ومن معه على استعمال الأسلحة النارية ضد المهاجين[86]. وكان المنصور حريصا — في تحالفه مع الانجليز — على بناء أسطول قوي يمكنه من تقديم مساعدة فعلية للجالية الأندلسية داخل المغرب وخارجه

(... وهو اليوم — أيده الله — لهذا العهد بصدد الاكثار من الأساطيل، رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين، قوي الأسر بحمد الله وافر العدد والمدد... حتى يبلغ أمل الاسلام في الجهاد ويفتح من أرض الأندلس من أقصى البلاد والأقطار البعاد..»[87]. وقد حاول فليب الثاني أن يواجه المنصور بالمورسكيين أنفسهم ليفسد عليه «مشاريعه الأندلسية»، إذ يذكر الفشتالي في هذا الصدد «... وأنس (فليب الثاني) أيضا نار العزم تلتهب من جانب العناية الأمامية المولوية المنصورية التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابا والهمم الشريفة قد همت بتجديد الأسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والآلات الحربية بما كان مولانا أمير المؤمنين — أيده الله — يومل من فتح جزيرة الأندلس وعبور البحر إليها بجنود الله وعساكر الاسلام لتجديد رسوم الايمان بها وافتكاكها من يد الكفر المتغلب عليها... وحذر الطاغية مغبة ذلك... فاعتمل مكافأة مولانا أمير المؤمنين... بما أمل أن يفت به في عهد الدين... فأمل الناصر لذلك ورمى به إلى وراء البحر...»[88]. وفعلا أبحر الناصر بن الغالب بالله — اللاجيء باسبانيا آنذاك — من مالقة يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من المورسكيين الذي كانوا يعيشون تحت وطأة محاكم التفتيش القمعية، فوجدوا في ذلك فرصة لتحقيق أمانيهم باللجوء إلى شمال افريقيا فراراً من جحيم الاضطهاد، كما وجدها فليب الثاني كذلك فرصة للتخلص منهم، خاصة أنه — كما ألمحنا إلى ذلك سابقا — كان يخطط لطردهم[89]. نزل الناصر، إذن، بمدينة مليلة المحتلة ومنها أعلن الثورة ضد عمه المنصور. وأهمية ثورة الناصر تأتي بالخصوص من كونها كانت تضم عددا من المورسكيين، إذ أن وجودهم ضمن قواته

---

(84) عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 81

(85) المصدر السابق، ص 96

(86) S.I.H.M. 1ère serie, Angleterre, 2 97.

(87) مناهل الصفا، ص 197.

(88) المصدر السابق، 170، رسائل سعدية، 53—54.

(89) Georges Pianel, le Maroc à la recherche d'une conquète : l'Espagne ou les Indes, in **Hespéris**, 1953, t x l, 3 4 + 2 PP. 512-513.

عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 195.

ملاحظة

نشر عبد الكريم كريم بعض الرسائل المتعلقة بثورة الناصر في ملحق كتابه السالف الذكر.

جعل المنصور يتخوف منها إلى حدّ كبير، نظرا للجالية المورسكية الكبيرة التي كانت تضمها قوات الخليفة، ونظرا للتجارب السابقة التي كانت له معها، وهذا من بين العناصر التي تفسر الصعوبة التي وجدها المنصور في القضاء على الثورة، لكنه تمكن في الأخير من التغلب عليها وأرسل إلى ولاته وإلى علماء الشرق العربي يخبرهم فيها بهذا الانتصار المحقق، وبأن عمل الاسبان هذا لن يؤثر مستقبلا على مشاريعه الاندلسية

(... إن يؤيدنا الله على عدوّ الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الايمان بها وإحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الاذان في أرضها بكلمة الله...»[90].

وكان المنصور يرمي من وراء توجيه تلك الرسائل إلى علماء الشرق العربي إلى إقناعهم بأنه مؤهل أكثر من غيره لتقديم المساعدة للمورسكيين، خاصة أن الأتراك — في عهد محمد الثالث — كانوا يعانون الكثير من جراء حروبهم بأوروبا الشرقية، ومن جراء الثورات والفتن التي كانت تعيشها الامبراطورية.

وبالفعل فقد انطلق المنصور في محاولته لعقد حلف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا، إذ أن المعسكر البروستانتي كان مصمما على توجيه الضربة القاضية للاسبان، متخذا من مدينة قادس قاعدة انطلاق نحو قلب اسبانيا[91]، وطلبت اليزابيت من المنصور أن يقوم بتخريب المناطق الزراعية حول مراكز الاحتلال الاسباني بالمغرب، وان يفرض عليها حصارا اقتصاديا شديدا[92]. ويعد هذا العمل كخطوة أولى للهجوم على اسبانيا نفسها أي ضرب المراكز الأمامية قبل التعمق في الداخل، وفي مارس من سنة 1600 أرسل المنصور وفدا إلى لندن ظل لمدة 6 أشهر، إذ لم يغادرها إلا في مطلع يناير 1601، وتتلخص مقترحات الوفد المغربي في[93]

— عقد حلف عسكري بين المغرب وانجلترا، وذلك للهجوم على الاسبان في المراكز المحتلة بالمغرب، ثم نقل الحرب بعد ذلك إلى اسبانيا نفسها وكذا الهجوم على المستعمرات الاسبانية في غربي افريقيا وجزيرة Arguin وجزر الهند الشرقية[94].

— نقل وفد مغربي إلى حلب على متن سفن انجليزية. وكان قصد المنصور من ذلك الاستفادة من الظروف السيئة التي كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية آنذاك.

---

(90) مناهل الصفا، ص 191.

(91) مناهل الصفا، ص 91.

(92) S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2 121.

(93) S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2 197.

Georges Pianel, op. cit., PP. 516-521.

محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مجلة تطوان، العدد الثامن، 1963، ص 43، 48.

(94) S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2 : 222.

لكن اليزابيت رفضت نقل الوفد المغربي إلى حلب نظرا لعلاقاتها مع الأتراك[95].

أما بالنسبة للاقتراح الأول فإن انجلترا لا توافق على مهاجمة اسبانيا ولا تهاجم القواعد المحتلة بالمغرب، لكنها تقترح على المنصور إمدادها بقرض قيمة 100 ألف جنيه لتهيىء حملة عسكرية ضد الهند، إحدى المستعمرات الاسبانية، لأهميتها الاقتصادية[96]، غير أن المنصور ربط تقديم قروض بمشاركة القوات المغربي في غزو المستعمرات الاسبانية وبالتالي اقتسام الأراضي المفتوحة بينهما[97].

وقد أجابت اليزابيث بأنها تجند توجيه بعض أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب إلى انجلترا للمشاركة في حروبها ضد الاسبان[98]، مما يدل بالفعل على أن الاتصال كان قائما بين الانجليز والجالية الأندلسية بالمغرب خاصة أن السفير الخاص الذي حمل مقترحات الزابيث كان هو نفسه أندلسيا (وقد ورد على مقامنا العلي فلان الأندلسي وقرر لنا كل ما حمل من تلقائكم من المقاصد والأغراض التي القيتموها إليه وقصصتموها عليه تقريرا أصغنا فيها بالاذن الواعية حتى فهمنا جملة وتفصية ووعيا كل ما قررتم له تقريرا أصيلا)[99]. والواقع أن المنصور كان يخشى أي احتكاك مباشر بين الجالية الأندلسية بالمغرب والانجليز، إذ من الممكن أن يستخدموها أيضا ضده، فقد سبق للاتراك أن استخدموا هذه الجالية ضده، كما استخدمها الاسبان بعد ذلك، فلم يكن بد إذن من أبعادهم عن مواقع القيادة والمسؤولية، وفي المقابل أعلن المنصور عن استعداده للجهاد وبأن المغاربة كلهم رهن إشارته (... ولو رفعنا النداء بالجهاد لنهض المغرب بحد افره، سهوله وجباله، عربه وبربره، بجموع تملأ الأرض وتغطي سوادها الأعظم الشمس..)[100] وشريطة أن يكون للمغاربة نصيب في ذلك (... إذا تيسر ذلك وعلم المسلمون أن البلاد إذا فتحت تبقى لهم فإن هذا الأمر بحول الله وقوته أهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما إذا كان البلاد ستفتح ولا تبقى لهم فإن هذا الأمر بحول الله وقوته أهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما إذا كانت البلاد ستفتح ولا تبقى لهم فإن فقهاءنا وعلماءنا لا يساعدونه على ركوب الأخطار بالمسلمين واقتحام الأموال العظيمة لهم إلا إذا كانت البلاد يسلم إليهم أمرها ويلقى إليه حكم ولايتها والنهوض بغير هذا الشرط لا يجوز عندهم في الدين...)[101].

مشاركة الأندلسيين في عملية فتح السودان

لم تكن الأندلس بعيدة عن فتح السودان، فقد صرح المنصور في المجلس الاستشاري الذي عقده لهذا الغرض — إن الهدف هو «الاستكثار من الأسطول لغزو عدوّ الدين والاجلاب عليه

---

(95) F. Braudel, la mediterrannée....., 487.

(96) محمد بن تاويت، المصدر السابق، ص 45.

(97) رسائل سعدية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك 278، ص 195.

(98) نفس المصدر والصفحة.

(99) نفس المصدر والصفحة.

(100) نفس المصدر والصفحة

(101) نفس المصدر والصفحة.

بحول الله وعزته في عقر داره...»[102]، وأكد في نفس المجلس أنه سوف يعتمد على عساكر الأندلس لأنها «عساكر قاذفة بشواظ النار»[103]. وفي رسالة بعث بها إلى اسكيا الحاج محمد أمير كاغو يقول حول الهدف من فرض خراج معين على ملح تغازي : «وقصدنا بما يحصل من ذلك صرفه إن شاء الله في سبيل الغزو والجهاد.. ومنازلته (العدوّ) على الدوام في عقر داره...»[104].

وفعلا فقد شاركت الجالية الاندلسية بالمغرب بنصيب كبير في عملية فتح السودان، بل أن قيادة الجيش نفسه اسندت إلى قائد جيش الأندلس جوْدر باشا[105]، بالاضافة إلى عدد من القادة الأندلسيين، نذكر من بينهم : محمد بن زرقون، وأحمد الحروسي الأندلسي، وقاسم وردوي الأندلسي[106].

وقدر المؤرخ الاسباني المجهول عدد الرماة الأندلسيين بألف من مهاجري غرناطة[107]، وظل عدد من أفراد الجالية الأندلسية يتوافدون على السودان، إذ ذهب ــ مثلا ــ مع القائد عمار باشا حوالي خمسمائة من الأندلسيين[108]. وقد شارك في الحملة أيضا عدد من الأسبان الذي دخلوا إلى الاسلام حديثا، وكان المنصور يسهر بنفسه على اقناعهم بالدخول في الاسلام ليستخدمهم بعد ذكر في هذه العملية، فقد ذلك الشهاب الحجري في هذا الصدد : «وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش، وكان راهبا ثم أسلم، وسمي برمضان، ثم مشى إلى بلاد السودان ومات بها ــ والله أعلم ــ وقال لي : إن السلطان مولاي أحمد ــ رحمه الله تعالى ــ أمر باحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى...»[109]، كما ذكر عبد الرحمان السعدي أن الكاهية با حسن فرير Ferrer كان راهبا[110].

غير أن الحذر ظل هو الطابع المميز لعلاقة المنصور بهذه الجالية وان ابتعدت عنه بالسودان[111]، إذ لم يكن المنصور يطمئن كثيرا إلى هؤلاء، خاصة أن رغبتهم في السيطرة ما زالت

---

(102) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا**، ص 128
(103) نفس المصدر والصفحة.
(104) **رسائل سعدية**، ص 134
(105) من أصل اسباني، من Las cuevas قرب غرناطة. وقد دخل الى الاسلام حديثا.
Relation de l'Anonyme Espagnol, in **Hésperis**, 4è trimestre 1923, P. 468.
(106) عبد الرحمان السعدي، **تاريخ السودان**، ص 138.
(107) Relation de l'anonyme Espagnol, in **Hesperis**, 4• trimestre, 1923, P. 468.
(108) عبد الرحمان السعدي، **تاريخ السودان**، 181
(109) انظر بقية المناظرة في كتابه **ناصر الدين على القوم الكافرين**، ص 154
Relation de l'Anonyme Espagnol, in Hespéris, 4• trimestre, 1923, P. 472.
(111) ذهب محمد الغربي الى ان المقصود من ارسال جيش الاندلس الى السودان هو التخلص منه، لانه كان مصدر قلق بالنسبة له.
انظر
بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص 157.

قائمة، وبعض تصرفات هذا الجيش الأندلسي وقادته لا تنسجم تماما مع الأهداف التي خطها المنصور، إذ يذكر عبد الرحمان السعدي في هذا الصدد : «... ثم أن السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور ابن عبد الرحمان إلى أرض السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته...»[112]، مما جعل المنصور يستبدل الحاميات الأندلسية بحاميات مغربية غير مشكوك فيها[113]، وقد استمر الأمر كذلك إلى ما بعد وفاة المنصور، إذ يذكر نفس المؤرخ في هذا الصدد : «... ثم شرع القائد الحسن في تبديل نظام الجيش وبدل العلامات ورد سرية الفاسيين أصحاب اليمين وسرية المراكشيين أصحاب الشمال، ونزّل العلوج والأندلسيين تحتهما، ورغم أن ذلك كان من عند السلطان مولاي بوفارس...»[114].

اهتمام المنصور بالأندلسيين

رغم سياسة الحذر التي اتبعها المنصور تجاه جاليته الأندلسية فإنه مع ذلك كان يفتح لها باستمرار سبل السعة والارتزاق بل والارتقاء إلى مختلف المناصب الحساسة في الدولة من جيش وإدارة إلى غير ذلك، فقد كانوا يحظون باهتمام بالغ داخل جيش المنصور : «والترتيب الذي جرى عليه العمل في عساكر النار بالحضرة أن يتقدم أولا جيش السوس، ثم يردفه جيش الشراقة... ثم يردفهما العسكران العظيمان عسكر الموالي المعلوجي ومن انضاف إليهم وعسكر الأندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم...»[115]. ويدخل اهتمام المنصور بالأسطول في هذا المجال أيضا، إذ كانت الجالية الأندلسية تشارك المغاربة في عملياتهم الجهادية، وكانت هذه العمليات تخلف عددا من الأسرى لدى الاسبان، فكان لا يتوانى عن افتدائهم : «... ومن صدقاته (المنصور) أيضا إخراجه الكثير من الأسرى في كل وقت من أقطار بلاد الكفرة وجزيرة الأندلس وغيرها»[116]، بل تعدى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدة للجالية الأندلسية خارج المغرب فقد قدم مساعدات كبيرة لأبي الغيث غالب بن القشاش، حامي الجالية الأندلسية بتونس[117]، إذ يذكر ابن القاضي — وقد اجتمع به في زاويته قرب جامع الزيتونة سنة 988هـ — في هذا الصدد أنه : «استخلص أسرا من أهل البيت شريفا أيضا فلما بلغ بلده قال هذا الشريف والله لا يخلص الا بذهب شريفي، يعني من سكة ساداتنا الشرفاء الذين عمدتهم مخدومنا أبو العباس المنصور، وكان عدد المال ينيف على ثلاثة آلاف أوقية...»[118].

---

(112) تاريخ السودان، ص 175

(113) محمد الغربي، المصدر، السابق، ص 332

(114) تاريخ السودان، 193.

(115) عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 203.

(116) احمد بن القاضي، المنتقى، ص 1 346.

(117) يقول المنتصر القفصي عن دور هذا الشيخ في حماية الاندلسيين بتونس : «ولما جاء الاندلس (كذا) الى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والاسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا ياتون الى الشيخ والى سماطة وجرى معهم الشيخ رضي الله عنه كالريح المرسلة في اطعام الطعام وكسوة العريان...»
نور الارماش في مناقب القشاش، ورقة 2 ظ.
وقد نشر هذا النص عبد المجيد التركي في مجلة حوليات الجامعة التونسية»، العدد الرابع، 1967، ص 70.

(118) درة الحجال، 3 : 261

وكان الاسبان يدركون بالفعل خطورة أي اتصال بين الأندلسيين والمنصور لذلك فقد كانوا شديدي الحرص على ألا يدخل أو يخرج أي أحد من الأندلسيين إلا بإذن إذ أورد الشهاب الحجري — وهو على أهبة الخروج من الأندلس إلى المغرب — في هذا الصدد : «أعلم — رحمك الله تعالى — أن البلاد التي على حاشية البحر من بلاد الأندلس وأيضا فيما لهم في بلاد المسلمين، إن النصارى فيها من الحرص والبحث في من يرد عليها من الغرباء شيئا كثيرا كل ذلك لئلا يذهب أو يجوز عليهم إلى بلاد المسلمين، وهمني الأمر كثيرا في كيفية الخروج من بينهم...»[119] لكن، ومع حرص الاسبان هذا فقد كان يرد على المنصور جاليات أندلسية مهمة وكان يحسن استقبالهم فقد أورد الشهاب الحجري في هذا الصدد : «...وأذن (المنصور) لنا في الدخول إلى حضرته في يوم الديوان ولما ابتدأت بالكلام الذي اخترته أن أقوله بحضرته العلية بصوت جهير سكت جميع الناس الحاضرون (كذا) كأنها خطبة، ففرح السلطان وقال كيف يكون ببلاد الأندلس من يقول بالعربية مثل هذا الكلام، لأنه كلام الفقها، وفرح بذلك كافة الأندلس القدما، ورأينا العافية والرخا في تلك البلاد...»[120]. كما أورد علي التمجروتي في رحلته أنه نزل بتطوان — عندما كان ذاهبا إلى الشرق — عند أحد الأندلسيين الذي فتح لهم المنصور سبل السعة والارتزاق إذ يقول : «... وصاحب المنزل الذي نحن فيه وهو السيد أحمد بن محمد بن أحمد بن المفضل الأندلسي الغرناطي، وهو من أهل اليسار والسعة بها، وهو المتولي قبض السلطان لما يخرج من عند النصارى من سبتة وما يرحل إليها من التجارة والأسارى وغير ذلك...»[121].

(119) ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 22.
(120) المصدر السابق، ص 29
(121) النفحة المسكية في السفارة التركية، ص 184.

استخلاص

استمرت هجرة الأندلسيين إلى المغرب طوال العهد الأول لدولة السعديين، وسلك معهم ملوك هذه الدولة سياسة خاصة تتسم بالتعامل الحذر نتيجة الضغط التركي الذي كان يحول دائما دون تحقيق المخطط السعدي حول القضية الأندلسية، فقد كان السعديون يحاولون باستمرار ادماج الجالية الأندلسية في مختلف مشاريعهم الجهادية، لكن الاتصالات المريبة التي كانت تجري بين الأندلسيين والأتراك كانت تحول دون تحقيق تلك المشاريع، بل وتحول في أغلب الأحيان دون تقديم المساعدة للمرسكيين باسبانيا.

ومع ذلك لم يكن السعديون يحدون من نشاط الأندلسيين بالمغرب أو يضايقونهم بمراقبتهم، بل نجد أن العكس هو الصحيح، فقد فتحوا لهم مجالات العمل في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضا، ما داموا يحترمون سلطة البلد الذي يعيشون فيه وما داموا لا يتدخلون في شؤونه.

هذا، إذن، عن الجالية الأندلسية بالمغرب والملوك السعديون في مركز قوة يقدمون المساعدات في الظروف العادية ويحسمون في الأمر في الظروف الاستثنائية، فماذا سيحدث عندما تتفكك السلطة وتتدفق على المغرب أفواج ضخمة من المهاجرين الأندلسيين في ظروف خاصة وبأفكار وأساليب جديدة وطموح محدد ؟

ذلك ما سنراه في الفصل الموالي من هذه الدراسة.

الفصل الثالث

الجالية الأندلسية بمصب أبي رقراق وتطوان

عاش الاندلسيون باسبانيا خلال بداية القرن السابع عشر آخر مراحل الصراع الذي خاضوه طيلة قرن كامل (1502 — 1609) ضد الجهاز القمعي الاسباني (محاكم التفتيش)، وانتهى ذلك الصراع بنفيهم كآخر (حل) للتخلص من هذه الفئة الصامدة التي سببت للاسبان مشاكل عديدة على الصعيدين الديني والسياسي. لكن الاندلسيين لم يشعروا قط ان المسألة قد حسمت بصفة نهائية، إذ كانوا يشعرون ان نفيهم الى شمال افريقيا ما هو الا مرحلة لتجميع قواتهم المنهوكة، للانتقام من الاسبان، وبالتالي العودة الى (فردوسهم المفقود). ويعطي الاستقرار الاندلسي بالمغرب نموذجا حيا لهذه الوضعية، غير ان السؤال الرئيسي الذي يطرح بهذه المناسبة هل وجد الاندلسيون بالمغرب الظروف الملائمة لتحقيق طموحاتهم ؟

لقد كان المغرب يعيش ظروفا خاصة انقسام سياسي على مستوى السلطة المركزية، تدهور خطير لحق بالموارد الاساسي للمغرب السكر، والذهب، وتجارة القوافل، اضافة الى الجفاف الخطير الذي زاد الازمة الاقتصادية حدة، ظهور المجاعات والاوبئة التي اودت بحياة الاف الاشخاص، وادت بالتالي الى نقط ديمغرافي خطير.

فهل تحمل المهاجرون مع المغاربة تبعات هذه الوضعية ؟

لقد حاولت السلطات المركزية ان تستغلهم لتثبيت نفوذها فرفضوا وحاولت بعض الزعامات المحلية ان تستعين بهم في اعمال الجهاد فتمردوا الامر الذي ادى بهم الى الاصطدام مع هؤلاء واولئك.

أولا الجالية الاندلسية بمصب ابي رقراق

استقرت خلال القرن السابع عشر جالية اندلسية مهمة بسلا، ودخلت على الفور في طاعة مولاي زيدان الذي كان يقدر امكانياتها المادية والحربية، سواء للجهاد او لمحاربة منافسيه داخليا. وجعلها تتمتع بنفس امتيازات اعيان المنطقة، وترك لها عشر الغنائم، بل كان يفكر دائما في اعطائها مناصب قيادية.[1] وقد استقرت بعد ذلك في القصبة تحت سلطة قائد سعدي، فاصلح الهورناتشيون الاسوار واعادوا بناء المنازل المهدمة، فاصبحت القصبة التي كانت شبه مخربة «كمدينة صغيرة»[2]. ولاشباع رغبتهم في السيطرة وكذا لتعزيز قوتهم في نفس الوقت فانهم استدعوا الاندلسيين المنبثين في باقي اجزاء المغرب العربي، وذهبوا الى حد تسديد مصاريف نقلهم وجعلوهم يستقرون بالقرب من القصبة، اذ انبعثت مدينة الرباط الاندلسية داخل السور الموحدي القديم[3]، وقد اصطدم هذا الطموح بسلطة الوصاية التي كان يفرضها زيدان، اذ امر هذا الاخير قائده على القصبة عبد العزيز الزعروري باغتيال العياشي او القبض عليه، ففاوض في ذلك شيوخ الاندلسيين واعيانهم. لكن الاندلسيين فضلوا البقاء بجانب المجاهد وحمايته من اية مؤامرة تحاك ضده[4].

واصطدم الاندلسيون مع زيدان للمرة الثانية عندما بعث لقائده السالف الذكر بان يبعث له بالمزيد من الاندلسيين[5] لاخماد فتنة وقعت بدرعة. لكن اندلسيي القصبة رفضوا هذا العرض، خاصة انهم يعلمون المصير الذي آل اليه 400 من مواطنيهم «اذ طالت غيبتهم بها (الصحراء) فهرب اكثرهم»،[6]، وعزموا على التخلص من الزعروري بالوشاية له عند السلطان، فبعث هذا الاخير بمن يقبض عليه (سنة 1625)، ونهب الاندلسيون داره وممتلكاته، «وكتبوا له (لزيدان) مظهرين طاعته مكيدة منهم ونفاقا»[7]. وبعث لهم بمملوكه عجيب (نهاية مارس 1627)،[8] لكن مصيره لم يكن

---

(1) S.I.H.M.1ère série, france, 3 : 190.

(2) S.I.H.M.1ère série, Pays-Bas, 5 7

(3) تسمى ايضا سلا الجديدة بموازاة سلا القديمة.
انظر
S.I.H.M.1ère série, Pays-Bas, 5 7 – 8
R. Ricard et J. Caillé, "Salé-le-vieux et Salé-le-Nauf" in **Hespéris**, t. XXXIV, 3e – 4e trim. 1947. pp.441 – 442.

(4) انظر م. الافراني، نزهة الحادي، ص 264، ابو املاق، الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، ص 203 /204.

(5) ذكر جون هاريسون John Harrison في تقريره ان السلطان زيدان بعث اخيرا يطلب الفا من الموريسكيين لانه يعدهم من أحسن جيوشه. انظر
S.I.H.M.1ère série, Angleterre, 3 39

(6) م. الافراني، المصدر السابق، ص 264.

(7) نفس المصدر والصفحة.

(8) كانت لديه تعليمات بالاعتماد على القبائل المجاورة للوقوف بها ضد الاندلسيين.
انظر
S.I.H.M.1ère série, France, 3 : 191

احسن من مصير سابقه، فلم يعتنوا به، وصاروا يستهزءون منه الى ان قتل[9]. كما طردوا جميع القادة السعديين،[10]، وجردوا المغاربة من سلاحهم وارغموهم على الهجرة[11]، فكانت بذلك مؤامرة فعلية محبوكة ضد السعديين[12].

ولم يكن العياشي بعيدا عن هذه الاحداث، فقد كتب اليه الملك شارل الاول الانجليزي رسالة في 12 اكتوبر 1627 يهنئه فيها على المساعدة التي قدمها للاندلسيين في هذه الثورة[13]. وقد ذكر الاب دان Dan ان زيدان حاول ارغام الاندلسيين على الدخول في طاعته، فارسل اليهم محلة قوية لمحاصرة المدينة لكن ظل هذا الحصار بدون نتائج مشجعة (نتيجة مساعدة العياشي للاندلسيين). وانتهى هذا الحصار بعقد اتفاق بين الطرفين يصبح بمقتضاه الاندلسيون هم سادة المدينة والقصبة، ويلتزمون بالمقابل بتقديم عدد من الاسرى في كل سنة الى السلطان، كما قبلوا وجود موظفين مكلفين بالفصل في المنازعات وتطبيق العدالة[14].

هكذا كونت، اذن، ثلاث «جمهوريات» الهورناتشيون بالقصبة وهي مقر الحكم، والاندلسيون الاخرون بالرباط، وجمهورية ثالثة بسلا[15]. وشرع الاندلسيون في تنظيم انفسهم — على غرار ما كانوا عليه باسبانيا —، فالسلطة اصبحت بيد حاكم او قائد — ينتخب لمدة سنة من قبل «ديوان» مكون من 16 عضوا» وهذا الديوان، لا يهتم الا بالقضايا الحربية والدبلوماسية، اما قضايا العدالة فيعين لها من يفصل فيها، والجدير بالذكر ان هذا الديوان لم يكن يمثل فيه الا الاندلسيون[16].

وعلى العموم فان تاريخ الاندلسيين السياسي بالمنطقة ظل متقلبا وغامضا الى مجيء العلويين سنة 1666، وهو يبرز في ثلاثة مظاهر اساسية

- الصراعات الداخلية
- الجهاد البحري
- العلاقات مع اوروبا

---

(9) م. الافراني، المصدر السابق، ص 264، ابو املاق، المصدر السابق، 203—204.
ملاحظة يذكر هاريسون انه قتل من طرف القبائل المجاورة. انظر
S.I.H.M..1ère série, France, 3 191 note 6.

(10) Loc. cit.

(11) P. Dan,**Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, p. 206.

(12) **S.I.H.M.**,1ère série, France, 3 :192.

(13) **S.I.H.M.**1ère série, France, 3 192.

(14) **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**,p. 209.

(15) لا يتفق جاك كايي Jacques Caillé مع الرأي القائل بوجود ثلاث جمهوريات بمصب ابي رقراق، لان هذا — في رأيه — قد يوحي بوجود ثلاث دول مستقلة ومتمايزة، في حين ان العكس هو الصحيح تماما. فالرباط كانت خاضعة في اغلب الاوقات للقصبة، وسلا القديمة كانت تحت امرة العياشي الذي كان ينتدب عنه قائدا يحكم المدينة باسمه. ففي رأيه، اذن، ان هناك جمهورية واحدة هي تلك التي كانت موجودة بالقصبة. انظر كتابه
Histoire de la ville de Rabat,1 :215 – note 18

(16) **P, Dan, op. cit. p. 209.**
S.I.H.M.,1ère série, Pays-Bas, 5 : 9.

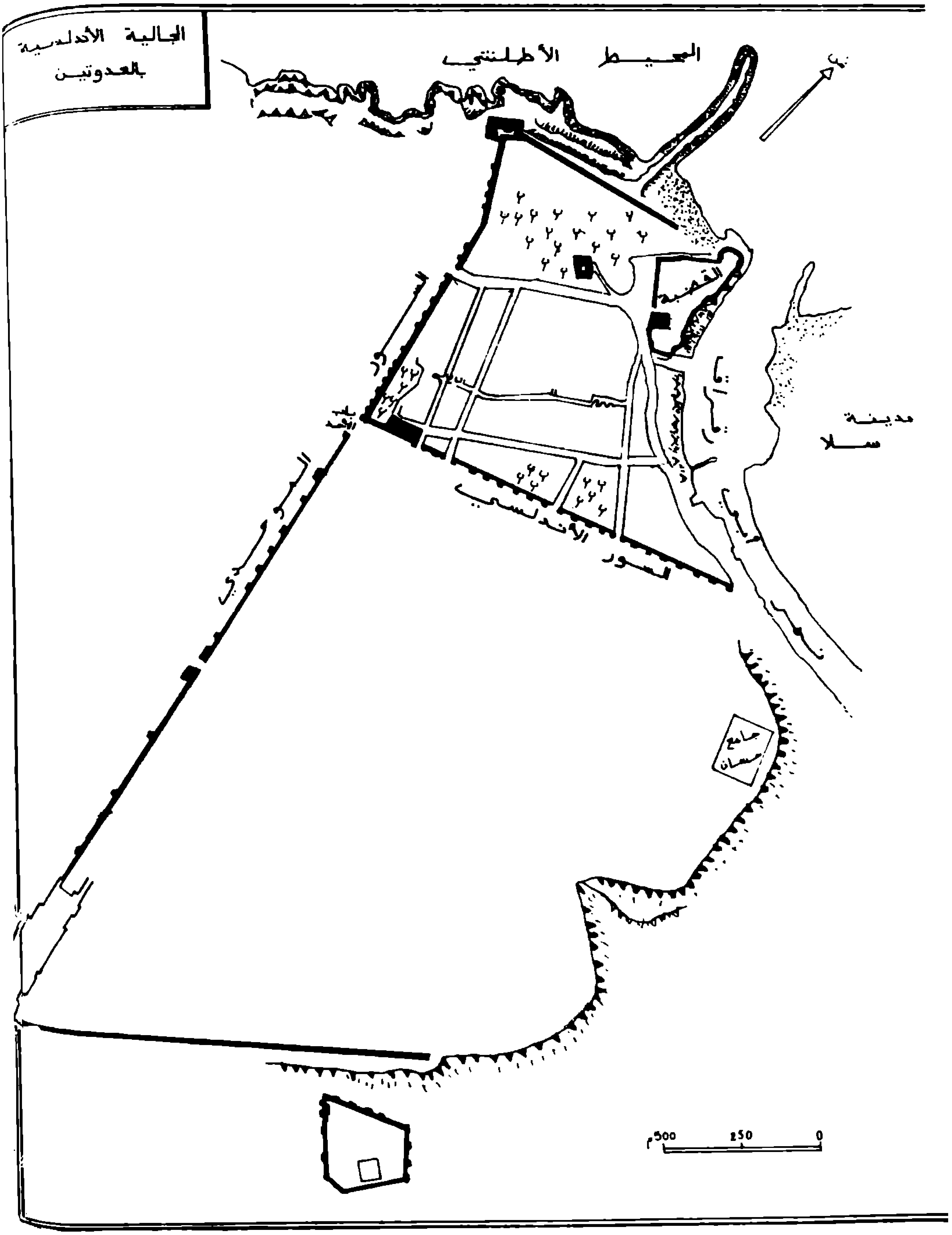
الجالية الأندلسية
بالعدوتين
المحيط الأطلنتي
القصبة
مدينة سلا
السور الأندلسي
السور الموحدي
جامع حسان
500م 250 0

الصراعات الداخلية

خلال المرحلة الأولى (من 1627 إلى 1641) تمتعت الرباط والقصبة باستقلال تام، رغم محاولات السعديين، إذ حاولوا مرتين فرض سلطتهم على المنطقة. أما المرحلة الثانية (من 1641 إلى 1660) فهي المرحلة التي دخلوا فيها تحت النفوذ الدلائي.

والمرحلة الأخيرة تبتدىء انطلاقاً من سنة 1660، إذ حوصرت القصبة من طرف أندلسيي الرباط بتحريض ومساعدة من الخضر غيلان، وانتهى هذا الحصار بدخول الرباط والقصبة تحت نفوذه سنة 1664، وظل الامر كذلك الى غاية سنة 1666 عندما دخلت تحت نفوذ مولاي رشيد. وزاد من حدة هذه الصراعات الداخلية الصراع الذي كان قائماً بالفعل بين الأندلسيين أنفسهم، فقد دخل الهورناتشيون (سكان القصبة) والاندلسيون الآخرون (سكان الرباط) في صراع حاد بينها.

الصراع بين القصبة والرباط

منذ أول وهلة حاول الهورناتشيون أن يفرضوا انفسهم كسادة على اندلسيي الرباط، فقد كانوا هم وحدهم يكونون أعضاء **الديوان**، كما أن القائد يختار من بينهم، وكانوا يحتفظون بمجموع مداخيل الجمارك، وغنائم الجهاد البحري، ومختلف ثروات المجتمع الاندلسي. وكانوا يتعللون بأن هذه الاموال كانت تستخدم لصيانة القصبة (بناء مناطقها المخربة، وتقوية سورها القديم)، ولكنها في الحقيقة كانت موجهة ضد الرباط، إذ قاموا بفتح عدة فجوات داخل السور لوضع القطع المدفعية بها، وهي موجهة أساساً الى الرباط[17]. وقد طالب الأندلسيون (الأكثر عدداً) باقتسام السلطة وباقتسام الحكم، ومداخيل الجمارك، ومختلف الغنائم والامتيازات كما كانوا هم أيضاً يريدون تقوية مدينتهم، لكن رد الهورناتشيون على شكاوي وملتمسات اندلسيي الرباط بطلقات المدافع. وهكذا دخل سكان القصبة والرباط في صراع مرير في نهاية شهر شتنبر من سنة 1629[18].

وقد ثار الأندلسيون ضد هذه الوضعية من جديد في مارس من سنة 1630[19] مدفوعين في ذلك من طرف العياشي، الذي كان يرمي بذلك إلى الاستحواذ على مصب نهر أبي رقراق بأجمعه[20]. فحاصر الأندلسيون القصبة براً، ولكن سكان سلا ساندوا الهورناتشيين ومونوهم عن طريق البحر، ولم يستطع المحاصرون (الذين لم يكونوا يملكون إلا مدفعاً واحداً) أن يعرقلوا هذا التموين. هذا إذا أضفنا أن الهورناتشيين المستقرين بسلا (لأجل مراقبة تحركات الأندلسيين) كانوا يجتازون النهر ويهاجمون الأندلسيين

---

(17)

(18) S.I.H.M.,1ère série France, 3 243.

(19) عند مازارجون هارسيون المنطقة وجد الرباط والقصبة قد دخلتا في حروب اهلية، وقد قدم تقرير اضافيا عن هذه الحرب في 8 اكتوبر من سنة 1630.

S.I.H.M.1ère série. Pays-Bas, 5 9

(20) Jacques Caillé, op. cit. p. 216.

على حين غرة، ويستولون على ماشيتهم ومعاشهم. ولكن القبائل المجاورة أيضاً كانت على استعداد للدخول في هذا الصراع لنهب ما يمكن نهبه من الطرفين. وأمام هذا «العدو المشترك» وبفضل تدخل أحد المتصوفة تمكن الأندلسيون والهورناتشيون من إبرام اتفاقية في شهر ماي من سنة 1630، تنص على ما يلي

1 — ينتخب أندلسيو الرباط قائداً، ولكن هذا الأخير يستقر بالقصبة.

2 — يجتمع الديوان بالقصبة ويضم 16 عضواً، ينتخبون بالتساوي من طرف المركزين الأندلسيين (8 للرباط و8 للقصبة).

3 — يكون للمدينتين نصيب متساو في غنائم الجهاد البحري ومداخيل الجمارك[21].

وإثر ذلك عين أحمد بن عبد القادر صيرون قائداً بالنسبة للهورناتشيين، وعين عبد الله بن علي القصري قائداً بالنسبة للرباط.

وقد شغلت هذه القضية علماء المغرب، وعرضت عليهم كنازلة «... جوابكم لله تعالى في مسألة طائفتين من المومنين، اقتتلوا بسبب مال كان عندهم على أن يقتسموه في رواتبهم، وكان تحت يد إحدى الطائفتين، فلما طلبت الطائفة الاخرى أن يمكنوهم من واجبهم منعوهم مذلك، ونشأ بينهم كلام انتهى إلى القتال...»[22] وتوضح هذه النازلة سبب الفتنة «وكان أهل القصبة قد جاء إليهم طالب فظنوا به العلم وشارطوه، وصاروا يثقون بقوله ويقلدونه في أمورهم، ويمتثلون أمره، لحسن نيتهم وظنهم الحسن. فلما وقعت هذه الشحنة صار يغريهم بأهل المدينة، ويحرضهم على قتالهم ورميهم بالانفاظ، وأنزلوا عليهم السخط، إفساد الثلثين في إصلاح الثلث حق، فهل — ساداتنا — ما قاله هذا الطالب حق أم لا...[23].

فأجاب الشيخ محمد العربي الفاسي بما نصه «... ما ذكره هذا الطالب من كون افساد الثلثين في اصلاح الثلث حقا باطل باجماع المسلمين، لم يحك عن أحد من الناس لا على وجه القبول ولا على الرد البتة وإنما هو اختلاف واختراق، ومخالفة للاجماع والاتفاق، وانما حكى جواز الثلث لمصلحة الثلثين ايثارا للاكثر على الاقل، ومحافظة على تقليل الفساد ما امكن، فان فساد الاقل اقل من فساد الاكثر»[24].

لنا ان نتساءل — بعد هذا — عن هذا (الطالب) الذي حرض الهورناتشيين على محاربة اندلسيي الرباط. هل بعث به سكان سلا الذين لم يكونوا ينظرون بعين الرضى الى هؤلاء المستقرين الجدد (كانوا يسمونهم نصارى قشتالة) ؟

(21) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 5 — 10

(22) عبد العزيز الزياني، الجواهر المختارة، ص 236.

(23) نفس المصدر والصفحة.

(24) نفس المصدر والصفحة.

على كل فان النازلة نفسها اكدت على الجانب الذي تواجه به الجانبين، فالنسبة للسلاويين نؤكد صدق عقيدة هؤلاء «... ولكن الطائفتين لهم رغبة في الدين وتعظيم له، وتشوف لمعرفة حكم الشريعة، وغرض في العمل به والانقياد اليه...»[25]، وبالنسبة للعياشي تواجهه امام المغاربة بانهم لا يقلون جهادا عنه

«... وهم مع ذلك في ثغر من الثغور في ساحل البحر، وعلى منكسر الموج، وهم مع ذلك مجاورة العدو الكافر في بر متصل ومسافة نحو نصف اليوم، ولهم اجتهاد في نكاية العدو في البحر، واعداد ما استطاعوا له من قوة...»[26].

وهكذا آل الامر الى هذه الازدواجية في الحكم التي اشرنا اليها سابقا، ونؤكد منذ البداية ان هذه الازدواجية لم تؤد الى النتائج المرجوة. فقد ادت هذه الاتفاقية الى «هدنة بين الطرفين»، ولم تستطع قط ان تصل الى مستوى سلام حقيقي[27]. وهكذا منذ يناير 1631 رفع اندلسيو الرباط احتجاجات جديدة ضد ممارسات جيرانهم، اذ حفر الهرناتشيون خندقا على طول اسوار القصبة من جهة الشرق وقد بدا هذا العمل واضحا على انه تدبير وقائي ضد الرباط[28]. ولكن سيبرز من جديد عدو مشترك يدفع بهم الى التفاهم ولو مؤقتا، فقد كان سكان سلا يخشون من وجود «معمورة جديدة» على الضفة اليسرى لابي رقراق، فالتجأوا الى العياشي العدو المشترك للاسبان والاندلسيين على السواء[29]، اذا كان المجاهد يتهم هؤلاء باستمرار بتعاملهم مع الاسبان[30].

الصراع بين الاندلسيين والعياشي

حاول العياشي اول الامر ان يستخبر الاندلسيين اذ «... بعث الى الاندلس بسلا يصنعون له السلاليم يصعد منها لمن بقي في الحلق (المعمورة) فتثاقلوا عليه من صنعها غشا منهم للاسلام ومناواة لسيدي محمد العياشي حتى جاد المدد لاهل الحلق، فلما اتى بها لم تغن شيئا بعد ان ركبها، ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين اهل الاندلس...»[31].

وقد عزم العياشي إثر ذلك على قتالهم، لكن قبل الاقدام على هذا العمل حاول أن يكسب عمله هذا الصفة الشرعية، وذلك بعرض أمرهم على العلماء «... وكان أهل الأندلس أعلموا النصارى بأن محلة محمد النازلة في محاصرة الحلق ليس له إقامة، فبلغ ذلك لسيدي محمد فأقام عليهم الحجة وشاور

---

(25) نفس المصدر والصفحة.
(26) نفس المصدر والصفحة.
(27) J. Caillé, op. cit. p. 217.
(28) S.I.H.M. 1ère série France, 3 370.
(29) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas. 5 : 8.
(30) سترجع الى هذه النقطة بتفصيل عند استعراضنا للعلاقات بين الاندلسيين وأوروبا.
(31) م. الافراني، المصدر السابق، ص 267.

العلماء في قتالهم فأفتى سيدي العربي الفاسي بجواز مقاتلتهم لأنهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم، ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء على الناس، وخصوا به أنفسهم وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح...»[32]. غير أن بعض العلماء ــ مثل الامام عبد الواحد بن عاشر ــ لم يطمئن إلى عمل العياشي هذا حتى تأكد بنفسه من صدق ما يقوله المجاهد «... وكان الامام سيدي عبد الواحد بن عاشر ــ رحمة الله ــ لم يجب عن ذلك إلى أن رأى بعينه حيث قدم لسلا الأندلس، يحملون الطعام للكفار ويعلمونهم بغرة المسلمين فأفتى بجواز مقاتلتهم...»[33]، لكن وان كان العياشي قد احتج بفتوى علماء فاس، فإن الأندلسيين واجهوه بفتوى مضادة من علماء مراكش، وعلى رأسهم قاضي الجماعة بها أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني[34]، أي أن علماء مراكش ومعهم السلطة كانوا بجانب الأندلسيين، في حين فضل علماء فاس الاتجاه إلى جانب العياشي.

وتشكل هذه الفتوى مرافعة فريدة من نوعها ضد العياشي كما يتجلى ذلك في النقط الآتية

1 ــ يبرز الأندلسيون في بداية الأمر رغبة السيطرة والنفوذ التي كانت لدى العياشي، وان هذه الرغبة ليست من الجهاد في شيء «السادات الفقهاء تفضلوا ــ أبقاكم الله ــ بالجواب عن رجل كان أول أمره مشتغل بجهاد النصارى ــ دمرهم الله ــ مظهراً للنسك والصلاح مدة حتى أقبل الناس عليه بقلوبهم بما يظهر لهم من القصد الجميل في فعله ذلك، فصار يدعوهم لنصرته ولزوم طاعته وامتثال أوامره ويعاقبهم على مخالفة ذلك، ويستعين ببعضهم على بعض، فيقابل من لم يمتثل أمره من المسلمين وينهب أموالهم لأن يدخلوا طاعته، فتغلب بذلك على جماعة وافرة..»[35].

2 ــ يستعرض الأندلسيون ما فعلوه في الرباط والقصبة من أعمال عمرانية وجهادية «وكان هذا الثغر (سلا) قبل دخول هذه الجماعة له وسكنها فيه غاية الاهمال فبالغوا في تشديده وتحصينه وبناء مساجده وأسواقه حتى صار حاضرة من الحواضر، وصار الناس يأتون إليه من كل ناحية، وكانوا في عين الكفرة مبلغاً لا يكيف لما يقع من هذه الجماعة من الاغارة على الكفرة في البحر في جزائرهم، وكانوا يغزونهم في عقر دورهم يغيرون عليهم في كل زمن ويسبون دراريهم وياسروهم حتى كانت النصارى بسبب ذلك تباع بالبخس، حتى استعبادهم الغني والفقير وأذلهم العزيز والحقير، وهم مع ذلك قائمون بحدود الشريعة، مظهرون شرائع الاسلام تحت أيالة مالك المغرب ــ أيده الله ــ...»[36].

---

(32) م. الافراني، المصدر السابق، ص 267

(33) الافراني، نفس المصدر والصفحة، ابو املاق، المصدر السابق 269ــ270.

(34) انظر ترجمة ومصادرها عند م. حجي، الحركة، 2 391.

(35) عبد العزيز الزياني، المصدر السابق، ص 241.

(36) المصدر السابق، ص 241ــ242.

3 ـ يذكر الاندلسيون انهم كانوا يقدمون كل المساعدات للعياشي في عملياته الجهادية، لكنه لم يأبه بذلك وفضل السيطرة عليهم «... ومع ذلك اذا طلبهم للجهاد معه اعانوه بالرماة والبارود والانفاظ، فلم يقبل منهم الا اسلام البلد وتحكمه فيهم، فصار يقاتلهم على ذلك ازمنة متطاولة وحاصرهم ومنعهم من ادخال ما يقتاتون به، وتوعد كل من يأتي اليهم بشيء من الميرة ان يبالغ في عقوبته بالقتل وغيره، وعاقب كثيرا من الناس عن ذلك...»[37].

4 ـ استعان عليهم العياشي بالنصارى في التضييق عليهم «... فلما ضاق بهم الامر صاروا يركبون البحر ويأتون بأقواتهم من بلاد المسلمين، فتكلم في ذلك مع النصارى، واستعان بهم عليهم، وصاروا يرسون لهم بالمرسى، فلا يتركون لهم شادة ولا فادة، ولا يجدون سبيلا الى الخروج وضاقت بهم الحيل، وبلغ السيل الزبى، واكلوا الجيفة ما استعانوا بالمالك ـ ايده الله ونصره ـ...»[38].

وفعلا انطلاقا من شهر يوليوز سنة 1629 كان الفرنسي رازيلي Razilly امام سلا، وتزعم بعض المصادر الاوربية ان العياشي «عبر عن امنيته في ان يخرب الاسطول الفرنسي القصبة، المنطقة الوحيدة التي كانت تحول بينه وبين السيطرة على مصب ابي رقراق» ![39]. ولكن رازيلي ـ امام ضخامة اسطوله ـ لم يستطع اجتياز الحواجز فانطلق الى المعمورة ومن هناك اخذ يوجه عمليات الحصار ضد القصبة، وفي ظرف شهرين اضطر الهورناتشيون ـ تحت ضغط اندلسيي الرباط الراغبين في السلم لاجل تجارتهم ـ الى عقد اتفاقية هدنة مع الفرنسيين لمدة 5 اشهر في 2 اكتوبر 1029 ورجع قائد الاسطول الفرنسي الى بلاده[40].

5 ـ تشير الفتوى ايضا الى مدى شرعية تعامل عبد الملك (1037—1040 / 1627—1631) مع الاسبان في سبيل انقاذ الاندلسيين» ولما رأى ـ ايده الله ـ ان الميرة لا تصل اليهم الا من طريق البحر لتعذر وصولها اليهم من طريف البر راى ـ نصره الله ـ أن إحياء انفسهم من الامر الواجب عليه هذا للكفرة لتصل اليهم اقواتهم من طريق البحر لاحياء نفوس اولئك المجاهدين المحصورين ...»[41]. وقد كانت اسبانيا تراقب عن كثب الصراع الدائر بين الاندلسيين والعياشي وفضلت تقديم المساعدة للاوائل لابعادهم عن الانجليز والفرنسيين، وهكذا دخل مدينا سيدونيا (القائد العام للاسطول الاسباني بالمحيط الاطلسي والسواحل الاندلسية) في مفاوضة سرية مع المحاصرين لقبول «حماية» اسبانية مقابل تقديم العون لهم في عين المكان[42].

---

(37) عبد العزيز الزياني، المصدر السابق، ص 242.

(38) نفس المصدر والصفحة.

ملاحظة

يقصد (بالمالك) ملك مراكش عبد الملك بن زيدان بن أحمد المنصور (1037 / 1040هـ /1627—1631).

(39) S.I.H.M.1ère série France, 3 194.

(40) S.I.H.M.1ère série France, 3 : 194.

(41) عبد العزيز الزياني، المصدر السابق، 242.

6 ــ لما رأى العياشي ان عمله هذا لم يكلل بالنجاح نتيجة المساعدة التي قد مها عبد الملك والاسبان للاندلسيين عمد الى طرح قضية تعامل هؤلاء مع النصارى :...» فلما بدا للرجل ان هذا الامر الذي قصده من التضيق لهم لا يتم له ما داموا يستمدون من المالك مع بقاء المهادنة عمد الى الكفرة المعاهدين فعذرهم وصار يفسد عقول الناس ويحيل اليهم من أجل هذه المهادنة ان المسلمين اتفقوا مع الناصرى، ويوهمهم انهم يد واحدة وفي ذلك تشويش المسلمين وافساد عقائد المسلمين واغراهم على نبذ طاعة المالك والخروج عن بيعته...»[43]، وبذلك فقد سئل علماء مراكش في الحقيقة عن جملة قضايا مرتبطة، وليست قضية واحدة

ــ ما حكم مقاتلة العياشي للاندلسيين ؟
ــ ما مدى شرعية فتوى علماء فاس الذين افتوا بمقاتلة الاندلسيين ؟
ــ ما حكم عبد الملك الذي اعان هؤلاء ؟
ــ ما حكم مهادنة الاندلسيين ــ ومعهم عبد الملك ــ للاسبان ؟

كان جواب السكتاني كالاتي «ان حاصل امر هذا الرجل المسؤول عنه انه خالط عملا صالحاً وآخر سيئاً ــ عسى الله ان يتوب عليه ان الله غفور رحيم ــ اما جهاده ورباطه وحراسته فنعم هي، واما مقاتلته للمسلمين وعدم اكتراثه بدمائهم واعتقاده حليته ومحاصرته لسكان الثغر وافساده بلادهم التي هي في نحر العدو، وحل نظامهم، والسعي في ضعفها واخلائها من عملها، فعن الشرع والدين والصواب فيها بمعزل»[44].

وعلى كل فقد واصل العياشي حصاره للقصبة، وتزعم بعض المصادر الاوروبية انه كان «يدعي انه يريد ان يخضعها فقط للشريف السعدي»[45]. وانطلاقا من سلا ــ التي كانت مع العياشي ــ كانت المدافع تضرب القصبة، بينما كان ابنه عبد الله يرابط بشالة مرفوقا بـ 5000 فارس لمحاولة عرقلة تموين المدينة[46]. لكن لم يكن لعمل العياشي هذا نتائج تذكر، فقد استطاعت القصبة ان تحصل على التموين عن طريق البحر، كما اتجه قادة القصبة الى الشريف السعدي واكدوا له مبايعتهم وتأييدهم له.

وقد حاول الوليد (1040 هـ ــ 1045هـ / 1636ــ1641) ان يستغل هذه الوضعية لبسط سلطته على التجمعات الثلاثة (سلا والرباط والقصبة) خاصة بعد ان بعث له الهورناتشيون والاندلسيون ممثليهم، لكن السلطة السعدية مع ذلك ظلت اسمية، اذ ظلت المراكز الثلاثة مستقلة تماما عن اي نفوذ سعدي[47]، وامام عدم امكانية الاستيلاء على القصبة بالقوة رفع الحصار في شهر اكتوبر سنة 1632 وانسحب العياشي الى الغرب[48].

(42) S.I.H.M.1ère série France, 3 196.
(43) عبد العزيز الزيالي، المصدر السابق، 242.
(44) نفس المصدر والصفحة.
(45) J. Caillé, op. cit. PP. 217 – 218.
(46) S.I.H.M.1ère série Pays Bas, 5 19.
(47) S.I.H.M.1ère série. Angleterre, 3 154 – 155.
(48) S.I.H.M.1ère série. France, 3 : 195.

لكن العياشي سيجد الفرصة ملائمة من جديد للتدخل ابان الصراع الداخلي بين الرباط والقصبة، اذ سيطر اندلسيو الرباط على القصبة وطردوا الهورناتشيين منها في شهر شتنبر من سنة 1635، فالتجأ هؤلاء الى العياشي طلبا للمساعدة(49).

وقد عزم العياشي اول الامر على الهجوم على اندلسيي الرباط لكن صرفته عملياته الجهادية الاخرى، فاستغلها قائد الاندلسيين عبد الله ابن علي القصري (الذي اصبح يسيطر على الرباط والقصبة) وقام بمحاصرة سلا ليتم له بذلك الاستيلاء كلية على مصب ابي رقراق وبنى لهذا الغرض قنطرة من السفن على النهر لنقل المدفعية، وظلوا يحاصرون المدينة زهاء شهرين (يناير — فبراير 1637)(50) اثرها التجأ لسلا الى العياشي الذي لبى طلبهم والتجأ الى الاميرال الانجليزي رينسبورو غ Rainsborough فاتجه هذا الاخير على الفور باسطوله لتخليص الاسرى الانجليز ولمعاقبة الاندلسيين في نفس الوقت(51)، فخربت مدافع الملك شارل الاول الانجليزي بسرعة قنطرة ابي رقراق، واضطر القصري بذلك الى الانسحاب(52).

وقد حاصر العياشي من جديد الرباط والقصبة في ماي 1637، وواصل الاسطول الانجليزي تقديم المساعدة له مما جعل وضعية القصبة مضطربة. ومن جهة اخرى كان محمد الشيخ الاصغر (1045هـ — 1063هـ /1636—1652) يخشى من سقوط القصبة في ايدي العياشي او الانجليز فوجه حملة كبيرة مكونة من 14 مدفعا في اتجاه مصب ابي رقراق، وقد روج العياشي لدى السلطان انه لا يريد الاستيلاء على القصبة والرباط الا لتسليمها له، ولكنه كان في نفس الوقت يتفاهم مع محمد الحاج الدلائي لعرقلة مسيرة الجيش السعدي، وروج الرجلان خبرا مفاده بان مراكش ستهاجم من طرف جيش اخر(53). وبالاضافة الى ذلك فبمساعدة قبائل المنطقة تمكنا من احراق المحصولات الزراعية في طريق محمد الشيخ الاصغر مما سبب نقصا خطيرا في الغذاء وبالتالي اضطر معظم جنود الحملة الى هجرة المحلة، لم يصل السلطان السعدي الى فضالة الا بصعوبة اضطر معها الى الوقوف عند هذا الحد والرجوع الى عاصمته مراكش سنة 1637(54). وفي هذا الوقت وقع اضطراب في القصبة نتيجة الحصار الانجليزي للقصبة (الذي ادى الى انتشار المجاعة). وبعد انتظار الناس لوحدات الشريف السعدي طويلا وتأكدهم من عدم امكانيه وصول الجيش السعدي اليهم وقعت ثورة في فبراير سنة 1637 (لم يكن العياشي بعيدا عن التدخل فيها) خلع خلالها القصري وسجن فعوض بثلاثة حكام منتخبين

— Caya Vacher (الكاهية البشير)

— صهره الحاج عباس

---

(49) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 267.

(50) S.I.H.M. 1ère Série. Angleterre, 3 343 – 353.

(51) S.I.H.M. 1ère série. France, 3 196.

(52) Loc. cit.

(53) S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3 : 323.

(54) Loc. cit.

— El Herrado (هرادو)

ونشأت ثلاث اتجاهات بالمدينة

— طالب البعض برمي القصري في البحر وبقطع رأسه[55]، وهؤلاء هم محبذو التفاهم مع العياشي، وقد طالب هذا الاخير بنصف مداخيل الجمارك وغنائم البحر، وباصلاح الخسائر التي اصيبت بها سلا اثناء حصار يناير — فبراير 1637، وبعودة الهورناتشيين الى القصبة. وقبل الاندلسيون بالشرطين الاولين لكنهم رفضوا الشرط الثالث الذي لم يصلوا في شأنه الى اي شيء يذكر.

— وطالب البعض الاخر بالخضوع الى الشريف السعدي محمد الشيخ الاصغر وتسليمه القائد المعتقل، وكانوا يرمون بذلك الى التخلص من القصرى (الذي لم تكن له الا اطماع شخصية، وكان يتصرف كدكتاتور)[56].

— أما القسم الثالث فكان يطالب فقط باعادة القائد القديم الى منصبه، نظرا لانه اظهر حنكة ادراية في تسيير الامور.

وظلت الامور على حالها 20 يوما الى ان انضم الجميع الى الرأي الثاني بالانضمام الى محمد الشيخ الاصغر وقرروا تسليمه القصري.

وفي 2 يوليوز — اثناء الليل — ولتجنب الاصطدامات ارسل القصري الى ازمور ومن هناك اقتيد الى السلطان[57].

وبعد سماعه قرر السلطان ان يرجعه الى حكومته وارسله الى القصبة بسفينة محملة بالقمح لتهدئة الثائرين وكلف التاجر الانجليزي بليك Blake (الذي تدخل لصالح القصري) بنقله الى مصب ابي رقرار، وكان قائد الاسطول الانجليزي ما زال يحاصر المنطقة، لذلك فقد طالب باطلاق جميع الاسرى الانجليز (300 اسير) مقابل السماح للقصري بالنزول، وقد تم التفاهم بين الطرفين بفضل تدخل «بليك»، وفي 23 يوليوز من سنة 1637 استقبل القصري من طرف مواطنيه «بالتصفيقات وعلامات الفرح والطبول»، واعيد تزكيته في منصبه باستثناء القيادة الخاصة للقصبة التي استقل بها صهره الكاهية البشير، واظهر سلطته باحباط العديد من المؤامرات، فقد قام بقطع رؤوس المنشقين المؤيدين للعياشي[58] ومن بينهم صهره سليمان بن الطاهر، اما الباقون فانهم اما هربوا او نفوا خارج القصبة. وهكذا استعادت الرباط والقصبة هدوءهما من جديد[59]. ومن جهة اخرى اصبحت الرباط والقصبة تموِّنان من الاسبان، ولم يعد للعياشي اي امل في اضعاف المدينتين عن طريق تجويعهما.

---

(55) S.I.H.M. 1ère série, France, 3 540.

(56) S.I.H.M. 1ère série, France, 3 540 – 542.

(57) S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3 343 – 353.

(58) S.I.H.M. 1ère série France, 3 197.

(59) S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 3 : 341.

وبعد اغتيال القصري في بداية سنة 1638 بعث السلطان الى القصبة بـ 350 جنديا تحت امرة القائد مراد العلج[60]، فرفع العياشي الحصار مدعيا انه وصل الى هدفه وهو اعادة سلطة الشريف السعدي، وعقد اتفاق في ابريل سنة 1638 بمقتضاه يستطيع الهورناتشيون الدخول الى الرباط ويسترجعون املاكهم بها، وذهب العياشي ليعسكر أمام المعمورة[61].

لكن وفي اقل من ثلاثة اشهر تجدد الصراع مرة اخرى بتحريض من العياشي، اذ اصبح الهورناتشيون — بعد رجوعهم الى المدينة — هم سادة الرباط بمساعدة الف من الاعراب الذين دخلوا الى المدينة لنقل التموين اليها[62]، ولكنهم فشلوا في محاولاتهم الاستيلاء على القصبة اذ دافع عنها الاندلسيون، كما دافع عنها جنود السعديين تحت امرة القائد مراد.

وأما العياشي فبالرغم على انه كان بعيدا عن سلا الا انه كان يدفع بالهورناتشيين الى الهجوم على القصبة، اذ ظهر من جديد في سنة 1938 وشجع على تكثيف الحصار[63]. واصبح الاندلسيون يتساءلون عن الجهة التي سوف يتجهون إليها إلى انجلترا أو اسبانيا لاجل ضمان الدفاع عن انفسهم ؟ وكان مدينا سيد ونيا يراقب عن كثب خطوات العميل الانجليزي بليك وكذا تحركات العياشي متخوفا من ان تقع القصبة في ايدي الانلجيز او العياشي[64]. وقد عرفت المنطقة هدوء نسبيا في سنة 1639 اذ استدعي العياشي الى اولاد الدويب لتغطية عملية جهادية ضد الجديدة[65]. انتهت بانتصار ساحق راح ضحيته قائد البرتغالية نفسه فرانسسكو ماسكارناس Francisco Mascarenhas في 11 ابريل سنة 1640[66]، وقد قرر — وهو في نشوة الانتصار — ان يتخلص من الاندلسيين بصفة نهائية اذ يقول الافراني في هذا الصدد «... فاطلق سيدي محمد فيهم السبيل اياما فقتل من وجد منهم وهرب اكثرهم، فمنهم طائفة ذهبت لمراكش وطائفة ذهبت للجزائر وطائفة فرت للنصارى وفرقة ذهبت لأهل زاوية الدلاء فجاء اهل الدلاء يشفعون في الاندلس فابى سيدي محمد ان يقبل الشفاعة فيهم وقال ان الرأي في استيصال شافتهم، فلما رأى اهل الدلاء امتناعه ورده شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على مقاتلته...»[67].

---

(60) Loc. cit.

(61) **S.I.H.M.** 1ère série, Angleterre 3 447

(62) Loc. cit.

(63) **S.I.H.M.** 1ère série.France, 3 197

(64) Loc. cit.

(65) كانت مراسلات محمد الشيخ الاصغر مع الاسبان عن طريق الفرنسسكاني ماتيس Mathias تؤدي الى بث العديد من الاشاعات التي لم يكن العياشي بعيدا عنها ان اشيع ان ام السلطان السعدي مسيحية وانه لا ينتظر الا مساعدة فليب الرابع ليعلن مسيحيته وليرغم رعاياه على اعتناق المسيحية وقد استغل العياشي هذه الاشاعات واستقر قرب ازمور لقطع الطريق بين مراكش والجديدة، اذ كان من المنتظر ان يصل اليها المبعوث الاسباني من مدريد لكن تقرر اخر لحظة مد اقامته بمدريد ولم ير بذلك مشروع العياشي النور فهيأ مع اولاد الدويب مشروع الهجوم على الجديدة.

انظر **S.I.H.M.** 1ère Série France, 3 198 note 5.

(66) **S.I.H.M.** 1ère série France, 3 198.

(67) نزهة الحادي ص 270، ابو املاق المصدر السابق، 273—274.

هكذا رفض اذن العياشي شفاعة الدلائيين لكن جواب هؤلاء الاخيرين كان اعنف من ذلك «... فخرج اليهم سيدي محمد بجنوده فاوقع بينهم وهزم جمعهم وفتك بالعرب الذين كانوا مع التاغي فتفرقت الجموع وتبرا التابع من المتبوع، وذهب سيدي محمد لغزو طنجة، فلما رجع من غزو طنجة وجد البربر مع اهل الدلاء وصلوا الى اطراف ازغار ومعه التاغي وأهل حزبه من الكراردة والدخيسي عزموا على مصادمة سيدي محمد، فاراد سيدي محمد ان يغض طرفه عنهم ويصرف عنانه لغيرهم، فلم يزل به اصحابه وأهله الى ان نبذ لمقاتلتهم، فلما التقى الجمعان كانت الوقعة على سيدي محمد فهزم من معه وقتل فرسه تحته فرجع الى بلاد الخلط، وكان رؤساء الخلط اكثرهم في حزب التاغي وعلى رأي الكرادي فرجعت البرابر لاوطانهم وبقي سيدي محمد عند الخلط اياما فغدروا به وقتلوه...»(68).

وهكذا قتل العياشي في 9 محرم 1051 / 21 ابريل 1641، واحتز رأسه وذهبوا به الى الرباط وقاموا بالتجوال به. وقد غمرت الفرحة الكبرى الاسبان في كل من المعمورة والعرائش وطنجة اذ اعتبر المسيحيون هذا الحدث بمثابة انتصار لهم(69).

ويرى بعض الباحثين انه ليس من المستبعد ان تكون المؤامرة قد دبرت من طرف «بعض غلاة المورسكيين بالرباط»، ويضيف قائلا «وتوحي هذه الرواية ان العملية مدبرة في الاساس من طرف سكان المنطقة الذين يمكن ان يكونوا قد وضعوا لرأس العياشي ثمنا، وان قتلته حملوا الرأس كدليل مادي على قيامهم بالعملية ليتمكنوا من نيل المقابل المتفق عليه...»(70).

بقي لنا ان نتساءل عن العنف الذي جابه به الدلائيون رفض العياشي ؟

اولا نشير إلى ان القصبة كانت محط اهتمام وتتبع من طرف الدلائيين في شخص محمد الحاج الدلائي، ففي رسالة موجهة منه الى السلطان محمد الشيخ الاصغر يذكر في هذا الصدد «... ثم طرق السمع بعد ذلك — من غير تيقن لما هنالك — ان بعض الاندلسيين ممن الزمه العياشي غرم ما مضى، لاذ ببعض الرعية في نقط ما انبرم وانقضى فوقع بينه وبين الجماعة الاندلسية مخالفة وظهرت باثر ذلك عليهم مخالفة. فما القينا الى ذلك بالا، ولا اعملنا للنظر فيه مجالا، لعدم تحقيق القضية والاطلاع على ما ثم من البلية، وعلما منا بان ملاك امرهم كافة انما هو بايدي الخلافة الكافة...»(71).

وهناك رأي في الموضوع يذهب إلى أن «... نظر محمد الحاج كان متجها نحو الغرب، بعد أن تركزت قدماه في ملوية العليا وبسائط تادلا وما والاهما من البلاد، وكان لابد له إذا أراد تحقيق مطامحه من أن يتخلص من العياشي صاحب النفوذ في الثغور. ولا نظن حادثة الأندلسيين إلا تعلة اتخذها محمد الحاج لتبرير موقفه العدائي من مجاهد سلا، وفرصة اهتبلها للقضاء على منافسه من أجل التوسع وبسط النفوذ...»(72).

---

(68) م. الافراني، المصدر السابق 271.

(69) S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 198.

(70) ع. اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، ص 140.

(71) ابو املاق، المصدر السابق، ص 272.

(72) م. حجي، الزاوية الدلائية، ص 155.

ويسير مع هذا الرأي رأي آخر في نفس الاتجاه، إذ يذكر أن «محمد الحاج وجد الفرصة الملائمة فتدخل لدى العياشي، وهو شبه متأكد من الموقف الذي ينتظر أن يتخذه المجاهد، ذلك أن تضرر العياشي من تصرفات بعض المورسكيين كان يزعمه على التخلص منهم، ولم يكن له أي مخرج غير ذلك. وهذا ما كان محمد الحاج على علم به....»[73].

وعلى كل فإن الأحداث القادمة ستؤكد صدق هذا الرأي.

علاقة الاندلسيين بالدلائيين

سبق ان تعرضنا الى تدخل الدلائيين لصالح الاندلسيين في نزاعهم ضد العياشي، وكيف كانت نهاية هذا الاخير، وقد اقر الدلائيون الوضع في جمهوريات ابي رقراق الثلاث بعد ان اسندوا امر النيابة عنهم فيها جميعا الى قائد سلا الامين سعيد الجنوي[74]، وبذلك اصبح له الاشراف على قائد الرباط ابي الطيب بن عبد الرحمان عبدون[75] وقائد القصبة الحاج يوسف السنسياض[76]، ثم ترك سعيد الجنوي أمر قيادة سلا الى عامر بن محمد[77] ليتفرغ هو للشؤون العامة ولتنفيذ سياسة الدلائيين في العدوتين.

وخلال ثلاث سنوات سارت الامور — نسبيا — بصفة عادية تحت امرته لكن القصبة ظلت محتفظة ببعض العلاقات مع سلطان مراكش، ففي اكتوبر من سنة 1643 كتب قادتها بصفة شخصية الى الولايات العامة بلاهاي ولم يخفوا شعورهم حول وضعيتهم الراهنة، وهم يتكلمون في رسائلهم فقط عن «ملوك المغرب، ملوك فاس وسوس والسودان» بدون تسمية محمد الحاج، وعلى العكس من ذلك نجدهم في رسالة رسمية مؤرخة في نفس التاريخ — وهي بدون شك وضعت خصيصا لكي تقع بايدي الدلائيين، ويطلعون عليها — يؤكدون اخلاصهم المنقطع النظير للدلائيين، اذ يسمونهم «حماة الاسلام وعضده»[78].

ولم يكن الدلائيون بغافلين عن النوايا الحقيقية لأندلسيي القصبة في الاستقلال التام والانفصال عن الدلائيين، ولا باتصالاتهم مع سلطان مراكش محمد الشيخ الأصغر، ولا باتصالاتهم مع أتراك الجزائر لذا أمر محمد الحاج هورناتشي الرباط بمهاجمة القصبة برا سنة 1644[79]، كما اغرق سفينة عند مدخل النهر لتعزيز حصار القصبة من البحر، ولم تجد النجدات المقدمة للمحاصرين، من طرف السلطان محمد الشيخ واتراك الجزائر نفعا

---

(73) ع. اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، ص 137.

(74) J. Caillé, op. cit. p. 221.

(75) ذكر م. حجي ان اسرة عبدون الاندلسية كانت في الرباط ثم انقرضت، الزاوية الدلائية، ص 174 هامش 19.

(76) ذكر م. حجي ان هذه الاسرة الاندلسية قد انقرضت الآن. المصدر السابق، ص 174، هامش 20.

(77) عامر بن محمد من اسرة حركات الشهيرة بسلاحتي اليوم. م. حجي، المصدر السابق، ص 174، هامش 21.

(78) S.I.H.M.1ère série P — B, 5 41.

(79) كان الهورناتشيون قد وجدوها فرصة للرجوع الى مقرهم القديم انظر
S.I.H.M.1ère série. P — B, 5 : 25.

واضطر في الاخير اندلسيو القصبة الى الاستسلام[80]، ولتعزيز سلطته بالقصبة طرد محمد الحاج جميع الاندلسيين، ولم يترك الا جنودا مغاربة، واعطى القيادة العليا للمدن الثلاث لابنه الاكبر الامير عبد الله الذي تلقبه المصادر الاوروبية بامير سلا اوسيد سلا «Prince de Salé»[81]. ولكن الحاكم الجديد لم يكن يستقر بالقصبة بصفة مستمرة لانه كان يخشى من ان يكون جنوده البرابرة مصدر قلق بالمنطقة، وعندما كان يتغيب عن القصبة كان يعوضه في تسيير الامور خليفته سعيد الجنوي الذي جعله امين سره[82].

وهكذا تمكن الدلائيون — باستقرارهم بالعدوتين — من التوفر على ميناء مهم على المحيط الاطلسي ضمن لهم موارد مالية هامة مكنتهم من تعزيز نفوذهم بالمنطقة سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي، فقد اغتنوا عن طريق الاعشار التي فرضوها على البضائع المصدرة الى اوروبا او المستوردة منها وكذا من خلال اعمال الجهاد البحري[83] مما مكنهم من أن يعفوا اهل العدوتين من الاتاوات والمغارم، بالاضافة الى أنهم كانوا يشركون معهم اعيان العدوتين في العمل التجاري الضخم مع شمال افريقيا[84].

وخلال 16 سنة (من سنة 1644 الى غاية 1660) عرفت الرباط والقصبة تحت سلطتهم هدوءا لم تعرفه المنطقة منذ وقت بعيد. ولم يعكر صفو هذا الهدوء الا اضطراب بضعة اشهر من سنة 1650 عندما حاول محمد بن مولاي الشريف الحسني طرد الدلائيين من مدينة فاس[85]، إذ وصل صدى ما حققه اندلسيو مدينة فاس في شخص عبد الكريم الليريني الاندلسي رئيس عدوة الاندلس[86] من انتصار الى مدينة الرباط، واعلنوا هم ايضا انضمامهم اليه. لكن انتصار الدلائيين في فاس وهلاك عبد الكريم الليريني انهى هذا الطموح الاندلسي بالرباط، فمنذ اواخر سنة 1650 (او بداية 1651) قضى على التمرد الذي شهدته الرباط، خاصة ان السكان لم يشاركوا فيه، بل ذهبوا الى حد ضربهم بالمدفعية لسفن المتمردين[87].

---

(80) S.I.H.M.1ère série P – B, 5 587 – 591.

(81) S.I.H.M.1ère série. P – B, 5 25.

(82) S.I.H.M.1ère série. P – B, 5 375.

(83) م. حجي، المصدر السابق، ص 178.

(84) نفس المصدر والصفحة.

(85) استولى محمد الحاج على مدينة فاس عام (1051هـ /1641) عقب مقتل المجاهد العياشي، وولى عليها القائد ابا بكر التاملي الذي دخل في نزاع مسلح مع رئيس العدوتين، فاستنجد اهل فاس بمحمد بن الشريف الحسني صاحب سجلماسة الذي لبى دعوتهم وقبض على القائد التاملي وزج به في السجن.
انظر في هذا الصدد
م. الافراني، نزهة 383، م. القادري، التقاط 128
م. حجي، الزاوية الدلائية، 209.
J. Caillé, op. cit, p. 222

(86) توارث آل الليريني الاندلسيون رئاسة عدوة الاندلس بفاس، وعبد الكريم هذا هو اول من ولاه واقره الدلائيون في منصبه.

(87) S.I.H.M.1ère série. P – B, 5 : 246.

وهكذا كانت المنطقة في بداية سنة 1651 خاضعة خضوعا كليا للامير عبد الله، اذ ابرم اتفاقية في 9 فبراير مع الاراضي المنخفضة، صودق عليها في 3 أكتوبر، وهي تسمي الامير عبد الله سيد سلا[88]، وظلت الامور عادية الى غاية سنة 1660، اذ اعلنت الثورة العارمة ضد الدلائيين في سلا والرباط[89].

أسباب الثورة :

— كان الاندلسيون يرون انه من الاهانة ان يحكموا من طرف «برابرة ملوية»، وفي حين ان اصلهم العربي العريق يخول لهم ان يكونوا سادة المنطقة، اذ كانوا يشعرون دائما بالفارق الحضاري بينهم وبين الدلائيين[90]، والجدير بالذكر ان هذه النفرة ليست وليدة فترتنا هذه، بل هي وليدة الفترات السابقة كما رأينا ذلك في المدخل التاريخي لهذه الدراسة. لهذا فلا غرابة ان يصرح الخضر غيلان الاندلسي[91] في 10 فبراير من سنة 1660 للامير عبد الله الدلائي انه «يقسم ان يموت عوض ان يقع تحت سيطرة البرابرة[92].

— لا ننسى ان الامير الدلائي حاصرهم في القصبة وطردهم منها، وانتزع منهم السلطة الحقيقية، ولم يترك لديوانهم الا مسائل ثانوية تافهة.

(88) **S.I.H.M.** 1ère série. P — B. 5 26.

(89) لم تتحدث المصادر العربية عن هذه الثورة التي قامت في العدوتين الا عرضا وباشارات خاطفة، ولم نتعرف على بعض التفاصيل الا بواسطة المراسلات التي وجهها قناصل الدول الاجنبية المقيمون في سلا آنذاك الى حكوماتهم ولا سيما القنصل الهولندي «دوفريس» الذي عاش تلك الاحداث، وعبر نهر ابي رقراق تحت وابل الطلقات النارية للثوار.
انظر نص الرسالتين التي بعث بهما دوفريس الى الولايات العامة حول ثورة العدوتين في
S.I.H.M. 1ère série P — B. 6 616.

(90) S.I.H.M. 1ère série. P — B. 5 26.

(91) اكد نسبته الاندلسية محمد المهدي الفاسي في **ممتع الاسماع** (ص 144)، اذ يذكر في هذا الصدد في ترجمة اول افراد العائلة التي استقر في قبيلة بني جرفط بعد سقوط غرناطة : «ابو حفص عمر بن ابراهيم غيلان الاندلسي ثم الجرفطي، توفي سنة سبع وعشرين والف». وأكد هذه النسبة ايضا م. القادري في **نشر المثاني**، **1 225**، **والتقاط الدرر**، ص **73**.
كما اكدها كذلك مويت Mouette في كتابه
Relation de la captivité du Sieur Mouette dans les royaumes de Fez et de Maroc, pp. 92 — 93.
وقد مارس افراد هذه العائلة الجهاد كشأن الجاليات الاندلسية المهاجرة في ذلك الوقت. انظر
A. Peretié, Le Raïs El khadir Ghailan, in**Arch.m.**Vol. XVIII, 1912, p. 12.
ويرى ميشو بلير Michaux-Bellaire حول تفسير لفظ الجرفطي المصاحب للفظ الاندلسي ان بعض افراد القبيلة ربما قد خرجوا مع الادارسة اثر خروجهم من فاس الى الاندلس واستقروا هناك الى ان سقطت غرناطة فرجعوا للاستقرار بمواطنهم الاول وهذا هو السر في إعطاء أول افراد هذه الاسرة لفظ الجرفطي بالاضافة الى نسبه الاندلسي.
انظر
Quelques Tribus de Montagne de la région du Habt. Les Beni Gorfet in**Arch. m.**t. XVII, p. 514.

(92) **S.I.H.M.** 1ère série. P — B, 5 : 26.

ـــ نفور اعراب الغرب من الدلائيين اذ كان حب العياشي متمكنا في نفوس مساعديه وانصاره، فلم يستسلم قط ابنه عبد الله العياشي، وظل يناصب الدلائيين العداء. ويناوشهم في كل مناسبة[93].

ـــ استطاع الخضر غيلان تحقيق كثير من الانتصارات ضد الاسبان والبرتغال بل الانجليز[94]. وفي نفس الوقت كان عدوا صريحا للدلائيين، مما جعل الاندلسيين يطمحون الى مساعدته للتخلص منهم، خاصة ان عقلية اندلسيي الرباط والقصبة في الاستقلال تتفق تماما مع عقلية غيلان التي تطمح الى نفس الهدف. فقد كون جهاز حكومته على اساس انه امير، اذ كان له مقر امارته، كما كانت له مداخيله[95] وجيشه النظامي[96]، بالاضافة الى قبائل الاعراب، لكنه لم يكن يثق فيهم مخافة تمردهم، ولم يكن يستخدمهم الا في حالة جهاده ضد المسيحيين.[97] وعلى العكس من ذلك فقد كان الاندلسيون يحظون بثقته، مثل عبد القادر صيرون امين سره وكاتبه، وصرح علانية بانه محل ثقته[98]، وكان يوكل اليه عقد الاتفاقيات مع الاجانب (لمعرفته اللغة القشتالية وعادات وتقاليد الاوروبيين)[99].

وكانت له سياسته الخاصة اذ كان يتعاون مع الانجليز لضرب الاسبان، وعندما آلت طنجة الى الانجليز هاجمها ايضا ـــ رغم الاتفاقيات المعقودة بينهما ـــ، اذ حاصرها حصارا عنيفا سنة 1662 ومنع الانجليز من الخروج من اسوار المدينة، وقد كان هؤلاء يدركون خطورة عمل الخضر غيلان لذا قاموا بوضع اسطول اخر مستقل عن حاكم طنجة لمنع الاسطول التركي من الملاحة في المضيق مخافة تقديم المساعدة للمجاهد الاندلسي[100]. وكان الاسبان في هذه المرحلة يقدمون المساعدة لغيلان ضد الانجليز بطنجة لانهم كانوا يعتبرونها برتغالية[101]، لكن هذه المساعدة لم تدم طويلا بعد مهاجمته للعرائش، اذ واجهه الاسبان بعنف سنة 1664 وهزم، فاتجه الى عقد اتفاقية مع الانجليز ومهادنتهم في ابريل سنة 1666، ومساعدة غيلان برا وبحرا ضد الاسبان[102].

---

(93) انظر عن هذه النقطة ع. اللطيف الشاذلي، المصدر السابق، مواضع متفرقة.

(94) عن عمليات الخضر غيلان الجهادية انظر
A. Peretié, op. cit. PP. 27-57

(95) فرض على المغاربة 2% من قيمة السلع عند الدخول الى المدن، و 10% على الاجانب.

(96) كان يتكون من 2700 فارس و 220 من حملة البنادق.

(97) A. Peretié. op. cit. P. 25.

(98) A. Peretié, op. cit. P. 38.

(99) Ibid, P. 34.

(100) Ibid, p. 49.

(101) Ibid, P. 54.

(102) Ibid, P. 57.

ملاحظة

يرى م. حجي ان غرض الانجليز من هذه الاتفاقية كان الاستيلاء على القصبة التي كانت قد دخلت فعلا تحت نفوذه.

الزاوية الدلائية، ص 219.

على الكل فقد كان الاندلسيون ينظرون الى هذه التطورات في الشمال نظرة خاصة، اذ لاحظوا كيف استطاع احد الاندلسيين ان يعمل باستقلال تام عن السلطة، وان يدخل في علاقات دولية لتحقيق اهدافه.

حاصر الاندلسيون، اذن، الامير عبد الله في القصبة بينما اخرج السلاويون مدافع العياشي الضخمة ونصبوها على ضفة النهر، وبدأوا يقصفون القصبة، ولم تتمكن مدافع الاندلسيين من اصابة حامية الحصن لانخفاض ارضهم فكوموا التراب الى ان جعلوه عاليا كالابراج، وبدأوا يصلون القصبة بنيران مدفعيتهم، وكان مع الامير الدلائي داخل الحصن الفان من جنود البربر، ردوا بالمثل على هذا الهجوم المفاجيء وصوبوا مدافعهم شمال النهر وجنوبه وقاوموا في نفس الوقت السلاويين والرباطيين، ولم تتضرر مدينة سلا لبعدها عن مرمى مدافع القصبة، بينما هلك كثير من الرباطيين بالقنابل التي كانت تقذف بها مدافع الدلائيين وسط الشوارع والساحات[103]. وبلغت اخبار الانقلاب الى محمد الحاج الدلائي فجيش الجيوش وقصد سلا على رأس جيش جرار من البربر قوامه 80.000 رجل وتقدم به الى ان وصل الى مولاي بوسلهام في بلاد الغرب وهناك على صفة وادي بوحريرة احد روافد المرجة الزرقاء، وجد الخضر غيلان يتنظره، وقد اعصوصبت عليه قبائل الغرب من انصار المجاهد العياشي القدماء، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة، لم تغن فيها وفرة جموع الدلائيين عنهم شيئا، فولوا الادبار، وقد مرت فلولهم المهزومة ببلاد الغرب وتامسنا تحمل الى الناس البرهان الواضح على الانتكاسة الخطيرة التي اصابت امارة الدلاء[104].

وقد بقي ابنه عبد الله محاصرا بالقصبة ثمانية عشر شهرا، وتذكر بعض الروايات الاوروبية ان الامير لما طال عليه الحصار في القصبة وتيقن ان اباه لن ينجده، لجأ الى الاوروبيين لامداده بالذخيرة لفك الحصار

— فتذكر رواية اولى ان الامير الدلائي طلب المعونة من حاكم سبتة الاسباني المركيز ديلوص اركوص Los Arcos واقترح عليه ان يسلم القصبة الى فليب الرابع، مقابل ان يحمل فقط الى الجهة التي يريد النزول فيها من شواطيء المغرب، لكن اسبانيا التي كانت مرتبطة بحلف صداقة مع الخضر غيلان، اخبرته بهذا الاقتراح، فاشار عليها برفضه لما كان يعلم من حرج موقف خصمه[105].

— هناك رواية اخرى تقول ان عبد الله الدلائي ارسل الى حاكم طنجة الانجليزي الكويت ديطيفيو Conte de Teviot يطلب منه الزاد والمعونة، وفعلا فقد بعث له بالذخيرة والطعام مما مكنه من تحمل الحصار لمدة طويلة، ثم جاء اسطول انجليزي اخر الى القصبة فاقترح الدلائي على قائد هذا الاسطول ان يسلم اليه القصبة مقابل الف قنطار من مسحوق البارود والف بندقية[106].

(103) م. حجي، المصدر السابق، ص 224.

(104) S.I.H.M. 1ère série, P — B. 5 27, J. Caillé, op. cit. p. 223.

م. حجي، المصدر السابق، ص 217—218.

(105) S.I.H.M. 1ère série. P — B, 5 27

م. حجي، المصدر السابق، ص 225.

(106) Rabat et sa région, 1 : 84.

— رواية ثالثة تقول بوجود تعليمات سرية وردت على حاكم طنجة في 21 دجنبر 1663 طلبت منه ان يمتلك القصبة حالة ما اذا طلب منه ذلك الدلائي مقابل شروط معقولة، وان يضاعف المجهود حتى لا يقع هذا الحصن في يد الخضر غيلان(107).

ويعتمد الباحثون الاوربيون الروايتين السالفتين (الاولى والثانية) فيذكرون انه التجأ بالفعل الى الاسبان والانجليز، بل البرتغال. غير ان هناك رأيا اخر يرى عكس ذلك، اذ يذكر في هذا الصدد «... يبدو ان كلتا الروايتين لا اساس لهما من الصحة، اما الاولى التي تقول بمد الامير عبد الله الدلائي يده الى الاسبانيين فان ذلك مناف للعداوة الصريحة القائمة بين الطرفين باستمرار وما زلنا نذكر جهاد هذا الامير ضد الاسبانيين في المعمورة، ومحالفته للدول الاوروبية المعادية لاسبانيا، كهولندا، وانجليزا، وفرنسا، ولم يثبت انه هادن الاسبانيين او عاملهم بالتجارة او غيرها، فكيف يتصور ان يلجأ الامير الدلائي الى عدوه اللدود في احرج الظروف يرجو منه العون والنصرة ؟! وفيما يتعلق بالمساعدة الانجليزية يبدو من المعقول جدا ان يتوجه الامير الدلائي الى هذه الدولة التي تربطه بها معاهدة 19 غشت 1657 ولا سيما وقد كانت طنجة اقرب المراكز التي يمكن ان يستنجد بها. لكن مسألة تسليم القصبة الى الانجليز مقابل كمية من الذخيرة الحربية تنقصها الحجة والبرهان...»(108).

وعلى كل، وان كانت الدراسات الاوروبية تبرر صمود الدلائي بالمساعدة التي كانت يتلقاها من البرتغال او الاسبان او الانجليز(109) فان هناك عوامل اخرى لا يجب اغفالها

اولا اغتيال قائد الحصار عبد القادر صيرون والقصبة على حافة السقوط، مما انقذها لفترة معينة.

ثانيا كان سكان المناطق المجاورة يجدون دائما الوسائل الكفيلة بايصال التموين الى المحاصرين.

ثالثا كان التموين يأتي كذلك عن طريق خمس سفن للمجاهدين بالجزائر(110).

وتمكن في الاخير الامير الدلائي من الخروج من القصبة في شهر يونيو سنة 1661 الى تامسنا على ظهر سفينة انجليزية بعد ان اسند القيادة الى أحمد الجنوي الذي تابع مقاومة الحصار الى غاية سنة 1664 عندما مل غيلان هذا الحصار الطويل وارسل اخاه الطاهر في ثلاثمائة فارس ليوقع اتفاقا مع رؤساء مدن ابي رقراق الثلاث كي يقتسموا بالسوية جميع المداخيل، وفي 3 ماي من سنة 1664 قطعت القصبة كل علاقة مع الزاوية الدلائية ودخلت في حماية غيلان، ودخل كسيد(111)، واطلقت المدافع ثلاث مرات كعلامة فرح بدخول غيلان(112). وفي نهاية مارس من سنة 1665 بعث غيلان

---

(107) A. Peretié, op. cit. P. 29.

(108) م. حجي، المصدر السابق، ص 225.

(109) J. Caillé, op. cit. PP. 222 — 223.

(110) S.I.H.M.2ème série France, 1 24.

(111) S.I.H.M.1ère série. P — B, 5 28.

(112) J. Caillé, op. cit. P. 223.

بأخ له الى القصبة، واتخذ عدة اجراءات لتقوية سلطة اخيه، فطرد جنود سوس القدماء الذين استقروا بالقصبة منذ سنة 1638، وكذا احمد الجنوي[113].

وقد انتخب الهورناتشيون والاندلسيون الاخرون عبد القادر مرينو قائدا عاما للقصبة والرباط، وانتخب الحاج محمد فنيش قائدا لسلا، ولكن الهدوء لم يدم كثيرا، اذ انه في شهر غشت من سنة 1665 عوض القائدان السابقان بعبد القادر روكسو Roxo واحد ابناء عبد القادر صيرون السابق الذكر، وذلك لاخلاصهما لغيلان. ولكن في يونيو من سنة 1666 هزم هذا الاخير من طرف مولاي الرشيد[114]، الذي اصبح لتوه سيد القصبة «بدون اطلاق النار»، وفي نفس الوقت انضمت اليه الرباط وسلا، فهرب عملاء غيلان (القائدان السابقان) واعيد الى منصبيهما عبد القادر مرينو والحاج محمد فنيش[115].

وهكذا ارجعت سلطة مولاي رشيد الهدوء الى المنطقة، والغيت المنافسة التي كانت بين المدن الثلاث لفترات طويلة[116].

---

(113) S.I.H.M.1ère série. P — B, 5 28.

(114) لم يكن مولاي الرشيد ينظر بعين الرضى الى تصرفات غيلان، اذ هاجمه ب 40 000 جندي، وتوجه بهم الى القصر الكبير حيث ضرب «حليف الانجليز» وانتصر عليه بفضل تخلي عدد من انصاره عنه.
انظر تفاصيل الصراع الذي دار بين مولاي الرشيد وغيلان من جهة، وكذا الصراع الذي دار بين هذا الاخير والسلطان مولاي اسماعيل، عند :
A. Peretié, op. cit. PP. 58 — 63.

(115) G. Mouette,**Relation**...P. 76.

(116) S.I.H.M.1ère série. P — B, 5 : 28.

2

الجهاد البحري ومراحله

نقصد به العمليات البحرية التي كان يقوم بها المجاهدون السلاويون (اندلسيون ومغاربة) ضد السفن الاوروبية والاسبانية بالخصوص، فالاندلسيون كانوا يطمحون الى الانتقام من الاسبان الذين اخرجوهم من ديارهم ونكلوا بهم، والمغاربة كان يقصدون بذلك الدفاع عن بلدهم، وبذلك يختلف هذا المفهوم كلية عن المفهوم الاوربي المتداول (قراصنة سلا) الذي يدخل هذه العمليات في اطار اعمال اللصوصية البحرية. ويرجع تاريخ البحرية في مصب ابي رقراق الى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ايام الملك الموحدي عبد المومن صاحب الاسطول الحربي المشهور ومؤسس دار الصناعة البحرية بضاحية مدينة سلا، وقد تقوت اكثر في عهد المرينيين كما كانت المنطقة محل اهتمام من طرف السعديين، وحين استقرار الاندلسيين بها في بداية القرن السابع عشر اكتسب الجهاد البحري صبغة خاصة، اذ اصبح اهم مظهر للوجود الاندلسي بالمغرب، فمن خلاله استطاع الاندلسيون ان يكونوا لهم بنية اقتصادية قوية مكنتهم من فرض انفسهم ككيان سياسي له وزنه بالمنطقة. وسنحاول من خلال هذه الفقرة ان نستعرض مراحل هذا الجهاد البحري وكذا تنظيمه.

يمكن التمييز بين ثلاث مراحل أساسية

ــ المرحلة الاولى من 1610 الى 1626 وهي مرحلة التنظيم، اذ عرف الجهاد البحري فيها ازديادا مطردا، وكان يمارس ــ نوعا ما ــ تحت اشراف السلطة السعدية.

ــ المرحلة الثانية من 1627 الى 1641 وهي مرحلة الاستقلال التام عن السلطة المركزية، اذ شكل فيها الاندلسيون ديوانهم، الذي اصبح يمارس اختصاصاته باستقلالية تامة، وقد امتد نفوذهم في هذه المرحلة الى مسافات بعيدة ادت بهم الى الاصطدام مباشرة مع الاوربيين.

ــ المرحلة الثالثة من 1641 إلى 1668

وهي المرحلة التي أصبح الجهاد البحري فيها يمارس تحت إشراف الدلائيين

* * * *

* المرحلة الأولى (1610 ــ 1626)

انطلاقا من 18 أبريل سنة 1610 كتب فوكلا Vaucelas إلى هنري الرابع عن «عمليات الجهاد البحري التي كان يقوم بها المورسكيون» رغم أن الأمر في الحقيقة لم يكن يتعلق إلا بأحداث منعزلة، إذ أن عمليات الجهاد البحري الرئيسية والمنظمة لم تبتدىء إلا في سنة 1617 فقد كتب القبطان الهولندي أبي ولمسز Abbe Willemsz إلى روتر دام يقول «منذ سنة لم يكن المورسكيون يملكون سفنا والآن أصبح عددها أربع، وسيصبحون أقوياء إذا لم تتخذ الاجراءات الضرورية ضدهم، وهم لا

يخضعون لسلطة ملك المغرب ويستحوذون على كل ما يغنمونه»[117] وقد أكد الخبر بالمذكرة المؤرخة ب 26 نونبر 1626 والموجهة من رازيلي إلى رشليو Richelieu حيث يقول «أن مجاهدي سلا وتطوان بدأوا يستخدمون سفنهم منذ 8 سنوات، وأسروا حوالي 6 آلاف أوروبي، واستحوذوا على حوالي 15 مليون ليبرة... روغم أنهم لم يبتدأوا عملياتهم إلا بسفينة واحدة من نوع Tartanne فإنهم يملكون اليوم أكثر من 60 سفينة»[118] ومنذ السنوات الأولى لطردهم، اتجه الأندلسيون إلى العمل المسلح المباشر على الشواطىء الاسبانية[119]، كما أنهم انطلقوا إلى العمل في المحيط الأطلسي ولكن بشكل محدود، إذ لم يكونوا يجرأون عن الابتعاد عن قواعدهم البحرية، غير أنهم في سنة 1622 بدأوا يصاحبون مجاهدي الجزائر في مغامراتهم في بحر المانش، واشتدت في السنوات التالية هجمات الأندلسيين على الشواطىء الأنجليزية، بل وهاجموا صيادي (الأرض الجديدة) Terre Neuve[120].

ويوجد بالأرشيف الأنجليزي عدة وثائق تتعلق بهذا الموضوع، ففي رسالة كتبها طوماس سلي Thomas Cely عمدة بليموث Plymouth إلى مجلس اللوردات بتاريخ أواخر أبريل من سنة 1625 يقول «إن من واجبي أن أذكركم أنني سمعت في هذا اليوم بأن مجاهدي سلا قد أغاروا على ساحلنا (الساحل الأنجليزي)، فنهبوا عدة أشياء، مما استطاعوا التغلب عليه... وأحيطكم علما أن رجلا يدعى بتريك هونيكود، وهو أحد الأنجليز بسلا، بعث أخيرا برسالة إلى زوجته، مؤرخة بخامس مارس الفارط، يخطرها فيها، ضمن أشياء أخرى، بأن هناك ثلاثين بحارا في سفنهم بسلا، يستعدون للاتيان إلى سواحل إنجلترا، أوائل الصيف، فإن لم يكن هناك أخذ بالحيطة لمنع ذلك، فإنهم سيحدثون هناك أعظم الأضرار...»[121].

وفي تقرير آخر لرجل يدعى وليم كرت William Count بعثه من بلموث بتاريخ 17 ماي سنة 1625 يقول «يذكر أنه سافر من مرفأ بليموت على متن سفينة هولندية في رحلة تجارية إلى البرتغال، وخلال 6 أيام من أبحارهم من بليموث دهموا بمجاهدي سلا فأخذ هو وأربعة إنجليز آخرين، ومن كان

---

(117) S.I.H.M. 1ère série. P – B, 3 65.

(118) S.I.H.M. 1ère série. France, 3 115.

(119) كتب احد الاسبان يقول هو بصدد تتبع اعمال احد المورسكيين بالمغرب «بمجرد وصولي الى المغرب اعلن هذا المورسكي صراحة عن اسلامه والتجأ الى المجاهدين البحريين، وصار يقوم معه لعدة سنوات بالسلب والنهب على الشواطىء الاسبانية، محصلا بذلك على مغانم مهمة الى ان امتلك سفينة خاصة. وظل كذلك الى ان اصبحت له 13 سفينة يهاجم بها السواحل الاسبانية سالبا وناهبا الرجال والنساء والاطفال وبهذا كان ينتقم للاهانة التي تعرض لها باسبانيا كما يقول... وكان يحمل معه في سفينته ملابس مختلفة وكان هو نفسه يتخذ لباسه على الطريقة الاسبانية. وكان يصحب معه عادة في سفينته 24 رجلا كلهم مورسكيون وكلهم يجيدون اللغة الاسبانية، وكلهم مسلمون».

Dela Verdadera Relation...in Ignacio Bauer landauer, **Relation y Manuscritos** p. 239.

وقد ارتفعت نسبة الاسرى الاسبان في ايدي المورسكيين من 3% خلال سنة 1609 الى 40% خلال العشرين سنة التي تلت هذا التاريخ.

(120) R. Coindreau, **Les corsaires de Salé**. p. 178.

(121) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2/558 – 559.

معهم من الهولنديين، لكنهم اكتفوا في الأخير بأخذه وباقي الأنجليز الذين كانوا معه إلى سلا. وبعد 8 أسابيع خرج مع مجاهدي سلا في إحدى سفنهم صحبة خمس سفن أخرى، متجهة إلى سواحل إنجلترا، وتمكنت من أسر سفينة من لندن وأخذت معها رجالها الأحد عشر، ومدافعهم، واغرقت السفينة المذكورة، وبعد ستة أيام من ذلك اسروا سفينة فرنسية، وسفينة صغيرة من سلي Sylly وستين رجلا كانوا في تلك السفن المذكورة فأخذ المجاهدون هؤلاء الرجال جميعا إلى سفنهم وسلسلوهم، وتركوا المراكب تطفو مع التيار.

وبعد ذلك بـ 12 يوما أسروا سفينة من بليموت كانت قاصدة إلى نيو فوندلند (الأرض الجديدة) في رحلة صيدية، فأخذوا رئيسها وسبعة عشر آخرين من رجالها المتازين...(122).

المرحلة الثانية (1626 — 1641)

انطلاقا من سنة 1627 استطاع مراد العلج القائد البحري الشهير(123) ان يقوم بعمليات واسعة النطاق، اذ استطاع ان يصل الى اسلندا وينهب Reykjawick، وانطلق في سنة 1631 في مغامرات جريئة على سواحل ارلندا. وهكذا استولى المجاهدون فيما بين سني 1620 — و 1630 على اكثر من 100 وسفينة مسيحية، وامام تزايد عمليات الجهاد البحري حاول الاوربيون ان يقوموا بعمليات انتقامية ضد المجاهدين، ففي 27 يونيو من سنة 1627 من مدينة La Pallice اول قوة بحرية من اوروبا ضد مجاهدي سلا (لاجل ارجاع هؤلاء الى طريق الصواب). وكانت تحت قيادة اسحاق رازيلي، ووصلت الى سلا في 20 يوليوز لكن مهمتها لم تكن هجومية، بل كانت مهمها تخليص الاسرى الفرنسيين فقط وعقد هدنة مع الطرف الاخر(124). وقد رفض الديوان اول الامر طلب الفرنسيين فقام هؤلاء بهجوم على الميناء تمكنوا خلاله من احراق 6 سفن للاندلسيين مما اضطر معه الديوان الى عقد هدنة مع الفرنسيين مدة 5 اشهر في 2 اكتوبر سنة 1629. لكن قائد الاسطول الفرنسي اضطر للرجوع قبل ان يخلص الفرنسيين، مما جعله يرجع في العام الموالي الى سلا وياسر ثلاث سفن للاندلسيين ويمنع 17 سفينة للمجاهدين من الخروج، وبعد ذلك اضطر الديوان الى فتح مفاوضات جديدة مع الفرنسيين تمكن خلالها هؤلاء الاخيرين من تحرير 200 اسير فرنسي. وفي 3 شتنبر من سنة 1630 عقدت اتفاقية بين الطرفين بمقتضاها يسمح للسفن الفرنسية ان تتاجر مع موانئ المجاهدين بكل امان(125). وبعد هذه الاتفاقية عقد الوليد بدوره هدنة في 17 شتنبر من سنة 1631 مع لويس الثالث عشر، لكن بخطأ من اليهودي الهولندي دافيد بالاش David Pallache (الوسيط بين الطرفين) الذي لم يخبر السلطان بمصادقة ملك فرنسا على الهدنة، اعطيت الاوامر باستيناف الجهاد البحري(126).

---

(122) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 562-563.

(123) J. Caillé, op. cit. PP. 224-225.

(124) R. Coindreau, op. cit. P. 179.

(125) Ibid. P. 180.

(126) Loc. Cit.

وقد تناقصت عمليات الجهاد البحري في سنة 1632 بفعل هجمات العياشي ضد القصبة، لكن الاندلسيين استأنفوا نشاطهم في سنة 1633 بعد ان ضمنوا تأييد السلطان لهم، وبدأوا من جديد في اكتساح البحر، ومع ذلك فان فرنسا استمرت في العمل بمعاهدة 1631 ايمانا منها بمواصلة المفاوضات. وفعلا فقد امر الوليد في ابريل من سنة 1634 بتوقيف الجهاد البحري، الا ان هذا لم يرض الديوان الذي لم يكن في الواقع «يخضع لامر السلطان الا اذا كان يجني مصلحة من وراء ذلك»(127) وبعد مفاوضات طويلة بين الوليد ولويس الثالث عشر عقدت اتفاقية سلام في 18 يوليوز من سنة 1635، وقد كتب الوليد بعد هذه الاتفاقية مباشرة الى قواد الثغور في 19 يوليوز من نفس السنة يقول «... وان ما عسى ان يقع بمشيئة الله وقدره وسابق علمه ونفوذ امره من بعض خدام الجانبين مما يفسد الشروط ويناڧي عقد الصلح المشروط فان فاعل ذلك يعاقب عقوبة يشيع في اقطار الارض خبرها، ويذيع في أكنافها أمرها. وأن يسترد خدامنا ووكلاؤنا الذين بسواحل البحر ما بأيديهم من أسارى قرانصة اقتداء بفعل مقامنا العلي، وسلوكاً لأثر صنعنا الجميل السني..»(128)، ولكن الأندلسيين المعتزين باستقلاليتهم لم يرقهم الاتفاق، ففضلوا التفاوض مباشرة مع الفرنسيين مع مواصلة عمليات الجهاد البحري، ففي الوقت الذي كان فيه المبعوث الفرنسي دي شلار du Chalard يتفاوض مع الأندلسيين حول ثمن افتداء الاسرى الفرنسيين، كانت هناك 22 سفينة أندلسية قد خرجت من سلا تجاه السواحل الاسبانية، وأخرى تجاه جزر الكناري، كما وصلت إلى سلا في نفس الوقت خمس سفن تجارية مأسورة محملة بالقمح والسكر، ولم يعط الأندلسيين موافقتهم ــ النظرية ــ على الاتفاقية السالفة الذكر الا في فاتح شتنبر من سنة 1635(129).

وازاء شكوك الفرنسيين حول تطبيق الاندلسيين للمعاهدة المذكورة فقد اعطيت الاوامر لقائد البحرية الفرنسية للتوجه الى سلا لارغامهم على الخضوع للمعاهدة المعقودة بين الوليد ولويس الثالث عشر والا فإن الحرب ستعلن ضد المدينة المذكورة، لكن العملية ظلت بدون نتائج تذكر(130). وهكذا فقد عرفت هذه السنة والسنة التي تليها (1636) ازهى ايام الجهاد البحري، اذ تعددت عمليات الجهاد البحري ضد انجلترا بالخصوص، فقد ذكر عمدة بليموث انه في يوم واحد من سنة 1636 تمكن المجاهدون من اسر 300 انجليزي اخذوا الى سلا، كما لوحظ في نفس الوقت ان هناك 3 الاف بحار انجليزي في «مطامير مغربية»(131).

ولم تبق انجلترا مكتوفة الايدي امام هذه الوضعية، فقررت ان تبعث بالامير الى وليام رينسبوروغ W. Rainsborough في 27 فبراير من سنة 1647 لتحرير الاسرى الانجليز، واعطيت له الاوامر باغراق

---

(127) Charles Penz, **les captifs Français du Maroc au XVIIe siècle**, P. 46.

(128) **S.I.H.M.** 1ère série. France, 3 495.

(129) R. Coindreau, op. cit. P. 181.

(130) Ibid, P. 182.

(131) Loc. cit.

جميع سفن الاندلسيين التي يصادفها بالبحر. وقد وصل القائد الانجليزي الى سلا في 3 ابريل على رأس اسطول مكون من 40 سفينة، لكنه وجد المنطقة في حروب اهلية، فقد طرد الاندلسيون الهورناتشيين من القصبة وهاجموا سلا التي كان يدافع عنها العياشي. وقد حاصر الاسطول الانجليزي مصب النهر، وقدم مساعدته للعياشي. وفي 13 ماي عقد القائد الانجليزي اتفاقية باسم شارل الاول مع العياشي، تنص على تخليص جميع الاسرى الانجليز، ورفع الحصار، واضطر الاندلسيون ازاء الاضطرابات الداخلية، وازاء الحصار، الى تخليص الاسرى الانجليز، وقد توقفت نتيجة لذلك، عمليات الجهاد البحري لمدة سنتين. لكن مع ذلك فان نتائج العشر سنوات الاخيرة لم تذهب سدى اذ استطاع الديوان ان يتجمع لديه حوالي 27 مليون دوكا[132].

— المرحلة الثالثة (1641 — 1668) استمر المجاهدون في هذه المرحلة في عملياتهم الجهادية ضد السفن الأوروبية، بحيث أصبحوا يشكلون خطراً حقيقياً عليها، ومع ذلك فإن رد الفعل الأوربي ظل ضعيفاً إذ فضلت الدول الأوروبية التفاوض على أمل أن تتجنب أكبر قدر ممكن من الخسائر، ففي سنة 1649 حاولت هولندا في شخص قائد أسطولها جوريس فان كا Horis Van Cats تخريب أسطول المجاهدين، لكنها لم تحقق إلا نتائج جزئية[133]، وفي السنة الموالية بعثت بأسطول آخر لمحاصرة سلا، وانتهى الحصار بعقد معاهدة في فبراير من سنة 1651[134].

ولكن كانت هذه الاتفاقية هشة، إذ سمح الأندلسيون لمجاهدي تونس والجزائر وطرابلس ببيع الغنائم الهولندية بسلا خلافا للبند الرابع من المعاهدة، بل اسرت سفن تحمل العلم الهولندي من طرف مجاهدي سلا، وهكذا أعطيت الأوامر من جديد لقطع الأسطول الهولندي بالتوجه إلى سلا، وكان رد فعل المجاهدين احتجاز القنصل الهولندي دفريس Devries وكذا احتجاز البحارة الهولنديين بسلا[135]، فما كان من الولايات العامة إلا أن أصدرت أوامرها إلى قائد الأسطول الهولندي بالتفاوض مع مجاهدي سلا[136]، وظلت بريطانيا منذ حملة رينسبو روغ تمتنع عن التدخل ضد سلا، اذ كانت لها معها علاقات تجارية مهمة، لكن المجاهدين السلاويين ظلوا يمارسون أعمالهم الجهادية ضد السفن الأنجليزية،

---

(132) R. Coindreau, op. cit. p. 183.

(133) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 5 171.

(134) تشتمل هذه المعاهدة على سبعة فصول، مجملها ان يطلق سراح الاسرى الهولنديين مقابل اداء ثمن الشراء لمالكيهم في ظرف ثلاثة اشهر والا تتسلح اية سفينة سلاوية في البحر ما لم تقدم ضامنا يتكفل بتعويض الخسائر التي تلحقها برعايا البلاد الواطئة وانه سيخلى سبيل الهولنديين الذين قد يوجدون على ظهر سفن محايدة والا يسمح لمجاهدي الجزائر وتونس وطرابلس ان يبيعوا في سلاما يستولون عليه من اسرى الهولنديين وبضائعهم، والا يزاد في واجبات الجمرك الحالية. وان يحمى السلاويون التجار من رعايا البلاد الواطئة والا يسمحوا للاتراك وغيرهم بحمل رسائل امتياز في سلا، وفي مقابل ذلك لن يعترض الاسطول الهولندي طريق السفن السلاوية، كما ان السلاويين لن يأسروا الاجانب الراكبين على ظهر السفن الهولندية.

(135) R-Coindreau, op. cit. P. 185.

(136) Loc. cit.

إذ تزايد عدد البحارة المأسورين. غير أن القنصل الأنجليزي كان يراسل حكومته باستمرار في شأن إرسال أسطول لتخليص أسراه، وفعلا أعطيت الأوامر لروبير بليك Blake في غشت من سنة 1656 للتوجه إلى سلا، وذلك لتخليص الأسرى، وعقد اتفاقية مع مجاهدي سلا، على غرار الاتفاقية المعقودة مع مجاهدي الجزائر وتونس، بعد انتصار الأسطول الأنجليزي على الأسطول التونسي. وهكذا ظهر الأميرال الأنجليزي أمام سلا في 14 غشت بمعظم أسطوله، وامتد الحصار 15 يوما، ولم يعقد السلاويون اتفاقية الهدنة إلا في يوليوز من سنة 1657[137].

وأثناء هذه الأحداث رجع رويتر Ruyter إلى سلا في 16 أبريل من سنة 1657 على رأس أسطول مكون من خمس قطع حربية، وعقدت اتفاقية بين مجاهدي سلا وهولندا في 22 مارس. لكن الأمر لم يدم طويلا، ففي 6 أكتوبر من سنة 1658 هاجم أسطول هولندي سفينة للمجاهدين السلاويين (الشمس) بقيادة الرايس أحمد القرطبي، فأسر واحرقت السفينة. وقد كان لهذه الحادثة دوي كبير سواء في المغرب أو هولندا، إذ طالب المجاهدون السلاويون بالتعويضات عن الأضرار التي لحقتهم من جراء هذا العمل، وأخذت هولندا بدورها هذا الحدث مأخذ الجد، إذ قدمت للمحاكمة في 9 يناير من سنة 1659 قبطان السفينة المهاجمة، وطالبت منه تقديم تعويض للرايس القرطبي مقداره 9.500 فلورين، وفي نفس الوقت قررت الولايات العامة تقديم سفينة من نفس حمولة وتسلح السفينة المهاجمة إلى حكام سلا كما عرضت سفينة القبطان الهولندي المهاجمة للبيع لصالح الرايس القرطبي[138].

وهكذا خلال عشر سنوات، وتحت تأثير المعاهدات المعقودة بين الطرفين، امتنعت الدول الأوروبية عن أي عمل ضد سلا.

أوج القوة البحرية بمصب أبي رقراق

استطاع الهورناتشيون بفضل ثرواتهم وخبرتهم في الجهاد وعلاقتهم مع الاوربيين، ان يسلحوا السفن، ويجلبوا اليها التقنيين الضروريين لذلك، وقد اعتمدوا في ذلك اساسا على الاعلاج، كما اعتمدوا في تكوين جيشهم المهاجم على الاندلسيين، لخبرتهم بالسواحل الاوربية والاسبانية بالخصوص، غير انهم اعتمدوا على المغاربة ايضا للقيام بعمليات هجومية على ظهر سفن الخصم، واخيرا جماعات العبيد الذين كانوا يقوم بمختلف العمليات على ظهر السفن.

الميناء

اورد شينيي L. Chénier عددا من الصعوبات التي تعوق سير الملاحة بميناء سلا[139]، كما اكد

---

(137) R-Coindreau, op. cit. 186.

(138) Ibid. p. 187

(139) **Recherches historiques sur les maures, 3 : 241.**

كثير من المؤلفين العرب والاوروبيين على المخاطر التي تصاحب الدخول او الخروج من الميناء المذكور[140].

غير أن سلبيات هذا الميناء عوضت بعدد من الايجابيات التي عرضها الاب دان في القرن السابع عشر «ان عدم عمق مياه هذا الميناء جعل مجاهدي سلا يستخدمون سفنا خفيفة، فان كانوا يخسرون من جهة لانهم ليست لهم سفن قوية كسفن الجزائر وتونس، فهم يربحون من جهة اخرى، لانها سفن خفيفة وسريعة وتصلح للمطاردة اكثر من سابقتها...»[141]، ومن جهة اخرى فان صعوبة دخول الميناء كانت ايجابية بالنسبة لمجاهدي سلا، اذ ان سفنهم بمجرد ما تجتاز الحاجز الرملي تصبح في مأمن من السفن التي تطاردها نظرا لان حمولتها الكبيرة لا تسمح بدخول الميناء[142]، وهناك ايجابية اخرى سجلها الاب دان، وهي قرب سلا من مضيق جبل طارق المنفذ الطبيعي للطرق البحرية مما جعل مجاهدي سلا «ينصبون دائما الكمائن للسفن من الغرب الى الشرق، ومن البحر المتوسط الى المحيط الاطلسي...»[143].

صنع السفن

قام الهورناتشيون باعادة ترميم السفن المأسورة، كما صنعوا سفنا بورش اقاموه قرب حسان[144] وسعوا الى ضمان مساعدة الاجانب لتسليح اسطولهم[145].

ولعب اليهود في هذا دور الوسيط، فقد كان يهود سلا في علاقات وطيدة مع مواطنيهم المطرودين من اسبانيا والبرتغال والهاربين الى الارض المنخفضة، فكانت هولندا، اذن، تقدم مساعدة ضخمة للاندلسيين عن طريق هؤلاء[146]. ومن جهتهم فان الاندلسيين كانوا قد تعلموا في اسبانيا استعمال وصنع الاسلحة كما تعلموا مجموعة من الحرف والصناعات مكنتهم من صيانة ما يفسد من سفنهم، لكن — ومهما كان الامر — فانه لم يكن بامكان الاندلسيين وحدهم القيام بعمليات جريئة بدون مساعدة متخصصين من الاعلاج[147] وكان هؤلاء يؤسرون من بين البحارة الاوربيين اثناء عمليات الجهاد البحري، وقد كتب اسحاق رازيلي الى ريشليو سنة 1626 يقول «بكل حزن واسى اذكركم بانه منذ 20 سنة مضت احصيت اكثر من 8 الاف من خيرة بحارتنا اسروا، وهم الان في شمال افريقيا يعتنقون الدين الاسلامي ويستخدمون كقادة لسفن المجاهدين، بل ويأتون الى الشواطىء الفرنسية لاسر اقربائهم ومواطنيهم...»[148].

---

(140) R. Coindreau, op. cit. P. 34.
(141) **Histoire de la Barbarie et ses corsaires**, p. 209
(142) R. Coindreau, op. cit. P. 142, J. Caillé, op. cit. P. 225.
(143) **Histoire de la Barbarie et ses corsaires**, p. 203
(144) J. Caillé, op. cit. P. 225.
(145) R. Coindreau, op. cit. P. 55.
(146) R. Coindreau, op. cit. P. 56.
(147) Ibid. P. 57.
(148) **S.I.H.M.** 1ère série. France, 3 : 116.

واستخدم المجاهدون السلاويون سفنا مستديرة وخفيفة تتلاءم مع مينائهم(149). كما استخدموا انواعا اخرى من السفن نذكر من بينها

ترتان (Tartane)، وشراعية (Brigantin)، وشبيك (Chébec)، وبينك (Pinque)، وبولاكر (Polacres)، وكرافيلا (Caravelle)، والخفاف (Pinasses) وسنيو (Senau)، وفركاطة (او الحراقة) (Frégate)(150). وهذا اللفظ الاخير استخدم اكثر من غيره، والمؤرخون العرب يسمون (فركاطة) كل سفينة جهادية بدون تمييز(151). وتبعهم في ذلك كثير من المؤرخين الاوربيين، مما يجعلنا لا نتعرف على نوع السفينة المستخدمة. وهكذا فكلمة فركاطة يمكن ان تعنى سفينة من حمولة 200 طن مسلحة بـ 24 من قطع المدفعية مع طاقم مكون من 300 رجل، كما يمكن ان يكون القصد بها سفينة ذات حمولة من 30 طن مسلحة بمدفعين وطاقم مكون من 50 رجلا(152). وهناك انواع اخرى مثل

فست (Fuste)، وفلوتة (flute)، وفليبو (flibot) والصندل (Gabarre)، والخفارة (Patache)، وسيتي (Setye)، وغليونة (galiote)(153).

وعلى كل فمهما اختلفت انواع سفن المجاهدين السلاويين، فانها كانت تشترك في خاصيتين اساسيتين السرعة، والقدرة على الهجوم، فالسرعة ضرورية للمجاهد سواء للوصول الى هدفه او للهروب من المتابعات الخطيرة للعدو، والنجاح يكون مرتبط بهذا العامل الى حد كبير، والقدرة على الهجوم تتطلب الخفة والدقة وسرعة الاستعمال بالاضافة الى استعمال الاشرعة الضخمة التي تشكل عامل نجاح اضافي(154).

وهكذا فقد كانت السفن السلاوية لا تتزود إلا بما هو ضروري جدا للتموين، وعلى العكس من

---

(149) R. Coindreau, op. cit. P. 88.

(150) R. Coindreau, op. cit. pp. 88-94.

ملاحظة

اعتمدنا في ترجمة هذه الاسماء على الدراسات الآتية :

عبد العزيز بنعبد الله : معجم في السفانة والسفن، مكتب تنسيق التعريب في العالم العربي، الرباط (1979)

عبد العزيز بنعبد الله دور الملاحة المغربية في البحار طوال الف عام مقال بمجلة المناهل، العدد 32 مارس 1985، ص 64—121.

محمد المنوني «نظم الدولة المرينية».

ضمن كتاب ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين ص 76—80

محمد الكافي، قاموس المصطلحات البحرية.

(151) انظر — مثلا — المؤلف المجهول، تاريخ الدولة السعدية، 95.

(152) R. Coindreau, op. cit. P. 94.

(153) Ibid. PP. 96-97.

ملاحظة

اعتمدنا في ترجمة هذه الاسماء على الدراسات السابقة.

انظر هامش 150

(154) Ibid. P. 99.

ذلك فقد كانت تتزود بالقدر الكافي من الرجال والذخيرة والعتاد، لذلك كانت أكثر تجهيزا وتسليحا من السفن الأوربية[155].

ولم يكن الأسطول السلاوي ضخما بالمقارنة مع أسطول الدول الأوربية، ففي خلال المرحلة الثانية من مراحل الجهاد البحري، عندما وصل الجهاد البحري إلى أوجه بلغ عدد سفن الأسطول ما بين 30 إلى 40 وحدة، وأكبر رقم وصل إليه هو 60 وحدة، وهكذا بلغ عدد قطع الأسطول سنة 1637 — حسب الأميرال الأنجليزي رينسبوروغ — ما بين 40 إلى 50 قطعة، وما بين 12 إلى 20 منها يحملون قطعا للمدفعية[156].

وقد نقص هذا الرقم في النصف الثاني من القرن السابع عشر إذ وصل إلى 6 سفن فقط[157].

طاقم السفن

كان رجال العمليات الجهادية البحرية، يخضعون لنظام صارم من طرف الهورناتشيين، فهم يختارون بدقة، وطاقم السفينة نجده مرارا مكون من أندلسيين إذ لا نجد لا المغاربة ولا الأتراك، اذ أن هؤلاء الأخيرين «لا يعرفون إلا القليل من ميدان الملاحة»[158]، وكان هناك على ظهر السفن متخصصون في الهجوم على سفن الخصم. وهذه الفرقة مكونة أساسا من الأندلسيين والمغاربة، ولم يكن من السهل على الأندلسيين استخدام المغاربة في البحر، نتيجة النفور الغريزي لهؤلاء منه، لكن بوسائل مختلفة استطاعوا أن يجذبوا إليهم عددا كبيرا من المغاربة للقيام بهذا الدور[159]. وقد تعود البحارة

---

(155) Ibid. P. 101.

(156) Loc. Cit.

(157) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas. 6 293.

(158) P. Dan, op. Cit. P. 210.

ملاحظة

كان المورسكيون يولون اهتماما كبيرا للاوربيين الداخلين الى الاسلام حديثا، ولم يكونوا يترددوا في اعلان رايهم بصراحة، فبالنسبة لاستخدام مدفع ما فان اوربيا واحدا (علجا) احسن بكثير من 100 مغربي.

R. Coindreau, op. cit, P. 58

ولم يكن هذا راي المورسكيين فقط بل كان ايضا بعض سلاطين المغرب، ففي رسالة بعثها السلطان مولى اسماعيل الى الملك لويس الرابع عشر يذكر له ان الله اعطى للمسلمين السيادة على الارض وترك السيادة على البحار للكفار، كما ذكر السفير ابن عائشة لاحد اصدقائه الفرنسيين انه لو كان المغاربة رجال حرب في البحار ورجال يركبون السفن لما ترك انجليزيا واحد يجتاز مضيق جبل طارق، ولكن المغاربة لا يعرفون الا ظهور خيولهم. انظر

H. De Castries, Le Maroc d'autre fois, les corsaires de Salé, in **Revue des deux mondes**, 15 Février 1903 ; P. 18.

ونتج عن ذلك ان كثيرا من الدارسين الاوربيين اصبحوا يعتبرون ان ظاهرة الجهاد البحري بمصب ابي رقراق ظاهرة اوربية محضة نقلت الى المغرب، فهي بالنسبة لهم «حدث عابر خلقة الاجانب» ويبررون ذلك بالخوف من البحر الموروث عن الاسلاف»، متناسين بذلك الظروف والملابسات التي صاحبت نشوء هذه الظاهرة بالمغرب. انظر — مثلا —

Louis Brunot, **La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat et Salé**, PP. 11-12.

(159) R. Coindreau. op. cit. P. 62.

السلاويون على نظام قاس إذ كانوا لا يحملون معهم إلا ما هو ضروري جدا تموينهم في حين كانوا يتزودون بصفة جيدة بالذخيرة والسلاح، وكانوا يقتسمون مواد التموين بالتساوي جنودا ورؤساء، فهم يشتركون جميعا في حياة التقشف، وقد أعطى الأب دان بعض أنواع هذه المواد التي تتكون من «البسكويت والزيت، والعنب والأرز والخضر»(160).

غير أن هوست G. Host رسم لنا تفاصيل أكثر عن نظام تغذيتهم، ففي الصباح يتناولون الخبز والزيتون، وفي الظهر يتناولون «الخليع» (الأكلة المغربية الشهيرة)، وفي المساء يتناولون الحمص والكسكس والمشروب الوحيد المسمح به هو الماء، ولكنه بعد أيام يصبح غير صالح للشرب، واذاك يجدها فرصة بعض البحارة لتناول الخمر والماحية !(161).

ولم يكن جنود السفينة وضباطها يتلقون أجرا محددا، ولكن يعطون فقط تعويضات من الغنائم، وهذا لتشجيعهم لخوض المعارك البحرية لأنهم لن يخوضوا هذه المعارك بقوة إذا كانوا يعرفون مسبقا أجرتهم»(162).

وقد كان التوزيع على الشكل الآتي

- 10% للديوان
- نصف الباقي يعطي للرايس لتعويضه عن المصاريف التي تحملها في العملية.
- النصف الآخر — أي 45% من مجموع مبلغ الغنيمة — يعطى لطاقم السفينة.

وفي حالة فشل العملية لا يأخذ الطاقم شيئا(163).

مجال العمل

كانت عمليات الجهاد البحري متجهة اساسا الى المحيط الاطلسي(164)، اذ كان المجاهدون الجزائريون «يحتكرون» الجهاد في البحر الابيض المتوسط، ولا يريدون ان ينافسهم فية احد. وهكذا فان مضيق جبل طارق هو الحد الفاصل بين مجال المجاهدين الجزائريين والمجاهدين السلاويين، غير ان الاوائل — لاقدميتهم وقوتهم وكثرتهم — كانوا يمارسون عملياتهم — احيانا — في المحيط الاطلسي اما لحسابهم الخاص او باتفاق مع المجاهدين السلاويين(165)، اذ كانوا على اتصال دائم بينهم، بل ان عدة حملات قاموا بها معا، وفي البحر — انطلاقا من ظروفهم الخاصة — كان السلاويون يدعون انهم جزائريون، وكان الجزائريون يدعون انهم سلاويون، كما كانوا يتداولون الغنائم فيما بينهم، وهكذا فقد كان السلاويون يبيعون في الجزائر ما لم يستطيعون بيعه بالمغرب (بفعل الاتفاقيات المبرمة مع الدول الاوروبية)، وكذلك كان الجزائريون يبيعون غنائمهم بسلا(166).

(160) op. cit. p. 298.
(161) R. Coindreau. op. cit. P. 63.
(162) P. Dan, op. cit. P. 210.
(163) R. Coindreau, op. cit. P. 64.
(164) كان المجاهدون السلاويون يقومون ببعض العمليات في البحر الابيض المتوسط ولكنها كانت نادرة جدا.
(165) R. Coindreau. op. cit. P. 112.
(166) Ibid. PP. 48-49.

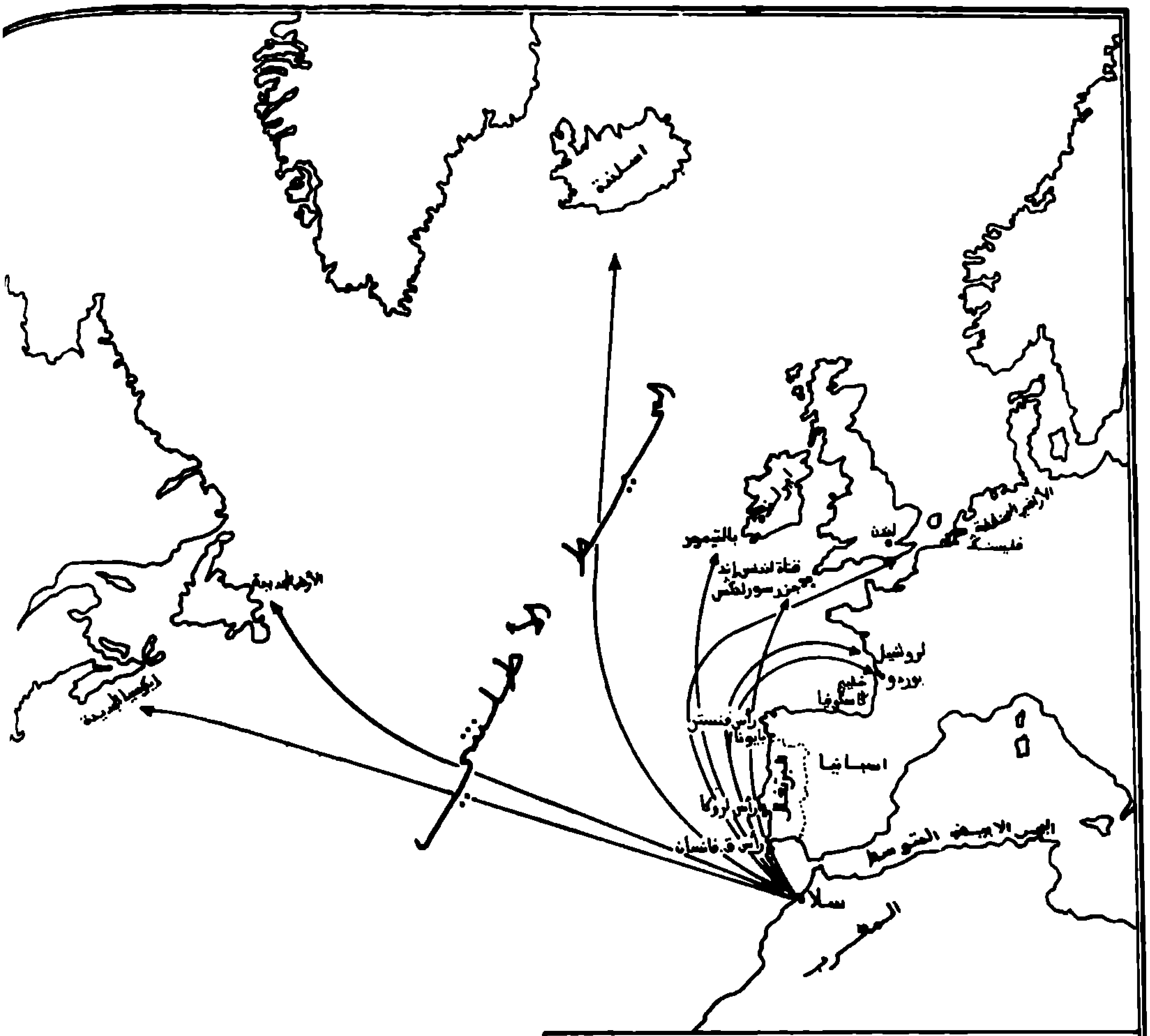

الرحلات البعيدة للمجاهدين السلاويين

المقياس 1 : 30.000.000

وكما كان مسطرا فقد انصب مجال عملهم اول الامر اساسا على الشواطىء الاسبانية، اذ كانوا يهاجمون اسطول الصيد الاسباني باستمرار، كما كانوا ينزلون الى البر الاسباني ويقومون بعدة عمليات هناك، مما اضطر السلطات الاسبانية الى تشديد الحراسة هناك، فاتجه المجاهدون السلاويون بذلك الى اعماق البحار يطاردون السفن الاسبانية[167]، لكن سرعان ما اتجهت الى باقي الدول الاوروبية، خاصة فرنسا التي كانت اكثر تضررا بعد الاسبان مباشرة[168] وامتد ميدان العمليات الجهادية الى الشواطىء الافريقية والايبرية الى غاية جزر الاصور Açores، جنوبا الى جزر الكناري، وشمالا الى رأس فنستير CapFinisterre[169].

كما كان المجاهدون يصلون الى نقط جريئة في خليج كاسكوني Gascogne متبعين تجار بوردو، وبايون Bayonne ولاروشيل La Rochelle ونانت Nantes ولوهافر Havre، بالاضافة الى جزر الكناري ومديرا Mader والاصور التي تعرف غزارة في العمليات الجهادية نجد هناك نقطا اخرى حساسية في لشبونة وراس سان فانسان Saint-Vincent اذ تاتي الى هذه المركزين السفن القادمة من امريكا وجزر الانتي[170].

ونشير الى ان المجاهدين كانوا يستعينون في عملياتهم بعدة قواعد مساعدة في كل من تطوان، وفضالة، وازمور، والوليدية، واسفي. وقد كانت للمجاهدين ايضا رحلاتهم البعيدة، نذكر على الخصوص رحلة مرادرايس الى هولندا في سنة 1622، وترددهم على بحر المانش، وفي 1625 خرجت 30 سفينة للمجاهدين في اتجاه بريطانيا اذ اكد عمدة بليموث ان المجاهدين اسروا الف سفينة[171]، وفي سنة 1626 وصلت سفن المجاهدين الى بلاد الغال Galles اذ استولت هناك على 5 سفن، ووصل مراد رايس في سنة 1627 الى اسلندا، كما استطاع ان يصل في سنة 1631 الى ارلندا، بل وصل المجاهدون الى الارض الجديدة terre Neuve بامريكا الشمالية[172].

ويرجع نجاحهم في عملياتهم هذه الى عدة عوامل، منها

— وجود عدد من الاعلاج العارفين بشؤون الملاحة.

— حسن تسليحهم.

— اختيارهم لضحيتهم بدقة، فهم لا يهاجمون الا السفن المنفردة، او السفن التجارية، او السفن الاقل تسلحا.

— استخدام لعدد من الحيل فهم يتقمصون صفة التجار، ويخفون اعلامهم ويضعون مكانها اعلام دول اوروبية...

---

(167) P. Dan. op. cit. P. 203.
(168) R. Coindreau, op. cit. P. 115.
(169) Ibid, p. 118.
(170) Ibid, P. 119.
(171) Ibid, p. 122.
(172) Ibid, p. 123.

علاقة الاندلسيين بأوروبا

تدخل علاقة الاندلسيين باوربا في اطار علاقات الاوروبيين مع جميع القوى المتزعمة في عصر الفترة.

وقد كان الجهاد البحري هو السبب الاساسي الذي ادى بالاندلسيين مع (السلاويين) الى ربط علاقات سياسية وتجارية مع الاوروبيين، فقد كان المجاهدون في حاجة ماسة الى العتاد والذخيرة، والى الالات الضرورية لتجهيز السفن، وكذا الى بعض مواد التموين. ومن جهتهم فان الاوروبيين كانوا يريدون ان يفتدوا اسراهم، ويأمنون سفنهم من اي سلب او نهب من طرف سفن المجاهدين، كما كانوا ايضا يعملون على تنمية تجارة مربحة بالنسبة لهم رغم كل الظروف. واخيرا ذهبت كل من اسبانيا وانجلترا الى ابعد من هذا عندما وضعت ضمن مشاريعها امكانية احتلال القصبة.

كان قواد القصبة، الذين يحملون احيانا لقب «قيم الميناء» commissaire du port[173] يفرضون انفسهم كرؤساء دولة حرة ومستقلة عن السعديين[174]، ولهذا فهم يراسلون امراء الدول المسيحية خاصة شارل الاول ملك انجلترا[175] والولايات العامة بلاهاي[176] وامراء Orange[177].

وقد حاول الاندلسيون اول الامر اقتناء الاسلحة الضرورية لعملياتهم الجهادية، فمنذ سنة 1624 كلف قواد القصبة الاميرال مرادرايس (اعتبارا لاصله الهولندي) بالاتصال بتجار امستردام، عن طريق يهودي برتغالي من مدينة سلا ارون كيريدو Aron Querido قصد شراء 200 مجذاف، و 200 حربة، و 120 بندقية، و 2000 ليبرة من بارود المدافع، و 90 قنطار من الكرات المختلفة الاحجام، و 10 قناطر من الكبريت وفي سنة 1616 استطاعوا ان يحصلوا من انجلترا — عن طريق جون هاريسون — على 14 مدفعا مع الدخيرة مقابل اطلاق سراح الاسرى الانجليز[179]، وعندما رجع هاريسون في السنة الموالية (1627) حمل معه 6 مدافع مع البارود والقدائف[180].

ولكن الاوروبيين بدأوا يشعرون بان هذا السلاح يستخدم ضد سفنهم لهذا بدأ الاندلسيون بعض الصعوبة في الحصول عليه، ففي سنة 1629 اذن لليهودي السالف الذكر ان يستورد من ي المنخفضة 30 الف ليبرة من الكرات و 6 الاف ليبرة من البارود، لكن لم تسلم له الا بعد ان

(173) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 5 : 34.
(174) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas. 4 235.
(175) S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 3 21-22.
(176) S.I.H.M. 1ère série P.B. 3 382-385.
(177) S.I.H.M. 1ère série Pays-Bas. 4 231.
(179) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 33.
(180) Loc. cit.

وضح لهم ان هذا السلاح سوف يستخدم فقط للدفاع عن القصبة (اي عدم استخدامه في البحر)[181].

لم يكتف الاندلسيون باستيراد السلاح فقد كانوا يستوردون ايضا مواد التموين من البلاد الاوروبية، ففي فترات من سنة 1638 انتشرت المجاعة والفقر بالقصبة الى حد كبير، اذ اضطر سكانها «الى اكل جلود البقر المحلى بالسكر»[182]، فاتجهوا الى الانجليز والاسبان لتموينهم، وهكذا مونوا من طرف بليك ومدينا سيدونيا ب 500 او 600 قنطار من البسكويت ومواد اخرى[183].

العلاقات السياسية

ترجع العلاقات السياسية بين الاندلسيين والأوروبيين أساسا الى محاولة هؤلاء الاخيرين افتداء اسراهم، والحصول على ضمانات تخولهم عدم الوقوع بين أيدي مجاهدي سلا.

وكانت هذه العلاقات طبيعية ومنطقية من وجهة نظر الاندلسيين، فقد كانوا يحصلون من خلال عملية افتداء الاسرى على أرباح طائلة كانوا في حاجة إليها للوقوف لها ضد خصومهم (السعديين أو العياشي). كما أن هذه العلاقات يسهل تفسيرها كذلك بالنسبة للاوروبيين، فسفنهم الضخمة لا تمكنهم من دخول الميناء لقصفه، والحصار الدائم يكاد يكون مستحيلا بسبب الحالة يكون عليها البحر في فصل الشتاء، فلم يبق، اذن، الا احتلال القصبة والمدينتين، لكن نتائج هذه العملية خطيرة، خاصة ان المثال البرتغالي والاسباني لم يكن مشجعا، اذ أن مراكزها تتعرض باستمرار الى ذلك فالدول الأوروبية لم تكن على وفاق بينها فلم يبق، اذن، لهؤلاء الا التفاوض مع الاندلسيين ومحاولة التفاهم معهم على مختلف النقط المعلقة.

وقد كان قادة الاندلسيين يرأسون المفاوضات، وكانوا يتفاوضون على قدم المساواة مع محاوريهم، قوة بحرية في مواجهة قوة بحرية أخرى. فقد ارسلوا سفراءهم إلى انجلترا سنة 1627 و 1628[184]، وامضى محمد بن عبد القادر باركو، وابراهيم بن شعيب بركاش باسم جميع الاندلسيين، مشروع معاهدة مع جون هاريسون في 10 ماي من سنة 1627[185]. وفي 2 اكتوبر 1629 مضى محمد بن عبد القادر صيرون (القائد العام للقصبة) هدنة مع فرنسا التي كان يمثلها رازيلي وقائد الاسطول دي شلار. لم يقتصر الامر على هذه الفترة بل تجاوز الامر ذلك الى فترة الاشراف الدلائي نفسه، اذ تدخل الاندلسيون في الاتفاقيات المعقودة مع الدول الاوروبية.

وجميع هذه الاتفاقيات تتشابه، فهي تنص أولا على تخليص الاسرى بقدر معين، وبند آخر ينص على حرية التجارة بين البلدين، وبند ثان يحدد شكليات العلاقة بين سفن الطرفين المتعاقدين، اذ ينص

(181) **S.I.H.M.** 1ère série. Pays-Bas, 4 239

(182) J. Caillé, op. cit. P. 228.

(183) **S.I.H.M.** 1ère série. France, 3 585.

(184) **S.I.H.M.** 1ère série. Pays-Bas, 4 287.

(185) **S.I.H.M.** 1ère série Angleterre, 3 : 16 et 20.

على عدم القيام بأي عمل عدواني تجاه الطرف الآخر. وغالبا ما تكون المفاوضات شاقة وعسيرة، خاصة أنها تتعلق بتحرير الاسرى ولا تمضى الا بعد استعراض الاسطول الاوربي بالمنطقة، كما حدث — مثلا — لاتفاقية الهدنة المعقودة مع فرنسا وانجلترا. أما بالنسبة لهولندا فلم تكن مضطرة لأن تلجأ الى التهديد، فاسراها قليلون اذا ما قورنوا باسرى فرنسا وانجلترا، ولها علاقات ودية مع المغرب منذ معاهدة سنة 1610[186].

وأحيانا يحرر عددا من الأسرى بدون التدخل المباشر للحكومات، وذلك بواسطة رجال الدين والتجار، فقد استطاع الاب اثيا P. d'Athia ان يخلص 50 فرنسيا[187] وكذلك فعل الأب اسكوفي Escoffié الذي استطاع تخليص 41 فرنسيا[188]، كما استطاع التاجر الانجليزي روبير دون تخليص 23 اسيرا من مواطنيه واستطاع تاجر انجليزي آخر هو توماس ورين T.Warren تخليص 10 أسرى[189].

العلاقات التجارية

لم يكن الجهاد البحري عائقا في سبيل قيام علاقات تجارية بل على العكس من ذلك كان أحد العوامل الأساسية لتنميتها، فقد كان العديد من التجار الأوروبيين يتاجرون بمصب ابي رقراق وهذا فليب الرابع نفسه يبيح بصفة استثنائية من خلال قرار صادر سنة 1626 للاسبان أن يتعاملوا مع الاندلسيين. وهكذا اصبح ميناء ابي رقراق الميناء الأول بالمغرب، في حين كانت التجارة في النصف الثاني من القرن السادس عشر، مركزة بالخصوص بميناني أسفي وأكادير. وقد سجل هارسون سنة 1630 المستقبل الزاهر للمنطقة، ولاحظ مجيء 30 سفينة أجنبية خلال شهر و16 يوما، وفي نفس السنة لاحظ رازيلي ودي شلار عدة سفن تجارية انجليزية وهولندية بالمنطقة،[190]، وفي سنة 1654 أبريل انزل رويتر الهولندي في ميناء أبي رقراق التبغ، والقطن، والبارود، وأخذ بدلها جلود البقر[191].

وهذه التجارة كانت ضرورية بالنسبة للاندلسيين لأنهم لا يستطيعون بيع جميع بضائعهم المغتنمة بالمغرب، غير أن بعض الدول — مثل فرنسا — لم تكن تشتري من المغرب الا ما هو من انتاجه وتمتنع عن شراء البضائع المغتنمة من الجهاد البحري، لكن الاندلسيين كانوا يجدون المكان الملائم لبيع غنائمهم، مثل الولايات الايطالية الصغيرة في كل من ليفورن Livourne، وجنوة، وبيزة Pise.

وهناك حدثان يدلان على الاهمية التي توليها الدول الاوروبية للتعامل مع الاندلسيين، ففي سنة 1629 وبعد الهدنة التي عقدها رازيلي مع هؤلاء أصبح الحديث يدور في فرنسا حول الاهمية التي

---

(186) J. Caillé, op. Cit. P. 233.

(187) Ibid. P. 235.

(188) **S.I.H.M.** 1ère série. France, 3 593.

(189) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 563.

(190) **S.I.H.M.** 1ère série, France, 3 212.

(191) **S.I.H.M.** 1ère série. Pays-Bas, 5 : 576-577.

يكتسيها التفاهم مع الاندلسيين وتأسيس شركة للتجارة مع المغرب[192]، وفي انجلترا بدا كذلك واضحا الفوائد التي يمكن ان تجنيها هذه الاخيرة اذا ما سهلت تعامل «الشركة البربرية» مع الاندلسيين ومع باقي الموانىء المغربية[193].

وكان هناك عدد من التجار الاوروبين بالقصبة، نجد من بينهم (خلال سنتي 1626 — 1630) الفرنسي فرانسو بيير مازيت F.P. Mazet[194] والانجليزي روبير بيكفور R. Pick Ford (سنة 1636)[195]...

ولكن على العموم كانت ظروف الحياة صعبة بالنسبة لهؤلاء التجار (الذين لم يتعودوا العيش بين ظهراني المسلمين) وكانوا عرضة للانتقام كلما حل مكروه ما بالاندلسيين، ففي سنة 1631 عندما اسر الانجليز سفينة للمجاهدين قام هؤلاء بالقبض على التجار الانجليز وحجز أموالهم[196]، وأحيانا يكون بحارة أوروبيون في حالة مرور أو توقف بالميناء ضحية هذا الانتقام، فعندما استولى الاميرال الهولندي ترومب Tromp في غشت على سفينة للاندلسيين هاجم هؤلاء طام سفينة هولندية اثناء توقفها بالميناء و «رموا بهم في مطامير عميقة»[197].

وقد استقر بعض قناصلة الدول الاوربية بالقصبة، مثل القنصل الفرنسي، والهولندي، وذلك لتسهيل المعاملات التجارية بين الطرفين، وللسهر على تنفيذ الاتفاقيات التجارية المعقودة.[198]

وهكذا فقد أصبح للأندلسيين قوة تجارية لا يستهان بها، فمدخول سنة واحدة من الجهاد البحري كان يعطي لديوان سلا أكثر مما كان يعطيه مدخول الضرائب في عهد أحمد المنصور الذهبي بالنسبة لمجموع المملكة.

محاولات الاوربيين الاستيلاء على القصبة

لا نستغرب إذا رأينا الانجليز والاسبان يوجهون أنظارهم للاستيلاء على القصبة (قصبة الاوداية)، فقد كانت بالنسبة لهم مصدر قلق خاصة إن الصراعات الداخلية اضعفت دويلة المجاهدين الصغيرة، وزادت بالتالي من جشعهم في الاستيلاء عليها.

فبالنسبة للانجليز يتضح هذا من خلال التقارير التي كان يبعث بها هارسون مستخدماً في ذلك كل أساليب الاغراء، لإبعاد خوف الانجليز من التعامل مع المجاهدين، خاصة ان علاقته مع هؤلاء

(192) S.I.H.M. 1ère série. France, 3 362.
(193) S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3 408.
(194) J. Caillé, op. cit. P. 237.
(195) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 228.
(196) J. Caillé, op, Cit. P. 237.
(197) S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas. 5 416-417.
(198) J. Caillé, op. cit. P. 239.

كانت وطيدة جداً، إذ كان الناطق باسمهم لدى العرش الانجليزي. ففي تقرير له إلى الملك شارل الأول سنة 1627 نجده يركز على عدة محاور

أولاً تشجيعهم للأندلسيين على التخلص من زيدان للاستقلال كلية عنه «...أما الموريسكيون الذين يحكمون الآن في سلا فقد بعثوا إليَّ بأنه إذا أتيت إليهم للعمل معهم بأنهم سيزحزحون مولاي زيدان الحاكم الطاغية الذي كان السبب في أسر كثير من رعاياكم وفقد سفنهم وبضائعهم وأرواحهم، وهم يضعون أنفسهم تحت حمايتكم...»(199)

ثانياً تكتل هؤلاء الاندلسيين للعمل ضد أعداء الانجليز داخل المغرب، وكذلك ضد الاسبان «... وكان القواد الموريسكيون بسلا قد عزموا على إرسال نخبة منهم لعرض خدماتهم عليكم وليس ذلك باسمهم فقط، بل باسم جميع الموريسكيين بالمغرب وهم في كثرتهم يعدون بمئات الآلاف.. ليس لهم مكان يلجأون إليه ولا مدينة يأوون إليها الا سلا التي عينت لهم وبنيت لهم بواسطة ذلك الملك الشهير يعقوب المنصور، الذي تنبأ بطردهم هذا، كما يقولون، ولكنهم الآن بفضلكم قد حصنوا بقطع المدافع الجيدة والاعتدة الحربية، بحيث صاروا أعظم قدرة للدفاع عن أنفسهم سواء ضد الاسبان أو ضد أعدائهم الآخرين... وليس الآن لهم ملك آخر الا انتم، فإن طاب لكم أن نشملهم بحمايتك الملكية...»(200)

ثالثاً التأكيد على أنهم مسيحيون، بل أكثر مسيحية من إسبانيا نفسها، لذا يجب مد يد العون لهم لإنقاذهم من المغاربة والاسبان على السواء «فهم مسيحيون، قد طردهم الاسبان الكفرة، وسلموهم إلى المسلمين من مغاربة وأتراك... فقد أثاروا سخط مولاي زيدان عندما أطلقوا سراح رعاياكم، وكتب اليهم مولاي زيدان رسالة جد مستعجلة يوغر فيها صدور المغاربة على الموريسكيين بأنهم كانوا قد قاموا بمؤامرة سرية ليسلموا القصبة ويصبحوا مسيحيين، وان سلا كانت على اتفاق مع الموريسكيين المنبثين في كل أرجاء المغرب ليتجمعوا هناك، وفي الحقيقة كان الامر كذلك، وقد تأكدوا منه حينما رأوا القصبة محصنة بالمدافع النحاسية الانجليزية ليجلبوا اليها الموريسكيين، وكان هؤلاء قد التفوا هناك حول رئيس لهم، فأسر مولاي زيدان حينئذ رؤساء الموريسكيين بمراكش وفرق شمل الباقين، كما أوجب على الآخرين أن يعودوا ــ مكرهين ــ من تلك النواحي، وأن يتقهقروا إلى سلا، وقد أتت من تطوان الآن عشر عائلات دفعة واحدة...»(201).

رابعاً محاولة استغلال الاندلسيين لاحتلال المعمورة

«... أما قواد القصبة فإنهم طلبوا مني أن أضع العراقيل الكثيرة، بقدر ما أستطيع، لهذا الولي (العياشي) فاجعله ينصرف عن هذا الغزو المداهم، ويفضلون أن يكون ذلك مدخراً لكم، وهم مدركون تمام الادراك ما تتطلبه تلك الخدمة المذكورة وبذلك تبقى المعمورة في يدكم...»(202).

---

(199) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 : 63-72.

(200) Loc. cit.

(201) Loc. cit.

(202) Loc. cit.

ويقول في مكان آخر من التقرير «... ويودون أن أجعلكم تتكلفون باحتلال المعمورة، إذ ان أخذها سهل، كما قالوا، واعدين بكل معونة منهم، في احتلال هذا المكان الذي هو أحسن مرفأ للسفن في جميع ذلك الساحل القريب من سلا بخمسة فراسخ فقط، حيث يمكن لكم أن تجلبوا إليهم العون بالسفن...»(203).

خامساً التأكيد على عدم اعتبار الاندلسيين كقراصنة يتجنب التعامل معهم، بل يجب اعتبارهم ككيان مستقل له طموحاته وبالتالي يجب معاملته كحكومة لها تصرفات معينة تجاه حكومة اخرى «إن هؤلاء قد ولدوا على المسيحية في إسبانيا، ونشأوا معمدين، ثم طردوا منها، وأسلموا إلى أيدي المسلمين، وهم الآن يعيشون تحت نير طغيانهم، حيث إن لهم ميولا مسيحية، في أن تشكل حكومة لهم من جديد، فقد اختاروا حمايتكم. وقد أقاموا حكومة مدنية شبيهة بالحكومة المسيحية، تدعى كلبدو Calvido على غرار ما كانت عليه بإسبانيا... وهم لا يشكون في أنهم سيقيمون حكومة أكثر مسيحية مما هي عليه بإسبانيا، بعدما أجلى ملك اسبانيا هؤلاء المسيحيين الحقيقيين، بل ان هؤلاء الموريسكيين خارج اسبانيا أحسن مسيحية من الذين هم داخل إسبانيا نفسها. وإن هذا الملك كان قد دعاهم — بترحيب — في بلاغة الى العودة، ولكنهم لن يعودوا للانضواء، الى تلك الحكومة الوثنية مرة اخرى، قائلين إن لهم ملكاً يحبهم اكثر يقصدونكم..»(204).

سادساً : التأكيد على وجود نفور عام من الاندلسيين داخل المغرب وشعور هؤلاء بهذا النفور وتكتلهم لمواجهته، ومن هنا تأتي الفرصة لمد يد المساعدة لهؤلاء، الاقرب الى الانجليز من المغاربة «إن هؤلاء الموريسكيين يعملون سراً لصالح رعاياكم وذلك خوفاً من المغاربة الذين شرعوا فعلا ينتقدونهم، ويحملون لهم أعظم حقد من أجل ذلك، قائلين انهم في داخليتهم مسيحيون، وليسوا مسلمين حقاً، وقد كتبوا رسائل الى مواطنيهم في جميع جهات المغرب، بل الى مواطنيهم بالجزائر وتونس، يعلمونهم بكونهم في حمايتكم ليتواطأوا جميعاً معهم وليكونوا قلباً واحداً، الشيء الذي يخشاه مولاي زيدان ويحاول بجميع الوسائل أن يمنعه، ولكن ذلك كان عبثاً، فإن سلطانه أصبح لا يمتد بعيداً، وزيادة على ذلك فإن الموريسكيين يتسللون يومياً إلى سلا من جميع الجهات، حسب ما وعدوا به...»(205).

وفي تقرير مؤرخ بـ 8 أكتوبر سنة 1630 يذكر هاريسون «قال لي القبطان مردارايس إنه عند رأس نهر سلا على مسافة فرسخين، اكتشفت هناك فضة كثيرة، قد احتفظ هؤلاء الموريسكيون بسرها إلى أن يجتمعوا معاً من جميع الجهات، كما يسعون في ذلك يومياً، وبذلك يكونون قادرين على حكم البلاد وجعلها تحت سيادتهم...»(206).

وأوضح نفس التقرير ان الهدف من كل ذلك هو الاستيلاء على تطوان وسلا والتحكم في مضيق جبل طارق «وهاتان النقطتان (تطوان وسلا) يمكن منهما أن نتمكن من جبل طارق وسبتة،

(203) Loc. cit.
(204) Loc. cit.
(205) Loc. cit.
(206) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 99-123.

وبذلك تستولي على المضيق كما فعل ملك الدانمارك بمضيق صوند Sound واعتبره خير عمل[207]. لذا يجب استغلال حقد الاندلسيين على الاسبان لتنفيذ كل هذه المخططات كما يوضح ذلك تقرير آخر لهاريسون في 15 يوليوز سنة 1631 «... والموريسكيون يتظلمون بمرارة من ذلك الطرد القاسي ويعرضون خدماتهم جميعاً، إذا ما كانت هناك أية حرب ضد اسبانيا. وهناك يمكن الحصول بسهولة على عشرة آلاف من الموريسكيين مستعدين لخدمتكم، فقد سروا بمجيئي معتمدين على نبوءة قديمة حكوها، وكان أسلافهم وجدوها مكتوبة على صفائح من الرصاص في «مونت سنتو» Monte Santo قرب غرناطة تفيد أن إجلاءهم سيكون من إسبانيا الى المغرب، ولكنهم سيعودون مرة أخرى في وقت يؤتى بهم في سفن مسيحية، فلما كان الوقت الذي سمعوا فيه بالاستعداد العظيم من أسطولنا الانجليزي ظنوا حقيقة أنه قد أتى الوقت لتحقيق تلك النبوءة تماماً، ولهذا فإنهم استعدوا بالبسكت Biskett والمدافع والبارود متحفزين للذهاب ومنتظرين فقط وصول تلك الارمدا Armada (كما هو تعبيرهم) لتنقلهم إلى إسبانيا...[208].

وقد استمر اهتمام الانجليز بالقصبة، وظلوا يتحينون الفرصة لتحقيق مرماهم بالاستيلاء عليها، إلى حين نجاح هذه الحملة لاحتلال القصبة، فكتب سكرتير الدولة الانجليزي ويندبنك Windebank في هذا الشأن إلى الاميرال في 11 غشت سنة 1637 يدعون فيها — بتأكيد — الى احتلال القصبة، إذا سلمها له الاندلسيون وإذا لم يحدث أي انقطاع مع العياشي لكن الوقت كان قد فات عندما توصل رينسبوروغ بالرسالة من وزيره، وبالاضافة الى ذلك لم تكن تحت يده الموارد الضرورية من الرجال والعتاد لاجل إنجاح العملية[209].

وكان اليأس — أحياناً — يدب في نفوس الاندلسيين عندما يطول الحصار، فحسب الانجليزي روبير بليك كانوا في سنة 1640 مستعدين لتسليم القصبة إلى أي امير أوروبي ينقلهم إلى أي مكان آمن يعيشون فيه سالمين. وقد اقترحوا عليه تسليم القصبة لانجلترا، لكنه لم يقبل لانعدام التعليمات في هذا الشأن، ووعد بتقديم هذا الاقتراح لحكومته. وهكذا وجه سنة 1641 مذكورة الى برلمان لندن بشأن احتلال القصبة مؤكدا على الفوائد التي تجنيها انجلترا من هذا الاحتلال

— فلن تخشى بعدئذ المجاهدين.
— وسوف تجني أرباحا مرتفعة من ملاحات أبي رقراق.
— وتقوم باستغلال معدن القصدير الذي يوجد قرب المنطقة.
— ويمكنها أن تتاجر مع الاهالي على حساب الفرنسيين والهولنديين،

واقترح بليك في الاخير على مجلس اللوردات أن يجهز على حسابه سفينة أو عدة سفن للاتيان الى المنطقة لتسليم القصبة. لكن طلبه ظل بدون جواب[210].

---

(207) Loc. cit.

(208) **S.I.H.M.** 1ère série, Angleterre, 3 137-150.

(209) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 324-325.

(210) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 : 548-551.

يظهر إذن، أن هذه المفاوضات وجدت تحت ضغط ظروف معينة، وليست وليدة سياسة ناضجة واعية، فغالباً ما كانت المفاوضات مع الانجليز تبدأ في حالة من اليأس نتيجة الظروف الصعبة التي كان يعيشها الاندلسيون، لذا فلا نستغرب من فشلها. ثم انه لم يكن للانجليز لا سلطة العمل من حكومتهم للتفاوض، ولا القوات الكافية للحفاظ على القصبة عند احتلالها.

ومن الجانب الاسباني بدأ الحديث عن احتلال القصبة بعد وقت قصير من استقرار الاندلسيين بها، فقد كتب حاكم الجديدة الاسباني خورخي ماسكارينياس Jorge Mascarenhas الى فليب الثالث رسالة مؤرخة بـ 4 فبراير 1613 يخبره فيها أن أحد المورسكيين قد قصد مقر الحامية الاسبانية على ظهر سفينة كان مولاي زيدان قد جهزها وشعر من خلال حديث هذا الموريسكي أن سائر المورسكيين مستعدون لتسليم القصبة الى إسبانيا. وإنه وصل معه الى احسن ما يمكن الوصول اليه، وذلك بأن يذهب بثلاثمائة رجل على متن السفن ليلا تحت غطاء من التفاوض...»[211]. لكن مشاريع إسبانيا لاحتلال القصبة بدأت تأخذ ملامحها النهائية ابتداء من سنة 1631.

مشروع معاهدة بين الهورناتشيين والاسبان[212]

يدخل هذا المشروع ضمن الرسائل الموجهة من مِدِينا سِيدُونيا Medina Sidonia [213] إلى فيليب الرابع (1621—1665) حول اندلسيي القصبة، وهو يجيب فيه على أوامر الملك بأن يبعث بسفينة الى القصبة، ويرسل الى قائدها، وكذا إلى الديوان المورسكي، مما يفرض معه أن اتصالات سابقة في هذا الشأن قد جرت بين الطرفين.

يعرض مِدِينا سِيدونيا أولاً ملخصاً عن وضعية الاندلسيين وعلاقتهم بباقي الاطراف، وهو تقرير، وإن كان مركزاً، فهو في منتهى الدقة.

«فهو يخبر في البداية أن العياشي يحاصر المعمورة باستمرار وان المورسكيين لم يساعدوه في حصاره هذا بأي شيء، ولهذا فإن العياشي يبذل المزيد من المجهود للاستيلاء على هذا الموقع الحصين (المعمورة) للانتقام من المورسكيين[214].

---

(211) S.I.H.M. 1ère série. France, 3 49.

(212) عثر جورج كولان G. Colin على هذا المشروع ضمن المخطوطات الاسبانية بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم 156)، ونشره في مجلة هسبريس سنة 1955 ص 18—25.

(213) هو القائد العام للاسطول الاسباني بالمحيط الاطلسي والسواحل الاندلسية وتوجد مراسلاته الاندلسيين مع فليب الرابع ومع قواد الثغور الاسبانية بالمغرب وكذا مع الاندلسيين بالقصبة بارشيف سان لوكاردي باراميد. (قادس)
Archivos del Polacio ducal en Sanlúcar de Barrameda (Cadiz)
كما يوجد بعض وثائق مدينا سيدونيا المتعلقة بالاندلسيين بسيمنكاس وقد نشر كير موكوساليس بوسطو Guillermo Gazalbes Busto بعض هذه الوثائق ضمن دراسة السالفة الذكر
(La Républica Andaluza de Rabat en el Siglo XVII)
في الملحق الرابع لدراسة (ص 355 — ص 463)، اذ نشر 36 وثيقة تتعلق باندلسيي الرباط والقصبة وعلاقتهم باسبانيا.

(214) Georges S. Colin "Projet de traité entre les morisques de la Casba de Rabat et le roi d'Espagne, en 1631" in Hespéris tome XLII, 1ère et 2ème trimestres, 1955, p. 21.

ويضيف الدوق الاسباني قائلا «... وهؤلاء المورسكيون متعاطفون جدا مع المسيحيين بخلاف المغاربة، وهم يعيشون في حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار سواء بسبب العياشي والوليد، أو بسبب الصراعات الداخلية القائمة بينهم أو بسبب الحقد الذي يكنه لهم ملك مراكش — والذي لو استطاع لخربهم —، أو بسبب الأعراب الذين يعتبرونهم مسيحيين، وإن فاجأوهم خارج القصبة ألقوا عليهم القبض. وهكذا، ولكي يعيشوا في هناء وليتخلصوا من هذه المخاوف وبسبب الحب الكبير الذي يكنونه لاسبانيا موضوع تلهفهم منذ أن غادروها فإنهم قرروا أن يسلموا لكم القصبة المذكورة بالشروط الآتي ذكرها...»[155].

يتضح من ذلك أن مِدينا سِدونيا كان يحاول أن يرسم لفليب الرابع صورة تجعله اكثر اقتناعاً بإخلاص هؤلاء الاندلسيين في مشروعهم نظراً لوضعيتهم الصعبة داخل المغرب.

وعلى كل فقد انتقل الى سرد هذه الشروط[216].

أولاً «يرجون منكم تسليمهم هورناتشوس، المكان الذي سيعيشون فيه، وذلك بعد إجلاء سكانها الحاليين عنها الى مكان آخر، وسيقوم المورسكيون بشراء الدور والممتلكات التي يتركها أصحابها بالثمن المناسب».

إننا الآن في سنة 1631 أي انه مرت اكثر من 20 سنة على نفيهم، الشبان ربما اصبحوا كهولا، وبرز هناك شبان آخرون ربما لا يعرفون قرية هورناتشوس، ولكن يمكن تفسير ذلك «بجاذبية الوطن المفقود» وهي من الاهمية بحيث يضعونها على رأس كل الشروط[217].

وما زلنا من جهة اخرى نجد روح الجماعة المنغلقة على نفسها فهم يرفضون التعايش مع الاسبان، فقد كانت لهم تجربة مرة في ذلك، فهم في الواقع كانوا يريدون تعويض قصبة الرباط «بقصبة» اخرى في إسبانيا، فالأندلسي دائماً حذر لأنه يعتبر نفسه منبوذ، ولا غرابة ان وجدنا هارسون يشبههم باليهود الذي تعرضوا لنفس التجربة.

ثانياً «ان الذين ولدوا بالمغرب لا يستطيعون أن يدخلوا إلى الدين المسيحي بسرعة وبصورة كاملة كالذين كانوا يعرفون الايمان الكاثوليكي من قبل، لذا يجب ان تحتجز ممتلكات المتهمين من هؤلاء خلال عشرين سنة الأولى». ويرى هنري تيراس H.Terrasse أن النقطة الاخيرة من هذا الشرط هي التي أفضت الى فشل المباحثات بأجمعها[218] لأن الاسبان كانوا يدركون أنها سنين كثيرة للاحاطة بأمور العقيدة، وبالتالي فهو أجل مماطل، خاصة انه كان قد استعمل في مناسبات سابقة منذ زمن شارل الخامس للهروب من قسوة محاكم التفتيش[219].

---

(215) G. Colin, op. cit. P. 22.

(216) يبلغ عدد هذه الشروط 16 شرطا وسوف نتعرض لاهمها فقط.

(217) Guillermo Gozalbes Busto, op. cit. 136.

(218) **Histoire du Maroc**, 2 224.

(219) G.G. Busto, op. cit. p. 136.

لكن بدون الوثائق اللازمة لا يمكننا تأكيد أو نفي افتراض تيراس بأن تكون هذه النقطة هي التي أدت الى فشل المباحثات، فالقضية الاندلسية في سنة 1631 كانت تعتبر منتهية، والرجوع الى التسليم بوجود جماعات قوية في شبه الجزيرة يكون عودة الى خلق المشكلة بكل أبعادها. وسنلاحظ فيما بعد أن الاقتناع الحقيقي كان آنذاك هو ترك الاندلسيين بالمغرب إذا سلموا القصبة لم يكن التفكير قط برجوع الاندلسيين الى شبه الجزيرة الايبيرية، فالدوق مدينا سيدونيا كان يقترح فقط ما كان يشترطه عليه الاندلسيون، وهو العودة الى اسبانيا، خاصة انه هو نفسه لا يرى ذلك سيئاً، إذ لم تكن اسرة م. سدونيا مؤيدة لنفي الاندلسيين منذ البداية(220).

سابعاً «وليظهر الموركسيون انهم مسيحيون، سيقدمون معلومات يؤيدها شهود عديدون من الاسرى المسيحيين، في شأن العديد من الموريسكين الذين عذبوا من طرف الأعراب وماتوا في سبيل العقيدة المسيحية».

وقد وجد كثير من الاوربيين مثل هذه الأقوال مجالا للادعاء بأن الاندلسيين لم يتكيفوا مع البيئة المغربية لانهم كانوا مسيحيين بالفعل، ولننظر الى ما يقوله كييرمو بوسطو في هذا الصدد

«... إذا كان الهورناتشيون، وهم الذين كانوا يعتبرون من أفضل المسلمين، مستعدين للبرهنة على مسيحيتهم لنتصور ما كان يبرهن عنه الاندلسيون الآخرون الذين كان ينعتهم المغاربة «بمسيحي قشتالة»! وفي تقريرهم كانوا يتكلمون حتى عن الشهداء بينهم فمن تطوان لنا اخبار عن موريسكيين رجموا لامتناعهم عن دخول المساجد. أما موريسكيو القصبة والرباط الذين يكونون مجموعات منغلقة على نفسها، وبذلك تكون أقل عرضة لتدخل عناصر خارجية وأقل رقابة على الاعمال الدينية، فلا نظن أن حالات استشهاد قد وقعت، ومن المحتمل أن تكون قد وقعت بين أولئك الموريسكيين الذين كانوا على اتصال مع الاهالي في ظرف من الظروف»(221).

ثامناً سيأتون بأنفسهم الى غاية اشبيلية على ظهر سفن الجهاد البحري التي يملكونها بأمتعتهم. وهكذا لا تتكلفون بنقلهم، سوف يرجعون بأنفسهم على نفقتهم لأخذ من بقي من الموريسكيين، وعندما يصل الجميع سوف يهدون جميع سفنهم اليكم. وأمتعتهم لا يطلع عليها أحد، وكذا ثرواتهم، ويجب حمايتهم، وتجنيبهم كافة التعسفات التي يخشون من وقوعها».

هكذا، إذن، يحاول الهورناتشيون أن يتخلوا عن سفنهم بسهولة وهي التي كانت رمزا لقوتهم، مقابل السماح لهم بالعودة، لكي يرجعوا كما كانوا من قبل صناعا وفلاحين مسالمين متعلقين بالأرض التي نشأ فيها أجدادهم، أما أن يكونوا بحارة أو مجاهدين فعندما تدعوهم الظروف الى ذلك فقط، أيمكننا أن نسمي اعمال الجهاد البحري الانتقامية التي كان يقوم بها هؤلاء مجرد أعمال للمحافظة على الذات ؟(222).

(220) G.G. Busto, op. cit. PP. 136-137

(221) **La Républica Andaluza... P. 138.**

(222) Loc. cit.
ملاحظة : سنقوم بمناقشة هذا الادعاء عند الانتهاء من استعراضنا لعلاقة الموريسكيين باسبانيا.

السادس عشر «.. قبل مغادرة القصبة سيعملون على قتل العياشي، وبذلك يتوقف الحصار والمضايقات التي كان يسببها للثغور الاسبانية بإفريقيا»(223).

ويختلف تقويم الباحثين الاوربيين للمشروع، فبينما اعتبره كولان بأنه «مشروع يدعو الى الاستغراب»(224)، اعتبره بوسطو «صيحة يأس، فلقد اقتنعوا بأن أية دولة لن تقبلهم أو تتعامل معهم باحترام»(225).

وعلى كل فإن هذا المشروع لم يكن مجهولاً تماما لدى الأوربيين، ففي رسالة مؤرخة بـ 10 فبراير 1641 موجهة إلى رشليو نجدها تذكر بأن الاندلسيين بالقصبة أحاطوها بخندق لعزلها عن الرباط وذلك إما لكي يصبحوا هم انفسهم سادة للقصبة أو لتسليمها للاسبان.(226).

والملاحظة الاساسية حول المشروع انه لا يوجد ضمن أرشيف سان لوكار الذي توجد به وثائق م. سيدونيا، فضمن المجموعة 21 من «رسائل الملوك وكتاباتهم إلى رجال أسرة م. سدونيا ونسخ بعض الأجوبة لسنوات 1630—1631 لا نجد أي ذكر للمشروع. فيظهر، إذن، ان المشروع تجوهل تماماً في مدريد، خاصة إذا علمنا أن مقترحات ورسائل الدوق لم تكن تحظى بإجابات الملك دائماً(227).

ونستطيع أن نتأكد من ذلك بصفة أكثر استعراضنا للرسالتين الموجهتين من فليب الرابع الى م. سدونيا.

الرسالة الاولى مؤرخة بـ 25 أكتوبر 1631 يخبر فيها العاهل الاسباني رئيس اسطوله بما توصل به من حاكم سبتة، إذ يذكر له ان العياشي شهر بالمرسكيين ويذيع بأنهم مسيحيون وإنهم يعيشون في قلق شديد(228).

الرسالة الثانية وهي مؤرخة بـ 20 نونبر 1631، ويذكر فيها فليب الرابع قبطانه بالتقارير الواردة اليه من حكام المعمورة وسبتة وطنجة ومليلة وحجرة بادس وفيها يؤكد له ان العياشي «قد أعد قوات كبيرة وانه يحاول المس بالثغور حال تخلصه من الحرب التي يخوضها ضد المورسكيين..»(229).

---

(223) كتب في آخر المشروع ما يأتي «وهذا الجواب مع الملاحظات والشروط السالفة الذكر أرسلت إليَّ ممضاة من طرف محمد بن عبد القادر صيرون حاكم القصبة، والقائد ابراهيم بركاش من قواد الديوان ومحمد بلانكو وموسى سانتياكو كتاباً. والنص الأصلي بين يدي في انتظار أوامركم».

(224) op. cit. P. 25.

(225) op. cit. P. 139.

(226) S.I.H.M. 1ère série. France, 3 370.

(227) G.G. Busto, op. cit. 140.

(228) G.G. Busto. op. cit. P. 355

(229) Ibid. P. 357.

ويذكر بعد ذلك بما ورد اليه من حاكم المعمورة «... ويقول القبطان باريونويبو Barrionuevo بأن كل المعلومات تتفق على أن الموريسكيين مصممون على وضع أنفسهم تحت حمايتي إذا لم يستطيعوا مواجهة العياشي، ويطلب أن يبعث له بالرجال والاسلحة والذخيرة وعليه أن يحرص على تشجيع الموريسكيين عندما يحين الوقت للتحول الى خدمته...»[230].

وينتقل الملك بعد ذلك الى الحديث عن الخطر المحدق بالثغور الاسبانية في حالة استيلاء العياشي على القصبة[231].

هكذا نرى، إذن، ان أية إشارة لم تعط عن المشروع الهورناتشي في الرسالتين اللتين رأيناهما. هل تغوضي عنه بسبب الشروط المفروضة من طرف موريسكيي القصبة ؟ أم ان المشروع بعد دراسته من طرف مجلس الدولة الاسباني اقتنع بعدم اهميته من أية وجهة كانت واعتبروه كأنه لم يصل، غير أننا لا نستطيع مع ذلك أن نفهم غاية العاهل الاسباني من طلب تقارير عن القصبة وقد توصل بها مسهبة قبل وقت وجيز.

لا توجد مراسلة بين الملك والدوق خلال سنة 1632 إلا وتشير الى موريسكيي القصبة.

هناك مسودة رسالة لمدينا سدونيا بتاريخ 25 يناير يعتبر فيها جد إيجابي موقف الموريسكيين من «حيث انهم يميلون الى خدمتكم والتمتع بحمايتكم»[232].

تشل لقاءات الدوق مع الهورناتشيين بسبب وباء الطاعون الذي حل بالمعمورة، والذي مات فيه الحاكم وعدد كبير من الحرس، وينتظر الى أن يهدأ المرض، ليتمكن من مكاتبة فليب الرابع في 29 فبراير مخبراً إياه انه ارسل الفارس ماركوس دي بركانسا Marcos de Berganza محملا برسائل إلى قواد القصبة وتجدون ردهم بالنسخة صحبته، والذين يظهرون فيها اعترافهم بالفضل الذي أوليتموه لهم.. وتذمرهم من محاولات العياشي، ويحتفظون باستعمال عروضكم التي قدمت لهم باسمكم الى حين تدعو الحاجة الى الاستفادة منها[233].

فالهورناتشيون الذين لمسوا الصمت الذي آلت اليه الاقتراحات العملية بالرجوع إلى بلدهم، لا يظهرون مستعدين للمفاوضة حول تسليم القصبة ولا حتى لقبول نجدة تورطهم تجاه المغاربة. غير أن رسالة من الملك بتاريخ 23 يوليوز الى م. سدونيا[234] تؤكد ما سبق أن أكدته الرسائل السابقة «... لقد بعثت لكم بأن تعرضوا على أهل القصبة مساعدتي ورعايتي، دون أن تطلبوا منهم القصبة، ولكن إذا كانت هناك إمكانية التفاوض في شأنها فسيكون ذلك عظيماً.. «والملاحظة الاساسية ان

(230) Loc. cit.
(231) Loc. cit.
(232) G.G. Busto. op. cit. P. 359.
(233) Ibid. P. 361.
(234) Ibid. P. 363.

فليب الرابع، في نفس الرسالة ينبه إلى العجز الكامل في المال والرجال والسفن، وهذا أمر يوضح كثيراً من الاشياء سواء ما يتعلق بالاندلسيين أو الاسبان، ولقد وجد حلا للمال والرجال، أما بخصوص السفن فيقول «إنها غير موجودة، ولكن باعتبار أن هذه ليست مفاجأة وبأن العياشي لا يملك أسطولاً بحرياً وأن المورسكيين يملكون سفناً حربية، فيظهر أنها لن تنقص كثيراً، فالتسليم يمكن إنجازه بعدد قليل من الرجال خاصة ان المورسكيين سيبقون بجانبنا في الضواحي وفي حالة الضرورة يمكن الاستعانة بقادس...»، إذن، فالاندلسيون تقرر عمليا تركهم بالمغرب وإن لم نجد أي وثيقة مكتوبة في هذا الشأن.

فالرسالة السابقة إعراض ضمني عن الشروط الموضوعة من طرف الهورناتشيين في مشروع اتفاقيتهم لبدايات سنة 1631. وبكل تأكيد فإنه لن يروق لأي اندلسي البقاء بالقصبة في ظل ظروف صعبة وقاسية، وفي حالة ما إذا تقرر بقاؤهم بها ماذا سيجنون من حماية فليب الرابع؟ خاصة انهم سيضعون انفسهم صراحة في مواجهة المغاربة والحالة هذه ان الثغور الاسبانية نفسها كانت تعاني من قلة الامدادات وسوء الحراسة، كما يتجلى ذلك من التحذيرات المتكررة الموجهة من الدوق الى الملك، والمورسكيون كانوا على علم بذلك، فكانوا يفضلون اللجوء الى مساعدة سلطان مراكش للتغلب على دسائس العياشي، إذ توضح مسودة لمدينا سدونيا الى فليب الرابع في 8 غشت[235] ان المجاهد «أقر رأياً ببث العداوة بين المورسكيين والمغاربة بنعتهم بأصدقاء المسيحيين، وجواسيس اسبانيا، ومساعدي ثغورنا، مما ألب عليهم النفوس، لذا فهم يحتاطون من الالتجاء لمساعدتنا بغية تكذيب ذلك الادعاء أو على الاقل حتى لا يتأكد ذلك عليهم ويرجئونها حتى يصبحوا اكثر حظاً مع اتباع سلطان مراكش..»، ويخلص بعد ذلك الى اقتراح عملي «وعليه فإني أشك بأن يلجأوا الى ما عرض عليهم بدون وجودهم في ضيق جديد، وإن مساعدتنا، عند توفرها، يستحسن أن تكون من المؤن والذخيرة لإمكانية إيصالها في سرية وتحفظ..»، وفيما يتعلق بالاستيلاء على القصبة يرى «بأن أول ما يجب محاولته هو الاستيلاء على تلك القصبة، ولتحقيق ذلك يجب إمدادهم بما هم في حاجة اليه بدون مقابل، لانهم إذا أحسوا بأن الامدادات توجه لهم طمعا في القصبة فإنهم لن يقبلوها ويصبحون حذرين ومرتابين تجاهنا، وفي رأيي يجب أن نكسب جانبهم، وأن ننتبه الى ما سيقومون به في أحرج الظروف وأيأسها للتخلص من ضغوط العياشي، وبتحقيق الامرين معا سيقررون لا محالة تسليم القصبة..».

إن المورسكيين لا يحتاجون الى أي شيء يكرر الدوق في رسالة له الى الملك بتاريخ 12 شتنبر[236] وكان قد تأكد من ذلك من خلال أقوال القس ألونسو خيمينيس دي ميسا (Alonso Jimenez de Mesa) الذي بعثه الى القصبة «يقول انهم استقبلوه جيدا وأكرموه وعاملوه بأدب وصداقة وسخاء، معبرين بهذه التصرفات عن عرفانهم بما تقومون به لصالحهم والحماية والاهتمام المقدم لهم مؤكدين بأنكم تستحقون عطفهم وانهم عند الضيق لن يلجأوا لاية مساعدة غير مساعدتكم بالمؤن

---

(235) Ibid. P. 367.

(236) Ibid. P. 371

والسلاح والذخيرة ولكنهم في الوقت الراهن لا يحتاجون الى أي شيء من هذا، وهم يتمتعون بحراسة لا بأس بها، وذلك لأنهم متمكنين من البحر، ورغم ان العياشي يحاصرهم من البر فإنهم لا يحتاجون الى معونة، وفي الاخير يقبلون ما قدمته لهم باسمكم واحتفظوا بالالتجاء اليه في حينه عندما تدعو الضرورة الى ذلك..».

وينتقل بعد ذلك م. سيدونيا الى ما راج من حديث سري بين الاندلسيين والقس «... ويقول الأب فراي ألونسو خمينيث دي ميسا بأن القواد عند حديثهم السري معه — الذي أظهروا فيه ميلهم لاسبانيا البلد الذي ولدوا فيه والامتنان الذي يكنونه لرعايتكم — أفضوا له بأنهم لا يستطيعون اتخاذ قرار نهائي، لانهم إن فعلوا ففي ذلك خطر على حياتهم وحياة أموال الموريسكيين الآخرين من عائلاتهم الذين يوجدون بتونس وجهات اخرى، والذين يتراسلون معهم للمجيء الى ذلك الموقع بممتلكاتهم، يقولون انهم اذا اطمأنوا على هذا فسيتمكنون من وضع انفسهم تحت طاعتكم. وأبدوا رغبتهم في أن يمكث الاب الونسو في المعمورة وأن يراسلوهم وأن يراهم وقد أعطوه الاذن بالمرور العام...» وانتقل بعد ذلك الى جملة من الاقتراحات العملية «كما تحادثوا معه على ضرورة ارسال ثماني سفن الى مصب النهر عند الضرورة، وذلك ليس فقط لإفساح المدخل ولكن كذلك لتطهير المرسى مما يضعه فيها العياشي من سفن في عداد ثماني أو عشر سفن يأتي بها من الجزائر للاستيلاء على ذلك المدخل...».

ويقترح م. سيدونيا ان يسمح للسفن الاندلسية ان تتاجر مع موانىء شبه الجزيرة الايبرية مقابل ان تتوقف عمليات الجهاد البحري ضد اسبانيا».

وبعد شهر، في 10 اكتوبر بعث م. سيدونيا الى فليب الرابع برسائل من حكام القصبة يشكرونه فيها على ما عرض عليهم. وبانهم سيلجأون «حين تدعو الضرورة». ولكنهم يعودون الى التأكيد على شرطهم الاساسي، الذي بدونه لن يكونوا مستعدين لاية مفاوضة معمقة فيقولون «بان تكتبوا حتى تقبل العائلات الموريسكية مع امتعتها على حدود قشتالة والبرتغال لمن يلتجأ اليها وبان يسهل مرور سفنهم»[237].

وهنا النقطة الاساسية فيما يتعلق بنجاح او فشل تسليم القصبة الى اسبانيا، فالاندلسيون لا يرغبون في المكوث بالقصبة وهم في هذا الضيق الشديد الذي يحيط بهم من كل جانب، لكنهم مع ذلك لن يسلموها اذا لم يسمح لهم بالعودة.

وبدون شك فان مدريد قد غضت الطرف عن هذا العرض كما غضت الطرف من قبل عن باقي العروض الاخرى.

وهناك رسالة ملكية الى الدوق بتاريخ 10 دجنبر تشير فقط الى رسالة هذا الاخير بتاريخ 12 شتنبر والمتعلقة بارسال السفن اذ تذكر بان الوقت غير ملائم، وتأمره بان يشغل الاندلسيين بالمحادثات

---

(237) Ibid. P. 146.

بي الصيف، وتأمره كذلك باخذ رهائن ضمانا لتسليم القصبة، وبتعيين ميناء واحد يمكن من خلاله للاندلسيين ان يتاجروا مع اسبانيا.

اما عن قبول الاندلسيين بشبه الجزيرة الايبيرية فلا توجد كلمة واحدة[238].

ويستمر م. سدونيا في مواجهة العياشي وابعاد الاندلسيين عنه ففي رسالة منه الى ملك مؤرخة ب 8 يناير سنة 1634 يذكر ما يأتي «اني اقوم بمساعي مع شيوخ القبائل للابقاء على الفتنة بينهم وبين العياشي ويبدو لي ان اقوم بمثل هذا مع اصحاب القصبة واقناعهم معيدا الى ذاكرتهم ما قدمتموه بخصوص المساعدة والحماية...»[239].

ونشير الى تطورين أساسيين وقعا في هذه الفترة :

اولا وفاة دون مانويل دوق مدينا سدونيا في 20 مارس 1636، وخلافة ابنه له الدوق كاسبار دي كسمان اي ساندوفال التاسع 9° D. Gaspar de Guzman y Sandoval وهو اقل حنكة من ابنه في امور المغرب، ولكنه مع ذلك سيفرض نفسه بسرعة.

ثانيا : تطور يقع داخل القصبة نفسها، الا وهو طرد الهورناتشيين منها والسيطرة عليها من طرف اندلسيي الرباط، برئاسة شخصية ذات مكانة خاصة، هي شخصية علي القصري.

ولكن رغم هذين التطورين فاننا نجد دائما نفس القضية، وبنفس الطرح تقريبا، بشخصيات مختلفة.

* * *

تتجلى في وثائق سان لوكاردي بارميدا الصعوبات التي يلقها القصري من جراء الحصار المفروض عليه في البر من طرف العياشي وفي البحر من طرف الاميرال الانجليزي رينسبوروغ[240].

يبدأ الدوق الجديد علاقاته مع حكام القصبة في اواسط فبراير من سنة 1637.

وهو يعرض نفس الوسائل التي سبق لوالده ان عرضها «وبنفس حسن النية».[241]

وفي نفس التاريخ تقريبا يحيط العاهل الاسباني علما بتلك الرسالة[242] «لقد راسلت حكام

---

(238) Ibid. P. 147.

ملاحظة

هناك رسالة انجليزية مؤرخة بسنة 1633 تخبر بوجود اتفاقية سرية بين القصبة واسبانيا وضمنها بند يسمح بعودة الاندلسيين الى اسبانيا، وقد تكون في نفس السنة وضعت بين ايدي البابا للمصادقة عليها.

انظر

S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 189.

(239) G.G. Busto. op. cit. P. 377.

(240) Ibid. P. 148.

(241) Ibid. P. 379.

(242) Ibid. P. 381.

خصة بما امرتهم به مذكرا اياهم بما كان في الماضي، وما زال ساريا في الحاضر وحاثا اياهم على مواجهة العياشي كما اعرض عليهم حسن الاستقبال في المعمورة، لكون التراجع اليها يكون في مصلحتهم، واعرض عليهم المعونة بالمؤن...

فالرسالة توحي بان وريث م. سدوينا قد درس الملف الخاص بالقصبة وبتابع او يحاول متابعة خطوات، سابقه، وطالما لا يشير الملك بشيء آخر فإنه يحاول حماية الموركسيين من العياشي. وبنفس اللهجة نجد مسودة اخرى من الدوق الجديد الى الملك وهي مؤرخة ب 20 ابريل سنة 1637(243) يخبره فيها بانه ارسل المساعد دييكو دي هوكيرا Diego de Hoguera ومعه عدة رسائل الى القصري الذي اجابه بانه لا يحتاج الى اعانة.

والواقع ان القصري لم يكن في حاجة الى معونة الى حين ظهور الاسطول الانجليزي في 24 مارس سنة 1637، اذ كان هذا الاسطول بمساعدة العياشي على وشك خنق القصبة.

اما فليب الرابع نفسه فيكتب الى م. سدونيا في 29 مارس 1637 برسالة(244) يخبره فيها بارسال ملك انجلترا بست سفن الى مصب ابي رقراق (للحيلولة دون تعرض رعايا الامراء المسيحيين لاساءة القراصنة)، ويأمره بان يعتني بهم اذا وصلوا الى أحد الموانى التابعة لامرة الدوق، وهذا الأخير أجاب في 5 أبريل بأنه سينفذ أمره. ولكن بعد شهرين في رسالة مؤرخة ب 14 يونيو(245) نجده يثير انتباه العاهل ان المستفيد من الوضعية سيكون العياشي مع الاساءة الى الثغور الاسبانية.

وبعد شهر من هذه الرسالة، وبالضبط في 12 يوليوز يضطر الى كتابة رسالة مطولة(246) إلى العاهل يقول فيها أن الانجليز يتفقون مع العياشي، ويعدهم هذا الأخير بتسليمهم السجناء المسيحيين بالقصبة، ويعلن خبراً عن هروب القائد القصري وأن العياشي والانجليز سوف يدخلون القصبة بعد 4 أيام...

وبعث الملك إليه اثر ذلك في 11 غشت رسالة(247) يخبره فيها بأنه أحيط علما بالوضعية ويأمر الدوق بما يأتي «عليكم أن تتفاوضوا مع الموركسيين بأن يسمحوا لنا بالدخول إلى القصبة للاستيلاء عليها... وقد بعثت الى الانجليز للتحادث معهم بغية فسح المجال لسفننا كي تدخل الى القصبة.

ولكن قبل أن يمضي الملك الرسالة، وقبل أن تصل الى سان لوكار، كان الدوق قد اتخذ إجراءات توحي بمعرفة وتصميم مناقضين لتردد وجهل مدريد(248).

---

(243) Ibid. P. 383.
(244) Ibid. P. 385.
(245) Ibid. P. 387.
(246) Ibid. P. 389.
(247) Ibid. P. 391.
(248) Ibid. P. 150.

هذا على الأقل ما نستنتجه عند قراءتنا ىتعليمات التي أعطيت للقبطان الونسو دي كاستريخون Alonso de Castrejon الذي يبعثه الدوق الى القصبة للتباحث مع المورسكيين، وتوجد هذه التعليمات في وثيقة مؤرخة بـ 9 غشت[249]. وهي تسطر جملة من البنود يمكننا أن نقابلها بالشروط التي وضعها الهورناتشيون في سنة 1631.

وهكذا يقول الدوق في تعليمات

إذ قال المورسكيون بأنهم يملكون تجهيزات كافية للمواجهة فردوا عليهم بأننا جد سعداء بأن يحتفظوا بالموقع وأننا على استعداد لتقوية ذلك التجهيز. واذا وجد تموهم في ضيق خانق فاعرضوا عليهم أن يضعوا أنفسهم تحت رعاية الملك الذي يعرفون قوته وصدق حمايته وأن يعطوا موافقتهم لدخول جنودنا إلى القصبة..».

أما الشروط التي عرضها فيمكن تلخيصها فيما تأتي

— «يمكنهم المكوث في الرباط أو القصبة ويعمل على حمايتهم ورعايتهم رجال الملك وأساطيله، ويبقون متمتعين بحريتهم وبالتجارة مع كل الدول».

فيقع الاعتراف اذن بأن ما يقوم به الاندلسيون هو تجارة وليست قرصنة مع السماح لهم بمتابعتها.

— «لمن رغب في الدخول في ديننا الكاثوليكي، يسمح له أن يعيش في أي جزء من ممتلكات ملك اسبانيا مع كل الحقوق والحريات التي يتمتع بها باقي الاسبان».

ونلاحظ هنا أن البند لم يشر الى الهورناتشيين، لأنه فعلا لم يبق هناك هورناتشيون بالقصبة. كما أنه هنا يحتفظ بالحق الملكي لتحديد المكان الذي يمكن للاندلسيين أن يقطنوه باسبانيا. هل كانت مدريد حقا مستعدة بقبول الأندلسيين من جديد باسبانيا أم أن الدوق كان يتكلم من ذاتيته بدون مقترحات ملموسة من فليب الرابع ؟ وهذه نقطة مهمة — في حالة الاجابة عليها — سوف توضح عدة أشياء.

— ويمكن لمن اراد البقاء في الرباط المتاجرة مع اسبانيا في الميناء الذي يعين لهم وليس في غيره، مع حرية المرور بالنسبة للسفن التي تمون الثغور الاسبانية.

— واذا كانت لهم رغبات اخرى تقولون بان ملك اسبانيا مستعد لبحثها وتنفيذ ما يناسب منها وبان الاسطول موجود في قادس ومستعد للقيام بمساعدتهم، ووضع الحرس بالقصبة، وقبل دخول الاسطول يجب التباحث حول الرهائن والبت في امرهم، ويسلم رهائن اخرون من نساء واطفال وامتعة يبقون في المعمورة والعرائش الى ان يتم دخول الاسطول والحرس...».

---

(249) عثر بوسطو على هذه الوثيقة في ارشيف سمنكاس، ولا توجد لها مسودة في ارشيف سان لوكار، وقد نشرها ضمن ملاحقه الاربعة السالفة الذكر، ص 393.

وفي نفس الشهر وبعد ايام فقط، في 23 غشت، يخبر الدوق امس «بان الترتيبات كانت قد بدأت لتسليم القصبة وبدأ الانجاز بالفعل لولا وصول رسائل من سلطان المغرب ومن احد الانجليز بان يسلم المورسكيون الاسرى الانجليز مقابل تراجع سفنهم التي كانت تسد مصبّ النهر وتمنع المساعدة. واعتبر ان من حسن الحظ انه لا العياشي ولا الانجليز تمكنوا من القصبة ويرجا ان نصل الى متفاهم مع المورسكيين. وحسبما الى به كاسترخون فانه سيتحسن ان توضع سفن تسد عليهم مصب النهر، كما فعل الانجليز من قبل حتى ندفعهم لتسليم القصبة خصوصا انه ظهر فيهم من يميل لاسبانيا»(250).

وفي 30 غشت 1637 بعث م. سيدونيا رسالة(251) يخبر فيها الملك بتفاصيل عن شؤون الرباط «نظرا لان السفن الانجليزية تتأهب لمغادرة مصب النهر، فان سفن المورسكيين تتمكن الان من التحرك، وبما ان الحصار ما زال مستمرا من الداخل فان القائد القصري يود جلب بعض المؤن، وعندنا كمية من البسكويت يمكن اعطاؤها لهم لتأكيد المصادقية في عهودنا لهم، وكما كان والدي قد عاهدهم من قبل (تقديم المساعدة لهم في حالة اشتداد الازمة عليهم) فانني اري ان نصرف لهم هذه المساعدة...»

ويعقد القصري بعد ذلك اتفاق مع كاسترخون في 37/9/19(252)، وفي هذا الاتفاق لا يقع الحديث عن تسليم القصبة، بل كل ما جاء في ديباجته أن هدفه هو الخير العام لهذا الموقع، وللجمهورية، للمحافظة عليها في خدمة ملك اسبانيا. وأهم ما نص عليه الاتفاق

1 — حرية الملاحة وتحرك السفن التي تخرج من القصبة في أمان سواء كانت قادمة من اسبانيا أو خارجة من الشواطىء الافريقية.

2 — اذا تعرضت احدى المواقع الاسبانية المعمورة، العرائش، طنجة، سبتة، الجديدة، لأي عدوان يكون لزاما تقديم المساعدة لها.

وباقي البنود تتعلق بتموين الثغور من الجانبين، وافتداء الأسرى، والتجارة مع الثغور الاسبانية.

وفي 6 أكتوبر 1637 يحيط الدوق الملك علما بكل ما تفاوض في شأنه، باعثا الى مدريد بالقبطان كاسترخون نفسه(253).

ويوافق مجلس الدولة الاسباني في قراره بتاريخ 16 نونبر 1637 على المساعي التي قام الدوق(254).

(250) Ibid. P. 399.
(251) Ibid. P. 403.
(252) Ibid. P. 407
(253) Ibid. P. 417.
(254) Ibid. 421.

وفي سنة 1638 يقع الحديث من جديد على احتلال القصبة في وثيقتين
الوثيقة الأولى عبارة عن تقرير صادر عن مجلس العرش الاسباني مذيل برأي العاهل. أما الوثيقة الثانية فهي تقرير القس للملك.

في الوثيقة الأولى(255) يكاد يكون الماركيزدي بيلافرانكا Marqués de villa Franca الوحيد الذي يتقدم بعرضه وهو يعارض احتلال القصبة لأنه لا يعتبر ذلك ذا أهمية، وفي حالة الاستيلاء على القصبة فإن المغاربة سوف ينتقلون الى موانىء أخرى من المغرب فيصير لزاما الاستيلاء على تلك الموانىء مما سيكلف «مصاريف باهضة بدون أية فائدة».

وينبغي زرع الشقاق بين الموريسكيين والمغاربة حتى «ينشغلوا عن تهديد العرائش والمعمورة وطنجة وسبتة»، ويكون من الاضمن — يختم الماركيز — ان تزود المعمورة والعرائش بالذخائر والمؤن اللازمة.

لم يكن ولو صوتا واحدا في المجلس كله ينادي باحتلال القصبة، ولكن على الهامش نجد رأي الملك التالي، الذي سجله بخط يده

«فيما يخص الاستيلاء على ذلك الموقع (القصبة) أرى أنه اذا كان ذلك الميناء سيئا كما يقال فإن ما صدر هو الصحيح. ولكن بالنظر الى ما قام به هؤلاء الموريسكيون بامكانياتهم الذاتية، وبالنظر الى الغنائم التي يحصلون عليها كل سنة، وبالنظر إلى قوتهم البحرية التي تصاعدت الى أن وصلوا سواحل انجلترا، فإني أجد هذا الميناء ذا أهمية عظيمة.

ولقد وجهت الي إشارات عديدة من مجالس الحكومة والمجالس السرية، بأن تغزو قواتي ذلك الموقع... أن كل الموانىء في المغرب، المتاخمة لاسبانيا، إما أن تصبح تابعة لي أم مرتبطة معي بولاء حقيقي وصلب، وأني أفضل هذا الأخير اذا كان ذلك ممكنا». وتخبرنا مصادر وثائقية غير اسبانية عن اتصالات اسبانية موريسكية في نفس السنة (1638) في شأن احتلال القصبة(256).

وفي أواخر يونيو وبدايات يوليوز بعث الدوق م. سيدنيتا الى مصب النهر سفينة ذات حمولة 700 طن وبرفقتها 3 سفن صغيرة، كانت تحمل 600 جندي وقدرا كبيرا من المؤن والذخيرة ويقول كارتريت Carteret في مذكراته بأن الجنود الاسبان كان هم أمر بالنزول وبأن القصري (الابن) كان قد بعث للدوق تحذيرا يقول فيه بأن الوقت قد حان لوضع القصبة بين أيدي الاسبان لأنهم لم يتوصلوا بأية مساعدة من سلطان مراكش، وبأنهم لا ينتظرون حسن المعاملة من اهورناتشيين الذين يحاصرونهم، لذلك فانهم يسلمون أنفسهم مضطرين للملك اسبانيا، لكن الرايس مراد كان قد وقف في وجه نزول الجنود الاسبان ولم يتمكن القصري من اقناعه.

---

(255) Ibid. P. 423.

(256) يتعلق الامر بمذكرات الانجليزي كارتريت Carteret ومواطنه بليك Blake وتوجد ب
S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, pp. 442 et seq.

وبقي الجنود الاسبان عدة أيام ينتظرون مانعا اياهم مراد رايس من النزول، في حين كان الاندلسيون يرغبون في نزوهم نظرا لأنهم كانوا في حاجة الى المؤن والذخيرة التي كان يحملها الاسبان.

ويتراجع الجنود الاسبان في الثالث أو الرابع من يوليوز الى المعمورة تاركين المؤن بالقصبة، وبعد أسبوع يتوصل المحاصرون برسائل من السلطان يشجعهم فيها على المقاومة ويخبرهم بأنه سيصل إلى مشارف سلا في أواسط الشهر، ولكن الذي يصل هو كارتريت في أوائل غشت، ومعه المساعدات وأخبار بقرب مقدم السلطان، لكن هذا القدوم لم يتحقق.

• • •

ما زال العياشي يحاصر القصبة برا انطلاقا من الرباط نفسه، بمساعدة الهورناتشيين الذين يحاصرون القصبة بحرا، والمحاصرون يقاومون حسب امكانياتهم ويطلبون مساعدات من السلطان، ومن اسبانيا على الخصوص. أما الدوق فإنه يسرع بإمدادهم بالذخيرة.

تتطرق ثلاث رسائل من الدوق الى الملك، خلال شهر يناير سنة 1639، هذه القضايا.

— يوم 4 ينير[257] يذكر في هذا الصدد «تتوارد الأخبار عن أن العياشي قد تقوى بالرجال وأنه يعتزم الاستيلاء على القصبة من جديد وأني انتظر ما تشيرون به كي أقوم بانجازه»

— يوم 19 يناير[258] يذكر للملك «أن العياشي قد استعمل سفن انجليزية، وأخرى فرنسية، ويسد بها مصب النهر لمنع الامدادات عن القصبة، وخصوصا منها ما يأتي من طرف سلطان المغرب، وأني أرى ان نستعمل سفنا من المعمورة لازاحة الخطر عن مصب النهر.»

— يوم 22 يناير[259] يكتب ما يأتي عروض الانجليز والفرنسيين على سلطان المغرب حول القصبة يمكن أن تفضي بها الى أحد هاتين القوتين... ضرورة تقديم مساعدات لسلطان المغرب حتى لا يلتجىء الى غيرنا، وتسقط القصبة، وتتلوها المواقع الأخرى... في حالة الموافقة على دخول القصبة يمكن فقط لمائتي رجل من العرائش ومائتين من المعمورة ان تستولي عليها...

وبالفعل نجد محمد الشيخ الاصغر يكتب رسالة الى م. سدوينا في 6 صفر 1049هـ (10 يونيو من سنة 1639) يطلب فيها ازاحة سفينة فرنسية من مصب النهر لانها باتفاق مع العياشي كانت تعيق مرور المساعدة الى القصبة ان سفينة من سفن الفرانصيص جاءت هذه الأيام لعدوة سلا ونزت هناك واخدت في البيع والشراء مع العدو، وانشغلت بوجوه الاضرار والنكاية، فمن ضررها أننا وجهنا خدامنا الذين بقصبة سلا شيئا من إقامتهم على يد الكند (El Conde) حاكم البريجة في شيصية

(257) G.G. Busto, op. cit. P 431.
(258) Ibid. P. 433.
(259) Ibid. P. 435.

وقبطانها هو كسبير دكوت (Gaspar de Coito)، فذهبت الى أن وصلت المرسى بقصد ابلاغ ما بعثنا فيها فتعرض لها اصحاب تلك السفينة الفرانصية ومنعوها من الدخول، وإلى هذا فالمراد من جهة المحبة أن تأمر لبعض السفن يتوجهون لتلك السفن حتى يأخذوها ويقطعوا ضررها، ويمنعوها من البيع والشراء مع العدو، فان تركت على حالها يزيد ضررها وفسادها...

وقد كنا آخذين بالحذر منها وكتبنا لكم قبل هذا فلا يصلكم اهمال ولا تراخ في التدبير عليها والانتقام منها. ومما يكون لكم من الاغراض ببلادنا فقضاؤه أعز ما عندنا...»[260].

وقبل الانتقال الى جواب م. سدونيا تشير الى رسالة من خورخ ماسكريناس Jorge Mascarenhas حاكم طنجة الى الملك في 12 غشت 1639[261] فهو يذكر أولا بأن «سلطان المغرب وأهل القصبة يميلون الى المسيحية فيجمل ان نسلم القصبة اليكم من ان تسلم الى المغاربة أو الانجليز...»، ويذكر له ثانيا «... ان هناك ثوارا عديدين يقومون ضد سلطان المغرب بالاضافة الى العياشي، وهم ينوون الانضمام الى بعضهم البعض لطرد سلطان المغرب والتخلص من السعديين ويسيطرون بذلك على المغرب فيصبحون اثرها لنا مجاورين سيئين...» ويلخص الى ما يأتي «... وعندما يجد السلطان نفسه في موقف حرج، فسوف يسلمنا القصبة بدون شك وسوف لا يكلفنا الاستيلاء على القصبة الشيء الكثير، اذ سوف نكتفي باستعمال السفن من المعمورة، وأخرى من الجديدة...».

وينتقل الحاكم بعد ذلك الى ما يسميه بوسطو «بفضيحة تستحق التسجيل»، اذ يقترح «ان يستغنى عن الجديدة وتهدم مقابل الحصول على القصبة، وأن يرحل الى هذ الاخيرة، أنها بالنسبة لاسبانيا أكثر ملاءمة»، كما يقترح الاحتفاظ بالاندلسيين بالرباط لتدعيم المدينة.

بعد ذلك يجيب م. سدونيا السلطان في 18 شتنبر[262]، مخبرا «بازاحة السفن الفرنسية التي كانت تعيق وصول مساعدات السلطان الى القصبة واستعداده لتقديم المزيد من المساعدات في هذا الاتجاه»، ويعلن عن وصول محمد مالدونادو Maldonado والكاهية علي اوليباريس Olibares (من أصل اندلسي) لامداد القصبة بمساعدة السلطان، لكنهم لم يتمكنوا من تقديم هذه المساعدة لانهم وجدوا مصب النهر مغلقا فاضطروا لتغيير وجهة المساعدة الى الجديدة. ثم يعقد القصري الابن بعد ذلك اتفاقية مع كاستريخون في 17 نونبر 1639[263] شبيهة بالسابقة مع اضافة بند سابع يقول : «... كل الاسرى الهاربين من المجاهدين والذين يدخلون القصبة يصبحون احرارا كما لو كانوا في اسبانيا...».

(260) Ibid. P. 440.
(261) Ibid. P. 441.
(262) Ibid. P. 446.
(263) Ibid. P. 449.

ولا نجد إلا أخبارا قليلة تهم الموضوع في سنة 1640، ففي 5 فبراير[264] يخبر م. سدوينا الملك بأن «العياشي قد ضيق الحصار برا وبحرا، وأن السلطان قد طلب مني ازاحته عن مصب النهر، وذلك ما فعلت فدخلت الامدادات إلى القصبة، وكان شكرهم وامتنانهم كبيرا وعبروا عنه باللسان وبالعمل، حيث اطلقوا سراح 39 من الأسرى الاسبان من بينهم رجال الدين، ونساء، وأطفال، وقد لوحظ في القصرى الأبن ميلا الينا، مما يشير بالخير لما تعتزموه فيما بعد.

وعن طلبهم لمساعدات ذات أهمية قصوى من بعض السفن والسلاح والمدافع فإني قد صرفتهم عنه، لكي يبقوا دائما في تبعية لكم.

وعن المال، فإني لا أرى مانعا في مدهم به مادامو سيدفعون مقابله حبوبا وملحا...».

وفي 9 فبراير يكتب الدوق الى حاكم الجديدة[265] مخبرا أياه بالمساعدة التي قدمها للاندلسيين استعداده لمواصلة مساعدتهم، كما يخبره باستجابة الاندلسيين له في اطلاق سراح الاسرى الاسبان.

ويبعث الدوق برسالة في نفس التاريخ[266] الى السلطان يقول فيها «... لقد بعثت بقوة لتطهير مصب النهر كما طلبتم مني، وان لم أكن قد ارحتكم نهائيا من ذلك الثائر على سلطانكم فإني قد ابعدته عن مصب النهر، بحيث يمكن لمساعدتكم أن تصل إلى القصبة.

ولقد صادق أن وجد القبطان كسترىخون في القصبة حين كان العياشي يحاول نسفها، فكانت مساعدته جد قيمة في الحيلولة دون وقوع ما اعتزم العياشي القيام به.

وكان الارتياح كبيرا عند تحريركم لاؤلئك الاسرى، وسوف عطفكم أشمل اذا حررتم من بقي من اؤلئك البؤساء...».

فالمساعدة، اذن، كانت بالعتاد والرجال، حيث ان القبطان كاسترىخون كان قد ساهم في حماية القلعة بثلاثين جنديا كما يمكن قراءة ذلك في المذكرة التي بعثها القبطان المذكور بتاريخ 9 فبراير مصحوبة برسالة توصية من الدوق[267].

وفي 11 فبراير 1641 يأمر الملك م. سيدوينا بأن ينقذ الاندلسيين، لاستمرار حصار العياشي[268]. لكن العياشي قتل بعد شهور قليلة (21 أبريل 1641) من ذلك، وأصبحت القلعة الاندلسية تحت حماية الدلائيين، فلم يتمكنوا بعد ذلك من عقد اتصالات مع الاسبان، حيث ضاع من أيديهم التحكم في القصبة، وصار استقلالهم السياسي يتقلص شيئا فشيئا.

(264) Ibid. P. 453.
(265) Ibid. P. 457.
(266) Ibid. P. 457
(267) Ibid. P. 463.
(268) Ibid. P. 161.

كلمة أخيرة عن العلاقات الاندلسية المسيحية

كثر الحديث خلال الفقرات السابقة عن كون هؤلاء المهاجرين مازالوا مسيحين مخلصين وعن استعدادهم لتسليم القصبة سواء للاسبان أو الانجليز.

والواقع أن هناك ترابطا بين هاتين النقطتين إلى حد كبير، فقد كان الاسبان والانجليز يبحثون عن وسيلة لاقناع حكوماتهم باستعداد الأندلسيين لتسليم القصبة فحاولوا من خلال تقاريرهم ومراسلاتهم أن يضخموا الجو العدائي الذي كان يعيش فيه الاندلسيون داخل المغرب سواء من السعديين أو من قبل العياشي والدلائيين، والاضافة الى سكان سلا وقبائل الاعراب، فهؤلاء كلهم كانوا ينظرون إليهم نظرة خاصة، فالمعتدلون منهم يتهمونهم بأنهم يتشبهون بالمسيحين، والمتشددون يعتبرون ــ بكل بساطة ــ (نصارى قشتالة)، وبالنسبة للمجاهدين هم خونة يتعاملون مع الاسبان، اذن فقد كان الاندلسيون وسط هذا الجو من الحقد والكراهية مستعدين (للتحالف مع الشيطان) مقابل انفاذهم. وازداد الأمر سوءاً بالنسبة إليهم أن الامور لم تكن على ما يرام بين القصبة والرباط، اذ كان الصراع مستديما بينهما وكان يستعين بأحد هذه الاطراف (المعادية) ضد الآخر.

وهكذا كان الاسبان والانجليز بالمغرب يحاولون باستمرار استغلال هذه الأوضاع.

فبالنسبة للانجليز كانوا يشجعون الاندلسيين منذ سنة 1627 على الاستقلال عن زيدان، وحاولوا أن يبسطوا حمايتهم على القصبة[269].

وفي نفس الوقت كان الانجليز يطمحون الى استغلال هذه القوة الاندلسية لتوجيهها ضد أعدائهم داخل المغرب من مغاربة وإسبان، لهذا وقع التنصيص على أن الاندلسيين مستعدون للم شتاتهم، وجمع ما يقرب من 10 الاف أندلسي في مكان واحد، سواء من المغرب أو من الجزائر وتونس لخدمة الانجليز ضد أعدائهم المغاربة والاسبان على السواء (فهم مسيحيون أكثر من الاسبان أنفسهم، وهؤلاء الأخيرون هم الذين رموا بهم بين أحضان المسلمين من مغاربة وأتراك، لذلك فقد رفضوا العودة إلى اسبانيا عندما دعاهم فليب الرابع لذلك مما يحتم علينا انقاذهم والاعتراف بكيانهم، على أساس ان لهم حكومة تمثل شعبا مورسكيا...). وينتقل الانجليز الى النتائج المتوخاة من كل ذلك

★ ــ في حالة استيلاء الاندلسيين على الشريط الممتد من سلا الى تطوان فانهم سيضايقون الثغور الاسبانية بالمغرب الى حد كبير ولن تضايق بعد ذلك السفن الانجليزية في أي مرفأ من الموانىء المغربية.

★ ــ استخدام الاندلسيين في الاستيلاء على المعمورة (لأنها أحسن مرفأ من سلا نفسها).

★ ــ الانطلاق بعد ذلك الى باقي الثغور الاسبانية بالمغرب.

★ ــ استخدام الاندلسيين في غزو اسبانيا نفسها، اعتمادا على نبوءة قديمة كانت تروج بقوة بينهم مفادها «ان جلاءهم سيكون من اسبانيا الى المغرب، ولكنهم سيعودون مرة أخرى على متن سفن

---

(269) لن نكرر الاحالات السابقة ويمكن الرجوع الى هذه الاحالات في النقطة التي سميناها بمحاولات الاوروبيين الاستيلاء على القصبة.

مسيحية، وهكذا لما علموا بقدوم الاسطول الانجليزي ظنوا ان النبوءة قد تحققت فاستعدوا بالاسلحة والذخيرة والبارود، وكل الضروريات للذهاب الى اسبانيا).

ــ وبالنسبة للاسبان تورد وثائقهم أخبارهم بنفس الشكل تقريبا، لكن في الاتجاه المعاكس الذي يخدم مصلحة الاسبان، ففي المشروع الهورناتشي لسنة 1631 نجد التأكيد على أن الاندلسيين رفضوا مساعدة العياشي في احتلال المعمورة، ولكنها تؤكد في نفس الوقت أنه عازم على استرجاع المعمورة (لتحطيم المورسكيين، ولكي يفقدوا جميع الامتيازات التي كانت لهم بمصب أبي رقراق لصالح مصب سبو، لان جميع السفن ستذهب الى المعمورة، لأنها أحسن، ويبدو أن المورسكيين تنبهوا لذلك، كما أن الوليد أراد استخدامهم في حربه ضد أخيه عبد الملك، لكنهم رفضوا مساعدته فاتجه الى العياشي).

وهكذا تؤكد الوثائق الاسبانية ــ كالوثائق الانجليزية ــ ان الاندلسيين كانوا يعيشون في حالة من الاضطراب والقلق سواء من العياشي أو الوليد أو من الاعراب (الذين يسمونهم مسيحيين، واذ صادفوهم خارج القصبة فانهم يلقون عليهم القبض). وتصل الوثائق الاسبانية ــ كالوثائق الانجليزية ــ الى النتيجة المتوخاة «ولهذا ولكي يتخلصوا من هذه المخاوف وبسبب الحب الكبير الذي يكنونه لاسبانيا فانهم قرروا تسليم القصبة لكم (لفليب الرابع).
لكن هذه المرة بشروط

ــ أن يرجعوا الى هوناتشوس بعد اجلاء السكان الحالين عنها
ــ ان يحكموا أنفسهم بأنفسهم
ــ لن يقبلوا من الاسبان بقريتهم إلا الرجال الدين
ــ لا تحتجز ممتلكات الاندلسيين (المتهمين ببقائهم مسلمين) الا بعد 20 سنة.
ــ وليظهر أنهم مسيحيون سوف يقدمون شهادات اسرى مسيحين في شأن العديد من الاندلسيين الذين عذبوا من طرف الاعراب وماتوا في سبيل العقيدة المسيحية.

وكانت هناك دائماً ثوابت في السياسة الاندلسية
ــ فهم مستعدون للحماية الاسبانية اذا لم يستطيعوا مواجهة العياشي.
ــ كانوا دائما يرفضون وجود الاسبان بالقصبة ويكتفون بتلقي السلاح والذخيرة فقط (خوفا من غضب المغاربة)
ــ المراوغة في رفض المساعدة التي يقدمها الاسبان، وكان جوابهم «عندما تكون في حاجة اليها سنطلبها منكم»
ــ رفض الحماية التي كان يقترحها الاسبان، لعلمهم بالاحوال السيئة التي كانت تعيشها الثغور الاسبانية بالمغرب (العرائش، المعمورة، طنجة) وتعويضها بحماية الشريف السعدي ضد العياشي.

أما بالنسبة لثوابت السياسة الاسبانية تجاه اندلسيي المغرب فيمكن تلخيصها فيما يأتي
ــ بث العداوة بين الاندلسيين والعياشي، وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين شيوخ القبائل، ليصبح

الاندلسيون في حاجة إليهم، لانهم كانوا يعتقدون دائما أنهم لن يطلبوا المساعدة من الاسبان الا اذا كانوا في حاجة إليها.

ــ انتبه الاسبان إلى أن الاندلسيين يرفضون دائما مساعدة الاسبان اذ قرنها هؤلاء باحتلال القصبة.

ــ غض الطرف عن جميع مقترحات الاندلسيين بالعودة الى اسبانيا وبالقابل عرضوا عليهم حسن الاستقبال بالمعمورة، التي يرجعون اليها عند الضرورة.

ــ لم يكن الاسبان ينتظرون شيئا كثيرا من هؤلاء الاندلسيين، فقد كان العمل الجهادي البحري على أشده ضد الاسبان، ففي الوقت الذي كان فيه المبعوث الاسباني بالقصبة للتفاوض، لاحظ أن سفن الاندلسيين أتت محملة بعدد من الاسرى الاسبان بمسمع ومرأى منه، ولكنهم كانوا ــ مع ذلك ــ يعتقدون دائما ان الحاجة ستدفعهم لا محالة لطلب المساعدة.

هكذا نرى أن الاندلسيين يتعاملون في آن واحد مع الانجليز والاسبان ويعدون بشيء واحد لطرفين متناقضين، كنا أنهم يقدمون انفسهم كخدم «مسيحيين» لملك انجلترا اعداء الداء للاسبان الذين طردوهم من أرضهم وهم بالتالي مستعدون لتقديم كامل الخدمات للانجليز ضد الاسبان.

وبالنسبة لاسبان، فهم يكنون حبا كبيرا لاسبانيا، وعلى استعداد للتضحية بكل شيء مقابل العودة، فلنتساءل عن العامل الذي يحرك هؤلاء الاندلسيين فيتصرفون هذا التصرف المزدوج ؟

إن الامور ستبدو واضحة، ولا تناقض فيها، اذا ما أرجعنا كل ذلك الى العقلية الاندلسية بكل أبعادها الحضارية والسياسية والاجتماعية. إن الاندلسي هو هو، أينما حل وارتحل، سواء كان باسبانيا أو المغرب، إنه يحمل تراث قرن من الزمان (1502 ــ 1609) كان متابعا فيه من طرف محاكم التفتيش، فتكونت لديه عقلية خاصة يواجه بها العقلية الاسبانية[270] ومثيلاتها الاوروبية. فهو ظاهريا مخلص للمسيحية وللملك اسبانيا وباطنيا مسلم مع المسلمين (اتراك ومغاربة). فهذا الموقف، اذن بالنسبة لهم لم يكن غريبا ولا متناقضا فهو تكتيك اندلسي معروف مارسوه وهم باسبانيا. فبالاضافة الى اتصالاتهم المثيرة مع الاتراك كانوا يتفاوضون مع الفرنسيين لاجل الثورة. وهنا نتساءل كيف كانت هذه الاقلية الاندلسية تؤمن بالثورة وبالانتصار الى هذا الحد وهي داخل اسبانيا وكيف ظل الايمان القوي يراودها بامكانية الرجوع الى اسبانيا وهي بالمغرب ؟

إن الامر كان يجري داخل إطار ما كان آنذاك المورسكيون بالاجفار (Joferes) فمنها كانوا

---

(270) عن العقلية الاسبانية في القرن السادس عشر انظر

F. Braudel, ''conflits et refus de civilisation, espagnols et morisques au XVIe siècle, in **Annales E.S.C.** 1947.

B. Bennassar

- **l'homme Espagnol.**
- **un siècle d'or espagnol**
- **l'Inquisition Espagnole.**

يستلهمون موافقهم. فهذه النبوءة بالنسبة لهم، هي قبل كل شيء عمل ديني سواء من حيث أصوله أو أهدافه(271).

ففي سنة 1569 بغرناطة صرح زكرياء الذي اعترف أمام محاكم التفتيش بأن المغاربة لهم رغبة كبرى في الانتقام، واكدوا بأن الخلاص قريب، وسيأتي من شمال افريقيا، من بجاية ووهران وسبتة، ثم بعد ذلك يتم من جديد غزو اسبانيا... وأنه في مضيق جبل طارق سيظهر جسر من جديد وعن طريقه سيجتاز العرب ويتمكنون من غزو اسبانيا حتى كاليسيا(272).

وبعد سنة 1574 سوف ينتظرون الاتراك (لفتح اسبانيا)(273)، واستمرت هذه النبوءة بقوة في بداية القرن السابع عشر وكلها تشير الى قرب تحقيق أمل الاندلسيين.

وقد سجل الشهاب الحجري جانبا كبيرا منها، فقد ذكر أنه قرأ باسبانيا جفرا يقول بأن المسلمين سيرجعون مرة ثانية الى اسبانيا وأنهم سيدخلون مع اربع جهات، وأن المسلمين سوف يحكمون كامل اسبانيا(274)، كما خصص بابا كاملا من كتابه **ناصر الدين** لصفائح الرصاص المكتوبة التي وجدت قرب غرناطة سنة 1588، فقد ذكر ان الجفر المكتوب يقول «من اقصى المغرب على ماء البحر يأتي سريع قوام إلى بلاد النصارى وتصل الهمل (الحملة) الى رومة»(275).

وعرض الشهاب الحجري هذا الجفر على المنصور «وأما ماذكر في الرق ان علامة النحس الذي ينزل على النصارى، يكون اذا أخذ المشرقي مدينة البحر، فكنت قد اظهرت نسخة من الرق المذكور لمولاي أحمد سلطان مراكش — رحمه الله — ..»(276)

لم يكن الشهاب هو الوحيد الذي يتوفر على الاجفار بالمغرب اذ وجد عند غيره «... وأيضا ذكر الكلام بنفسه قايد بمدينة مراكش يسمى بفارس ابن العلج، وكان من أهل الدين، وكان عنده الكلام محفوظا ومكتوبا. وقال كنت اسيرا بمدينة غرناطة ونادوني الى حضرة القسيس الكبير، واعطوني كتابا في ورق من رصاص من الكتب التي وجدت تحت الأرض، قرأته...»(277).

وقد حاول المغاربة أن يستغلوا هذه الأجفار، اذ حاول استغلالها المنصور عند ما قدمها له الشهاب الحجري «قال واحد من قواده (المنصور) «لو كنت تبدل (القاف) (بفا) ليقول ان مدينة البحر يملكها الشريف فيفرح بذلك السلطان...»(278).

---

(271) L. Cardaillac, "Le Turc, suprême espoir des morisques" in **Etudes sur les morisques andalous**, P. 50.

(272) L. Cardaillac, **Morisques et chrétiens**, P. 51.

(273) L. Cardaillac, "le Turc, suprême espoir des morisques in **Etudes sur les morisques andalous**, p. 52.

(274) L. Cardaillac, **Morisques et chrétiens**. P. 50.

(275) **ناصر الدين على القوم الكافرين**، ص 10.

(276) المصدر السابق ص 14

(277) المصدر السابق ص 15

(278) المصدر السابق ص 14

كما حاول استغلالها من بعده أبو محلي اذ كان يعلن في ثورته انه عازم على فتح اسبانيا بالمجاهدين الاندلسيين وأنه سيقوم ببناء جسر على مضيق جبل طارق لتجتاز منه الجيوش الى الاندلس، على ان الجانب المقابل كان له أيضا نبوءاته، فقد كانوا يتنبأون بانتصار المسيحية على الاتراك والمغاربة، وتحويل هؤلاء الى الدين المسيحي، اذ صرح دون مرتين كارسيا Don Martin Garcia انه مقتنع بقرب اعتناق المسلمين للمسيحية، وللاسراع بانجاز ذلك دفع القسيسين الى تعلم اللغة العربية ووعظ الموريسكيين وقد قال ان بداية هذا الانتصار ستكون في افريقيا الشمالية(279).

وهكذا فإن هذه النبوءات كانت منتشرة جدا بالمغرب الى الدرجة التي نجدها في أغلب التقارير الاوروبية حول المغرب وهذا ما يفسر كثيرا من الاشياء، ذلك أن ايمان الاندلسيين بالرجوع الى بلدهم لم يكن مجردا أمنية بعيدة المدى، فقد كانوا يعتقدون بامكانية تحقيقه في أي وقت فعندما كانوا باسبانيا، اعتقدوا أول الامر أن المقصود بالفاتح في اجفارهم هو سلطان المغرب، وعند برز الاتراك كقوة بحرية بشمال افريقيا اعتقدوا ان المقصود بالفاتح هو سلطان الاتراك الى أن وقع الطرد وحملوا معهم هذه النبوءات، وهو ملائمة لوضعيتهم الجديدة فالاتراك لم تعد لهم نفس القوة، والاسبان انفسهم — الاتراك — كانوا سائرين نحو التدهور، وبرزت قوات جديدة على الساحة الدولية، اذ برز الانجليز والهولنديون والفرنسيون، فتطلع اليهم الاندلسيون للرجوع الى بلدهم، ففي حالة مساعدة هؤلاء للرجوع الى بلدهم لن يخسر الاندلسيون شيئا، اذ سيضربون الاسبان بالانجليز، وكانوا عازمين بالفعل على تجميع اندلسيي شمال افريقيا بسلا، وذلك لتوجيه ضربة قاضية للاسبان، فهم في الواقع لم يكونوا صادقين مع أية قوة أوروبية، اذ راوغوا الانجليز مرارا من أجل الحصول على الذخيرة والسلاح مقابل التلويح لهم بحمايتهم على القصبة، وراوغوا الاسبان كذلك مرارا لضمان تزويدهم بالذخيرة والسلاح ضد العياشي والاعراب. وكان الاسبان يشعرون بهذا بالفعل بأن الاندلسيين لن يتنازلوا بسهولة عن القصبة، فقد كانوا يطمحون الى تكوين كيان سياسي واقتصادي لهم، وعند ما شعروا بأن العياشي يحاول احتواءه تصدوا له، خاصة انه استعان بسفن تركية من الجزائر، كما استعان بالانجليز.

وبالمقابل فضل الموريسكيون حماية السلطان السعدي، أي ان ما كان يقوم به الاندلسيون مع الانجليز والاسبان لا يعدو ان يكون ما نسميه اليوم «بالمناورات الدبلوماسية».

اما فيما يتعلق بما كان يردده الاوربيون من كون هؤلاء مسيحين مرفوضين من طرف المغاربة، فهذا ما لا تؤكده الوثائق المغربية والاجنبية نفسها، بل بالعكس من ذلك، كل الوثائق التي لدينا تنفيه تماما، فليست لدينا وثائق تثبت بأن هؤلاء قاموا بنشر المسيحية داخل المغرب أو انهم عملوا مع قوة مسيحية ضد المغاربة، بل بالعكس، كانوا يصرون أصرارا قويا على أن يعتنق الاوربيون الذين يشتغلون معهم الاسلام، فقد كتب احد الاسرى الانجليز (روبرت أدمز) في خطاب له من سلا بتاريخ 4 نونبر 1625 يقول «اني هنا في سلا ولكن في أتعس أسر وبين ايدي أقسى الطغاة... يضربونني كل يوم حتى أتحول الى الاسلام...»(280).

---

(279) L. Cardaillac, op. cit. P. 53.

(280) ب.ج. روجز، تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية، ص 58.

كما أنهم قبل خروجهم الى الجهاد البحري كانوا يقومون بجميع شعائرهم الدينية وكانوا يمارسون جهادهم البحري هذا ضد جميع السفن المسيحية حتى أثناء المفاوضات.

ان ما كان يظهره الاندلسيون من ميلهم الى المسيحية شيء معتاد بالنسبة لهم، اذ تعودوه وهم باسبانيا نفسها. ففي سبيل الحصول على المساعدات في أوقات الضيق كانوا يستخدمون تكتيكهم الاندلسي للوصول الى الهدف، أما بالنسبة لحبهم للاندلس وتعلقهم بها، فهذا واقع بالفعل منذ وقت بعيد وليس بجديد، فقد عرف عن الاندلسي حبه لبلده الى حد كبير، اذ كانوا ينعتون المغاربة بالبرابرة. فهذا يدخل في إطار النفور الذي كان قائما بين العدوتين(281).

وعلى العموم فان ما قيل عن استعداد الاندلسيين لتسليم القصبة يجب اخذه بحذر كبير، فالاسبان وان أبدوا رغبتهم للاستيلاء عليها فانهم في الواقع لم يكونوا مستعدين تماما لتنفيذ ذلك، فالمراكز الاسبانية والاقدام على احتلال القصبة معناه اضافة مشكلة جديدة الى مشاكلها بالمغرب. والانجليز أيضا كانوا يشعرون بخطورة احتلال القصبة وسط قبائل الاعراب والمجاهدين. وكان الاندلسيون يدركون هذا بالفعل، فحتى وان بدوا استعدادهم للتخلي عن القصبة فانهم كانوا يدركون ان الاسبان والانجليز لن يقدموا على هذا، وحتى ان وقع ذلك بالفعل فانهم لن يصمدوا كثيرا أمام هجمات المجاهدين والمغاربة بصفة عامة، وسيكون هم في كل الاحوال التخلص من وسط يكن لهم العداء ويرجعون الى بلدهم بالشكل الذي أرادوه.

ثانيا   الجالية الأندلسية بتطوان

يختلف الاندلسيون المهاجرون إلى تطوان عن إخوانهم في مصب أبي رقراق في عدة نقط

— حين قدم الاندلسيون الى تطوان، وجدوا هناك جالية أندلسية مهمة كانت قد سبقتهم الى المنقطة، فهيأت لهم بذلك ظروف استقبال أحسن، في حين لم تكن مثل هذه الجالية المهمة موجودة بسلا، وبذلك لم يحسن استقبالهم، واستأجر بعضهم دورا في المدينة، فلم يسمح لهم بالاستقرار بها بصورة دائمة، بسبب انعدام الشعور لدى الاندلسيين بالحشمة والوقار[282].

— كان اندلسيو تطوان يعملون تحت قيادة مغربية بعكس اندلسيي مصب أبي رقراق الذين كانوا يقومون بتسيير انفسهم بأنفسهم.

— كان الجهاد البحري بتطوان مركزا اساسا على البحر الأبيض المتوسط في نطاق ضيق، في حين كان المجال واسعا بالنسبة لمصب أبي رقراق على المحيط الاطلسي.

ومع ذلك يلتقي هؤلاء وأولئك في نقط أخرى
— ان سلطة السعديين كانت في كثير من الاحيان اسمية لا غير.
— الاقتناع بضرورة تكتل مهاجري الاندلس بالمغرب بل بشمال افريقيا لمواجهة الخصوم الداخلين (المغاربة) والخارجيين (الاوروبيين).
— التحفز للرجوع الى اسبانيا بمساعدة قوات اوروبية معادية لاسبانيا.

وعلى العموم فإن المراحل التاريخية للوجود الاندلسي بتطوان تبرز — كسابقتها بمصب أبي رقراق — في ثلاثة مظاهر أساسية
— الصراعات الداخلية.
— الجهاد البحري.
— العلاقة بالاوروبيين.

(281) سبق ان تعرضنا لذلك في المدخل التاريخي لهذه الدراسة.
(282) م. القادري، نشر المثاني (طبعة حجرية)، ص 47.

الصراعات الداخلية

وصل الاندلسيون المتأخرون الى تطوان في عهد المقدم أحمد بن عيسى النقسيس (1608 — 1622)[283] والتقت رغبة المقدم المذكور مع هؤلاء المهاجرين في عدة نقط منها

_ تحفز النقسيس للانقضاض على سبتة، وهي نفس رغبة المهاجرين الجدد للانتقام من الاسبان.

_ القضاء على محمد الشيخ المامون المتعاون مع الاسبان، فقد حاول هذا الاخير جهده القضاء على الحماس الجهادي الذي كان لآل النقسيس ومن معه، وكذا القضاء على رغبة الانتقام التي كانت للاندلسيين، اذ عمل على تصفية المجاهدين (مغاربة واندلسيين) بتطوان، وأمر الناس بالكف عن الجهاد، ووزع عليهم الأراضي، وبث الشقاق بينهم، لكن جهوده لم تؤت أكلها، فظلت قضية تعاونه مع الاسبان وتسليمه العرائش ماثلة أمام الأعين، الى ان تمكن المجاهدون من التخلص منه.

وعلى كل، فإن فترة أحمد بن عيسى النقسيس كانت فترة جهاد مشترك ضد الاسبان لم تبرز فيها الصراعات السياسية بحدة، لكن بمجرد موته ستتضح الامور وستكرر نفس الأحداث التي رأيناها بمصب أبي رقراق وان كانت بشكل آخر، وهكذا ففي عهد عيسى وإخوته ظهر هذا الصراع بكل وضوح، اذ عبر الاندلسيون بصراحة عن طموحهم السياسي، وعدم رغبتهم في الخضوع لأولاد النقسيس (البرابرة الجبليين). ففي تقرير هارسون الى الملك شارل الاول في 11 شتنبر سنة 1627 يذكر «ان حالة تطوان تزداد خطورة من حين لآخر، فقد ذبح الاندلسيون في مرة واحدة ثلاثة من المقدمين، ثم ان أحد الاندلسيين يدعى بو علي انحاز اليه الباقون قائلين ان اسلافهم كانوا حكام المدينة فيما سبق، وظلوا كذلك الى أن كان والي هؤلاء المتقدمين، وهو النقسيس البربري أو الجبلي الذي جمع حوله الناس بالقوة والخداع، فاغتصب السلطة منهم، ثم خلفه أولاده الستة واعتصبوا كأخوة أقوياء، وبالتدبير من ناحية وبالقساوة من ناحية أخرى نجحوا في ذلك وبحثوا عن وسائل تمكنهم من الامر وقبضوا على زمام الحكم بالمدينة منذ وفاة أبيهم فنالوا أعظم هيبة في النفوس خصوصا واحدا منهم فإنه أكثر هيبة من جميع الباقي وهو سيدي عيسى... وقد سقط عدد من هؤلاء الاندلسيين بين الباقين تحت حد السيف بدون حق، كما قالوا..[284].

وانتقل التقرير بعد ذلك الى استعراض السبب المباشر الذي أدى إلى اصطدامهم بالنقسيس ألا وهو انتهاك عرض نسائهم وإخواتهم، اذ تقدم الأندلسيون بزعامة بو علي وقاموا بانقلاب ضد هؤلاء

(283) اصل اولاد النقسيس من النقاقسة من قبيلة بني يدر.
انظر
م. داود، **تاريخ تطوان**، 1 176 هامش 2
وانظر اولاد النقسيس الذين تولوا الحكم بتطوان (1597 /1672) بالمصدر السابق، ص 174.

(284) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 : 27-58.

كان من نتيجته «ذبح عيسى مع أخويه، وفرار الابن الرابع عبد الله». وتسلم جماعة من الاندلسيين الحكم بقيادة بو علي. لكن عبد الله النقسيس عاد بقواته إلى تطوان فاجمعوا أمرهم وشركاءهم ووجهوا قواتهم لأجل القبض على الرئيس بو علي الذي كان قد هرب فقتلوا الآخرين، وعاهدوا بقية الاندلسيين على ان يمكثوا ببيوتهم وأن يحتفظوا بمالهم كما كانوا عليه من ذي قبل في حالة السلام.

فرجع الجميع إلى بيته، ثم تمكن هؤلاء الإخوة من حكم المدينة ولكن ذلك على حذر عظيم وحراسة متوالية قوية حول أشخاصهم. وقد أرسل سيدي عبد الله من قبل كل متاعه إلى سبتة محتميا بالاسبان، ومتوقعا أن المدينة ستكون صعبة جدا عليه، إذا ما ظل طويلا بين الأندلسيين، لأنهم ليسوا مطمئنين لغيرهم في القيام بالمحافظة عليهم، ويتوقعون كل يوم أن يرجع اليهم بو علي فيدخل المدينة مرة أخرى ونه أقوى طائفة من الأنصار في المدينة تتمثل في كل الاندلسيين وغيرهم...(285).

وأثار هاريسون الانتباه إلى النتائج المحتملة لسقوط تطوان بأيدي الأندلسيين خاصة أن أندلسيي أبي رقراق قد أعلنوا استقلالهم «... من المظنون أن هذه المدينة ستسقط قريبا بيد الأندلسيين وبذلك ستكون كل البلاد بين تطوان وسلا منساقة مرة واحدة إلى تلك الرياسة، فإنه قد ابتدأ ذلك العمل من كل النواحي، وطالبوا بحق أن يضعوا الأساس لذلك كما هو في سلا، حيث أن بناة تطوان الأول — كما صرحوا — كانوا هم الاندلسيين في الأزمان الماضية، كما أن المعيدين للتشييد والترميم هناك، هم الأندلسيون الذين أتوا أخيرا من اسبانيا والذين جعلوا من مزبلة جنة مثمرة فيحاء خصوصا جنان الكرم التي غرسوها في كل النواحي. وزودوا المدينة بالذخائر التي هي في ازدياد مطرد...»(286).

لم يكتف عبد الله النقسيس بملاحقة أندلسيي تطوان، بل — ربما لأنه كان على علم بمخطط الأندلسيين لتكوين محور تطوان / سلا — قدم مساعدات هامة للعياشي أثناء حصار هذا الأخير للرباط سنة 1630(287) لكن مخطط عبد الله النقسيس لم يكتب له النجاح، اذ أن رغبة الأندلسيين بالاستيلاء على تطوان كانت توازيها رغبة العياشي في أن تكون تطوان تابعة له لتوحيد الصف ضد الاسبان.

وهكذا بعث العياشي ببعض انصاره إلى المدينة للقيام بالدعاية السرية لصالحه فانضم إليهم خصوم عبد الله النقسيس من الأندلسيين بسرعة وتمت المؤامرة بفتح أبواب المدينة ودخول أصحاب العياشي، وعلى رأسهم سليمان بن يوسف وزعيم الأندلسيين بو علي(288)، وفر عبد الله الى بلاد غمارة فأمر حكام تطوان الجدد أن يجمعوا حوالي 8 آلاف شخص للقبض عليه أو قتله، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك(289)، وانتقل بعد ذلك الى سبتة لاجئا عند الاسبان، وهناك رسالة بعث بها ملك اسبانيا من

---

(285) Loc. cit.

(286) Loc. cit.

(287) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 267.

(288) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 3 : 54.

(289) م. داود، المصدر السابق، ص 230.

مدريد الى حاكم سبتة يأمره فيها بحسن استقباله وبدفع المال له، ولكن مع الاحتراس منه وكذا البحث عن امكانية استغلاله ضد أندلسيي تطوان[290].

وقد ظل نفوذ العياشي قائما بتطوان إلى أن وقع الخلاف بينه وبين الدلائيين وقامت الحرب بينهما وضعفت على إثرها شوكة العياشي، اذ انتقلت المدينة لتحكم نفسها بنفسها وباشر الحكم فيها مجلس من أهاليها الأندلسيين[291]. ولكن بعد مدة عاد الحكم مرة أخرى لأولاد النقسيس. وهناك من يرى بأن الدلائيين هم الذين أعادوا أولاد النقسيس إلى تطوان ونصبوهم عمالا عليها يحكمونها بإسمهم[292]. غير أن الشيخ داود يرى أن عودة الحكم إلى أولاد النقسيس كانت بتضامن مقدمى القبائل الجبلية مع المقدمين أبناء النقسيس لتبقى السلطة العليا في هذه الناحية بيد المقدمين، أي بيد رجال الحرب لا بيد غيرهم من أهالي المدن (التجار الأندلسيين)[293]. لكن أولاد النقسيس سيجابهون أندلسياً آخر، لم يخف هو أيضا امتعاضة من سيطرة (البرابرة الجبليين) على تطوان، إنه الخضر غيلان، فقد كان يهاجم تطوان باستمرار خاصة أيام المقدم عبد الكريم النقسيس (1653 — 1659) واستمر الحال كذلك إلى أن توفي المقدم المذكور فدخلت تطوان في حكم غيلان وتولى الأمر بها نائبه الغزواني ثم أبدل هذا الاخير بأحمد بن عبد الكريم النقسيس (1660) فاعتاض لذلك غيلان وعاد الى مهاجمة تطوان من جديد، ويظهر أنه لما يئس من التغلب عليها واقتحامها عنوة عقد الصلح مع أولاد النقسيس، على أساس أن يبقى النقسيس حاكما لتطوان، لكن بشرط أن يقبل نائبا مراقبا من قبل الخضر غيلان وأن يقدم له رجالا يعينونه على مقاتلة الأنجليز بطنجة.

وظل الأمر كذلك إلى أن قبض مولاي الرشيد العلوي على رئيسها أحمد النقسيس[294]. وقد صدر الأمر باستغراق ذمة أولاد النقسيس وبيع أملاكهم، وأورد الشيخ م. داود بهذا الصدد رسم شهادة بجماعة من أهل تطوان (بتظلم أولاد النقسيس وطغيانهم) «... لم يزالوا (أولاد النقسيس) في البلاد التطوانية يضربون نار الحروب ويثيرون المحن الكروب، والأهواء تلعب بهم، والأغواء تسوسهم حتى طلبوا الامارة، كما سولت لهم نفوسهم الامارة، وصالوا واستطالوا مع اشياعهم زمن الفترة من الملك في الفتن، واستغاثتهم وتغلبهم على ما هو معروف لبيت مال الله وقهر الضعفاء والمساكين من عباد الله، وخاضوا فيما يلوح لهم من المال المستحق لبيت مال المسلمين برا وبحرا، وعمارة وقفرا، من كل ما يتعين لله، وستعان به على إقامة دين الله ووثبوا على ما بيدولهم من متروك من انقطع، ويتحكمون فيمن أبى وامتنع، الى أن غرسوا بذلك وبنوا، واشتروا العقار والأصول والامتعة واستغنوا وصاروا بسبب ذلك مستغرقين الذمم مما ذكر..»[295].

(290) المصدر السابق، ص 231.
(291) يذكر ذلك بديوان مصب ابي رقراق، لكننا هنا لا نملك اسماء هؤلاء الاندلسيين الذين كونوا هذا الديوان ولا اختصاصاته مثل ما هو الحال بالنسبة للديوان السالف الذكر.
(292) م. حجي، **الزاوية الدلائية** ص 169.
تاريخ تطوان، 1 232.
(293) **تاريخ تطوان**، 1 / 232.
(294) أ. الناصري، **الاستقصا**، 7 36
(295) **تاريخ تطوان**، 1 : 238—239.

وقد أمضى رسم الجماعة من الأندلسيين نخص بالذكر منهم عبد الله ابن أحمد الخطيب، وعبد الكريم بن أحمد طانية، ومسعود بن أحمد اجانة، عبد القادر بن أحمد طانية، ومحمد بن علي اللقنتي، وأحمد ابن محمد قشتلي، والحاج محمد بن علي قشتلي، وأحمد بن قاسم قرضناش وعلي مرين، والحاج محمد منضوصة...

وقام جماعة من الاندلسيين بعد ذلك بشراء أملاك أولاد النقسيس[296] وقد حاولوا بتحالف مع غيلان — أن ينهضوا من جديد، لكن السلطان مولاي اسماعيل تمكن منذ القضاء عليهم، فقتل الخضر غيلان وفر أولاد النقسيس الأربعة من تطوان الى سبتة، وعين السلطان القائد أحمد بن حدو لمواصلة الجهاد وذكر الشيخ داود — نقلا عن أبي محمد السكيرج — أن هذا القائد هو الذي تنسب اليه الزنقة المعروفة في حومة الطرنكات (وهي حومة اندلسية) بزنقة القائد أحمد، لأنه كان يسكن بها[297]، واختياره لهذا الموقع يحمل دليلا قاطعا على أن الجالية الاندلسية بتطوان حمته ورعته وساعدته خاصة أنه سوف يستخدمها لمهاجمة عدد من الثغور المحتلة.

(296) انظر اسماء هؤلاء عند الشيخ م. داود، المصدر السابق، 241.
(297) المصدر السابق، 253—254.

الجهاد البحري

سجل الأب دان أهمية تطوان كمركز من مراكز الجهاد البحري في شمال افريقيا ولكنه سجل في نفس الوقت ان تطوان في عهده (1640) لم تكن لها الا فركاطات صغيرة تصل أحيانا الى السواحل الاسبانية، ولا تبتعد عنها إلا قليلا(298).

كما سجل دوكاستر نفس الملاحظة عند ما ذكر أن تطوان لم تصل الى مستوى تسليح سلا، اذ كانت هذه الاخيرة تأتي مباشرة بعد طرابلس وتونس والجزائر، وعلل وضعية هذه بكونها كانت محاصرة من سبتة المحتلة من طرف الاسبان، بالاضافة الى ان مجال عملها كان مقتصرا على البحر الابيض المتوسط فقط(299). وقد استخدم اندلسيو تطوان ــ كاندلسي مصب ابي رقراق ــ الاعلاج، اذ سجل تقرير لجون سميث الانجليزي John Smith سنة 1604 وصول عدد من الاوروبين الذين دخلوا الى الاسلام حديثا الى تطوان ومحاولة الاندلسيين الاستفادة من تقنياتهم في قيادة السفن وغيرها(300).

كما سجل هنري ماينوارينك الانجليزي Henry Main Waring أيضا في مذكراته التي كتبها سنة 1618 عن مجاهدي تطوان أنه كانت لهم «مخازن للبارود الذي يجلب معظمه التجار الانجليز والألمان وهم يبيعون هناك بضائعهم جيدا حيث يرسون بسرعة وينزلون بضائعهم بواسطة قوارب المدينة... والأهالي هنا عادلون جدا وامناء...»(301).

وكانت السفن الأجنبية التي ترد الى ميناء تطوان تطلب الأذن بالرسو من الحاكم، فكان يمنعها جوازا خاصا بذلك. غير أن الأمور لم تكن تمر بدون مشاكل، اذ كان من جملة السفن التي وصلت الى ميناء تطوان، ورسا قائدها بجواز من هذا القبيل، سفينة القبطان توشينج Touching الانجليزي، الا انه لم يلتزم بالاذن بل انتهز إحدى الفرص وسطا على مركب لأولاد النقسيس، فأخذه وهرب به وبجميع ما فيه من أشخاص ومتاع، وقد استاء المقدم أحمد النقسيس من غدر ذلك القبطان بعد أن وثق به وسمح له بالنزول في بلده(302).

ثم حدث ان وصل الى ميناء تطوان مركب انجليزي آخر، ونزل منه جورج فريزويل George Friswell بدون اذن من النقسيس فالقي عليه القبض انتقاما من عمل توشينج القبطان(303).

(298) **Histoire de la Barbarie et de ses Corsaires.** P. 269.

(299) "Le Maroc d'autrefois, les corsaires de Salé" in **Revue des deux mondes**, Paris, 15 fév. 1903. PP. 5-6.

(300) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre, 2 272.

(301) **S.I.H.M.** 1ère série. Angleterre 2 507.

(302) **S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 522-524**

(303) Loc. cit

وكان الاندلسيون يتعرضون باستمرار لعمليات القرصنة من جانب السفن الأوروبية، ففي رسالة جون John Duppa الانجليزي إلى والتراسطون Walter Aston[304] المؤرخة في 7 يناير 1622 يشير الى وصول عدد من الاندلسيين المأسورين «... وقصة هؤلاء الاندلسيين أنهم كانوا من سكان الجبال القريبة من تطوان الى أن جاءهم ذات يوم قريب لهم من الجزائر، فبحث عن هؤلاء الذين كان أغلبهم ينتمي الى عائلة واحدة، من أقربائه، ولما اجتمع بهم زين لهم يبيعوا كل ما يمتلكون من عقار وماشية، وأن ينتقلوا بأموالهم الى الجزائر، فعمل هؤلاء المساكين بنصيحته فنزلوا الى تطوان وصادف الأمر ان كان هناك مسافرين فحملوهم الى الجزائر، فلما توسطوا معهم البحر اسروا جميعا بواسطة أسطولنا الانجليزي الذي انتهب في الحال أموالهم وبضائعهم التي كانت معهم ولم يكونوا قد تركوا خلفهم في تطوان أموالهم أو أحد من أقاربهم يمكنه أن يخلصهم أو يساعدهم...[305].

لم يصل المفاوض الانجليزي في شأن هؤلاء الى نتيجة تذكر موضحا السبب في ذلك «وعليه فقد توجهت في اليوم التالي الى المدينة، حيث كان المقدم قد جاءها في انتظاري، وقد أرسل في طلب رؤساء الاندلسيين بالمدينة فلما جاءوا طلب منهم في حضور أولاده ان يجيبوا بما يرون فيما جئت اليهم من أجله، وهو إطلاق سراح المنتمين الى جنسيتهم، الاندلسيين الذين أسرهم الاسطول الانجليزي، فأجابوا بأن هؤلاء الناس لا شأن لهم بهم، ولا علاقة تربطهم معهم، فلا اصدقاء لهم ولا أقرباء لهم بين ظهرانهم، ومع هذا فانهم مقابل اطلاق سراحهم يستطيعون أن يجمعهم من الزكوات أموالا تفي بشراء الانجليز الثمانية الذين هم تحت الرق فيطلق سراحهم، هذا كل ما يستطيعون تقديمه من معونة...»[306]. ولكن رسالة أحمد النقسيس توضح سببا آخر لفشل المفاوضات

«... وفيما يخص الكارثة التي حلت بالاندلسيين المذكورين فإن القائد عرض علي تسليم هؤلاء الاندلسيين والمسافرين مقابل الانجليز رعايا بريطانيا العظيم الذين هم تحت الأسر بتطوان، غير أن الاندلسيين وبقية المسلمين عندنا لم يقبلوا العرض دون رجوع الامتعة التي ابتزت من اولئك القوم المساكين ظلما وعدوانا...»[307].

وهذه الرواية الأخيرة هي الأرجح لأنه لا يعقل ان يتخلى الاندلسيون عن قومهم وهم ماهم عليه من التضامن.

وعند فشل المفاوضات عاد الاسطول الانجليزي بأسراه فباع بعضهم بمدينة القنت Alicante وظل الباقون بمدينة قادس باشراف جون دوبي الانجليزي في حالة يرثى لها «لانهم فقراء مذقعون وليس لهم أقارب يستطيعون افتداءهم ولا متاع لهم في تطوان أو غيرها»[308].

---

(305) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 527-530.

(306) Loc. cit.

(307) يوجد النص الانجليزي ب : S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 522-524

(308) Loc. cit

وجاء المفاوض الانجليزي الى تطوان مرة أخرى في شأن تبادل الاسرى «وقد هزتني (النقسيس) الشفقة عليهم فأمرت بجمع التبرعات من الاندلسيين، فكان ما جمع منها يفي بفدية الانجليز الثمانية الذين عرض افتداؤهم بالاندلسيين الستة عشر...»(309). وأبرم اتفاق يقضي «بأنه لا يباع بتطوان اي انجليزي أو اسكتلندي أو أرلندي من رعايا ملك بريطانيا، باستثناء الموجودين حاليا تحت الأسر، وان أي تاجر من رعايا الملك المذكور اذ انتهى الى تطوان فإنه ينال الاذن مني (النقسيس) في الاتيان الى المدينة، فيتاجر بها، وأن يكون تعامله حسنا لا غش فيه...»(310).

وقد سجل الأب دان أن الاسرى الاسبان والبرتغال بتطوان كان أكثر عددا من أسرى سلا والجزائر، كما سجل في نفس الوقت أن مجاهدي تطوان كانوا يتعاملون غالبا بصدق وأمانة(311).

وانتقل الى استعراض عملية افتداء للاسرى تعتبر من أهم العمليات التي عرفتها تطوان آنذاك(312)، وهي عملية افتداء 116 أسير اسباني من طرف رجال الدين، فقد اجتمع هؤلاء من قشتالة ومنطقة الاندلس في مدريد وقرروا الذهاب الى تطوان لافتداء الاسرى الاسبان، وخرجوا في شهر نونبر 1641 وعندما وصلوا اخبروا الحاكمين بالمدينة بالمامورية التي أتوا من أجلها وطلبوا الاذن بالبقاء بعض الوقت للتفاوض فيما أتوا من أجله، واستقبلوا استقبالا حسنا. وفي هذا الوقت كان عدد من الاسرى المسيحين يزورنهم ويطلبون منهم افتداءهم، وذكر الأب دان كذلك انهم وجدوا صعوبة كبيرة في هذه المفاوضات مع مجاهدي تطوان بسبب فقر الاسبان، وانهم تعرضوا بسبب ذلك الى العديد من الاهانات من طرفهم وأخيرا استقر الامر على 60 ألف فرنك، وافتداء 116 أسير إسباني. وأما الباقون فهم 15 قبطانا، و18 طفلا (أقل من 16 سنة) وإمرأتان، وعدد من التجار البحريين، ورجال البحر.

هكذا أخرج الآباء من تطوان هذا القسم المفتدى، ووصلوا الى مالقة، ومن هناك ذهبوا الى مدريد، واستقبلوا استقبالا رائعا من طرف رجال الدين في نهاية شهر يوليوز 1642، ولكن الاباء بمجرد وصولهم الى مدريد ماتوا من جراء سم اعطي لهم من طرف مجاهدي تطوان بأيام قليلة قبل أبحارهم، وكانوا يعتقدون أنهم يموتون بتطوان، ويصبح اذاك لهم الحق في استرجاع الاسرى المفتدين. وتأسف الاب دان في الأخير كثيرا على ما يعانيه الأباء في هذه المفاوضات.

---

(309) Loc. cit.

(310) Loc. cit.

(311) **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**. P. 270.

(312) **Histoire de la Barbarie et de ses corsaires**, p. 271.

العلاقات مع أوروبا

لم تقتصر العلاقات بين اندلسي تطوان والاوربيين على التجارة والجهاد البحري، بل تعداه الأمر الى محاولة التحالف مع الانجليز ضد الاسبان من أجل الامل الذي ظل يراود الاندلسيين باستمرار ألا وهو العودة، وكان المقابل الذي اقترحه هؤلاء هو مساعدتهم على الهجوم على المراكز الاسبانية بالمغرب، قبل الانتقال الى احتلال مراكز معينة باسبانيا نفسها، ومن ثم الاستحواذ على شبه الجزيرة الايبيرية كلها.

* * *

كان اندلسيو تطوان يشتكون باستمرار من ممارسات القراصنة الانجليز في البحار، رغم الاتفاقيات الثنائية التي كانت بين الطرفين، مما كان يخلق مشاكل في طريق التعاون لمواجهة الاسبان. وقد كان لهذه الشكاوي صدى لدى شارل الاول، اذ اصدر بلاغا في 1 نونبر 1628 يقول فيه «... حيث ان الشكاوي العديدة قد وصلت الينا أخيرا من سكان الجزائر وتونس وسلا وتطوان بتلك الاخطاء المتنوعة العظيمة التي وقعت عليهم من جانب رعايانا في البحر والتي لو كانت حصلت فإنها تخالف رعايتنا الملكية...»(313).

ثم انتقل بعد ذلك الى الامر الصادر عنه «... يجب أن يمتنعوا من الآن فصاعدا عن كل عمل من أعمال العدوان، أو ان يبدو أية قسوة أو معاملة سيئة في حق أي شخص من الاشخاص أو أية سفينة من السفن أو البضاعة التي تتعلق أو ستتعلق بالجزائر أو تونس أو تطوان أو سلا... ومن خالف، فإنه يستهدف لسخطنا العالي الشأن والعقوبات العظمية بواسطة قانوننا الذي سيطبق على كل مخالف أو متهاون أو مهمل في هذا...»(314).

لم تكن لهذا البلاغ نتيجة تذكر بالنسبة لسلا، أما ما يتصل بتطوان، فان القبطان جلس بين Giles Pen استطاع ان يجد له حلا، وأن يضع حدا له للاعتداءات التي كان القراصنة الانجليز يرتكبونها، وبذلك أصبح الاتصال مستمرا بين حاكم تطوان وشارل الاول، اذ يقول هذا الاخير في هذا الصدد «... اننا قد اصدرنا الاوامر الى تجارنا واذنا لهم في التردد على مرفئكم المذكور بسلعهم، وان يزاولوا هناك تجارتهم، ماداموا يجدون عندكم أسواق ملائمة، ومعاملة حسنة لأشخاصهم، مما لاشك فيه ادنى شك..»(315).

* * *

(313) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 80-81.

(314) Loc. cit.

(315) Loc. cit.

ركز هارسون في تقاريره التي بعث بها من تطوان على اربع نقط

أولا استعداد الاندلسيين للتعاون مع الانجليز ضد الاسبان. كتب الى قائد الاسطول الانجليزي سنة 1625 يقول «... ان الموريسكيين الذين طردوا من اسبانيا قد سروا بهذه السفارة وهم في هذا الجزء من المغرب وفي فاس كثيرو العدد ولهم اعتقاد سابق ان لكم أعظم قوة حربية على استعداد دائما، وقد جعلهم اتياني يظنون ان ذلك لأجل العمل في هذه الناحية ضد الاسبان...

وان اقترحتم على ملك انجلترا مهاجمة سبتة أو أي مكان آخر قريب منهم فانهم سوف يساعدون بعشرة آلاف مقاتل في البر ولن يعمل الانجليز الا في البحر وبقوة صغيرة...»(316).

ثانيا امكانية احتلال الانجليز لسبتة والمعمورة وجبل طارق للاستحواذ بعد ذلك على اسبانيا كلها.

يذكر هارسون في هذا الصدد «وفيما يخص احتلال سبتة فان ذلك يقع موقعا مناسبا جدا لكل سفننا التجارية المتصلة بالضيق لتتقوى هناك ولتكون مزودة بكل الضروريات من وقت لآخر من انجلترا، ولكوننا لنا هذه المدينة صديقة (تطوان)... واذا امتلك ملك انجلترا، جبل طارق فانه سيتحكم في المضيق وبقية بلاد البربر التي تقع على تلك الشواطىء والتي احتلها الاسبان ولا تستطيع ان تعيش طويلا لاحتياجها الى القمح ومواد اخرى من الذخائر... كما أني آمل ان تكون المعمورة أيضا في قبضة الملك... حيث انه يسيطر على اسبانيا بواسطة البحر، وتكون ملجأ لسفننا في كل العمليات الواجب اتخاذها... فاذا ما وقع الاستيلاء على سبتة وجبل طارق فاني لا أشك في احتلال اسبانيا والبرتغال...»(317).

ثالثا تكتل هؤلاء الأندلسيين انطلاقا من خلق محور سلا/تطوان لأجل الرجوع الى الأندلس.

كتب هارسون ملاحظة يقول فيها «الأندلسيون هنا (تطوان) قد بعثوا إلى أصدقائهم في سلا وفي أماكن أخرى يحرضونهم، وقد ترك أحدهم هذه الخطوط معي والمرفقة بالكتاب...».

أما الخطوط فهي «بفضل الله، المورسكيون والانجليز يسيطرون على إسبانيا، وبفضل الفرنسيين والصلبان، يقومون بطهي الأطعمة ويخطمون اسبانيا فيصبحون جميعا إخوة متعاونون... والله فوق الجميع...»(318).

ومن مظاهر هذا التكتل أيضا العمل على مراقبة تحركات الاسبان خوفا من احباط محاولات الأندلسيين لتكتل ضدهم، فلما علم اندلسيو تطوان بأن فيلب الرابع يعمل على مهاجمة مجاهدي سلا بحرا وبرا بعثوا رسالة إلى اندلسيي فاس في 20 شتنبر 1629 يقولون فيها «... تواترات الاخبار لدينا

(316) S.I.H.M. 1ère série. Angleterre ; 2 : 573-582.
(317) Loc. cit.
(318) Loc. cit.

عنهم (الاسبان) أن طاغيتهم القائل الرأي الخائب السعي [illegible] عمارة (أسطول)... اشتملت الآن على ستة وستين غرابا دون السفائن التي بين الكبار والصغار.. وهم الآن بمرسى مالقة ــ أعادها الله ــ ينتظرون ما يرد عليهم من أممهم من المدد...»(319).

وانتقلوا بعد ذلك الى ذكر الهدف من الرسالة «.. وليس يحتاج مثلكم ان يولج الى تحريض على الجهاد، وحض على الجد فيه والاجتهاد... وقد عرفنا أهل الثغور، خصوصا أهل سلا ومن اليهم من الخاصة والجمهور، أما إخوانكم من هذا الثغر (تطوان) فعلى حال يسركم ــ ان شاء الله ــ قد بذلوا المجهود في الاستعداد، بلغوا المقدور في استجماع آلات الجهاد...»(320).

وكان جواب عدوة الاندلس(321) كالآتي «... ها نحن بعد التأهب وأخذ الحذر طيرنا بالخبر في الآفاق، أجنحة الاوراق، وحملناه الركبان والرفاق، فانسوا من هنالكم من طوائف المجاهدين بانجاز الله لهم موعده نصره، وتبلج أفق الاسلام عن سناء بدوه...(322).

وعلى كل، فان كل الدلائل كانت تدل على أن محور سلا/تطوان كان فعلا في طريق التكوين، وأن الاسبان كانوا متخوفين منه الى حد كبير.

رابعا التأكيد على ميل الأندلسيين للبروتستانتية في مواجهة الكاثولكيين الاسبان.
أكد هاريسون أنه في مقابلته للاندلسيين بتطوان تحقق لديه جبهم للبروتستانتية وبغضهم للكاثولكيين الاسبان، وأنه اتفق مع الأندلسيين على تحرير ثلاثة رسائل للتبشير بالبروتستانتية بين المسلمين واليهود والاسبان(323).

وقد تصدى الشيخ محمد داود (الاندلسي) لهارسون في ادعائه الأخير هذا قائلا «... أن هذا السياسي الراهب الجاسوس، كثيرا ما يتهم اندلسيي المغرب بالحنين الى المسيحية والعطف عليها وتمني دخولهم فيها الخ.. وعمله هذا لا يخرج عن كونه صادرا عن بلادة وغباوة في نفسه أو تدجيل وتضليل لحكومته، والذي نرى أنه ان كان قد وقع شيء ذلك ظاهريا، فانما هو ناشيء عن السياسة التي كان اولئك السياسيون المسلمون الأندلسيون يعاملون بها هذا الراهب الذي يظهر أنه كان يسره ان يسمع الثناء على الدين الذي يعمل لنشره والعقيدة التي يدعو إليها، لقد شعر اولئك السياسيون المرنون بنقطة الضعف في هذا المبعوث السياسي من دولته لخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية وغير ذلك، فصاروا يضربون على وتره الحساس لاستجلاب عطفه، عسى ان يتمكنوا من حمل دولته على تأييدهم فيما كانوا يرغبون فيه من محاربة اعدائهم الذين حاربوهم في دينهم، وطردوهم من وطنهم...»(324).

---

(319) م. بن القاضي، ادبيات، 5 و ــ ظ
(320) نفس المصدر.
(321) كانت المنافسة آنذاك على اشدها بين عدوتي القرويين والاندلس لذلك تلقى اندلسيو تطوان جوابين عن رسالتهم السالفة.
(322) المصدر السابق، 8 ظ ــ 9 و.
(323) تقريرها رسون السالف الذكر.
(324) تاريخ تطوان، 1 226 ــ 227.

وانتقل الشيخ بعد ذلك الى ذكر الهدف من هذه السياسة قائلا «لقد كان اولئك الأندلسيون يعملون بكل ما في وسعهم لاضعاف قوة الاسبانيين، واخراجهم من المراكز التي كانوا قد احتلوها بالمغرب، ثم العمل على تأليب الدول الى الاندلس فيعود اولئك المهاجرون الى وطنهم الذي عاشوا فيه كما عاش اجدادهم ما يزيد على ثمانمائة عام. واذا كان لديهم حنين حقيقة فانما هو الى ذلك الوطن المحبوب لا الى الديانة المسيحية التي منها ومن طغيان رجالها فروا الى بلاد الاسلام شرقا وغربا..»(325) وتعرض اخيرا الى ما أورده الناصري في **الاستقصا** عن اندلسيي سلا «وليت شعري كيف يتفق مع هذا ما جاء في كتاب **الاستقصا** من ان اندلسيي سلا... كانوا ناصحين للكفر وأهله الخ، حاشا ثم حاشا ومعاذ الله ان ينصح للكفر وأهله، من ترك وطنه ووطن ابائه واجداده وأهله وأصحابه، وجميع ما يملك من متاع الحياة الدنيا، لا لشيء سوى ان يتمكن من المحافظة على دينه الاسلامي الحنيف، والعيش في وسط اسلامي يؤدي فيه شعائره الدينية بحرية ويعبد ربه حتى ياتيه اليقين...»(326).

---

(325) المصدر السالف، ص 227.

(326) نفس المصدر والصفحة.

استخلاص

تلك هي تجربة الأندلسيين المهاجرين الى المغرب، حاولوا من خلالها أن يتكتلوا، ويخلقوا لهم كيانا خاصا، يستطيعون من خلاله أن يفرضوا وجودهم كقوة سياسية وعسكرية لها وزنها بالمنطقة، لكن هذه التجربة آلت الى فشل يمكن إرجاعه على الاقل إلى خمسة أسباب

— وقوف السعديين في وجه استقلال الأندلسيين عن سلطتهم، فحتى في فترة علان استقلال الأندلسيين (1627 — 1642) كان هناك ولاء اسمي للسلطان السعدي.

— وجود العياشي كقوة جهادية لها وزنها بالمنطقة، وتحفزه المستمر للانقضاض على الرباط والقصبة جعل هؤلاء المهاجرين يتوجهون الى قوات مغربية (السلطان السعدي) أو أجنبية (الاسبان والانجليز) لحمايتهم.

— القبائل المغربية المجاورة لم تكن ترتاح كثيرا إلى هؤلاء اذ كانت تنعتهم (بنصارى قشتالة) وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وبالتالي أصبح الأندلسيون محاطين بأعداء غير منتظرين.

— حذر الدول الأوروبية من التعامل مع الأندلسيين كسلطة شرعية اذ كانوا ينظرون إليهم كقراصنة يجب تصفيتهم ومراوغتهم، وفي أحيان كثيرة يحاولون التفاهم مع السلطان السعدي.

— السبب الأخير، وهو وليد جميع الأسباب السابقة التفكير المستمر في الرجوع إلى اسبانيا، اذ أن وجودهم بالمغرب اعتبر دائما مرحلة مؤقتة، وظلوا ينتظرون باستمرار الظرف الملائم. وعلى كل فإن اخفق الوجود السياسي للاندلسيين بالمغرب فإن وجودهم الحضاري ظل مستمرا حتى أيام الناس هذه، وكون ما أصبحنا نسميه بالحضارة الأندلسية المغربية.

الباب الثالث

الحضارة الأندلسية المغربية

يقول ابن غالب «ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد افريقية، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، واحدثوا الارحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء كثيرة لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات....

وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور الممكلة، ولا يستعمل بلدي ما وجد اندلسي، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وافرغوا فيه أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم....»[1].

يشير النص، من جهة، الى الميادين التي ساهمت فيها الجالية الأندلسية بالمغرب الميدان الاقتصادي ــ الميدان العلمي ــ الميدان السياسي ــ الميدان الاجتماعي.

ويشير، من جهة أخرى، إلى أن هذا الاستقرار لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل العديد من مناطق المغرب سواء في البوادي أو الحواضر. لكنه يشير، أيضا إلى أن مواجهة اجتماعية قد حدثت بالفعل بين المغاربة وبعض أفراد هذه الجالية.

وسنحاول من خلال الفصلين الآتيين أن نعرض لذلك.

---

(1) أ. المقري، نفح، 3 : 152.

الفصل الأول

ميادين المساهمة

ساهمت الجالية الأندلسية بالمغرب في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والعلمية والاجتماعية. وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل لنماذج من هذه المساهمة.

الـمـيـدان الاقتصـــادي

الفلاحة

ساهم الأندلسيون في تطوير بعض تقنيات الري بالمغرب، إذ ساهموا في هذا المجال في تركيب عدة نواعير، خاصة بفاس[2]، كما ساهم اندلسيو مراكش بمد عدة قنوات انطلاقا من نهر تانسيفت[3]، وقاموا باستغلال العديد من الضيعات الزراعية الممنوحة لهم من طرف الدولة[4].

وفي مجال المنتجات الزراعية نذكر اشتهار الأندلسيين بغرس أشجار الزيتون بأقطار المغرب العربي[5]، وتحسينهم لانتاج الخضر والفواكه، وكذا تربيتهم لدودة القز[6].

ولم يكتف الأندلسيون بالجانب العملي، بل اهتموا أيضا بالجانب النظري، فقد ألف محمد بن علي الشطيبي الأندلسي رسالة رتبها على ثمانية أبواب، اعتمد فيها على ما تقرر في كتب علماء الفلاحة الأندلسيين، أمثال ابن بصال، وابن وافد، وابن ليون التجيبي، كما اعتمد على تجاربه الشخصية لاستخلاص ما يلائم طبيعة البلاد المغربية[7].

الصناعة

يقول ابن سعيد اختصت المرية ومالقة ومرسية بالوشي المذهب الذي يتعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا، وفي تنتاوله من عمل مرسية تعمل البسط من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة، ويصنع في مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد افريقية وغيرها.

ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب، وفخار مزجج مذهب...»[8].

---

(2) الحسن الوزان، وصف افريقيا، 1 220.

(3) C. Marmol, l'Afrique, 2 174

(4) ع. العزيز الفشتالي، مناهل، 42

(5) ناصر الدين السعيدوني، الجالية الاندلسية بالجزائر، مقال بمجلة اوراق، مدريد، العدد الرابع، 1981، ص 119.

(6) الحسن الوزان، المصدر السابق، 1 171.

(7) انظر سعيد اعراب، رسالة صنعة الفلاحة، مقال بمجلة دعوة الحق، السنة 13، عدد 1، نونبر 1969، ص 121 وما بعدها.

(8) أ. المقري، المصدر السابق، 1 : 201—202

وقد حمل الأندلسيون معهم العديد من هذه الفنون بل وطوروها بالمغرب، اذ كانت لهم مناهج خاصة في دباغة الجلود، وصناعة الحرير والصوف، وقد أشار الحسن الوزان إلى أن تجار الأقمشة الصوفية بفاس كانوا كلهم أندلسيين(9). كما أكد مارمول أن لباس سيدات فاس هو تقريبا نفس لباس موريسكيات غرناطة(10). ونذكر في هذا المجال أيضا صناعة الشاشية المستعملة إلى يومنا هذا. كما نذكر أيضا من جملة الصناعات التي حملها معهم الأندلسيون إلى المغرب «صندوق العروس» بالرباط وتطوان، وكان يصنع من عود العرعر الصلب في هيكل غاية في الكبر، لتجمع فيه العروس لباسها ورياشها(11).

ونص مارمول على أن عددا من الثريات الموجودة ببعض مساجد مدينة فاس من إبداع أندلسيي المدينة، اذانها مأخوذة من نواقيس الكنائس الأسبانية التي انتزعها هؤلاء منها، وحملوها معهم إليها(12).

وعرف ميدان البناء كذلك تطورا مهما أيضا، فطراز البناء الأندلسي لم يعد يقتصر على مدن الشمال، بل تخطر جبال الأطلس، ودخلت الفسيفساء ونقش الحجر والجبس والخشب والفستقيات المائية حتى الدور المتوسطة بعد أن استقر الصناع الأندلسيون بين تلك المدن. وقد لاحظ مارمول أن أحسن مدن المغرب هي المدن التي زينت وجملت بمروات الموريسكيين(13).

وبرع الأندلسيون أيضا في ميدان الصناعات المعدنية، فقد أكد كل من الحسن الوزان(14)، ومارمول(15) على أنهم كانوا يشرفون على صناعة الأسلحة والذخيرة بمدينة فاس.

ولم يكتف الأندلسيون بذلك، بل حملوا معهم تنظيماتهم إلى المغرب، فقد كانوا منتظمين في طوائف حرفية يسميها الحسن الوزان نقابات(16).

وعلى العموم فإن الأندلسيين قد ادخلوا العديد من الحرف إلى المغرب ووجدوا البيئة الملائمة لتطويرها وتصريفها «.... وقد ظهر في دولته (المنصور السعدي) الشريفة من العلم والحرف المهمة التي لم تكن قبل في المغرب أصلا....»(17).

---

(9) وصف افريقيا، 1 191.

(10) L Afrique, 2 193.

(11) م. السائح، سوق المهر، المقدمة، ص كح.

(12) L'Afrique, 2/160.

(13) L'Afrique, 2 170.

(14) وصف افريقيا 1 / 191.

(15) L'Afrique, 2 : 170.

(16) وصف افريقيا، 1 184

(17) أ. بن القاضي، المنتقى، 1 : 250.

تنقلات الشهاب الحجري

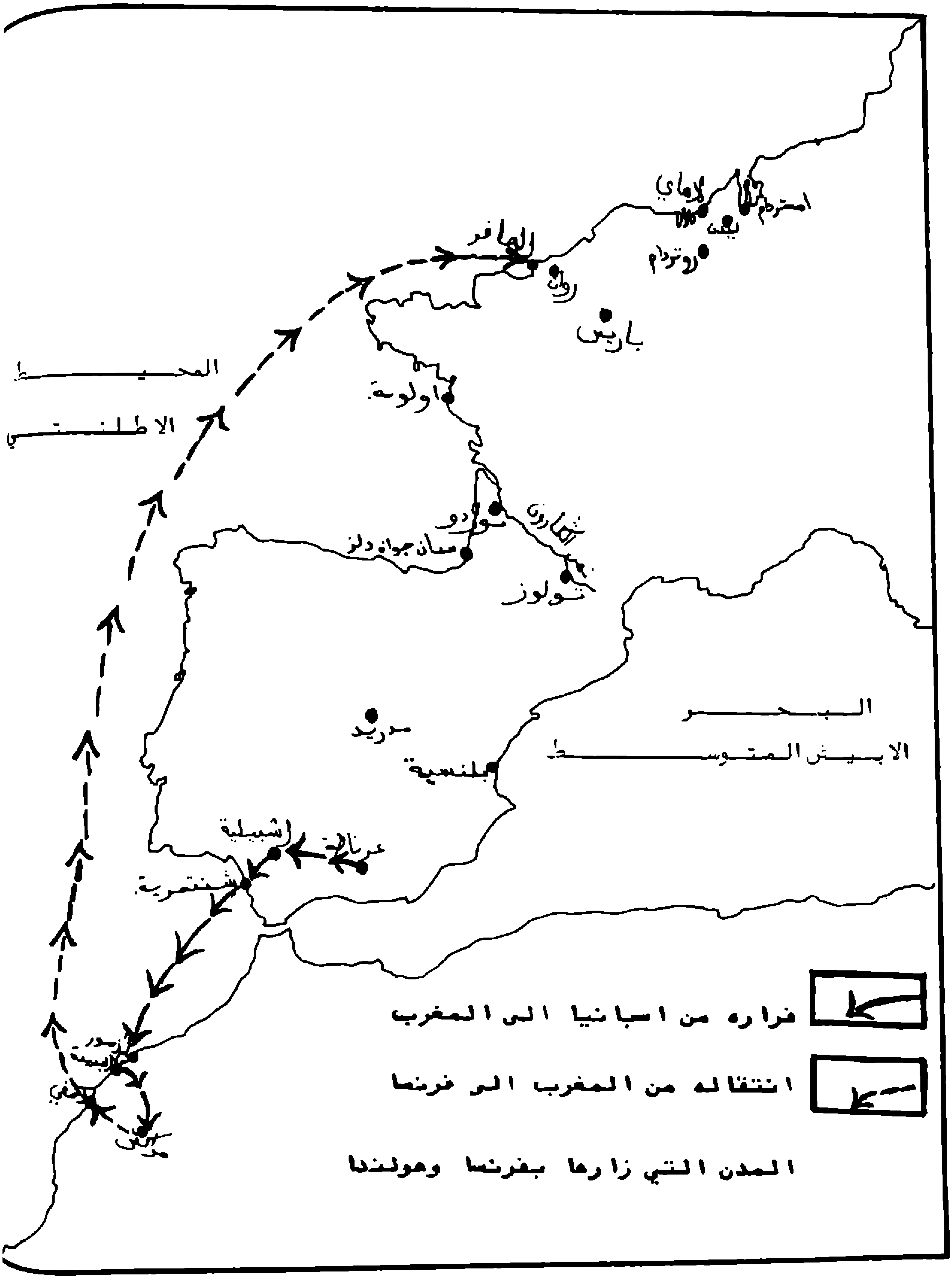

2

الـمـيدان الإداري والـدبـلومـاسـي

لعب الأندلسيون دورا بارزا في الميدان الدبلوماسي، وذلك لتمرسهم بالمعاملات الدولية، ومعرفتهم باللغات الأوروبية، ولثراء بعضهم، فنافسوا بذلك اليهود الذين كانوا يحتكرون هذا الميدان، ومن أشهر السفارات التي اصطلعوا بها في العهد السعدي

* ـــ سفارة أحمد بن قاسم الحجري (1019 هـ/1610 ـــ 1611)

أثناء عملية طرد الموريسكيين ونقل هؤلاء إلى المغرب وقع أن نهب هؤلاء من طرف بحارة فرنسيين، فقدموا شكوى الى السلطان زيدان بهذا الشأن، وقد قرر تعيين وفد يرأسه الشهاب الحجري مصحوبا برسالة احتجاج إلى السلطات الفرنسية.

وفعلا خرج السفير، من أسفي في سنة 1019 هـ ونزل بميناء هافر متجها نحو باريس، واتجه بعد ذلك إلى هولندا حيث زار امستردام، وليدن، ولاهي، ومن هناك قفل راجعا إلى المغرب. غير أن نتائج سفارته هاته بقيت غير واضحة. إذ أننا لا ندري هل توفق في شأن استرجاع المنهوبة من الموريسكيين أم لا ؟(18).

* ـــ سفارة يوسف بسكيانو إلى هولندا (1624 ـــ 1625) غادر يوسف بسكيانو المغرب في 20 يوليوز 1624 مبعوثا من طرف السلطان زيدان متجها إلى روتردام، وكان مصحوبا بحاشية مكونة من 6 أشخاص، من بينهم اليهودي يامين بن زموك، المكلف بالاهتمام بالمسائل الشخصية للسلطان زيدان.

وقد كانت مهمة السفير تتلخص في

ـــ تسديد دين كان على السلطان السعدي تأديته.
ـــ الاحتجاج ضد تهريب الأسلحة الهولندية إلى المغرب.
ـــ الاحتجاج ضد مناورات بعض التجار الهولنديين وعدم صدق معاملاتهم.
ـــ وأخيرا الاحتجاج ضد تصرفات السفير الهولندي نفسه بالمغرب.

وقد سويت بعض هذه القضايا(19).

* ـــ سفارة محمد بنيكاس Vanegas سنة 1629 إلى هولندا

بعث به قائد قصبة الرباط محمد بن عبد القادر صبرون للتعبير عن النوايا الحسنة للموريسكيين تجاه

(18) انظر تفاصيل زيارته لفرنسا وهولندا في كتابه ناصر الدين، مواضع متفرقة.
(19) J. Caillé, Ambassades et Missions Marocaines....
in, H.T. Vol. IV, Fasc. 1-2 - 1963-P-48.

الهولنديين. وقد تجاوب هؤلاء معهم، وطالبوا بحسن استقبال الهولنديين بالعدوتين، واطلاق سراح أسراهم(20).

* — سفارة ابراهيم الدك سنة 1659 إلى هولندا

بعث اللادئيون بهذه السفارة إلى هولندا لأسباب يمكن تلخيصها في

— تعديل معاهدة السلم والصداقة المبرمة بين الطرفين سنة 1657.

— دراسة حوادث قصبة الرباط وقضايا أخرى تهم الطرفين.

— استقدام طبيب للعيون للسلطان محمد الحاج الدلائي.

وقد سويت بعض هذه القضايا(21).

— في العهد العلوي

اهتم السلطان مولاي اسماعيل بالجالية الاندلسية وبجهادها البحري الذي أصبح يشرف عليه، فلا غرابة أن نجد أن الكثير من علاقاته مع الدول الأوروبية تدور حول افتداء اسرى هذه الجالية، وهو لهذا الغرض لا يفتأ يذكر مخاطبيه بقضية الأندلس وما وقع فيها، ففي رسالة الى دون كارلوس الثاني ملك اسبانيا حول قضية افتكاك مائة أسير مسيحي، يقول «.... وذكرونا (العلماء) في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم، وهي لما يزيد على الأربعين ألفا بعد تعدد الشروط على ستين شرطا، ولم يوفوا لهم بواحد منها، الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الأندلس، في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية، فألفيناهم ماتكلموا الا بالحق...»(22).

لذلك فقد كان شرطه «ان تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب.... وتعطونا خمسمائة أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى...»(23).

وقد كانت هذه الرسالة هي موضوع سفارة الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني الاندلسي الى اسبانيا.

* — سفارة الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي إلى اسبانيا عام 1102هـ / 1690

دون الغساني سفارته هاته في كتابه **رحلة الوزير، في افتكاك الأسير**، وقد اهتم في هذه الرحلة بما عاين بنفسه من بقايا الموريسكيين في هذه الفترة المتأخرة رغم مرور أزيد من 80 سنة على قرار الطرد، فهو يقول — مثلا — بالنسبة لمدينة سماها البريجة «.... وفيها انتسب لنا البعض إلى الاندلس بإشارة

(20) J. Caillé, op. cit. P. 58.

(21) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص 197 وما بعدها.

J. Caillé, op. cit. P. 61.

(22) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 2 : 63—64، **المنزع اللطيف**، 140.

(23) نفس المصدر والصفحة.

خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي، والغالب على جل سكانها أنهم من بقايا الأندلس إلا أن العهد طال عليهم وربوا في بحبوحة الكفر، فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله...»[24].

ويقول وهو بصدد الحديث عن بنتين «.... ولقد اخبرني بمدينة مدريد رجل يسمى ضون الونص حفيد موسى اخي السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة أن البنتين باطريرة من دمه، وضون هذا رجل حسن الأخلاق، حسن الثياب، له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى، وهو معدود من فرسانهم وشجعانهم... ومع هذا فهو مائل الى من تلقاه من أهل الاسلام، ويذكر نسبه، ويعجبه ما سمعه من الحديث عن الاسلام وأهله....»[25].

ويقول عن مدينة اخرى وهي انروخير «... والغالب أنهم من بقايا الاندلس وجلهم من أولاد السراج الذين كانوا انتصروا على السلطان أبي الحسن آخر ملوك غرناطة...»[26]. ويتحدث بعد ذلك عن وضعية هؤلاء المورسكيين قائلا «... ان من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه برقمه في ثوبه المتدثر به... والخطط التب يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكمة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست له وجاهة كبيرة وولاية شنيعة مثل التصرف في المحال أو الولاية للاقاليم الكبيرة والمدن والقواعد مثل اشبيلية وماشاكلها. وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون، فمنهم من ينتسب، ومنهم من ينفر من سماعه الانتساب ذلك...»[27].

أما عن نتيجة هذه السفارة، فقد ذكر الاسبان للغساني أن الحريق الذي وقع بقصر الاسكوريال (مكان وجود الكتب العربية) قد أتى على سائر الكتب العربية، وأخذوه الى هناك للتأكد من ذلك، واكتفى بالاتفاق على تحرير الاسرى.

★ — سفارة عبد الله بن عائشة الاندلسي الى فرنسا سنة 1698

مارس عبد الله بن عائشة الجهاد البحري بالعدوتين خاصة ضد السفن الفرنسية انطلاقا من سنة 1672[28]، الى أن اشتهر كقائد ماهر لمجاهدي الرباط وسلا، مما سبب قيام مشاكل بين البلدين حول مشكل الاسرى، فاتجه المجاهد المذكور موفدا من قبل السلطان مولاي اسماعيل الى باريس لمقابلة الملك لويس الرابع عشر وللتباحث في الموضوع، وقد توبعت المفاوضات حول الأسرى، لكن بدون نتيجة تذكر، مما اضطر معه الى العودة الى المغرب[29].

---

(24) رحلة الوزير، 10
(25) نفس المصدر والصفحة
(26) المصدر السابق، 17.
(27) نفس المصدر والصفحة.
(28) انظر عن اعماله الجهادية البحرية R. Coindreau, op. cit. PP. 70-76
(29) انظر تفاصيل أخرى عن هذه السفارة عند
جاك كيلي، السفارات والبعثات - المغربية لفرنسا، مقال بمجلة **تطوان**، العدد السادس، 1961، ص 164—167، وابراهيم حركات، ابن عائشة امير البحر، مقال بمجلة **دعوة الحق**، العدد 4، مارس 1969، ص 126—129.

★ ــ سفارة أحمد بن أحمد قردناش الاندلسي إلى لندن سنة 1706

من أهم أهداف هذه السفارة طلب السلطان مولاي اسماعيل من الملكة الانجليزية آن مساعدته على استعادة سبتة من الاسبان، ووردت تعليمات أخرى على قردناش من السلطان تقضي بأنه على استعداد لأمداد حامية جبل طارق باحتياجاتها التموينية في كل الأوقات، بيد أن جهود السفير انتكست بشدة نتيجة الأنباء التي وصلت إلى لندن عن قيام المجاهدين المغاربة بأسر مركبين انجليزيين وإرسال بحارتهم البالغ عددهم 55 بحارا الى مكناس.

وقد رفضت الملكة آن عرض السلطان بالعمل ضد الاسبان، ووعدت بالعمل على تحسين العلاقات المغربية الاسبانية، كما سويت مسألة الاسرى[30].

وقد اهتم السلطان سيدي محمد بن عبد الله أيضا بالجهاد البحري خاصة ضد الاسبان[31]، إذ يقول أحمد الغزال في هذا الصدد «.... جد ــ أيده الله ــ في تهيء المراكب للجهاد، واجتهد وشحنها بالعدد والعدد، وحض عساكره المؤيدة بالله على حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا.... وقد ضيقوا بالعدو الكافر، البر والبحر، حتى صاروا قذى في عيون المشركين...»[32].

وقد كان طرف يحتفظ بعدد كبير من أسرى الطرف الآخر، مما جعل كلا الطرفين يعمل على تحرير أسراه.

وكان الاسرى المغاربة بإسبانيا قد كتبوا الى السلطان رسالة يشتكون فيها مما اصابهم من التعسف والاهانة، فبادر السلطان الى الكتابة الى كارلوص الثالث ليثير انتباهه الى اهتمامه بالموضوع[33]، وقرر أن يرسل إليه بعثة للتباحث في المضوع، ومما يجب تسجيله أن السلطان اختار أول الامر لبعثته خاله عمارة بن موسى، ومحمد بن ناصر ومعهما الغزال بصفته كاتبا للبعثة، لكن ما أن خرج الوفد مسافة معينة حتى بادر الغزال الى الكتابة الى السلطان مخبرا أياه بأن الشخصين المذكورين لا يعرفان شيئا عن قوانين النصارى وعاداتهم، وانه يخشى ان يكون ذلك عائقا في طريق السفارة[34]. وفعلا فقد استجاب له السلطان ووضعه على رأس البعثة وخلع عليه رتبة سفير، فهذا يدل بالفعل أن الجالية الأندلسية بالمغرب كانت تعتبر هذا الميدان ميدانها.

---

(30) انظر مزيدا من الايضاح عند ب. ج. روجز **تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية**، ص 114، 117.

(31) عن الجهاد في عهد السلطان محمد بن عبد الله، انظر
أحمد بن المهدي الغزال، **نتيجة الاجتهاد**، ص 33 وما بعدها.
م. بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف**، 166—169—175—176—178.
ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 256—265.
Ramón Lourido, Transformación de la Piratería Marroquí en Guerra del Corso por El Saltán Sidi Muhammad B. ABD Allah.
in **H.T.** Vol. X. Fasc 1-2, 1969, PP. 39-69.

(32) نتيجة الاجتهاد، ص 34—35

(33) المصدر السابق، ص 39—40

(34) أ. الناصري، **الاستقصا**، 8 : 24.

★ ــ سفارة أحمد بن المهدي الغزال الاندلسي المالقي الى اسبانيا (1766 ــ 1767)

نجحت سفارة الغزال نجاحا كبيرا، اذ اسفرت عن اطلاق سراح الاسرى المغاربة والعمل على تحسين حالة بقية الاسرى المسلمين، كما أدت الى تقارب بين البلدين، توج بمعاهدة بين الطرفين في مايو سنة 1767، وكان تحرير نصوص هذه المعاهدة على يد الغزال. وقد دون المبعوث الاندلسي رحلته في كتابه **نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد**.واعتنى في رحلته بتسجيل ما سبق للغساني أن سجله عن بقايا المرسكيين بإسبانيا، فقد ذكر وهو بصدد الحديث عن بلافرنكا Villafranca، وبلاصيوص Valacios من أعمال اشبيلية قائلا «.... ولامرية في انهما من بقايا الأندلس، وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بلاشكو، وهو من أعيان العدول عندهم، وقد أظهر من الميل إلينا ما غلب على الظن أنه مسلم، وصار يشير بإشارة خفية، ويكثر من الالتفات حال مخاطبته إيانا، ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر....»(35). وذكر أيضا وهو بصدد الحديث عن أهل أوطريرة Utrera (من أعمال اشبيلية أيضا) «.... ودمهم دم العرب، واخلاقهم مباينة لأخلاق العجم، وميلهم للمسلمين، وتحننهم للجنس، واسفهم عند التشييع يقطع أنهم من بقايا الاندلس، وقد طال عليهم العهد، وربوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله... والكثير من القابهم موجودة عندنا في الاسلام، كغبريرة وقرطناش وبريشة، وارميرو، وافريكو، واللمب وأولاد خويا، وخيرون، وراغون، وبائص ومنضوصه، وغير ذلك....»(36).

وقد سجل محمد بن عثمان المكناسي نفس الملاحظات عندما بعثه السلطان الى اسبانيا سنة 1193هـ/1779 في شأن افتكاك الاسرى، اذ كتب يقول وهو بصدد الحديث عن غرناطة «وبهذه المدينة من بقايا الأندلس شيء كثير، فمنهم من ينتسب ومنهم من لا ينتسب، وقد تعرف الينا أحد أصحاب الشرطة ممن له غلظة وتجبر، وقد رأيت فيه ظلما كثيرا يضرب النصارى ويشتمهم، وقد أتانا ذات يوم، فقال اني من المسلمين وانما جعلت هذه الخطة بيدي سببا للوصول إلى اذاية هؤلاء الكفرة، وأنا من أولاد صيرون...(37).

وقال أيضا أثناء الحديث عن أحد أعيان مدينة لوخة «.... ففرح بدخولنا الى داره فرحا كثيرا وقال أنا من أولاد رغوان وأنا محب في المسلمين، فقلت له إن اخوانكم عندنا في بلدنا من خيار الناس، فهلا قدمت عليهم، فقال أقدم ــ إن شاء الله ــ لرؤية البلد بقصد التجارة...»(38).

وتتعدد بعثات الاندلسيين كذلك الى فرنسا للاغراض نفسها، نذكر على سبيل المثال

— بعثة علي بيريس (1772 ــ 1773).
— بعثة عبد الله سكالانطي (1774 ــ 1775).
— بعثة عبد الطاهر فنيش (1777 ــ 1778).
— بعثة الحاج العربي مورينو (1786)(39).

(35) **نتيجة الاجتهاد**، 72
(36) المصدر السابق، 73.
(37) **الاكسير في فكاك الاسير**، 183.
(38) المصدر السابق، 184.
(39) انظر تفاصيل عن هذه البعثات عند جاك كيلي، المصدر السابق، 169ــ175.

في الميدان العلمي

كانت مساهمة الجالية الاندلسية بالمغرب بارزة أيضا في الميدان العلمي، فقد برزوا في ميدان العلوم التجريبية والبحتة، كما ساهموا في ميدان الترجمة، وبفضلهم دخلت عدة مصطلحات تقنية الى اللغة العربية، وسوف نعطي نماذج لذلك.

العلوم التجريبية   الطب الصيدلة

ظلت الاندلس المسلمة حتى آخر عهودها محتفظة بتعاليم الأطباء   الزهراوي، القرطبي، وابن البيطار المالقي، وآل ابن زهر الاشبليين[40].

وحمل الاندلسيون من ذلك ما أحيى دماء الدراسات الطبية والصيدلة بالمغرب، وبخاصة في فاس ومراكش، وقد قرب الملوك السعديون الاطباء الاندلسيين، واتخذوا من بينهم طبيب القصر الخاص، واغدقوا عليهم من الصلات، والمكافآت ما شجعهم على النشاط في علاج المرضى، وصنع الادوية وتأليف الكتب[41].

ومن هؤلاء

— أبو القاسم الوزير بن محمد الغساني (ت 109 / 1610)

عميد الاطباء والصيادلة في عصره، وقد أخذ جماعة من الطلبة ودرسوا مؤلفاته، قال في حقه المقري «... تفرد — حفظه الله — بعلم الطب بالحضرتين، وشارك في سائر العلوم...»[42].

من مؤلفاته

— **حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار**[43]   معجم نباتي، قال في حقه المقري   «كتاب في بابه لم يؤلف مثله، يذكر سائر الاعشاب والعقاقير بما سميت به في الكتب، ثم يذكر اسمها بلسان عامة الوقت، ثم يذكر خواصها على وجه عجيب، واسلوب غريب...»[44].

— **مختصر حديقة الازهار**[45]، اقتصر فيه على ما يحتاجه الطلبة.

— **تفسير بعض الاعشاب والعقاقير** مقتطف من كتاب **ريحانة الجيوب، في العقاقير والعشوب**[46]، وهو معجم طبي ثالث مرتب على حروف المعجم أيضا.

---

(40) انظر وصفا لمؤلفاتهم عند م. العربي الخطابي، **فهارس الخزانة الحسنية**، المجلد الثاني، (الطب والصيدلة والبيطرة)، مواضع متفرقة.

(41) م. حجي، **الحركة**، 1   67.

(42) **روضة الآس**، 217.

(43) حققه اخيرا (1985) محمد العربي الخطابي.

(44) **روضة الآس**، 217.

(45) مخطوطاته متعددة، من بينها مخطوطات خ.ع. بالرباط أرقام 760 د، 359 ج، وخ.ح بالرباط رقم 1063.

(46) مخطوط خ.ع. بالرباط رقم 1121 د، ضمن مجموع، ورقة 140—154.

ــ **الروض المكنون، في شرح رجز ابن عزرون**[47]، الفه برسم خزانة ولي العهد محمد المامون عام 999هـ/ 1586 شارحا به رجزها رون بن اسحاق ابن عزرون في الحميات والاورام، وهو ذيل لارجوزة ابن سينا الطبية.

* **ــ علي بن ابراهيم الاندلسي (ت. حوالي 1065هـ/1655) مهر في الطب كسابقه، فباشر العلاج والتعليم، ونظم الاراجيز في طرق التغذية النافعة ومداواة بعض الامراض وقد اهدى منظوماته الى السلطان الوليد ابن زيدان (ت. 1045/1636).**

من مؤلفاته

ــ ارجوزة في الفواكه الصيفية[48]، وهي في نحو 300 بيتا، ذكر فيها 23 نوعا من الفواكه المعروفة بالمغرب آنذاك منبها على طبائعها وفوائدها ومحاذيرها.

ــ أرجوزة علاج العيون[49]، وصف فيها 23 نوعا من العقاقير الناجعة في مختلف أورام العيون.

ــ أرجوزة ثالثة في الاعشاب وخواصها في شفاء الامراض[50]، رتبها على حروف المعجم.

ومن الاطباء الاندلسيين في عهد السلطان مولاي اسماعيل نذكر طبيبه الخاص الحاج عبد الواحد ابن محمد غريط الاندلسي[51].

وهناك نوع آخر من (العلاج) حمله معهم الموريسكيون إلى المغرب، فقد ذكر الشهاب الحجري في هذا الصدد «... ومما منى (كذا) علي به (الله) ان شفى لي مرض بالنشر فقط والرق بآيات من القرآن العزيز... من ذلك أن مملوكة سوادانية اسمها مباركة كانت بدارنا بمراكش... في جسدها البرص الكثير، وهو في زيادة... فكتبت السورة كلها في إناء لم يدخلها طعام، ومحوت الحروف بماء نقي، واعطيت الماء للمبروصة وشربته، ولكن اخذت من الماء شيئا، ونشترت أو وضعت على مواضع البرص، ومن ذلك اليوم بدأت كل لمعة تصغر على قدرها... وبداها الشفا من ذلك اليوم الى ثمانية أشهر ولم يعد اليها الى أن جازت نحو العشر سنين وماتت. وهذا من العجب، إذ ليس في هذا العلاج شيء من العقاقير، ولا من الادوية التي تعالج بها الامراض، إنما ذلك شيء من زعفران محلولا في قليل ماء ورد، لتظهر الحروف فقط...»[52].

ويقول في مكان آخر ومن نعم الله تعالى علي بأسمائه الحسنى ان امرأة كانت بها ثلاث علل، كان ظهر يدها واصابعها بها ثالول كثيرة، فكتبت جدولا مثمنا حرفيا، اذكر فيه اسمين من أسماء الله الحسنى، بارد مصور. ومزجته بكلام بيت من الضمياطي (كذا).... وجعلته عليها. وفي نحو

(47) انظر وصف للمخطوط عند م. العربي الخطابي المصدر السابق، 118.
(48) مخطوط خ.ح بالرباط عدد 6499، وانظر وصفا لها عند م. العربي الخطابي، المصدر السابق، 206.
(49) مخطوط خ.ح. بالرباط عدد 515، وانظر وصفها لها عند م. العربي الخطابي، المصدر السابق، 206.
(50) العباس بن ابراهيم **الاعلام**، 9 222.
(51) ع. الرحمان بن زيدان، **المنزع اللطيف**، 203.
(52) ناصر الدين، 124.

الستت (كذا) ايام لم يبق في يدها اثر للثالول، وشفاها الله من العلة الاخرى، ومن الثالثة نقص من دائما....»[53].

اننا نستطيع تفسير ذلك، إذا مارجعنا الى بلدهم الاصلي نفسه، وكيف كانوا يمارسون (مهنتهم تلك).

نشير أولا إلى أن هناك نوعين من الطب، طبّ علمي، وعلاج تمتزج فيه الشعوذة والسحر.

ففيما يتعلق بالنوع الأول نجد هناك عددا من الأطباء الموريسكيين المشهورين لدى مواطنيهم، وكانوا يمارسون مهنتهم بناء على قواعد علمية، فقد صرح الأطباء الموريسكيون الذين وقع استجوابهم من طرف محاكم التفتيش بأنهم يملكون ثقافة علمية تنتسب إلى قواعد الطب العربي، كما شهد بذلك في سنة 1583 فليب كيناس Filipe Guinacet[54]، وكانوا يقومون بعمليات جراحية، إذ عثر في هذا الشأن على عدد من أدوات الجراحة، وعلى عدد من التآليف المتعلقة بفن الجراحة[55]، لكن حورب هؤلاء أيضا من طرف محاكم التفتيش وسنتعرض لذلك فيما بعد.

وكان هناك أيضا نوع آخر من العلاج — وهو الغالب، خاصة في الأوساط الريفية — ممزوج بالسحر والشعوذة، ففي خلال قضية بدرو الكاسو Pedro El Gaco ذكر الشهود الموريسكيون أمام محكمة التفتيش «بأن المتهم كان يقرأ كتبا عربية، ويقوم بتعاويذ وأشياء أخرى، وذلك لاكتشاف السرقات والكنوز وعلاج المرضى، وكان أيضا فقيها...»[56].

كما اعترفت موريسكية أمام محكمة التفتيش بأن موريسكيا قدم لها ورقة مكتوبة بأحرف عربية قائلا لها بأن ذلك نافع جدا لأوجاع الرأس، وقد صدقته ووضعت ذلك في قميصها[57].

هناك عدة أسئلة يمكن طرحها بالنسبة للطب الموريسكي لماذا حارب الاسبان الأطباء الموريسكيين، خاصة إذا علمنا على أنهم لم يكونوا يقلون قدرة وكفاءة عن الأطباء الاسبان ؟ لماذا رفض الموريسكيون الاتجاه إلى الأطباء الاسبان ؟ كيف وجد بعض (المعالجين) طريقهم إلى الاستحواذ على عقول الموريسكيين بالسحر والشعوذة ؟

هذه الأسئلة في الحقيقة مترابطة.

فقد حارب الاسبان الأطباء الموريسكيين، لأنهم كانوا دائما محل شك من طرف محاكم التفتيش، نتيجة قتلهم لمرضاهم المسيحيين، فقد قتل الطبيب الموريسكي لويس كومور Luis Comor أكثر من

(53) المصدر السابق، 129.
(54) جاكلين فورنيل، «الصيدلة الموريسكية وممارسة الطب لدى المجموعة الموريسكية» مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس، العددان 15—16، السنة السادسة، يوليوز 1979، ص، 56.
(55) جاكلين فورنيل، المصدر السابق، 52.
(56) جاكلين فورنيل، المصدر السابق، 52.
(57) المصدر السابق، 57.

عشرين مريضا من رجال الدين[58]. ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يقومون بتصفية المتعاونين من الموركسيين مع محاكم التفتيش، أو المرضى المشكوك فيهم[59]، مما أدى بالعديد من هؤلاء إلى ممارسة مهنتهم سراً.

وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الطب الموركسي يأخذ طريقه نحو التدهور، ويفسح المجال للنوع الذي لا يحتاج إلى إمكانيات مادية كبيرة، ولا إلى معارف طبية محددة، ورغم إدراك كثير من الموركسيين ما في هذا (العلاج) من سحر وشعوذة، فإنهم مع ذلك كانوا يتجهون إليه، ويرفضون بتاتا الذهاب إلى الطبيب الاسباني، لسبب واضح، وهو أنه يدخل في إطار المواجهة الدينية والحضارية التي كانت قائمة آنذاك بين الموركسيين والاسبان، خاصة إذا علمنا أن الطب الاسباني آنذاك كانت تشرف عليه الكنسية، وكثيرا ما يصاحب العلاج طقوس مسيحية يرفضها الموركسيون تماما.

وأصبحت تشكل هذه المواجهة جزءا من تراثهم، وعندما طردوا من بلدهم، حملوا معهم هذا التراث، حتى وإن اختفت الاسباب.

علـــوم بحتـــة

برع الأندلسيون أيضا في ميدان الرياضيات والهندسة، والفلك وظلوا لمدة طويلة أساتذة تلك العلوم، ونذكر في هذا المجال من بين مؤلفاتهم

ــ شرح أحمد ابن معيوب الأندلسي لكتاب **اليسارة في تعديل السيارة** (لابن البناء المراكشي)[60].

ــ **شهور العرب**[61]، لنفس المؤلف، وهي رسالة مختصرة في بيان دخول الشهور العربية بالحساب.

ــ **لطيفة الرسائل في العمل بالربع**[62]، للشيخ محمد بن أحمد الأندلسي الصحري.

وضع المؤلف هذه الرسالة للسلطان أحمد المنصور الذهبي، وهي تشتمل على مقدمة وثلاثين بابا.

ــ **إرشاد السائل إلى معرفة جهة القبلة بالدلائل**[63]، لمحمد بن عبد العزيز الأندلسي (كرضيل، وقد كان حيا عام 1113 هـ/ 1701).

---

(58) المصدر السابق، 50.
(59) المصدر السابق، 53.
(60) م. الافراني، **صفوة**، 104.
(61) م. العربي الخطابي، **فهارس الخزانة الحسنية**، المجلد الثالث، 322
(62) المصدر السابق، 332
(63) المصدر السابق، 130.

ـ **رسالة في العمل بالربع**[64]، لنفس المؤلف.

ـ **شرح رجز في منازل القمر**[65]، له أيضا.

الترجمــة

برز الأندلسيون في هذا الميدان أيضاً، إذ كان يرجع إليهم في ترجمة المعاهدات والمراسلات الرسمية، ووجد من بينهم علماء نقلوا الى اللغة العربية كتباً اسبانية في الطب والصيدلة والفلك، والفنون الحربية، ونشير إلى أن الترجمة بالنسبة لهم لم تكن مجرد عمل لتحقيق هدف معرفي، بل تتجاوز ذلك بكثير، فهي مرتبطة أساساً بشيئين

ـ إنها جزء من جهادهم ضد الاسبان، فالطب والصيدلة لعلاج المسلمين وتقويتهم ضد الاعداء، والفلك لمعرفة أوقات الصلاة والشهور، والمدفعية لتقوية أسلحة المجاهدين.

ـ وهي مرتبطة من جهة ثانية بقدسية اللغة العربية بالنسبة لهم، لأن هذه الأخيرة تؤدي مباشرة «إلى ذكر الله» في حين ان العجمية تؤدي مباشرة «إلى ذكر الشيطان»، ولذلك فإنهم كانوا كثيراً ما يحجمون عن ترجمة الكتب العربية للمورسكيين الذين لا يعرفون اللغة العربية، فقد ذكر الشهاب الحجري، وهو بصدد الحديث عن الكتب العربية التي تحذر من اليهود

«... وأيضاً في كتاب نسيت اسم مؤلفه من كتب المسلمين طلب مني واحد من فقهاء الأندلس أن أترجمه له بالعجمية من العربي بسلا بالمغرب، ذكر فيه من غش اليهود شيئاً كثيراً...»[66].

ويقول في مكان اخر وكل لسان مختلف عن غيره، وهذه العربية واحدة في الدنيا. وقالوا الحق في ذلك فهو كلام مبارك، ومن يتكلم بها لا بد يذكر الله، ولذلك كان يقول بعض من الأندلس لا عربية بلا الله، ولا عجمية بلا شيطان، لأن النصارى يذكرونه في كلامهم، ولا يكره العربية والكلام بها إلا من لا يعرف فضلها وبركتها...»[67].

وسوف نعطي نماذج لهؤلاء

(*) أحمد بن قاسم الحجري

عميد المترجمين بالمغرب في عصره، اشتغل بالترجمة وهو بإسبانيا، إلى أن اشتهر أمره بها، وذلك بمناسبة تمكنه من ترجمة رق مكتوب بالعربية وجد بصومعة قديمة قرب غرناطة[68]، إذ يذكر في هذا الصدد ففرح القسيس (قس غرناطة) فرحاً عظيما بما ترجمت، وعلم أنه الحق، وأعطاني ثلاثمائة

---

(64) المصدر السابق، 244.

(65) المصدر السابق، 300.

(66) ناصر الدين، 94

(67) المصدر السابق، 102.

(68) انظر تفاصيل في المصدر السابق، ص 7 وما بعدها.

ريالا وأيضاً كتاباً بالاذن للترجمة من العربي إلى العجمي وبالعكس، وامتد الخبر عند النصارى، حين كانوا يشيرون إليَّ ويقولون هذا هو الذي فهم الرق الذي وجد في الصومعة..»[69]. وانتقل بعد ذلك إلى المغرب ليقوم بنفس الدور

كنت ترجمان السلطان زيدان... سنين عديدة، وكاتب سره باللسان العجمي، وكذا ترجمت للسلطانين أولاده (عبد الملك والوليد)...»[70].

اعمـالـه

ـ ترجمة كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع[71]

وهنا تبرز الملاحظة التي سبق أن أبديناها في صدر هذه النقطة، والمتعلقة بالترجمة، إذ يقول حول سبب ترجمة الكتاب ولما طالعت الكتاب العجمي الذي كتبه الريس مؤلفه (إبراهيم المرباش) بخط يده ورأيت نيته الصالحة أن الكتاب يكون فيه نفعاً للمسلمين وعوناً لهم على الكفار المشركين... فعزمت على تعريبه...»[72].

وينطلق بعد ذلك إلى المشاكل التي اعترضته بالنسبة للترجمة وبعد أن اشتغلت بعض الايام بترجمة الكتاب توقفت من أجل أسماء المدافع، وما يتعلق بها لأنها لم تعرف لها أسماء عربية...»[73].

وينتقل أخيراً إلى الحل الذي ارتآه لذلك، ومنهجه في الترجمة وكنت إذا تشكل عليَّ شيء من الكتاب نسأل الريس مؤلفه ويبين لي في الحين بياناً شافياً كل ما نسأله عليه، وعلمت أن كل ما ذكر وكتب هو عنده بالقول وبالفعل، ومن الكمال للمترجم الذي يترجم من لغة إلى أخرى أن يعرف ما يترجم ومعناه إن أمكنه...»[74].

ونشير إلى أن هذه الترجمة كانت معروفة بالمغرب، فقد وقف عليها أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (تـ. 1096 هـ/1685)، ونقل عليها أواخر شرحه على النظم الذي وضعه في العمليات الفاسية، وذلك لما تعرض لمسألة عمل الرصاص في الذكاة[75].

---

(69) المصدر السابق، 11.
(70) **العز والمنافع**، 245.
(71) مخطوطاته متعددة، أحسنها مخطوطة خ.ع. بالرباط عدد 87ج، وعليها تعليقات في الهوامش بخط المؤلف انظر وصفا للكتاب عند م. المنوني، ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مقال بجملة **دعوة الحق**، العدد 3، السنة 10، يناير 1967، ص 81 ـ 85.
(72) **العز والمنافع**، 245.
(73) المصدر السابق، 249.
(74) نفس المصدر والصفحة.
(75) م. المنوني، المصدر السابق، ص 85.

— ترجمة رسالة زيج زكوط[76].

ألّف هذه الرسالة الاسرائيلي ابراهيم السلمنقي بالعبرية (عام 877 هـ/1472م)، ثم نقلت إلى اللاتينية، ومنها الى الاسبانية، وعن هذه اللغة نقلها الشهاب الحجري، إذ يذكر عن هذه الترجمة «... وكنت يوماً بمدينة مراكش جالساً أترجم رسالة باللَّطين تتكلم عن الكورة (كذا) الارضية والفلكية، والكرتان الكبيرتان، كل واحدة في كرسي مرسوم في السماوية، النجوم الثوابت والبروج والفلك، والصور المعروفة عند المنجمين بأسمائها، وكذلك في الأرضية، كل مدينة معروفة في الدنيا، والأقطار والبلدان والأقاليم، وكل بلد باسمه، مكتوب عليه، والأبحر والأنهار. كان قد أمرني السلطان مولاي زيدان — رحمه الله — بترجمة ذلك (كذا) الرسالة، قلت هي بلغت (كذا) اللطين، ولا نعرفها. قال من يعرف اللطين ؟ قلت أسير راهب من أسارى المقام العلي، قال يقعد معك. وكنا في دار السلطان نترجم ذلك والراهب معي...»[77].

ورغم أن هذا الزيج وضع بحسب طول مدينة سلمنقة فإن المغاربة أقبلوا عليه حين عرب بعد أن كانوا يعتمدون زيج ابن البناء المراكشي، لأن زيج زكوط لا يحتاج لكثرة العمليات التي يتطلبها زيج ابن البناء[78].

— ترجمة فصول من الإنجيل والتوراة

اضطر الشهاب الحجري إلى ترجمة فصول من **الانجيل والتوراة** وذلك لإطلاع المسلمين على زيف ادعاءات المسيحيين[79].

(ه) الانجيل ترجم عدة فصول مطولة منه، وهذا نموذج منها

«الباب الثامن من إنجيل متّى قال سيدنا — عليه السلام — للحواريين فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالك الصالحة، ويمجدوا أباكم الذي في السموات. وقال في الفصل التاسع أحسنوا إلى من أبغضكم، صلوا من يطردكم ويغتصبكم، لكيما تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء، فهو كامل...»[80].

«قال متّى في الفصل الرابع والعشرين، قال عيسى أنظروا لا يضلكم أحد، لأن كثيرين ياتون باسمي ويقولون أنا هو عيسى، ويصلون ويخدعون كثيراً...»[81].

---

(76) مخطوط خ.ح بالرباط عدد 1433، ضمن مجموع، وانظر وصف لها عند. م. المنوني، المصدر السابق، 85—88.

(77) ناصر الدين، 126

(78) م. المنوني، المصدر السابق، 87، وم. حجي، الحركة، 1 163.

(79) سنتعرض الى هذه النقطة عند تعرضنا للجدال الديني.

(80) المصدر السابق، 67—68.

(81) المصدر السابق، 47.

«قال متي في الباب السابع والثمانين وفيما هم ياكلون أخذ يسوع خبزاً، شكر وكبر، وأعطى تلامذه، قال خذوا، كلوا، هو جسدي، وأخذ كأساً، وشكر، وأعطاهم، وقال اشربوا من هذا كلكم، لأن هذا هو دمي، العهد الجديد الذي يصرف عنه كثير لمغفرة الخطايا، وأقول لكم لا أشرب عصير هذه الكرمة حتى إلى ذلك اليوم الذي أشربه معكم جديدا في ملكوت ابي. وأيضاً قال مرقش في باب ستت (كذا) وأربعين الحق أقول لكمْ اني لا أشرب عصير هذه الكرمة الى ذلك اليوم حين نشربه جديدا في ملكوت الله...»[82].

(ه) التوراة

يقال في الكتاب الثاني المسمى الاشط في الباب العشرين منه «قال سيدنا موسى ــ عليه السلام ــ إن الله أمره أن ينزل من جبل الطور، وأن يقول عن الله تعالى لبني إسرائيل إن إلٰهكم أخرجكم مصر من ديار الأسر، لا تتخذوا إلٰهاً غيري، ولا تعملوا صورا من صور السماء العلية، ولا من صور الارض، ولا من تحت الارض، ولا تسجدوا لها، ولا تعبدوها، إني إلهكم غيور، ولا تحلف حانثاً»[83].

«الباب العشرون من الكتاب الثاني للسلاطين قال إن السلطان حزكيه مرض بمرض الموت، وجاء إليه النبي يشعيه ابن النبي مزو، قال ان الله أرسلني إلى دارك، إنك تموت ولا تعيش، فدعا وبكي بكاء شديداً، ثم تاب الى الله توبة صادقة، ثم بعث الله النبي يشعيه ارجع إلى سلطان بلادي، وقل له رأيت بكاءك، وقبلت دعاءك، وفي ثالث يوم ياتي الى بيتي، ونزيد في عمره خمس عشرة سنة، وننجيه من سلطان شوم، ونحفظ هذه المدينة...»[84].

ــ ترجمة قرار طرد المورسكيين من إسبانيا[85]

ترجم الشهاب الحجري هذا القرار للسلطان زيدان بعد صدوره.

وفيما يلي نماذج من هذه الترجمة بعد مقارنتها بالنص الاسباني الاصلي.

(82) المصدر السابق، 67ــ68
(83) المصدر السابق، 61.
(84) المصدر السابق، 78.
(85) اصدر فليب الثالث هذا القرار الى نائبه ببلنسية في 22 شتنبر 1609.
وقد وردت ترجمة عند الشهاب الحجري في كتابه ناصر الدين، 106ــ109.
وانظر النص الاسباني عند :
M.G. Arenal, **los moriscos, PP.251-255.**

الفقرة الأولى

النص العربي

لقد علمت ما صنع، وعمل مع النصارى الجدود (كذا) الاندلس أهل تلك السلطنة، وقشتالة، على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والارشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا. ولا نفع معهم قليلاً ولا كثيراً، لا، لم يجد (كذا) فيهم واحد من هو نصراني حقيقة. والغرر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعامينا عليهم، قد ذكره الينا رجال علماء وصلحاء...

النص الاسباني

Entendido tenemos lo que portan largo discurso de anos he procurado la conuersion de los moriscos de ese Reynos, y del de Cestilla. y los Editos de gracia que se les concedieron, y las diligencias que se han hecho para instruyellos en nuestra santa Fee, lo poco qui toda ella ha aproue chado, pues se ha visto qui ninguno se aya convertido, antes he crecido su obstenacion. y aunque el peligro, y irreparables danos que de dissimular con ellas podria suceder. se me represento dias ha por muchos y muy doctos y suntos hombres...

الفقرة الثانية:

النص العربي

ونحن في هذا تحققنا، وصح من وجوه، أنهم بعثوا للتركي الكبير باصطنبول ومولاي زيدان بمراكش، رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم، وانهم عندهم مائة وخمسون ألفا رجلا مسلمون (كذا)، مثل الذين ببلاد المغرب الافريقية، وأيضاً بعثوا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا (كذا) انهم يعينهم بسفونهم (كذا).

وأما سلطان اصطمبول فقد اصطلح مع سلطان الفرس، لانه كان يشغله. وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها، وإذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء نروا (كذا) نفوسنا في الامر الذي لا يخفى. وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا، ودفع ما يعرض لها اتفق نظرنا ــ بعد أن دعوت الله، وأمرت بالدعاء له طعاما، ومتوكلا في تأييده ونصره لما يجب لمجده وفضله ــ على إخراج جميع الاندلس الذين في تلك السلطنة لأنهم أقرب للغرر.

Pero aviendo sabido, que los desse, y los deste de castilla passauan adelante con su donado intento y he entidido por auisos ciertos y verdaderos, que continuando su apostasia y prodicion, han procurado y procuraran por medio de sus Embaxadores y por otros caminos del dano y perturbocion de nuestros reynos, y deseando cumplir con la obligation que tengo de su consercuacion y seguridad, y en particular la de esse de Valencia, y de los buenos y Fieles subditos del, por ser mas euidente su peligro, y que cesse la Heregia y opostasia. y auiendolo hecho encomendar a nuestro Senor, y confiado en su diuino fauor por lo que toca a su honrra y gloria, he resuelto que se saquen todos los moriscos desse Reyno, y que se echen en Berberia.

إذا كانت الفقرة الاولى ــ نسبياً ــ لا تثير أية ملاحظة، فإن الفقرة الثانية تبين بوضوح أسلوب الشهاب الحجري في الترجمة، لتوضيح المقصود من النص الاسباني والمركز، فمثلاً بينما نجد الترجمة الحرفية الاسبانية على الشكل الآتي «... وبما أني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة انهم في إصرارهم على الضلال أرادوا ويريدون دائماً الشر والفساد لمملكتنا عن طريق سفرائهم، وكذلك سبل اخرى...»، نجد الشهاب الجري لكي يترجم هذه الفقرة يورد الاحداث التي وقعت بالفعل، فيذكر أن الموريسكيين بعثوا للاتراك، ولابن زيدان، وانه لديهم 150 ألفا من المسلمين، وانهم على اتصال (بفرنسا)، إلى غير ذلك من الاحداث. وهذا هو أسلوبه، يريد أن يوصل الامر الى مخاطبيه بوضوح وبدون غموض، حتى وإن أدى الامر الى إضافات لا توجد في النص الاصلي.

ــ مشروع ترجمة كتاب فرنسي في الجغرافيا

نختم أعمال الشهاب الحجري بمشروع ترجمة، إذ أخبرنا أن السلطان زيدان أمره بترجمة كتاب فرنسي في الجغرافيا، ويبدو أن هذا المشروع لم يتم، ربما لانه لم يجد من يترجم له الكتاب من الفرنسية الى الاسبانية لكي يتسنى له ترجمته. وعلى كل فهو يذكر شيئاً عن هذا المشروع وقد أمرني السلطان مولاي زيدان ــ رحمه الله ــ أن أترجم له كتابا عجمياً كبيراً سماه مؤلفه بدران، لعظم اعظم (كذا) جبال الدنيا المعروفة، ولم نر في كتب الجغرافية مثله، وكان بلسان الفرنج، وصاحب الكتاب كان فرنجياً اسمه القبطان»[86].

(*) المعلم يوسف الأندلسي

من الاندلسيين المستقرين بمراكش أيام السعديين[87]. ويرجح ان يكون هو يوسف الحكيم المذكور عند عبد الرحمان الفاسي بقوله وكان رجل أندلسي يقال له يوسف الحكيم ممن له خبرة بالعلوم الحكيمة كالطب والتنجيم، خرج من عدوة الاندلس فاراً من النصارى.. واتصل بأرباب الدول، وكان يتردد الى الشيخ (يقصد أبا زيد الفاسي العارف)، وكان حكيماً يشهد له الشيخ بالتقدم في علم الكلام والفلسفة»[88]. ومما ينسب له أنه أول من قام بترجمة **الرسالة الزكوطية**[89].

(*) أبو القاسم الوزير بن محمد الغساني الاندلسي

من آثاره كتاب **مغني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب**، هو عبارة عن ترجمة عربية موسعة لكتاب طبي محرر بالاسبانية أو البرتغالية أهداه بعض الاوروبيين إلى أحمد المنصور الذهبي، وقد أضاف المترجم الى الاصل مقدمة وفصولاً من إنشائه[90].

---

(86) **ناصر الدين**، 65.

(87) م. المنوني المصدر السابق، 89.

(88) **ازهار البستان**، مخطوط. ح بالرباط رقم 583، آخر الباب الثالث.

(89) م. المنوني، المصدر السابق، 88—91.

(90) أ. المقري، **روضة الآس**، 217—218، وم. المنوني المصدر السابق، 76—77.

والجدير بالذكر أن هناك مورسكيين في اسبانيا كانوا يقومون بأعمال الترجمة بإذن من السلطات نفسها[91]، لكن ما يهمنا نحن هم المترجمون الذين كانوا يترجمون المراسلات الصادرة عن سلاطين المغرب، فنذكر بهذا الخصوص ألونسو القشتالي (Alonso de Castillo)[92] ترجمان فليب الثاني، وهو الذي كان يترجم رسائل أحمد المنصور الذهبي[93]، كما اهتم نفس المترجم بترجمة المراسلات والوثائق حول ثورة غرناطة (1568—1572)[94].

الجدال الديني

يدخل الجدال الديني أيضاً في إطار الجهاد الذي كانت تقوم به الجالية الاندلسية بالمغرب ضد المسيحيين، وهذا ما أشار إليه الشهاب الحجري بقوله «... وقد ذكر لي بمراكش العلامة الفقيه النبيه، الخير، قاضي المسلمين، سيدي عيسى بن الرحمان السكتي (السكتاني)[95] انه من الجهاد الرد على الكفار ما يقولونه من الباطل في الاديان»[96].

وإذا أخذنا الشهاب كمثال نلاحظ أن هذا الجدال كان غالباً ما يدور حول المقارنة بين عقيدتي التثليث والتوحيد وكان يورد بالاضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نصوصاً من **التوراة والانجيل** ليبطل بها مزاعم مخاطبيه.

وقد كان الرهبان بالمغرب يرمون من وراء جدالهم هذا إقناع من دخل في الاسلام حديثاً من المسيحيين أن يرتد عنه ويرجع إلى دينه الأصلي. وقد اضطر الشهاب الحجري إلى أن يتدخل لدى السلطان زيدان لافتداء راهب أسير بمراكش ولإخراجه إلى بلده، لأنه يقوم بهذا الدور السري، وفي هذا يقول ولو تحقق سلاطين المسلمين من سوء فعل القسيسين والرهبان، وأنهم يحتالون على أكثر

---

(91) ذكر الشهاب الحجري عددا من هؤلاء، انظر **ناصر الدين**، مواضع متفرقة.

(92) انظر ترجمته عند

Dario Cabanelas Rodriguez «El Morisco granadino Alonso del Castillo interprete II» in **M.E.A.H**, VI, 1956, pp. 19-42 **EL morisco grandino Alonso del Castillo**, Granada, 1965

(93) يبلغ عددها 17 رسالة، وقد ترجمها النسو سنة 1579، ويوجد النص العربي مخطوطا بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم 257، وعليه تعاليق المترجم مع شرحه لبعض الكلمات.

وقد كانت هذه الرسائل موضوع دارسة كبالينياس رودريكز D. Cabenales Rodriguez بعنوان «Cartas del Sultane de Marruecos Ahmed Al-Manûre a Felipe II, **AL Andalous**, XXIII, 1958, p. 20-47 كما نشر عبد الكريم كريم صورا لبعض هذه الرسائل في ملحق كتابه **المغرب في عهد الدولة السعدية**.

(94) نشرت هذه الوثائق جزئيا سنة 1852 من طرف الاكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد.

انظر

R.Arié, «Les Etudes sur les morisques en Espagne» in Revues des **Etudes Islamiques**, Paris, 1967, p.227

(95) انظر ترجمته عند محمد حجي، **الحركة**، 2 : 391، والمصادر بالهامش 45 من نفس الصفحة.

(96) **ناصر الدين**، 134.

من يرجع مسلماً من النصارى ليرتد في خفاء عن دين الاسلام، وأن يكون عدواً للمسلمين، لا يتركون أبداً واحداً منهم في بلادهم. وهذه نصيحة مني إليهم، وما قلت فيهم فهو صحيح لا شك فيه...»[97].

وقد انبرى الشهاب نفسه لراهب اسباني أسير بمراكش، وهو من كبار علماء الاسبان، إذ بعث له يوماً سؤالاً يقول فيه «ما قولكم في دينكم رجل زنى بامرأة محصنة، وحملت منه وولدت، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر زوجه، وأعطاه حظاً من ماله، واشتكى يوم الحساب لله سبحانه من زوجته، وممن زنى بها، والمال الذي انفق، وأعطى لابن الذي زنى بها، فأحضر الزاني والزانية، وقيل لهما في ذلك، فقالت المرأة اني ذكرت ذنبي للقسيس الفلاني وغفر لي، وقال الزاني انه ذكر ذنبه لقسيس في الدنيا، وغفر له ذنبه. والسؤال منكم أيها الراهب العالم في دينه، هل بقي للرجل المظلوم ما يطلب أم لا ؟...»[98].

فأجاب الراهب «.. ليس للرجل ما يطلب من زوجته، ولا ممن زنى بها بعد إقرارهما في الدنيا للقسيس من الذنوب، لانه غفر لهما، ولم يبق للزوج حق عليهما...»[99]، فانبرى الشهاب لهذا الرد قائلا «فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذي عندهم في دينهم، الاصل فيه يقولون بألوهية سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ وأن البابا خليفته، وجميع أئمة دينهم كل واحد خليفة البابا. ويأمرون الناس في كل عام في أيام صيامهم أن يمشي كل من هو بالغ من ذكر أو أنثى إلى الكنيسة، ويذكر للقسيس جميع ذنوبه، ويعطيه براءة بالمغفرة، ويأخذ الدراهم عليها، حينئذ يذهب مغفوراً له. وفي سائر الايام إذا كان مريضاً يمشي اليه القسيس إلى بيته، ويغفر له، ويأخذ اجرته دراهم»[100] وجادل رهباناً وقساوسة آخرين عندما سافر الى فرنسا وهولندا وبمصر، وأعجب به مخاطبوه[101].

ونشير في الأخير إلى أن الاندلسيين فقدوا مع مرور الزمن احتكارهم لميداني الترجمة والجدال الديني لكنهم ظلوا سادة الميدان الاداري والدبلوماسي لأجيال كثيرة.

اللـغـــة

يمكننا أن نميز من حيث تأثير الاندلسيين في لغة المغاربة بين مرحلتين

المرحلة الأولى وهي التأثيرات التي احدثتها جالية ما قبل القرن السابع عشر في لغة المغاربة.

المرحلة الثانية وتتعلق بالخصوص بالتأثيرات التي أحدثها المورسكيون في لغة المغاربة في بداية القرن السابع عشر.

---

(97) المصدر السابق، 110.

(98) المصدر السابق، 113.

(99) نفس المصدر والصفحة.

(100) نفس المصدر والصفحة.

(101) انظر تفاصيل ذلك في كتابه ناصر الدين، مواضع متفرقة.

المرحلة الأولى

جاء في ترجمة أحمد المنجور ما نصه «وكان مولعاً بأمثال العامة، خصوصاً عامة الاندلس، يستحسن لغتهم ولكنتهم ويثني عليهم وعلى بلادهم الجزيرة، ويستحسنها ويتشوق اليها...»[102].

ونخرج من هذا النص بملاحظتين أساسيتين

— إنتشار الامثال العامية الاندلسية بالمغرب، وتمثل العامة والخاصة بها، لا سيما في الجهات التي استقرت جاليات أندلسية مهمة، وقد لاحظ م. بنشريفة «أن قسماً كبيراً جداً من الأمثال (الاندلسية) الواردة في مجموعة الزجالي القرطبي — وعددها 2153 مثلا — ما يزال مستعملاً في حواضر المغرب وبواديه...»[103].

— محافظة الأندلسيين بالمغرب على لغتهم، متميزين بلكنتهم، وإن لهجتهم كانت تختلف عن لهجة المغاربة. وقد أقر ابن خلدون بهذا إذ ذكر أن لغة اهل الاندلس لغة قائمة بنفسها ومباينة — بعض الشيء — للغة أهل المشرق وللغة أهل المغرب أيضاً، وانها متأثرة بعجمة الجلالقة[104].

كما أشار الى ذلك ابن غازي بقوله «وهناك قرية كان يقال لها قرية الاندلس، من عمل بني زياد، سكنها على قديم الزمان قوم اندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهراً لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم الا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه.. وهذه القرية — والله أعلم — هي المسماة في هذه الاعصر تلاجدوت، وبها جرى المثل السائر دار الكرامة تلاجدوت»[105].

وسوف نعطي نماذج من هذه التأثيرات

(*) الإمـالـة[106]

حمل الأندلسيون معهم هذه الظاهرة اللغوية الى المغرب، فقد جاء في ترجمة فرج الاندلسي تغلب عليه الامالة شأن كلام الاندلس في ألسنتهم..»[107].

---

(102) م. الكتاني، **سلوة**، 3:61.
(103) **امثال العوامل**، 1:189.
(104) **المقدمة** 555
(105) **الروض الهتون**، 10.
(106) الامالة ابدال الالف ياء، وفي ذلك يقول عبد العزيز الملزوزي، «ومن غريب ما اتفق لي فيها (الاندلس)، حين كنت لوافيها، اني مررت بإمام يصلي بالناس، وهو يقرأ» بقل أعوذ برب الناس» :

قد بدل «الوسواس» بالوسويس
وكذلك «الخناس» بالخنيس
وكذلك بدل آية في آية
حتى «يوسوس في صدور النيس»

انظر م. بنشريفة، **الامثال**، 1:283.
(107) م. بن عسكر، **دوحة**، 79.

ومما يدل على انتشار هذه الظاهرة بالمغرب ان الحسن اليوسي عاينها بنفسه عند قبائل بني زروال شمال مدينة فاس، وعند قبائل أخرى بشمال المغرب[108].

* لا وجود لهمزة المضارع في العامية الاندلسية، فهم يستعملون النون للمتكلم المفرد، كما يستعمل للمتكلم ومعه غيره مع التفريق بينهما بزيادة الواو في الحالة الاخيرة. وقد ورد هذا الاستعمال كثيراً عند الشهاب الحجري

نمشي = امشي، نخرج = اخرج، نجلس = اجلس[109].

وما يزال هذا الاستعمال موجوداً بالمغرب.

* حرف الجر يرد في الغالب متصلا بالمجرور بعد حذف الجر (في)، يرد في الغالب متصلا بالمجرور بعد حذف حرف الباء منه وفتحه نحو، فالجبل = في الجبل[110].

* تمتاز العامية الاندلسية بزيادة كاف في أول الفعل المضارع، فيقال في (يكتب) كيكتب[111].

* حافظت العامية الاندلسية على فصاحة بعض الابنية والصيغ، ومن أمثلة ذلك المحافظة على كسر عين اسم الفاعل نحو

جالِس، واقِف.

في حين أن الفتح هو الشائع منذ أيام الموحدين في العامية المغربية[112]. وما تزال بعض مناطق شمال المغرب تعرف هذا الاستعمال الى يومنا هذا.

* والتصغير من سمات عامية الاندلس، وقد ولع به المغاربة أيضاً، فما زال الى يومنا الميل الى التصغير بارزا، فنقول مثلا في (السوق) السويقة...

وقد حفلت المخطوطات العجمية المورسكية بالعديد من المفردات التي ما تزال مستعملة الى يومنا هذا في بعض المناطق خاصة في شمال المغرب[113].

---

(108) **المحاضرات**، 166.

(109) **ناصر الدين**، 3، 20، 23.

(110) م. بنشريفة، المصدر السابق، 1:285.

(111) المصدر السابق، 1:286.

(112) المصدر السابق، 1:278.

(113) الحسين بوزينب اللغة المورسكية المسماة بالعجمية، ضمن كتاب **اعمال ندوة البحث اللساني والسميائي**، 111.

المرحلة الثانية

تتميز هذه المرحلة خصوصاً بانتشار اللغة الاسبانية بالمغرب، وبالتالي بدخول كلمات ومصطلحات تقنية في لغة المغاربة، نتيجة وصول أفواج مهمة من الموريسكيين بعد صدور قرار الطرد، فقد سجل ج. مويت G. Moüette ملاحظة أساسية، إذ ذكر «أن اللغة الاسبانية انتشرت بالمغرب انطلاقاً من طرد الموريسكيين، منذ أن حملها معهم هؤلاء اليه، وهي منتشرة اليوم (1683) تماماً كاللغة العربية...»[114]. كما لاحظ لويس برينو L. Brunot انه من بين الالفاظ البحرية الثلاثة والخمسين والسبعمائة المستعملة في الرباط وسلا، توجد 217 كلمة اسبانية[115].

وهذا نموذج من الكلمات الاسبانية التي دخلت لغة المغاربة

اللفظ باللهجة المغربية	مدلوله	اللفظ الاسباني
بابور	باخرة	Babor
باشدور	سفير	Emabajador
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
بلوزة	لباس	Blusa
بندير	دف	Pandera
دورو	نقد اسباني	duro
الرويدة	العجلة	Rueda
الروينة	تخريب	Ruina
طابة	تبغ	tabaco
كانتينا	حانة	Cantina
كبوط	معطف	Capote
كارو	عربة	Carro
كارطة	ورقة اللعب	Carta
كارو	سيجارة	Cigarro
كوتشي	كدش، عربة	Coche

(114) Relation ...P.3.

(115) Notes lexicologiques...., P.8

Comer (El pan)	خبـــز	كوميـــر
Compania	شـركـــة	كمبيـانـة
Corneta	بـــوق	كورنيطـة
Culata	بـنـدقـيـة	كـلاطـــة
Cocina	مـطـبـخ	الكشينـة
Gamela	قـــدر	كَـامـيـــلا
Gana	رغـبـــة	كَـــانـــا
Guerra	حـــرب	كَـيـــرّة
Cala	حجارة أو غيرها توضع أمام العجلة وخلفها كي تثـبـت في مكـــانها.	الكـالـة
Canapé	شبـــه سريـــر من الخشب	الكـنـابي
Lampara	مـصـبـــاح	لامـبـــة
Lata	قطعـة من الحديـد الأبـيض	لاطـــة
Luisa	نبات طيب يستعمل في الشاي	لـويـــزة
Armario	خزانـة مـلابـس	الـمـاريـو
Manera	طـريقـة	مـانيـرة
Manta	لـحـــاف	مـانـطـة
Maquina	آلـــة	مـاكينـة
Muñeca	دمـيـــة	مـونيـكـــة
Maza	المطـرقـة الغليـظـة	الـمـاصـــة
Marca	الـنـوع	الـمـاركـة
Sala	قـاعـة فـسيـحـة	صـــالـــة
Sandalia	نـعـــل	صـنـدالـــة
Dablon	نقد ذهبي اسباني (وهو حاليا نوع من الحلي تستعمله المرأة).	ضـبـلـــون
Gancho	حديد معتوق يستعمل في غلق الباب وفي شد العربـــة للدابـــة.	الـغـانـجـو
Falta	خـطـأ	فـالـطـا
Fabrica	مـصـنـع	فـبريـكـا
Factura	فـتـــورة	فاكـتـورة
Fachada	واجـهـة البـنـايـة	فرسـاطـــة
Forma	شـكـــل	فـــورمـــة

Falso	زور، باطل	فالصو
Familia	عائلة	فاميلا
Fraile	راهب	فرايلي
Fresco	طري	فريشك
Garganta	حنجرة	قرجوطة
Semana	أسبوع	سمانة
Sopa	حساء	سوبة
Suerte	حظ	سوِرْتِ
Zapato	حذاء	سباط

4

في الميدان الاجتماعي

حدثت عدة تأثيرات أندلسية في ميدان الخدمات الاجتماعية، وعلى مستوى بعض المظاهر الاجتماعية، وكذا في ميدان العمران والفنون، وسنحاول أن نعطي نماذج لذلك.

ـــ في ميدان الخدمات الاجتماعية

نذكر بهذا الصدد انتقال خطة الحسبة في الاندلس الى المغرب[116].

فقد سجل الحسن الوزان عن الجزارين بمدينة فاس ـــ مثلا ـــ ما ياتي «... قبل أن تحمل الذبائح لا بد من عرضها على المحتسب الذي يأمر بفحصها ويسلم بطاقة مكتوباً عليها السعر الذي يجب أن يباع به اللحم، ويلزم الجزارون بلصق هذه البطاقة على اللحم بحيث يتمكن الجميع من رؤيتها وقراءتها...»[117].

والجدير بالذكر أن الخطة اتجهت لفترة ما إلى تصرفات بعض أفراد الجالية الاندلسية بالمغرب، إذ اشتهر هؤلاء بالإقبال على اللهو والطرب وبالتدخين وشرب الخمر وعدم الالتزام بالواجبات الدينية، وكذا بالاستمرار في التشبث بالعادات الاوروبية التي كانوا عليها وهم بإسبانيا، مثل اختلاط الرجال والنساء في المحافل العامة، ولم يقتصر الامر على الاندلسيين، بل انتشر بين صفوف المغاربة أنفسهم.

وقد جاء الرد من الاندلسيين أنفسهم، ففي فاس قلد هؤلاء الحاج صالح ولاية الحسبة (سنة 1048 هـ/16368 ـــ 1639) لمعالجة الموقف، وفي هذا الصدد يقول القادري «وقلد الاندلس الحاج صالح ولاية الحسبة، فقطع شراب الدخان، وبيعه، وقطع اللهو وآلات الطرب من النساء، وألزم الناس الصلوات في الوقت، والستر في الحمام، وغير مناكر شتى..»[118].

ـــ مظاهر اجتماعية اندلسية

تميز أفراد الجالية الاندلسية بالمغرب بأسلوب معيشتهم وطريقة تعاملهم.

ونسجل بهذا الشأن عدة ملاحظات

ـــ إن أفراد هذه الجالية لا يميلون إلى الاختلاط بغيرهم من السكان، وهذا ما جعلهم يحجمون

---

(116) عن انتقال خطة الحسبة من الاندلس الى المغرب، والتطورات التي عرفها هذا النظام به، انظر م. المنوني، خطة الحسبة في المغرب، مقال بمجلة **المناهل**، العدد 14 مارس 1979، ص 215ـــ234. وانظر عن اهتمام الاندلسيين بهذا النظام والمصادر المؤلفة في ذلك، موس لقبال، **الحسب المذهبية في بلاد المغرب العربي**، 28ـــ59.

(117) **وصف افريقيا**، 1 187.

(118) **نشر المثاني**، 1 : 376.

عن الزواج خارج جماعتهم، فالمرأة الاندلسية نادراً ما تتزوج من غير أندلسي إلا إذا اضطرتها الحاجة الى ذلك[119].

ـــ انتشرت بفضل أفراد هذه الجالية عادة اللباس الابيض في الصيف والمآتم، واستمر ذلك الى يومنا هذا.

ـــ كانوا ميالين الى التأنق في اللباس، حريصين على النظافة، وهذا ما أشار إليه ابن سعيد بقوله «وأهل الاندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها»[120].

ـــ الاحتياط والتدبير مع الحذر

يقول ابن سعيد عن الاندلسيين أهل احتياط وتدبير في المعاش، وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينتسبون للبخل»[121].

وقد استنتج م. بنشريفة أيضاً من أمثال الزجالي القرطبي أنهم كانوا يرون أن الصلات بين الناس تقوم على سوء الظن والحيطة والحذر، وأن المنفعة هي الباعث المحرك في كثير من مظاهر السلوك، وصلات الافراد[122].

وهي مظاهر سلوكية رفضها المغاربة، واعتبرت عاملاً إضافياً من عوامل المواجهة بين الطرفين، فقد عرف عن المغربي كرمه، وتضامنه مع الغير ولو على حسابه، كما عرف عنه أنه يأنف من سؤال غيره إذا ما احتاج الى ذلك، وتفتحه وحسن ظنه بالآخرين، ورغبته في التعامل معهم، وهي صفات لم يجدها في هؤلاء الوافدين الجدد.

ـــ حمل الاندلسيون معهم بعض العادات الى المغرب، غير أن المغاربة تصدوا لذلك، فقد تصدى، ـــ مثلا ـــ قاضي سبتة ابو العباس العزفي السبتي (ت. 637 هـ/1234) الى بعض المواسم

---

(119) ناصر الدين السعيدوني، الجالية الاندلسية بالجزائر، مقال بمجلة **اوراق**، مدريد، العدد 4، 1981. ص 121.
I.D. Abbou, cp. cit. P. 76

(120) أ. المقري، نفح، 1 ض 223.
ملاحظة
يظهر هذا التأنق حتى في اختيارهم لانواع اطعمتهم، إذ من بين الاطعمة التي حملوها معهم الى المغرب نذكر البسطيلة، والمعسل انظر
I.D. Abbou, op. cit. P. 77

وحول الطبخ في الاندلس، انظر
ـــ كتاب الطبخ في المغرب والاندلس، لمؤلف مجهول.
فضالة الخوان لابن رزين التجيبي،
م. بنشريفة، **امثال العوام**، 1:234ـــ237.

(121) أ. المقر، المصدر السابق، 1:223
(122) **أمثال العوام**، 1:268

التي دأب المسلمون بالأندلس وسبتة على الاحتفال بها متبعين في ذلك المسيحيين في إقامة النيروز (فاتح يناير)[123]، والمهرجان أو العنصرة (24 يونيو، ميلاد النبي يحيى)[124]، وعيد ميلاد المسيح (25 دجنبر). وقد استنكر هذه البدع ونبه مواطنيه على ضرورة الاعتناء بالمولد النبوي والاحتفال به[125].

ومن بين العادات التي حملها معهم المورسكيون الى المغرب صورة الكف، وهي من بعض المعتقدات المسيحية التي رسخت في أذهان المورسكيين، لأن الكف هي كف مريم البتول، وتعتبر في معتقداتهم مانعة من الارواح الشريرة، وتطرد كل شيطان رجيم، وقد جمع المورسكيون التمسك بالكف الى التمسك بالصليب، فكثير من الابواب يعلوها صليب[126].

ــ الآثار الاندلسية في اللباس المغربي

أثر الأندلسيون أيضاً في ميدان اللباس، مع ملاحظة أن بعض الالبسة ظلت محتفظة بشكلها العام وتسميتها، في حين نجد أن أخرى اختفى اسمها الاندلسي وعوض باسم مغربي، لكن مع احتفاظها بطابعها الاندلسي. كما لا يخفى أيضاً أن هناك عدداً من الالبسة الاندلسية التي طورها المغاربة بإدخال تعديلات عليها على مر الزمن، إلى أن وصلت الينا كما نعرفها اليوم.

وسنعطي نماذج لهذه التأثيرات الاندلسية.

السلهام

عوضت هذه التسمية كلمة (برنس)، التي لم تعد مستعملة في المغرب، واستعملت بدلها كلمة (سلهام) المأخوذة من كلمة Zulame القشتالية. والتسميات معا (سلهام و Zolame) كانتا مستعملتين في الاندلس (سواء لدى المسلمين أو المسيحيين) منذ العصور الوسطى[127]. وم تعد هذه الكلمة مستعملة بإسبانيا، في حين احتفظ بها المغرب، على عكس باقي أقطار العالم العربي التي ما تزال تحتفظ بلفظه (برنس)[128]. ولا نعرف متى دخلت هذه الكلمة الى المغرب، ولا متى توقف استعمال كلمة (برنس)، لكن لدوزي رأي في الموضوع، فهو يرى أنه في أواسط القرن الثامن عشر كان اليهود هم الذين يلبسون البرنس الاسود، وبطريقة مختلفة عن الطريقة التي كان يلبسها بها المغاربة، ومن الممكن

(123) المصدر السابق، 1:238.
(124) المصدر السابق، 1:240.
(125) المصدر السابق 1:241.
(126) محمد المزي، نور القبس بين طبرية والاندلس، ضمن كتاب **بحوث عن الاندلسيين في تونس**، 27.
I.D. Abbou, op. cit P. 379.
(127)

G.G. Busto "Huellas Andalusis en El Vestir marroqui, in **Cuadernos de la Biblioteca española de Tetuan**, Decembre, 1977, n° 16, p. 69.
(128) R. Dory, dictionnaire détailé **des noms des vêtements chez les arables**, P. 77

منذ ذلك الحين أن يكون المغاربة قد تراجعوا عن استعمال كلمة (برنس) على اعتبار انها لباس لأقلية مهمشة، وبقيت لفظة (سلهام) وحدها[129].

البلغة

هناك عدة خلاصات يمكن الخروج بها في موضوع هذا النعل

أولا الكلمة من أصل لاتيني، وذلك في تطورات عديدة، فالأصل اللاتيني الأول Quercus، وصيغت منها في الاسبانية لفظة Corcus، وفي لغة المستعربين الاسبان (Mozarabes) Qurq ومن هذه الاخيرة اخذت القشتالية AL corque، ومنها أتت الألفاظ الآتية : Am Balga - Al Borga - Al pargata[130].

وبما أن كلمة (بلغة) من أصل غير عربي فإن كلا من دوزي[131] وبرينو Brunot[132]، لم يعثرا على أصلها في معجميها.

وكما يقول آسين Asin «يجب أن نأخذ بعين الاعتبار بأن كل كلمة لاتينية أو سابقة للاتينية لها تاريخ في اللهجات الاسبانية المسيحية، وتاريخ لغة الاسبان المستعربين (Mozarabes)، وحتى داخل عامية الاندلس»[133]. فمن يخطر على باله أن لفظة «بلغة» آتية من لفظة quercus اللاتينية ![134].

ثانيا كانت كلمة مستعملة في الاندلس خلال قرون عديدة[135].

ثالثاً انتقلت هذه اللفظة مع المهاجرين الاندلسيين الى شمال افريقيا وبها تركزت، وهي لا توجد الا في هذه المنطقة[136].

البدعية[137]

وهي مما نقله المهاجرون الاندلسيون الى شمال افريقيا[138]. لكن المشكلة هي أن اللفظة نفسها لم تكن مستعملة في الاندلس، واستعملت بدلها لفظة (الصدرية)[139]، فأثناء محاكمة موريسكي أمام

---

(129) R. Dozy, op. cit. P.77

(130) J. Olivier Asin, "Quercus en la España musulmana, in Revista **Al Andalus**, Vol. XXIV, 1959, P. 176.

(131) **glossaire des mots espagnols et portugais derivés de l'arabe.**

(132) **noms des vêtements masculins à Rabat, in, Mélanges René Basset.**

(133) Oliver Asin, op. cit. P.128.

(134) G.G. Busto, op. cit. P.72

(135) G.G. Busto, op. cit. P.71

(136) Ibid. P. 72

(137) L. Brunot. op. cit

(138) G G. Busto. op. cit. P.73

(139) ذكرت الكاتبة الانجليزية فرنسيس مكنب، عندما زارت تطوان سنة 1901، ان من بين ملابس التطوانيات (الصدرية). انظر. ع. المجيد بن جلون، جولات في مغرب الامس، ص 15.

محاكم التفتيش سنة 1566، قضت المحكمة بمصادرة امتعته، فتقدمت زوجته بشكاية لأجل استرجاع أمتعتها من محاكم التفتيش، ومن جملة الامتعة توجد «صدرية من حرير»(140). ولم يقتصر الامر على التسمية، بل إن الأمر تعداه الى ادخال بعض التعديلات على هذه (الصدرية) بشمال افريقيا(141).

يبقى لنا، إذن، احتمال حول أصل كلمة بدعية من أن تكون أتت من فعل (أبدع)، فتكون تعني آنذاك لباسا جديدا لم يكن معروف من قبل.

البنيقة(142) :

مازال هذا اللفظ مستعملا بشمال المغرب والجزائر، ويتعلق الامر بمنديل تضعه النساء على رؤوسهن لجميع شعرهن، واستعمل كذلك بإسبانيا بمعنى قريب جدا(143). ولا نعرف متى دخل هذا اللباس الى شمال افريقيا ؟ ومن المحتمل دخوله مباشرة بعد سقوط غرناطة، من طرف الفئات الغنية، التي كانت تستعمل هذا اللباس(144).

المضمة

حزام لشد اللباس الى الجسم، وهي مما نقله المهاجرون الاندلسيون كذلك الى المغرب(145)، وتعترضنا أيضا هنا مشكلة الاسم، فهذا اللفظ لم يكن مستعملا بالاندلس، إذ انها لفظة مغربية محضة(146). ويرى دوزي أنها من أصل عربي من فعل «ضم»(147). ولا نعرف كذلك متى بدأ استعمال هذا اللفظ بالمغرب، لكن من المحتمل أن يكون قد استعمل من طرف حرفيي غرناطة أنفسهم، بعد تطوير هذا الحزام بالمغرب، خاصة اذا ما قارنا بين هذا الحزام المغربي ومثيله المستعمل في اسبانيا خلال القرون الوسطى(148).

الكرزية

نوع من الاحزمة تضعه المرأة بقبائل جبالة. وقد استعمل هذا الحزام بالاندلس على الاقل أواخر العصر الوسيط، اذ يوجد في القواميس الاسبانية بهذا الشكل Karziyya-Karazi ولاحظ أكثر من مؤرخ استعماله من طرف المورسكيين(149).

---

(140) G.G. Busto, op. cit. P. 73

(141) انظر وصفا للصدرية عند
G. Marçais, **le costume musulman d'Alger**, P. 63.

(142) G. Colin, Banika, in **Encyclopédie de l'Islam**, 1/1047 1048.

(143) G. Colin, op. cit

(144) G.G. Busto. op. cit. P. 79

(145) Ibid. P. 79

(146) L. Brunot, op. cit. P 115

(147) **Dictionnaire....** P. 49.50

(148) G.G. Busto, op. cit. P.82

(149) Ibid, P. 84

وهناك مشكلتان تتعلقان بالموضوع

المشكلة الاولى سبق أن رأينا أن الكرزية لا تستعمل حاليا إلا كحزام في منطقة معينة بالمغرب، لكن بعض الدارسين يرى أنها كانت تستعمل أيضا بمعنى العمامة، وأورد قول مارمول في هذا حين حديثه عن قبائل حاحة بقوله أنهم يضعون على رؤوسهم (كرزيات)، واعتمادا على رواية Dopper سنة 1659 وهو يصف لباس المورسكيين أنهم كانوا يضعون على رؤوسهم «كرزيات»(150).

وذهب دوزي نفس المذهب، خاصة ان صاحب **الحلل الموشية** ذكر، عن ابن صاحب الصلاة، عن عبد الله العراقي من سكان فاس، انه قال «كنت ببغداد بمدرسة الشيخ أبي حامد الغزالي، فجاءه رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف، فدخل المدرسة، وأقبل على الشيخ ابي حامد، فسلم عليه، فقال ممن الرجل ؟ فقال من أهل المغرب الاقصى، قال أدخلت قرطبة ؟ قال نعم....»(151).

ولكن في نفس الوقت لا نعرف متى توقف هذا الاستعمال بالمغرب.

المشكلة الثانية وتتعلق بأصل الكلمة، فهناك عدة احتمالات

— هناك من يقول بأن أصلها لاتيني من لفظة Corrigia.

— وهناك من يقول يكون أصلها من إسم نسيج من مكان ما بأنجلترا، وانتقل الى اسبانيا قديما جدا، ومن هناك أخذها الاندلسيون.

— وفريق آخر يرى بأن كلمة مأخوذة من لفظة فرنسية قديمة Cors(152).

— واحتمال أخير، هو أن الكلمة من أصل مغربي انتقلت الى الاندلس في وقت مبكر، مع موجة هجرة القبائل البربرية الى الاندلس، وتطور استعمال اللفظ هناك وكذا شكل الحزام، وبعد قرون رجع هذا اللباس مع موجات المهاجرين الاندلسيين في شكل آخر يبرز ملامح صناعة تقليدية رفيعة. وهذا الاحتمال الاخير هو المرجح.

الشاشية(153)

من الالبسة التي أخذها معهم المهاجرون الاندلسيون الى شمال افريقيا(154). وهي عبارة عن قلنسوة حمراء كان يضعها رجال المخزن والعلماء والتجار والطلبة، واستمر وجودها الى يومنا هذا. وهناك شاشية اخرى خاصة باليهود وهي سوداء.

---

(150) Ibid, P. 85.

(151) الحلل الموشية، 104—105.

(152) G.G. Busto, op. cit. P.87

(153) انظر عن الشاشية

R. Dozy, **Dictionnaire**, PP. 240-244.

(154) G.G. Busto, op. cit. P.98

وننتقل في الأخير الى بعض الالبسة التي لم يستخدمها المغاربة، ولكنهم احتفظوا بأسمائها.

السمرير أو الشمرير[155]

قبعة يضعها الاسبان على رؤوسهم عند خروجهم الى الشارع[156]. وقد أكد دوزي الأصل الاسباني للكلمة Sombrero دون أن يوضح لنا كيف ومتى دخلت هذه الكلمة الى المغرب، ففي قاموسه يذكر «من المعروف أن Sobrero كان مجهولا بين المسلمين في أول الامر، وللتعبير عن هذا اللباس الاوروبي، وجدوا انفسهم مضطرين لاستعمال الكلمة الاسبانية السالفة الذكر.... والعامة غيرت هذه الكلمة وحولتها الى سمرير أو شمرير»[157]، ويمكننا أن نقدر أن دخول هذه الكلمة الى المغرب كان في بداية القرن السابع عشر عند دخول المورسكيين الى المغرب[158].

برنيطا أو بريطا

قبعة برتغالية أو كطلانية منشقة من الاسبانية bierrete Barrete Barretina[159] وهذه اللفظة على غرار السابقة، وكانت منتشرة بالعالم الاسلامي[160]. وعلى العموم فإن المغاربة لم يستعملوا لا الشمرير ولا البرنيطا، اذ المغربي يغطي رأسه بما يناسب لباسه.

ـ انتشار الموسيقى الاندلسية بالمغرب

يمكن تقسيم انتشار الموسيقى الاندلسية بالمغرب الى مرحلتين أساسيتين

ـ المرحلة الاشبيلية، وهي تبتدىء انطلاقا من العصر المرابطي الى غاية العصر المريني[161].

ـ المرحلة الغرناطية وتمتد من الفترة الوطاسية الى غاية بسط الحماية على المغرب.

وقد دخلت هذه الموسيقى مع الهجرات الأندلسية الاخيرة في العهدين الوطاسي والسعدي، واستطاعت مدرسة غرناطة أن تطغى على مدرسة اشبيلية[162].

---

(155) ما زالت امثال العامة بالمغرب تحتفظ بهذه اللفظة فنقول مثلا «دارليه شمرير» اذا اهانه امام الناس، ولعل اصل المثل هو وضع هذه القبعة الاسبانية على رأسه ـ التي لا يرتديها المغاربة، ـ لاهانته أمام الناس.

(156) G.G. Busto, op. cit. P.90

(157) **Dictionnaire**.... P.230

(158) G.G. Busto, op. cit. P.92

(159) G.G. Busto, op. cit. P.92

(160) Ibid, 94.

(161) انظر عن هذه المرحلة م. المنوني، تاريخ الموسيقى الاندلسية بالمغرب، مقال بمجلة **البحث العلمي**، عدد مثنى 14، 15، السنة السادسة، يناير / دجنبر 1969، ص 150—152.

(162) م. المنوني، المصدر السابق. 152

(163) عن النوبات انظر. م. الفاسي، الموسيقى المغربية المسماة اندلسية مقال **بمجلة تطوان**، العدد 7، 1962، ص 9 — 11.

ومن الجدير بالذكر ان دور المغاربة كان بارزا في هذه الموسيقى، اذ ادخل عليها هؤلاء تعديلات مختلفة في الحانها واشعارها وترتيبها.

ففي ميدان الالحان ادخل المغاربة ميزانا جديدا أضافوه للميازين الاربعة القديمة سموه (الدرج)، كذلك أضافوا الى (النوبات)[163] الموسيقية القديمة نوبة جديدة هي الاستهلال، على يد موسيقي من فاس يدعا الحاج علال البطلة[164] في خلافة عبد الله الغالب السعدي أما في ميدان الاشعار فقد ادرج المغاربة في هذه الموسيقى اشعارا مغربية عامية تسمى براول (جمع بريولة)[165]، كما انتخب المغاربة اشعارا في المديح النبوي على ألحان هذه الموسيقى، دون استعمال آية آلة في الغالب، وبعضهم لحن اشعارا صوفية على نغمات اندلسية لتنشد في محافل الذكر، ربما استعملت فيها الآلة.

وقد بلغت هذه الالحان شأوا بعيدا بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي أيام المنصور الذهبي، والى هذا اشار الفشتالي اثناء وصفه لاحتفال الخليفة السعدي بعيد المولد النبوي، اذ يقول «.... واندفع القوم لترجيح الاصوات بمنظومات على أساليب مخصوصة في امادیح النبي الكريم — ﷺ — يخصها العرف بإسم المولديات.... قد لحنوها بألحان تخلب النفوس والارواح، وترق لها الطباع وتبعث الانشراح.... يتفننون في الحانها على مذهب تفننها في النظم....»[166].

— في ميدان الفن والعمران

لاحظ مارمول أن أجمل الدور بالمغرب هي التي بنيت من طرف الأندلسيين، وذلك بفضل ثرواتهم التي حملوها معهم من اسبانيا[167]. وقد أشار الى هذا أيضا المقري حين حديثه عن آخر ملوك بني الاحمر «وبني بفاس بعض قصور على طريق بنيان الاندلس، رأيتها ودخلتها....»[168].

ولم يفت أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي أن يسجل أثناء زيارته لغرناطة سنة 1766 ما يأتي «هي اقرب شبها بفاس في بنيانها، وجريان الأودية بجداراتها، ثم القناطر المضروبة عليها، وما اشتملت عليه من الديار والخصص والزليج والدرابيز من اللوح المستدير بمساحات الطبقة الثانية المشرفة على صحن الدار والبيوت والغرف والسقوف والأبواب، والكل مشاكل لمدينة فاس...»[169].

لقد تأنق الأندلسي في كل شيء في ملبسه ومأكله، فلا غرابة أن نجده يتأنق في اختيار مسكنه، وقد أشار الى هذا محمد بن عبد السلام السائح الاندلسي بقوله «براعة الاندلسيين في العمارة ومهارتهم في النحت والنقش والتنميق والزخرفة بالذهب والاصباغ، مما لا يمترى فيه ولا يمارى، وما يشاهد

---

(164) لم يستبعد م. حجي أن يكون هذا الموسيقى من أفراد الجالية الاندلسية المهاجرة، انظر كتابه **الحركة**، 1 67.

(165) م. الفاسي، المصدر السابق، 12.

(166) مناهل، 224.

(167) L'Afrique, 2:171.

(168) نفح الطيب، 4:529

(169) نتيجة الاجتهاد، 195.

من فنون النقش على الرخام والجبس وانواع التحسين بمدارس بني مرين المبثوتة بأنحاء المغرب من فاس ومراكش وسلا وشالة، وكذا ما بقبور الاشراف السعديين بمراكش، كل ذلك نماذج من الفن الاندلسي مطبوعة على غراره، فصناعة الزليج الذي تزين به الحيطان والسياجات، وعمل الجبس الذي يجمل به الحنايا والابهاء، كل ذلك من الصنائع الاندلسية التي لا يزال يتنافس فيها...»[170]. كما لم يفت جودية بنسليمان أن تسجل هذا التأثير الموريسكي أثناء دارستها لدور تقليدية بمدينة سلا[171]. وبرع الاندلسيون أيضا في ميدان الصناعة التقليدية، اذ أقبل عليها المغاربة إقبالا شديدا، خاصة في ميدان الرقم[172].

وقد وجدت Martha Gérard، أن كثيرا من المصطلحات المستعملة في هذا الفن توجد الى يومنا هذا بمنطقة الاندلس باسبانيا[173]، وكذلك بالنسبة لصناعة الحصر، فكثير من مصطلحاتها هي من أصل اسباني[174]. وكذلك الشأن بالنسبة لصناعة الزرابي (الزربية الرباطية) فهي ذات خصائص معينة، وقد لاحظ م. السائح انه «كان بالرباط كثير من النسوة لا سيما بيوتات الأندلس كآل بلانبو، وبركاش، ينسجن أنواعا من التعاليق الستور، غريبة التشبيك تحمل بها الاسرة.... وقد رأيت نحوا من هذه الصناعة لنسوة الاسبان...»[175].

---

(170) I.D. Abbou, op. cit. P.77

(171) **Salé, Etude Architecturale**... P.16

(172) ما زلنا الى يومنا هذا نميز هذا الرقم عن غيره فنسميه (الطرز الرباطي).

(173) نذكر على سبيل المثال سينتا Cinta وكوردون Cordon

(174) للمزيد من الايضاح حول الرقم بالنسبة للمدن التي استقرت بها جاليات اندلسية، انظر مقالاتها

— Les broderies de Fès, in **H.T**. vo. VIII, Fasc. unique, 1967 pp. 123-155.

— Les Broderies de Tétouan, in **H.T**. Vol X, Fasc, 1-2, 1969, pp. 191-216.

— Les Broderies de Chéchaouen in **H.T** Vol XV, 1974, pp. 225-250.

— Les Broderies de Salé, in **H.T**. Vol. XVIII, Fasc. uniques, 1978-1979, pp. 11-232.

(175) سوق المهر، المقدمة، صفحة كز.

الفصل الثاني

مراكز الاستقرار

تنوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب تنوعاً كبيراً، إذ لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل مناطق عدة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاد سوس[1]. وقد اتخذ أفراد هذه الجالية ـــ غالباً ـــ أحياء خاصة بهم، مما يوحي بأن مواجهة ما قد وقعت بين هؤلاء وباقي السكان وسوف نعطي نماذج لذلك.

(1) نذكر على سبيل المثال المحمدية (تارودانت) إذ استقرت بها جالية اندلسية مهمة، وما تزال بعض أحيائها تحمل أسماء أندلسية مثل درب الاندلسيين «إيندلاسي» ودرب «أولاد بونونة» كما عرفت بها بعض الاسر الاندلسية مثل أسرة «آيت الناظر» التي ترتفع بنسبها إلى آل السراج، وزراء غرناطة. وتوجد كذلك بعض الأسر بأسمائها الاندلسية في بوادي سوس كأسرة بركاش في دائرة آيت باها. انظر ع. الحميد مرادي، **لمحات من تاريخ سوس**، ص 39، عن عمر آفا، **مسألة النقود في تاريخ المغرب**، ص 81.
كما حفلت كتب التراجم بعدد من الاندلسيين المستقرين بمنطقة درعة، نذكر على سبيل المثال محمد بن محمد العشاب الانصاري الاندلسي.
أنظر أ. بن القاضي، **درة** 2 : 57 رقم 500.

الرباط وسلا

رأينا في فصل سابق[2]، بعض جوانب الصراع الذي كان قائماً بين الأندلسيين والمغاربة بالعدوتين وهو صراع يمكن تلخيصه في عوامل ثلاثة

ــ عوامل اقتصادية انتقال مركز الثقل الاقتصادي إلى الرباط عوض سلا، وما نتج عن ذلك من آثار سلبية بالنسبة لاقتصاد هذه الأخيرة.

ــ عوامل سياسية رغبتهم في الاستقلال عن المغاربة، بل والقيام باتصالات مع دول أجنبية لتحقيق هذه الرغبة والوقوف في وجه المغاربة.

ــ عوامل اجتماعية الاختلاف في السلوك الاجتماعي بين الفئتين، فأهل سلا كانوا «على غاية تامة من المحافظة على مكارم الأخلاق، وحسن الشيم، واتباع السنة، وغاية التحفظ والورع التام في المأكل والمشارب، والقناعة بالاقلال، وعدم الافتخار بالجاه والمال...»[3]. وهي صفات تناقضها صفات الطرف الآخر، فقد حمل الأندلسيون معهم العادات والتقاليد المكتسبة بإسبانيا، حملوا معهم من هناك سلوكاً دينيا معيناً نتج عن ممارسة القمع عليهم طيلة سنوات متعددة، وهو سلوك يعتمد أساساً على الجوهر عوض المظهر، لأن هذا الأخير موضوع أساساً لايهام الاسبان بأنهم مسيحيون.

وعلى كل فقد انتهت فصول هذا الصراع[4] بعدم تحقيق الأندلسيون لطموحهم السياسي، لكن وجودهم الحضاري استمر مع ذلك شاهداً على حضورهم بالمنطقة، وهذا بوجندار يشير إلى هذا الحضور قائلا

«أهل الرباط على العموم هم أهل مدنية لا يعادلهم فيها إلا أهل فاس وتطوان، نظراً لأصلهم الأندلسي الأصيل في العراقة والحضرية التي نشاهد من آثارها في الرباط والرباطيين ما هو ظاهر، ظهور الشمس، في معارفهم وآدابهم وصنائعهم، ولذا كان الرباط ولم يزل آهلا بالأدباء والكتاب والشعراء، إلى

---

(2) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني.

(3) م. بن علي، **الاتحاف الوجيز**، 33.

(4) ما زالت الرواية الشفوية تحتفظ ببعض آثار هذا الصراع، فمن خلال استجوابنا لعدد من شيوخ مدينة سلا لاحظنا انتقادهم الشديد لاندلسي الرباط، (لتفريطهم في وطنهم، ولاقبالهم على اللهو والطرب والخمر»، فبالنسبة لهم هو (انشايصية)، وبالتالي فهم (حملة عدد من العادات والتقاليد الفاسدة). كما حفلت امثال العامة بالعدوتين كذلك بالعديد من آثار هذا الصراع، وهذا نموذج منها

«عمر السلاوي ما يكون لمرباطي حبيب واخ يولي رمل الواد زبيب وماه حليب».

«عند العصر كيحماق السلاوي» واصله أن السلاويين بعد صلاة العصر كانوا يخرجون الى جانب النهر ويرمون السفن والتجار بالحجارة، وذلك نتيجة انتقال الانشطة الاقتصادية الى الضفة الاخرى، وما نتج عن ذلك من آثار سلبية بالنسبة لمدينتهم.

«مسلمين الرباط» واصله ما عرف عن اندلسي الرباط من الحذر والحيطة من المغاربة، وجريهم وراء مصلحتهم الشخصية، وعدم الاهتمام بمصلحة الآخرين.

ما فيه من الصناع المجيدين، والتجار الأذكياء المجيدين، فضلاً عن اليد العاملة بكل كد وجد، وبيوتات الرياسة والعائلات الكبرى العريقة في المجد...»[5].

وهذا ما أبرزه أيضاً محمد بن علي السلاوي «... فخطوط أهل العدوتين وفاس أندلسية الشكل، والعيان قاض بذلك بلاشك، وما زال الملوك الكرام يستعملون منهم كتاباً لحسن خطهم وجودة تصرفهم، وحساباً أمناء يحسبون لمهارتهم ورسوخ الملكة فيهم بالتمدن القديم، حتى إن مولانا عبد الرحمان العلوي ــ قدس الله روحه ــ قال في كتاب له ولأن أهل سلا هم أولى بهذه الخطة من غيرهم، وبمراسي الأيالة المولوية منهم حصة وافرة من العدول والأمناء يقومون بضبط الداخل والخارج...»[6]. كما ذكر الضعيف أن السلطان محمد بن عبد الله كان يريد إخراج أهل الرباط للصويرة لحصارهم أخيه بالقصبة، لكنه عدل عن ذلك لأنه رأى في خروجهم فراغاً، ولن يجد من يقوم مقامهم بشؤون البحر[7].

وهكذا نلاحظ أن الأندلسيين، وإن لم يستطيعوا أن يبرزوا في العهد السعدي، لضعف تكوينهم العربي الاسلامي، بل وجهلهم باللغة العربية نفسها، ولاشتغالهم بأمور الجهاد من جهة أخرى، فإنهم سرعان ما برزوا في العصر العلوي كتاباً وأدباء وشعراء وعلماء فلك، ورياضيات، كما يتجلى ذلك من خلال التعرض لبعض البيوتات الأندلسية بالعدوتين.

أولاً البيوتات الأندلسية بالرباط[8]

---

(5) **مقدمة الفتح**، 310.

(6) **الاتحاف الوجيز** 31.

(7) **تاريخ الضعيف**، 177.

(8) اعتمدنا في هذا الجدول على ما يأتي

محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف**.

م. بوجندار **الاغتباط...**، **مقدمة الفتح**.

م. بن علي دنية **مجالس الانبساط...**.

م. بن علي السلاوي، **الاتحاف الوجيز...**

ع. الله الجراري، **من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين**.

الحوالة الحبسية لمدينة الرباط، مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 41.

اسم العائلة	ملاحظـــــــات	اسم العائلة	ملاحظـــــــات
بركَاش	تقلـد عـدد من أفـرادهـا	بنعمرو	مـازالـت مـوجـودة
	منصب الأمين في عهود	بلكاهية	مازالت موجودة
	مختلفة. ما زالت موجودة	تكيطو	
بلانبو	مازالت موجودة	تمورو	مازالت موجودة
بيرو	مازالت موجودة	التونسي	مازالت موجودة
برادو	مازالت موجودة	جوريو	مازالت موجودة
بسير		حيرو	
بريش	مازالت موجودة	الحمري	انقرضت
بلامينو	مازالت موجودة	الحداد	مازالت موجودة
بريس	مازالت موجودة	الحافي	
باينة	مازالت موجودة	دنية	من بيوت العلم بالمدينة
بونو			مازالت موجودة
بنطاهر	مازالت موجودة	الدقاق	
بندهاق		دياس	
بنطوجا		دعنون	انقرضت، وهناك العرضة
			الدعنونية.
بندورو	مازالت موجودة		
بالسيو	انقرضت	الدك	انقرضت، وهناك زنقة
بزازة	انقرضت		الدك وجامع الدك.
بلانكو	تعرب اسمها فأصبحت	الرندة	مازالت موجودة
	تسمى الأبيض ــ مازالت	الرندي	
بلافريج	مازالت موجودة	ركيك	
بلرور	انقرضت	رودياش	
بنضيف	انقرضت	زبرو	
بنمنديل	انقرضت	الزبدي	تولى عدد من أفرادها
بلفقيه	مازالت موجودة		مناصب عدة، مازالت
بنقدور	مازالت موجودة	الزهراء	تولى عدد من أفرادها
			خطة النظارة، مازالت.

زطوط	مازالت موجودة	صيرون	انقرضت
طيفور	مازالت موجودة	ضاكة	مازالت موجودة
كريسبو	مازالت موجودة	عاشور	مازالت موجودة
كيليطو	مازالت موجودة	العماني	مازالت موجودة
كراكشو	هناك من يكنيها كراشكو بتقديم الشين على الكاف	عبدون	انقرضت
	مازالت موجودة	غنام	اشتهروا بالسفارة والنظارة
كنظرون	انقرضت		مازالت موجودة
كَديرة	مازالت موجودة	فشردو	
اللوشي	مازالت موجودة	فلوريش	انقرضت
لباريس	مازالت موجودة	فنجيرو	مازالت موجودة
ليرو		فنجيرو	انقرضت
مارسيل	اشتهر عدد من أفرادها بالتنجيم والتعديل.	القرطبي	مازالت موجودة
	مازالت موجودة	القسطالي	
مولاطو		القصري	مازالت موجودة
ملين	من بيوت العلم بالمدينة.	قريون	مازالت موجودة
	مازالت موجودة	قوريا	
مرينو	اشتهر عدد من أفرادها بخطط القضاء والحسبة والعمالة والأمانة.	سباطة	مازالت موجودة
		السنسياض	انقرضت
	مازالت موجودة	شكلانط	مازالت موجودة
متجنوش	مازالت موجودة	شنتياك	انقرضت
مدون			
المراس			
المدور	مازالت موجودة		

ثانيا البيوتات الأندلسية بسلا[9]

الاسم العائلي	ملاحظـات
زنيبر	من بيوت العلم بالمدينة، استوطنوا المدينة بعد سقوط غرناطة. مازالت موجودة.
الحصار	من بيوت العلم بالمدينة، استوطنوا بها بعد سقوط غرناطة ـــ مازالت موجودة.
فنيش	لعب عدد من أفرادها أدواراً هامة بالمدينة، مازالت موجودة.
ابن عطية	من الأسر العلمية بسلا. قدموا من اشبيلية أواخر القرن التاسع، واستوطنوا مدينة الرباط أولا، ثم استقروا بعد ذلك بسلا، ومازال حيهم الكبير في شمال المدينة يعرف باسمهم حتى اليوم. اضطروا إلى الهجرة بعد ذلك إلى فاس نتيجة مواجهة بينهم وبين السلاويين.
خالص	من مدينة رندة. مازالت موجودة.
الأبيض	كانوا يعرفون بأولاد بلانكو. مازالت موجودة.
حمدون	من قرطبة بينهم عدد من رياس البحر. انقرضت
العطار	استقروا بالمدينة بعد سقوط غرناطة. تولى عدد من أفراد هذه العائلة مناصب مهمة في عهد الدولة العلوية. مازالت موجودة.

(9) اعتمدت في هذا الجدول على المصادر الآتية
عبد السلام الضعيف، **تاريخ الضعيف**.
محمد بن علي السلاوي، **الإتحاف الوجيز**
بلقاسم لعشاش، **بيوتات مدينة سلا**
عبد الله الجراري، **من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين**
الحوالة الحبسية لمدينة سلا، مخطوط خ.ح. بالرباط عدد 593.
Jean Cousté, **les grandes familles indigènes de Salé**

فاس

شهدت فاس أيضا مواجهة اجتماعية بين الجالية الأندلسية بالمدينة وباقي العناصر المتساكنة بها، فقد استأثرت فئة من هذه الجالية بالجاه والثروة والعلم، مفتخرة معتزة بأصلها الأندلسي الذي يؤدي بها إلى شرف نسبها[10]، فهذا أحمد بن محمد الكراري الأندلسي (ت. 1138 هـ) يذكر في تقييد له «فاعلم أن عبيد ربه أحمد بن محمد الكراري... الأندلسي الغرناطي الذي خرج من العدوة الأندلسية إلى تازة ثم فاس... وهو ابن عبد الله بن أحمد... بن مولاي علي كرم الله وجهه، والله حسيب من يؤذينا في نسبنا، والله حسبي إذا بدلت أو غيرت أو رشوت، والله حسب من يطعن في سنتي، وأسأل الله أن يعاقبه في الدنيا، ودعائي عليه جائز...»[11].

وهذا ما أشار إليه عبد السلام القادري «ولأهل الأندلس عموماً من المحافظة بالبحث في هذا الشأن — يعني علم النسب — ما ليس لغيرهم في سائر الأقاليم والأزمان بحيث إذا قدم عليهم من ينتسب إلى بيت من البيوت ويدلي إليهم استفصلوه عن جده وأبيه وفصيلته التي تأويه، واستفهموه عن مولده ومنشئه وبلده حتى إذا أحاطوا عنه علماً بذلك كتب به طالباً لصحة خبر من له ولاية عندهم هنالك وتوجه الكاتب إلى الناحية التي قدم منها قريبة كانت أو نائية فإن ورد الجواب بصدق الخبر دون كذلك أحلّو مكانته وعظموا حرمته كما يجب وإلا عزروه تعزيزاً شديداً وأخرجوه من أرضهم شريداً فكانت أنسابهم لذلك مضبوطة، واحسابهم عن الأدعياء محوطة...»[12].

وقد أنكر جماعة من العلماء الفاسيين من أصل غير أندلسي، هذا الافتخار الأعمى بالفردوس المفقود، ونسبوا أصحابه إلى التعصب والجهل بالتاريخ والأنساب، لأنهم ظنوا أن الأندلس لم يسكنها غير الأوس والخزرج من الأنصار، وما دروا أن الحملات والهجرات الاسلامية إلى الأندلس تعددت وحملت اخلاطا من الأعراب والبربر، بالاضافة إلى القوط والصقالبة واليهود وغيرهم، ممن اعتنقوا الاسلام وامتزجوا امتزاجا كاملا بالمسلمين[13]، فبالاضافة إلى ما ذكره م. ميارة — السالف الذكر — نورد ما

(10) م. ميارة، **نصحية المغترين**، 92.

(11) م. بوجندار، الاغتباط، 18.

انظر ايضا ما يقوله م. عبد الرفيع المرسي الاندلسي (ت. 1052 هـ) في كتابه **الانوار النبوية** 27، 28، 38، 57، 61.

ملاحظة

سجل هذا الاعتزاز ايضا الرحالة الاجانب، اذ لاحظ موريس كتنج M. Keatinge — مثلا — أثناء زيارته للمغرب سنة 1785 أن الاندلسيين به يعتقدون بشرف اصلهم اكثر من باقي السكان.

انظر

Travels in Europe and Africa, 1 313 in H.T. Vol. XVIII, Fasc, unique, 1978-1979 p. 111 note 36.

(12) **العرف العاطر**، نقلا عن **رياض الورد**، 41.

(13) م. حجي، **الحركة**، 1 : 273.

ذكره الشيخ م. بن الطيب الشركي (ت. 1170 هـ)، بعد تعرضه لاستيلاء الاسبان على الأندلس، وانتقال الأندلسيين إلى فاس «وكثير منهم (الأندلسيون) عندنا في فاس، إلا أنهم غير صرحاء الأنساب....»[14].

ولم ينته هذا الجدال بانتهاء المرحلة التاريخية التي نشأ بها، استمرت بعض آثاره إلى عصرنا هذا ـــ فهذا الشيخ ع. السلام بن سودة، يذكر بهذا الصدد «... كثير من كان أصله من بلاد الأندلس، عربي الأصل من غير شكّ ولا تردد، وليس الأمر كذلك، لأن الانتماء إلى الأندلس ليس المراد منه عربي قطعاً، وإنما المراد أنه عريق في الاسلام له فيه عدة أجيال خصوصا في زماننا هذا حيث مرُّ على استيلاء الاسبان على غرناطة عدة مآت من السنين..»[15].

ومثل ما حاولت الجالية الأندلسية أن تفرض نفسها كقوة اجتماعية بالمدينة حاولت أن تفرض نفسها أيضا كقوة سياسية لها وزنها بالمدينة، إذ شاركت في العديد من الأحداث السياسية التي عرفها المنطقة[16].

إلى أن أصبحت تقتسم النفوذ مع اللمطيين، ففي رسالة السلطان مولاي اسماعيل بعث بها لسكان مدينة فاس[17] يذكر «.... إلى كافة الأندلسيين واللمطيين من أهل فاس... اليوم أفردناكم بالخطاب على الخصوص...... كنت نعرفكم (كذا) على عهد أخينا مولاي رشيد ـــ رحمه الله ـــ منكم الجيش ومنكم العيش... وفي الحقيقة الأندلس واللمطيون هم أهل فاس وهم عمدة أهل فاس، وأما غيركم فما هم إلا الدجاج الأبيض ومن لا يعد لا في العير ولا في النفير من البلدية وغيرهم...»[18].

وفرضت هذه الجالية كذلك نفسها في الميدان العلمي، إذ ظهر من بينهم علماء ساهموا بنصيب وافر في الحياة العلمية بالمدينة، نذكر من بينهم على الخصوص

---

(14) **اضاءة الراموس**، حرف الالف.
ملاحظة
عن استيطان العرب بالاندلس، واماكن توزيعهم. انظر أ. المقري، **نفح**، 1 290—298.
(15) **ازالة الالتباس**، 3.
(16) انظر مثلا م. القادري، نشر، 1 259، 264، 336، 363، 371، 376، 380...
ومن الدراسات انظر
Norman Cigar, "Société et vie politique à Fès"
in H.T Vol. XVIII, Fascicule unique, 1978-1979, pp. 111-114
م. مزين، **فاس وباديتها**، مواضع متفرقة.
(17) قرر السلطان مولاي اسماعيل أن يحاصر مدينة سبتة لاسترجاعها من يد الاسبان، فبعث بهذه الرسالة الى سكان مدينة فاس سنة 1130هـ /1718، لارسال الجنود الى السلطان أو تقديم الاموال الضرورية للحملة.
(18) انظر الرسالة بمجلة
H.T. Vol. XV Fascicule unique, 1974, PP. 114-115

*ـ أحمد بن محمد الدقون[19] (ت. 921 هـ/ 1515 م)

درس أول الأمر بغرناطة قبل سقوطها، وقد أخذ عنه طلبة فاس الفقه وقواعد اللغة العربية، ور عنه كتابه **بداية التعريف في شرح شواهد الشريف**.

*ـ محمد بن علي العدي[20] (ت. 975 هـ/ 1567).

ولد بغرناطة قبل أن يستولي عليها الاسبان بنحو 12 سنة، وفيها بدأ بعمله قبل أن ينقل مع أهله إلى فاس. كان العدي مضرب المثل في حفظ القراءات السبع، والمنظومات المتعلقة بعلوم القرآن، مع الضبط والاتقان وجودة الخط.

*ـ محمد بن قاسم القصار[21] (ت. 1012 هـ/ 1604).

هاجر أبوه من غرناطة بعد سقوطها[22]، واستقر بفاس. وقد خلف م. القصار السراج في الافتاء والخطابة والكراسي العلمية، واشتهر بدقة التفكير والتعميق في البحث، إذ كان «محدث المغرب في وقته... أحد العلماء الاعلام، وحامل لواء شريعة سيد الأنام، إماماً متبحراً في فنون شتى، سيما العلوم الشرعية... منفرداً بالتحقيق عن أهل عصره... وتميز بالحديث والفقه والتفسير والأصلين والبيان....»[23].

*ـ محمد بن أحمد الجنان المدجن الغرناطي الأندلسي[24] (ت.1050 هـ)

امام مسجد الشرفاء بفاس، «صاحب الحواشي المشهورة بأيدي الطلبة»[25]، اشتغل بعدة علوم منها الفقه، خاصة **مختصر خليل**، والنحو والفرائض والحساب.

*ـ محمد بن أحمد بن عزيز التجيبي الأندلسي[26] (ت 1022 هـ) من أحفاد منذر بن يحيى ابن

---

(19) انظر ترجمته عند
أ. بن القاضي، **درة 1** 92—93 رقم 131
أ. المقري، **أزهار**، 1:103—108.
ع. الرحمان الفاسي، **ابتهاج**، 231.

(20) انظر ترجمته عند
أ. بن القاضي، **درة**، 2 ض 213 رقم 659.
ع. الرحمان الفاسي، ابتهاج، 194.

(21) ترجمته عن أ. بن القاضي، **درة** 2:153 رقم 632، أ. المقري، **روضة**، 316.

(22) ع. الله الفاسي، الاعلام بمن غبر، 297.
م. الفراني، **صفوة**، 125.

(23) ع. الله الفاسي، نفس المصدر والصفحة.

(25) ع. الله الفاسي، المصدر السابق، 70.

(26) ابن القاصي، **درة**، 2 235 ـ 236 رقم 691.
ع. **الفاسي، الاعلام**، 351. م **القادري، نشر**، 1 177.
التقاط، 60، م. الافراني، **صفوة**، 60، م. **الكتاني، سلوة**، 1:152.

منصور، أحد ثوار سرقسطة[27]، أحد أكابر الأعلام في العلم والتصوف بفاس، له مؤلفات في التصوف.

وعرفت فاس كذلك عدداً من المتصوفة من أفراد الجالية الأندلسية بها، نذكر من بينهم أحمد ابن مرسي المرابي الأندلسي[28]، ومحمد بن علي الرمال الأندلسي من أصحاب الشيخ أبي المحاسن[29]، وعلي بن يوسف الأندلسي البيطار المدجن، صحب أيضاً الشيخ أبا المحاسن[30]، وأحمد حبيب الأندلسي الرندة[31]، ومحمد بن محمد ابن معن الأندلسي[32].

البيوتات الأندلسية بفاس[33]

(27) أ. بن القاضي، المصدر السابق، 2 235.

(28) م. الافراني، **صفوة**، 182، م. القادري، **نشر** 1 263.

(29) ع. الرحمان الفاسي، **ابتهاج**، 192.

(30) ع. الفاسي، المصدر السابق، 327

(31) م. القادري، **نشر**، 1 117، **التقاط**، 43، م. الافراني، **صفوة**، 169، م. الكتاني، **سلوة** 2 365

(32) م. الافراني، **صفوة**، 177، م. القادري، **نشر**، 2 55، **الالتقاط**، 130، م. المهدي الفاسي، **ممتع**، 145.
م. الكتاني، **سلوة**، 2:284، ع. السلام القادري، **الدرر البهية**، 2:334.

(33) اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الاتية
(يوسف ابن الاحمر)، **بيوتات فاس قديما وحديثا**.
أ. **بن القاضي، جدوة الاقتباس**
عبد القادر الفاسي، **بيوتات فاس الصغرى**
عبد الكبير بن هاشم الكتاني، **زهر الآس في بيوت أهل فاس**.
م. الكتاني، **سلوة الانفاس**.
ع. السلام بن سودة، **ازالة الالتباس**.
الحوالات الحبسية لمدينة فاس، على الميكرو فيلم أرقام 113، 114، 135.

اسم العائلة	ملاحظات
آدراق	أهل معاش وحرفة
آمعار	انقضوا
الابار	تكتب في بعض الرسوم (اللبار) أهل تجارة وعلم
الابريني	انقرضوا
الأبيض	كان فيهم عدول وفقهاء
ابن الأحمر	انقرضوا
الارجبي	يقال لهم الآن اللرجبي، وتكتب في بعض الوثائق اللورجب. مازالت موجودة
ابن الأزرق	نبغ فيهم عدد من الأطباء والعدول، مازالت موجودة.
الأموي	من بني أمية ملوك الأندلس، كان فيهم بعض العدول والفقهاء.
ابن الأمين	أهل تجارة وعلم وينطبق بها كالآتي بلمين
الاندرشي	في بعض الوثائق لندريشي، أهل تجارة
الأندلسي	مازالت موجودة
الاشبيلي	انقرضت
الخلاص	
الباجي	اشتهروا بالمال والمروءة
باسو	اشتهروا بحرفة البناء مازالت موجودة.

اسم العائلة	ملاحظات
البحر	برز منهم عدد من المتصوفة
البرجي	بيت علم
بردلة	وصفوا (بالمدجنين) مارسوا الفلاحة، وبرز منهم عدد من القضاة. مازالت موجودة.
البزار	انقرضت
البلاج	أهل معاش وحرفة وتجارة
البلجي	من باجة، أصحاب ثروة. انقرضوا.
البلنسي	انقرضوا
ابن بقي	انقرضوا
البسة	أهل حرفة
البواب	أهل حرفة، برز منهم بعض العلماء. مازالت موجودة.
البياز	أهل ثروة ومعاش وحرفة
البياض	انقرضوا
البيجري	يوجدون بمكناس بكثرة
البيري	من البيرة، أهل معاش، وحرفة، انقرضوا
البيطار	أهل ثورة، وجاه. مازالت موجودة
البين	أهل معاش وحرفة
التماو	من غرناطة، ويذكرون أنهم من أولاد السراج.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
التويجري	أهل معاش وحرفة	الدقون	انقرضوا
تيمّيروا	أهل ثروة وجاه انقرضوا	الدنولي	انقرضوا
الجداص	من مالقة، أهل معاش وحرفة.	الرندي	أهل ثروة وجاه
الجرندي	أهل تجارة ومال وصناعة الفر.	الرعيني	انقرضوا
ابن جنري	انقرضوا	الرفاء	انقرضوا
الجنان	مدجنون	الروسي	انقرضوا
حاضر	انقرضوا	الريحاني	
الحجاري	أهل عز وجاه	النريدي	أهل ثروة وجاه وحرفة مازالت
	انقرضوا		موجودة
حجيج	أهل معاش وحرفة	الزجالي	انقرضوا
الحداد		الزرقاء	من غرناطة
ابن حرزهم	انقرضوا	ابن عزمون	مازالت موجودة
ابن حزب الله	انقرضوا	الزعيم	
		ابن الزياد	
ابن حكون		زيكون	انقرضوا
حكيم		ابن طارة	انقرضوا
ابن حسن	أهل معاش وحرفة	الطرنباطي	
ابن حسون	أهل ثروة وجاه وتجارة	الطرون	
الخراط	انقرضوا	الطرياني	من طريانة. انقرضوا
الخميري	أهل معاش وحرفة وجاه ومال	الطليطلي	انقرضوا
		طورة	
الدبيب	انقرضوا	طويطة	انقرضوا
الدراج	انقرضوا	الكاتب	من مالقة، أهل معاش وحرفة.
		ابن كَحيل	من برجة، انقرضوا.
الدريج			

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
الكسيكس	من شريش، أهل معاش وحرفة.	المنظري	أهل تجارة
		المكاد	
الكومي	أهل معاش وحرفة، مازالت موجودة	المقّنا	أهل معاش وحرفة
		المقسر	
اللبلوطي	أهل معاش وحرفة	النكاصي	أهل معاش وحرفة. مازالت موجودة.
اللب	من غرناطة. انقرضوا		
ألريول	انقرضوا	نوار	
اللمارسي		النيار	
اللوشي	من لوشة	صالاج	في بعض الوثائق صالاس
الليريني	أهل جاه ومال	ابن صالح	انقرضوا
الماروري	انقرضوا	الصخراوي	مازالت موجودة
برايس			
المالقي	أهل معاش، مازالو	الصدفي	أهل معاش وحرفة
مجبر	أهل معاش وحرفة		مازالت موجودة
محرز	أهل معاش وحرفة	الصغار	أهل معاش وحرفة.
ابن مخلوف	أهل معاش وحرفة	صفيرة	أهل معاش وحرفة.
المدجن	مازال لهم ذكر	عاصم	أهل معاش وحرفة مازالت موجودة
المدرع			
المرابي	أهل معاش وحرفة	ابن عباد	
المرادي	أهل معاش وحرفة	العبدوني	انقرضوا
المرجي	أهل عز ومال	العجل	انقرضوا
المرطال		ابن عدة	انقرضوا
المرسي	انقرضوا	ابن عذرة	انقرضوا
المطرفي	أهل معاش وحرفة وعلم	عديل	أهل تجارة وحرفة مازالت موجودة.
المنطرش	أهل معاش وحرفة	العرابي	مارسوا مهنة الخرازة.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
عدروج	انقرضوا	الفندوش	انقرضوا
ابن عروج	انقرضوا	القدومي	انقرضوا
ابن العربي	انقرضوا	القرطبي	من قرطبة، مازالوا
عزمان	انقرضوا من فاس ويجدون بتطوان بكثرة	القرميدي	أهل معاش وحرفة
		قزمان	أهل تجارة وحرفة
عفير	انقرضوا	قلمون	انقرضوا
العقرب	انقرضوا	القلصاوي	انقرضوا
غازي		القنطري	
الغرسيس	أهل معاش وحرفة	القصار	من غرناطة انقرضوا
الغزال	من مالقة، مازالت	ابن ساسان	انقرضوا
ابن غزلان	أهل معاش وحرفة. انقرضوا	السبطري	
		ابن سبعين	انقرضوا
بوغلوط	أهل معاش وحرفة انقرضوا	السراج	أهل معاش وحرفة وتجارة مازالوا.
الغماد	أهل تجارة وحرفة مازالوا	ابن سليمان	من غرناطة، أهل معاش وحرفة مازالو
الغساني	من غرناطة	ابن سماجة	انقرضوا
فارح	أهل معاش وحرفة	سنكليو	انقرضوا
الفخار	انقرضوا	الشاطبي	من شاطبة، انقرضوا
فرج	انقرضوا من فاس ومازالو بتطوان	الشبري	أهل معاش وحرفة مازالو
ابن فرحون	من قرطبة انقرضوا	الشبيلي	من اشبيلية أهل معاش وحرفة
الفرطاخ	مازالوا بتطوان أهل جاه وحرفة	الشرقي	انقرضوا
فنجيرو	أهل معاش وحرفة.	الشريني	انقرضوا
الطيبي		السبلي	من شلب، انقرضوا
الشقوري	من شقورة، من عمل جيان انقرضوا	الشواش	أهل معاش
		الهياض	أهل معاشة وحرفة
الوجاري	من غرناطة	الوراق	انقرضوا
ابن وعدون	انقرضوا	الوقاد	مازالت بمكناس
الياصلوتي		البياني	انقرضوا
ابن يخلف	أهل معاش وحرفة مازالو	ابن يعلا	انقرضوا

مكناس

عرفت مكناس أيضاً استقرار من أفراد الجالية الأندلسية بها[34]، فقد لاحظ لويس شيني L.Ghénier — مثلًا — في القرن الثامن عشر أن القصور التي شاهدها بمكناس ما هي إلا تقليد للمعمار الأندلسي[35]. وقد برز في الميدان العلمي عدة عائلات أندلسية بالمدينة، نذكر من بينها على الخصوص

— عائلة الوقاد هاجرت من اشبيلية بعد سقوطها في أيدي الاسبان في منتصف القرن السابع الهجري (13 الميلادي)، واستقرت بفاس أولا، ثم انتقل بعض أفرادها إلى مكناس، من بينهم علي بن عمر الوقاد[36]، من أقران الامام ابن غازي، فكان موقت الجامع الكبير، وتولى ابنه عبد الرحمان (ت بعد 834 هـ / 1528) التدريس به، وقد اشتهر، بالتضلع في النوازل وأحكام القضاء[37]، وشارك في المناظرة الكبرى حول مشكل البلديين، وناصر أحقية الاسلاميين في العمل بالأسواق وغيرها كسائر المسلمين[38].

وسيستمر العلم في هذه الاسرة الأندلسية طوال عهد السعديين، نذكر من بينهم على الخصوص علي بن قاسم الوقاد قاضيا بمكناس عام 1022 هـ / 1613[39].

— عائلة البجيري اشتهرت هذه الأسرة بالعلم كذلك خاصة في العهد العلوي، ونذكر من بين علمائها عبد السلام البيجري «فليب أديب، خطيب بليغ، مدرس، تولى القضاء على عهد السلطان مولاي عبد الله»[41].

(34) وردت عدة اشارات لذلك، نذكر على سبيل المثال أن ناسخ مخطوط خ.ح. بالرباط رقم 1578 (يضم فهرس المنشوري وبرنامج المجاري، ورحلة القلصادي) هو علي بن قاسم ابن علي البياضي، الاندلسي، من سكان حصن بلش شرقي مالقة هاجر الى المغرب فاستوطن مكناس وبها توفي سنة 912 هـ.

(35) Recherches..., 2 345

(36) م. الكتاني، **سلوة** 3 158—159

(37) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 5 278—279.

(38) م. ميارة، **نصيحة المغترين**، 79 ظ، 80 و.

(39) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 5:457—458.

(40) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 5:357

(41) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 4:132

ـــ عائلة غريط نذكر من بين أفرادها محمد بن الهادي غريط طبيب السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام[42]، ومحمد بن محمد غريط استوزر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله[43].

البيوتات الأندلسية بمكناس

أصدر السلطان مولاي إسماعيل أوامره في أوائل محرم عام 1121 هـ إلى قائده أحمد بن يعزى العرائشي «بتحقيق أحساب وأنساب ساكني حضرته المكناسية... وبتدوين ذلك في ديوان خاص[44]. وقد خصص جامع هذا الديوان[45] قسماً خاصاً للعائلات الأندلسية بمكناس.

(42) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 4:242.
(43) ع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 4:248.
(44) ع. الرحمان بن زيدان، **المنزع اللطيف**، 158.
(45) مخطوط خ.ح. بالرباط عدد 3207 كما أثبت نصه ع. الرحمان بن زيدان في المصدر السالف الذكر، 158—164.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
ابن ابراهيم	انقرضوا	برقوق	يوجد بعض أفرادها بفاس
ابن حليمة	بيت علم وثروة	البياضي	من حصن بلش، شرقي مالقة
	ما زالت موجودة	جابر	بيت علم. انقرضوا
ابن الحاج		الحَزْماري	من اشبيلية، هل معاش
ابن عبد الكريم	من مالقة		وحرفة، ما زالت موجودة
	ما زالت موجودة	الدَّقِيوِق	من اشبيلية، ما زالتي موجودة
أبو الرخا	من غرناطة، ما زالت موجودة	الزناتي	من غرناطة. انقرضوا
ازيويزر	من غرناطة كان فيهم	طُوجَة	انقرضوا
	علماء وفقهاء وصلحاء	كُدِيْش	من غرناطة، انقرضوا
	انقرضوا	اللُّب	من غرناطة، بيت علم ورياسة
أنفاع	من غرناطة		انقرضوا
الازرق	من اشبيلية	اللمتوني	انقرضوا
	ما زالت موجودة	المسطاسي	ما زالت موجودة
امساع	انقرضوا	المعلّى (احمد	
		بن عبد	
		الرحمان)	
اصقال	انقرضوا	الصفار (حَمُّ)	من غرناطة، ما زالت موجودة
الأشقر			
(عبد القادر)		الصفار الحاج	ما زالت موجودة
البيجري	من غرناطة، بيت علم	ابراهيم	
	ما زالوا	الصفار	
		(رمضان)	من هورناتشوس
بوراس	من غرناطة	الصفار	ما زالت موجودة
	انقرضوا	صَفَنْدَلَة	ما زالت موجودة
البَارْوَا	من اشبيلية، بيت	عبد القادر	
	علم. انقرضوا	بن العرب	
		(الحاج)	من غرناطة
البتولي	من مالقة، انقرضوا	عبد القادر	
البياني	بيت علم	(الحاج)	من غرناطة
	انقرضوا		

ملاحظات	اسم العائلة
من اشبيلية، بيت علم ورياسة ما زالت موجودة.	غريط
انقرضوا	الغرناطي
بيت علم مشهور ما زالوا	الغماري
من غرناطة	الفخار
انقرضوا	
انقرضوا	فنيدقة
من غرناطة، انقرضوا	القراص
من غرناطة، ما زالت	القْلِيفط
من غرناطة — ما زالت،	القبري
من المرية، بيت علي ما زالت	القباب
انقرضوا	القصري
بيت علم مشهور ما زالوا	القصري (أهل الكدية — عبدريون)
من اشبيلية. انقرضوا	شبليون
انقرضوا	هارون
بيت علم ورياسة انقرضوا	هلال
انقرضوا	وحود عزوز
يوجدون بفاس ومراكش وبني ملال.	الوقاد

مراكش

أول جالية أندلسية مهمة استقرت بمراكش في العهد السعدي هي الجالية التي أمر السلطان عبد الله الغالب باستقرارها في حي رياض الزيتون(46)، وقد استمر بعد ذلك توافد الموركسيين على المدينة، خاصة بعد صدور قرار طرد الموركسيين من اسبانيا، الى أن أصبحت معها اللغة الاسبانية بمراكش تداني اللغة العربية في انتشارها(47).

ونشير الى وجود عدد كبير من الاسبان الذين دخلوا الى الاسلام حديثا، والدور الذي أصبحوا يلعبونه في الحياة السياسية بالمدينة، إذ لا ننسى مثلا الدور الذي قام به هؤلاء في فتح السودان أيام السلطان احمد المنصور الذهبي، كما لا ننسى أيضا وجود عدد كبير من الأسرى الاسبان بالمدينة، والدور الذي كانوا يلعبونه في الحياة العامة بها(48).

وعلى العموم فإن الوجود الأندلسي بالمدينة ظل بارزا ويمكن تسجيله بسهولة، فأثناء وصف م. الناصري لحفلة صلاة عيد ترأسها السلطان مولاي سليمان بمراكش يقول «... ثم جاء أهل الأندلس القاطنين (كذا) الحمراء وبين أيديهم لواء أخضر، وامتازوا به عن غيرهم، وجعلوا يخرجون البارود...»(49).

وفي الميدان العلمي نسجل بروز عدد من أفراد هذه الجالية بالمدينة، نذكر من بينهم على الخصوص

* — احمد بن قاسم ابن معيوب الأندلسي(50) (ت. 1022 هـ / 1613)

برع في الحساب والهندسة والتنجيم، واشتغل بتدريسها للطلبة.

* — علي بن ابراهيم الأندلسي(51) (ت. حوالي 1065 ه / 1655)

مهر في ميدان الطب وعلمه لطلبته، ونظم الأراجيز في طرق التغذية النافعة وعلاج بعض الأمراض.

---

(46) ابو القاسم الزياني **الترجمان المعرب**، 350.

(47) G. Deverdun, **Marrakech...**, I 442

(48) Marmol Carvajal, l'Afrique, 2/55

(49) **الرياحين الوردية**، 68.

(50) انظر ترجمته عند م. الافراني، **صفوة**، والعباس بن ابراهيم **الاعلام**، 2: 286.285.

(51) انظر ترجمته عند م. الافراني، **نزهة** 219، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 9:222.

* ـــ احمد بن قاسم الحجري[52] (ت. بعد 1051 هـ / 1641)

استقر بمراكش منذ أواخر عهد المنصور 1599، إذ يقول في هذا الصدد «... ورأينا العافية والرخاء في تلك البلاد، الى أن مات مولاي أحمد رحمه الله ـــ »[53]، واشتغل بالترجمة لدى السلطان زيدان وبنيه عبد الملك والوليد، كما ربط علاقات حميمة مع علماء العاصمة، منهم على الخصوص أحمد بابا السوداني، إذ كان من المودعين له حين خروجه من مراكش[54]، ومع عيسى بن عبد الرحمان السكتاني[55].

---

(52) احسن ترجمة حاليا هي تلك التي كتبها الرجل نفسه من خلال كتابيه **ناصر الدين** (مواضع متفرقة)، وكذلك خاتمة ترجمته لكتاب العزو المنافع، أما باقي المصادر التي ترجمت له فلم تأت بشي جديد في الموضوع.

(53) **ناصر الدين**، 29

(54) المصدر السابق، 133.

(55) المصادر السابق، 134.

تطوان

لاحظ الشيخ م. داود (الأندلسي) بشأن الجالية الأندلسية المستقرة بتطوان ما يأتي «مما لا شك فيه أن المهاجرين الأندلسيين كان منهم رجال من أهل العلم والأدب، إلا أن هجرتهم لم تكن الى تطوان التي كانت معرضا للحرب والطعان، بل الى فاس وتلمسان وغيرهما من الحواضر العامرة المشهورة بالعلوم والآداب، أما هذه المدينة فيظهر أنه نظرا لوقوعها في حدود الرباط والدفاع، وقربها من ميدان الجهاد والقتال، كان المهاجرون اليها من عصوص رجال الحرب مع من انضم اليهم من الصناع والمزارعين»[56]. لكنه رغم ابدائه لهذه الملاحظة، فإنه أكد على تأثير هذه الجالية في الحياة الاجتماعية بالمدينة إذ يقول في هذا الصدد «... كانت (تطوان) نسخة من اخريات المدن الاسلامية العربية في بلاد الأندلس... وإذا ذكرنا أن جل الوافدين عليها من الأندلس كانوا من غرناطة... عرفنا مبلغ سكان تطوان من الرقي وأساليب الحياة ومظاهرها من سكن وملبس، ومطعم ومشرب، ومتجر ومصنع، فلقد كان للحياة الاجتماعية بتطوان ان طابع خاص امتاز بالرقة واللطف وحسن الذوق في الترتيب والتنميق، والمرونة في حل المشاكل والأزمات والتوفيق بين الواجب والواقع...»[57].

شخصيات علمية أندلسية بالمنطقة

* — أبو عبد الله محمد الرزيني الأندلسي[58] (ت. 934 هـ / 1528 فقيه نوازلي ربما كان أول قاض بالمدينة بعد تجديدها.

* — محمد بن عبد الرحمان الكراسي الأندلس (ت. 964 هـ / 1557)، قال في حقه ابن عسكر: «كان أديبا شاعرا، تولى خطة القضاء بمدينة تطوان، وبقي على خطه الى ان مات... ولقي مشايخ غرناطة في صغره، منهم الموافق وابن الجقوالة وغيرهما...»[59]، وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الهامة **عروسة المسائل، فيما لبني وطاس من الفضائل**[60].

* — أحمد بن محمد طانية[61] (ت. 1063 هـ / 1653)

من مدينة بسطة الأندلسية، فقيه نوازلي، تولى خطة القضاء بتطوان سنة 1040 هـ وقد توارث أفراد هذه الأسرة خنطي العدالة والقضاء في مدينتهم أجيالا متعددة، نذكر من بينهم على الخصوص ابنه

(56) **تاريخ تطوان**، 1:168.
(57) المصدر السابق، 1:431.
(58) أ. بن القاضي، **درة**، 2:152 رقم 629، وم. داود **تاريخ تطوان**، 1:140.
(59) **دوحة**، 21
(60) طبعت بالرباط سنة 1965.
(61) ع. الله الفاسي، **الاعلام**، وفيات عام 1063 هـ، وع. الرحمان الفاسي، ابتهاج، 225.

عبد القادر الذي تولى خطة القضاء عام 1071 هـ [62]، واحمد طانية الذي تولى خطة العدا سنة 1037 هـ [63].

★ — أبو الحسن علي مندوصة الأندلسي[64]

من أدباء تطوان أواخر القرن الحادي عشر، قال في حقه م. بن زاكور «صاحبنا الأديب الأريب، الذي حاك من برود الأدب كل قشيب، وهصر من أفنانه كل غصن طيب...»[65]

البيوتات الأندلسية بتطوان[66]

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
ابن طلحة		الركيك	ما زالت موجودة
ابن الأحمر	ما زالت موجودة	الرزيني	
اجزول	ما زالت موجودة	الرندي	
اشعاش	ما زالت موجودة	زكري	ما زالت موجودة
الأندلسي	ما زالت موجودة	الطريس	ما زالت موجودة
البركة	ما زالت موجودة	طنانة	ما زالت موجودة
بوخرص		الكندير	أهل معاش وحرفة ما زالت
بايص	ما زالت موجودة	الكراس	
البانزي	ما زالت موجودة	كرازو	
بركاش		لوقاش	ما زالت موجودة
البروني	ما زالت موجودة	اللب	
بورطو		اللبادي	ما زالت موجودة
البوطي	ما زالت موجودة	مراريش	
التبين		مولينا	ما زالت موجودة

(62) م. داود، تاريخ تطوان، 1:279.
(63) المصدر السابق، 1:282.
(64) م. بن زاكور نشر ازاهر البستان، 55، وم. بن الطيب العلمي، الانيس المطرب 343، و. داود، تاريخ تطوان، 1:384—389.
(65) نشر ازاهر البستان، 49.
(66) اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الاتية
أ. الرهوني عمدة الرواية في تاريخ تطاوين، 10 أجزاء.
م. داود، تاريخ تطوان، 8 أجزاء.

الحضري	ما زالت موجودة	مدينة	ما زالت موجودة
الخطيب	ما زالت موجودة	الموفق	ما زالت موجودة
داود	ما زالت موجودة	مندوصة	
الدليرو	ما زالت موجودة	مارتيل	
راغون	ما زالت موجودة	مرينو	
الركاينة	ما زالت موجودة	• المنظري	ما زالت موجودة
الرثوث		مولاطو	ما زالت موجودة
الرويز		نصر	
الرفاعي	ما زالت موجودة	صالاس	ما زالت موجودة
الراندو		العطار	ما زالت موجودة
الرينة		غارسية	انقرضت
الغرناطي		القطان	
غيلان	ما زالت موجودة	القيسي	
الفخار	ما زالت موجودة	قُرَيش	
الفقاي	ما زالت موجودة	السراج	ما زالت موجودة
القرطبي	انقرضت	اسوردو	ما زالت موجودة
قشتيلو	ما زالت موجودة	السكريج	ما زالت موجودة
قبيرة			

شفشاون

استقرت بمدينة شفشاون جالية أندلسية مهمة، اتخذت حي ريف الأندلس شمال المدينة كمقر لها(67). ويبدو التأثير الأندلسي واضحا جدا بالمدينة، سواء فيما يتعلق بشكل البناء المسقوف بالقرميد الأخضر، أو في طريقة من المنازل بالقنوات، أو العناية بالزهور داخل المنازل، وكذا في صحون المساجد بالمدينة.

وقد توارثت بعض الأسر الأندلسية بالمدينة أنواعا من المعارف، نذكر من بينها على الخصوص

* ــ أسرة المفرج توارثت الطب والصيدلة.
* ــ أسرة البيطار توارثت فن البيطرة.
* ــ أسرة العاقل توارثت فن البناء.

وهناك عددا من الأسر الأخرى التي توارثت فن الموسيقى الأندلسية بالمدينة(68).

(67) G. Gozalbes Busto, Presencia de los moriscos en Tetuan y Xauen, in **Religion, Identité et sources documentaires sur les morisques Andalous,** 374.

(68) انظر م. عبد القادر العافية، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون**، 280.

أسفي

حظيت أسفي كغيرها من مدن المغرب باستقرار جالية أندلسية بها، ومن بين البيوتات الأندلسية بها(69)

اسم العائلة	ملاحظات
باجدُوب	تولى بعضهم خطة العدالة، ما زالوا
الرُّكُوش	من حصن اركش بأحواز اشبيلية، تولى عدد من أفراد هذه العائلة خطط القضاء والحسبة. ما زالوا.
مَرْخَبُو	مارس بعضهم العدالة والطب. ما زالوا
مُيَتَّه	ما زالوا.
الغماز	تولى بعضهم خطة العدالة ما زالوا.
القلعيين	ما زالوا.
الشُّقُوريين	من شقورة، تولى عدد من أفراد هذه العائلة خطط النظارة والحسبة والعدالة. ما زالوا.
	ما زالوا.

(69) اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الآتية
م. الكانوني، **أسفي وما إليه قديما وحديثا**.
م. الكانوني، **جواهر الكمال، في تراجم الرجال**
الحوالة الحبيسة لأسفي، ميكرو فيلم خ.ع. بالرباط رقم **154** ومخطوط نظارة أسفي رقم **60**.

الخاتمة

تتبعنا خلال هذه الدراسة وضعية هذه الجالية الأندلسية بالمغرب خلال قرنين كاملين، فقد رأينا أولا علاقة المغرب بهؤلاء وهم في بلدهم، والدور الذي قام به لتقديم المساعدة لهم، والملابسات التي صاحبت كل ذلك، ورأينا في مرحلة تالية ظروف استقبال هؤلاء، وأماكن توزيعهم داخل المغرب. ورأينا أيضا كيف اتخذوا من المغرب مركز انطلاق للقيام بعمليات الجهاد البحري للانتقام ممن طردوهم من بلدهم.

ورأينا أخيرا كيف فتح لهم المغرب مجالات العمل في الميدان الفلاحي والحرفي والتجاري، ومدى مساهمتهم في الميدان الفكري والدبلوماسي.

فما هي الخلاصات التي يمكن الخروج بها من خلال كل ذلك ؟

أولا ظل أفراد هذه الجالية في هذه الفترة — ورغم كل ما حصل — يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة، ويتحينون الفرصة للرجوع الى وطنهم المفقود[1].

---

(1) من هذا القبيل أن العديد من المصادر تذكر أن بعض العائلات الاندلسية بالمغرب، خاصة بفاس وتطوان كانت ما تزال الى وقت قريب تحتفظ بمفاتيح بيوتها بالاندلس انظر — مثلا —

I.D. Abbou, op. cit. P. 81

كما ذكر م. بن عبد السلام السائح الاندلسي ما يأتي (**سوق المهر**، المقدمة صفحة لي) «ومن غريب الاحاديث ما سمعته من بعض الغربيين أن أهل الاندلس بالمغرب لا يزالون محتفظين بمفاتيح قصورهم يتوارثونها املا بالعودة الى ديارهم، وقد نقل بعض الكتاب عن جريدة دوتشيه الحمنية تسابتونغ الالمانية في عددها الصادر في شهر شتنبر سنة **1924** انها ابدت ذلك حين قالت وانه لذو شأن رمزي ما نراه من احتفاظ كثير من البيوتات المغربية بمفاتيح القصور القديمة التي كانت لاجدادهم في طليطلة وقرطبة وغرناطة كأن من كانوا يوما أربابا لها واصحابها سيعودون لسكانها وتعود اليهم املاكهم...»

كما ذكرت الكاتبة الانجليزية فرنسيس مكنب التي زارت تطوان سنة **1901** ان كثيرا من الارستقراطيين الاندلسيين من سكان المدينة ظلوا يحتفظون بهذه المفاتيح الى غاية الحرب المغربية الاسبانية سنة **1860**، اذ صادرها انذاك الاسبان انظر ع. المجيد بن جلون **جولات في مغرب الامس**، 17.

وقد أكد لنا المهدي الدليرو (الاندلسي) المحافظ السابق للخزانة العامة بتطوان، نفس الشيء.

ونشير ايضا ان عائلة بردلة (الاندلسية) بفاس تدعي ايضا ان لها مفاتيح بيوتها بالاندلس.

وعلى كل فإنه مما يجب التأكيد عليه ان احتفاظ هؤلاء بالمفاتيح الى وقت قريب، لم يكن ابدا يعني العودة الى موطنهم الاصلي، بل فقط من قبيل الحفاظ على تراث الاجداد. ومن هذا القبيل ايضا ما ذكره الشيخ ع. السلام ابن سودة من أن احد افراد عائلة الغماد الاندلسية بفاس أتاه سنة **1938**» وأخرج من تحته بعض أوراق من المصحف الكريم... وذكر انه كان عندهم صندوق مدخر من اسلافه، ويذكرون انهم اتوا به من بلاد الاندلس حين فروا منها، وكانوا يتشاءمون من فتحه على ان من فتحه يصاب بسوء، ثم ان هذا البعض اقتحم ذلك الصندوق وفتحه فوجد فيه حوا من اربعين حزبا من القرآن الكريم...» **انظر ازالة الالتباس، 102:1**.

ثانيا   ظل هؤلاء يشكلون فئة اجتماعية متميزة، فهم يسكنون أحياء خاصة بهم، ولا يتم الاختلاط بغيرهم، فالمرأة الأندلسية لا تتزوج من غير الأندلسي إلا إذا اضطرتها الحاجة والفقر ذلك، وهم يعتزون بأصلهم الأندلسي الذي يثبت شرف نسبهم.

ثالثا   كان أفراد هذه الجالية أكثر اقبالا على الميدان العلمي من الفئات الاجتماعية الأخرى، فقد برعوا في ميادين الحساب والهندسة والفلك والطب، وهي ميادين كانت تمكنهم من رتب رفيعة في سلم التركيبة الاجتماعية المغربية.

رابعا   عرف الكثير من أفراد هذه الجالية حماسا دينيا جارفا على مستويين

— على مستوى خدمة المتصوفة   نذكر على سبيل المثال أن عددا من الأندلسيين تفانوا في خدمة الشيخ أبي المحاسن   «..... كان الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن يوسف البيطار لقبا المدجن أصلا هو المعتاد لمرافقته...»[2]، كما أن الشيخ أبا سالم ابراهيم بن محمد النيار الأندلسي كان يخدم الشيخ ويجري في مصالح داره.....[3].

ان إقبال الأندلسيين على التصوف وخدمة أقطابه واضح جدا فقد استخدموا كورقة لمواجهة المغاربة، الذين كانوا يتهمونهم بأنهم فرطوا في وطنهم بسبب اختلاطهم بالنصارى، فالأندلسي كان في عرف المغربي «نشايطي» رجل يميل الى اللهو ومخالطة النساء، وبالتالي عدم الاعتناء بواجباته الدينية، فالطريق إذن لدفع هذه الشبهات هي الزهد في الدنيا، ولا غرابة أيضا أن نرى محتسبين من بين أفراد هذه الجالية أنفسهم لدرع مواطنيهم ومن تبعهم من المغاربة، أي في النهاية أراد هؤلاء أن يثبتوا أنهم يستطيعون أن يكونوا مثل المغاربة على مستوى من الاستقامة والجدية.

— على مستوى الجهاد   كان أفراد هذه الجالية أشد أعداء المسيحيين، إذ يفرضون مقادير باهضة لفداء أسراهم، ويرغمونهم على الدخول في الاسلام والعمل ضد مواطنيهم، مما كان يثير باستمرار غضب الرهبان.

واقبالهم على الجهاد — أيضا — يمكن تفسيره هنا بالملاحظة السابقة، فبالاضافة الى عامل الانتقام من المسيحيين يمكن أن نضيف أيضا عامل رد الاعتبار لهم أمام المغاربة، فهؤلاء في نظر المغاربة هم السبب في فقدان بلدهم بسبب عدم اهتمامهم بالجهاد واشتغالهم بالتطاحن فيما بينهم، فهو هنا أيضا لمواجهة المغاربة ولكي يثبتوا بأنهم لا يقلون جهادا عن باقي المسلمين، وإنما وقع ما وقع لظروف خاصة تتعلق بالمنطقة نفسها.

خامسا   أصبح أفراد هذه الجالية يشكلون فئة اجتماعية بامكانيات اقتصادية مهمة تستطيع من خلالها أن تفرض نوعا من النفوذ على باقي الفئات ذات الامكانات المحدودة، مما أثار مواجهة بينها وبين هذه الفئات.

---

(2)   م. العربي الفاسي، مرآة المحاسن، 22

(3)   المصدر السابق، 31.

سادسا لعب أفراد هذه الجالية أدوارا سياسية مختلفة في مختلف فترات القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث أصبح دورها بارزا سواء كمستشارين، أو سفراء، أو جنود، لكن الأخطر من كل هذا هو أنه في مرحلة ما من القرن السابع عندما كانوا يفكرون في خلق كيان مستقل لهم داخل المغرب، وهذا ما لم يشاهد لا في الجزائر ولا في تونس.

سابعا وأخيرا لم تلبث هذه لجالية أن فقدت هذا «التفوق» الحضاري والسياسي، وبدأت تندمج مع باقي أفراد المجتمع المغربي، وذلك انطلاقا من أواخر القرن السابع عشر.

تلك كانت أهم الخلاصات التي يمكن الخروج بها من خلال التأريخ لمراحل هذا الوجود الأندلسي بالمغرب، وهي خلاصات يمكنها أن تتضح أكثر إذا ما اتجه البحث مستقبلا الى دراسات مونغرافية، إذ ان انجاز أبحاث تتعلق بالوجود الأندلسي بمنطقة معينة (سياسيا وحضاريا) سيساعدنا ــ بدون شك ــ على أخذ صورة متكاملة ودقيقة عن هذا الوجود بتلك المنطقة.

الفهارس العامة

أولا فهرس المصادر والمراجع.

ثانيا فهرس الاعلام.

ثالثا فهرس الطوائف والجماعات.

رابعا فهرس الكتب.

خامسا فهرس الأماكن.

سادسا فهرس موضوعات الدراسة.

أولا فهرس المصادر والمراجع

أ ــ باللغة العربية

ــ ابن ابراهيم العباس (ت 1959/1378)

ــ **الاعلام، بمن بمراكش من الاعلام**. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، 1974 ــ 983
(10 أجزاء).

ــ ابن أبي دنيار محمد (ت 1092 ــ 1681)

ــ **المؤنس، في أخبار افريقية وتونس** ... المكتبة العتيقة، تونس 1967.

ــ ابن الازرق محمد (ت 897 هـ/1491)

ــ **بدائع السلك في طبائع الملك**. دراسة وحقيق محمد بن عبد الكريم، تونس، 1977، جزآن.

ــ ابن الحاج محمد الطالب (ت. 1273 ــ 1857)

ــ **رياض الورد، الى ما انتمى اليه هذا الجوهر الفرد**، مخطوط خ. ع بالرباط عدد 2313 ك.

الخطيب لسان الدين (ت 1374/776)

ــ **الاحاطة، في اخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973 ــ 1978، 4 أجزاء.

ــ **معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، الرباط 1977.

ـ خلدون عبد الرحمان (ت 1406/808)

ــ **المقدمة**

ــ **كتاب العبر، ديوان امبتدا والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**

ــ ابن زيدان عبد الرحمان (1946/1365)

ــ **اتحاف اعلام الناس، بجمال اخبار حاضرة مكناس**. المطبعة الوطنية بالرباط، 1930 ــ 1933 في 5 أجزاء.

ــ **المنزع اللطيف، في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف**. مخطوط خ. ح بالرباط عدد 2019.

ــ ابن عاصم محمد (ت. بعد 857 هـ/1453).

ــ **جنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى**، مخطوط خ. ح بالرباط عدد 2648.

ــ ابن عبد الرفيع محمد (ت 42/1052 ــ 1643)

ــ **الأنوار النبوية، في آباء خير البرية**، مخطوط خ. ع بالرباط عدد 1238 ك.

ــ ابن عبود امحمد

ــ تأملات في التصورات التاريخية للاندلس قديما وحديثا مقال **بالمجلة التاريخية المغربية**، تونس، السنة 10، العددان 30/19، يوليوز 1983، ص 487 ــ 503.

ــ الموريسكيون في نهاية عهد دول الطوائف من خلال النصوص التاريخية الاندلسية.
مقال بمجلة **البحث العلمي**، العدد 35، 1985. ص 31 ــ 48.

ــ **التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف**، تطوان، 1983.

ــ ابن عثمان محمد المكناسي (ت 1799/1214)

ـ **الاكسير في فكاك الاسير**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط 1965.
ـ ابن عزوز محمد حكيم
ـ **الست الحرة حاكمة تطوان**. الرباط. 1983.
ـ ابن علي محمد الدكالي (ت 1954/1364)
ـ **اتحاف اشراف الملا، ببعض اخبار الرباط وسلا**، مخطوط خ. ع. بالرباط، عدد 11 د.
ـ **الاتحاف الوجيز، بأخبار العدوتين المهدى لمولانا عبد العزيز** مخطوط خ. ع. بالرباط، عدد 42 د.
ـ ابن عسكر محمد (ت 986 هـ/1578)
ـ **دوحة الناشر، لمحاسن من كان بالمغرب من مشائخ القرن العاشر**. تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976.
ـ ابن القاضي أحمد (ت 1616/1025).
ـ **جذوة الاقتباس، فمن حل من الاعلام مد سنة فاس**.
دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط، جزآن. 1973، 1974.
ـ **درة الحجال، في أسماء الرجال**. مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة 1970 ـ 1974 في 3 أجزاء.
ـ **المنتقى المقصور، على مآثر الخليفة المنصور**.
دراسة وتحقيق محمد رزوق، الرباط 1986
ـ ابن سودة عبد السلام (ت 1980).
ـ **إزالة الالتباس، عن قبائل مدينة فاس**. مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 652 10.
ـ ابن شاهين عبد الباسط بن خليل (ت 1514/920)
ـ **الزهر الباسم، في حوادث العمر والتراجم**
نشر روبير برنشفيك القسم المتعلق بشمال افريقيا بباريس سنة 1936
ونشر القسم الاندلسي بمجلة **الاندلس**، سنة 1933.
ـ ابن يجبش محمد بن عبد الرحيم (ت 920 ه/ 1514)
ـ **تنبيه الهمم العالية**. نشره ابو بكر البوخصيبي ضمن كتابه «**أضواء على ابن يجبش التازي**» مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1976/1396.
ـ ابو الاجفان محمد
ـ عدالة الموريسكيين في نظر الفقهاء
بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية، تونس 1983، 9 صفحات.

ـ **أعمال المائدة المستديرة العالمية الأولى للجنة العالمية للدراسات الموريسكية حول الادب الالخميادو ـ الموريسكي** تونس. 1986.
ـ الافراني محمد (ت 1140/27 ـ 1728)
ـ **نزهة الحادي، في اخبار ملوك القرن الحادي**
الطبعة الثانية، 1977، منشورات بردي، الرباط.
ـ **صفوة من انتشر، من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، المطبعة الحجرية بفاس، دون تاريخ.
ـ بارالت لوس لوباز

ـ «النبوءة في أدب الخميادو الموريسكي للاندلس من خلال مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس» مقال **بالمجلة التاريخية المغربية**، تونس، السنة 8، العددان 22/21، ابريل 1981، ص 50 ـ ص 61.

ـ بالنثينا آنخل

ـ **تاريخ الفكر الاندلسي**، ترجمة حسين مؤنس القاهرة، 1955.

ـ البلوى أحمد (ت. عام 1532/938)

ـ **ثبت الشيوخ**. دراسة وتحقيق عبد الله العمراني. دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.

ـ بنعبد الله عبد العزيز.

ـ «البحرية المغربية والقرصنة». مقال بمجلة **تطوان**، العددان الثالث والرابع، 1958 ـ 1959، ص 59 ـ 71.

ـ «التطور الحضاري في مصب ابي رقراق» مقال بمجلة **المناهل**، العدد 10، نونبر 1977، السنة الرابعة، 85 ـ 133.

ـ بنشريفة محمد

ـ **ابو المطرف ابن عميرة** الرباط 1966/1385

ـ **أمثال العوام في الاندلس**، مطبعة محمد الخامس بفاس، 1971 ـ 1975 في جزءين.

ـ من منافرات العدوتين، مقال **بمجلة كلية الآداب والعلوم الانساني بالرباط**، العدد الاول، يناير 1977، ص 7 ـ 49.

ـ بشتاوي عادل سعيد

ـ **الاندلسيون المواركة** دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة. الطبعة الثانية، دمشق، 1985.

ـ بوجندار محمد (ت 1926/1345)

ـ **الاغتباط بتراجم اعلام الرباط**. مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 1287 د.

ـ **مقدمة الفتح، من تاريخ رباط الفتح**، الرباط 1345 هـ.

ـ بوزينب الحسين

ـ تقييم للكتابات الاعجمية الموريسكية. مقال بمجلة **دار النيابة**، السنة الثانية، العدد السادس، سنة 1985، طنجة، ص 64 ـ ص 71.

ـ الدين واللغة من خلال المكتوبات العجمية الموريسكية، بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية بتونس، 1983، 13 صفحة.

ـ اللغة الموريسكية المسماة بالعجمية، ضمن **أعمال البحث اللساني والسيميائي**، الدار البيضاء، 1981، ص 107 ـ ص 119.

ـ القيمة الحقيقية للرموز الخطية في الادب الاعجمي، ضمن **أعمال الادب الالخميادو الموريسكي** تونس، 1986، ص 29 ـ ص 37.

ـ بوشرب أحمد

ـ الجالية الموريسكية المقيمة بالبرتغال. مقال **بمجلة المناهل**، العدد 24، السنة التاسعة، يوليوز 1982، ص 354 ـ 392.

ـ محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. مقال بمجلة **المناهل**، العدد 21، السنة الثامنة، يوليو 1981، ص 224 ـ 287.

ـ التركي عبد المجيد

ــ وثائق عن هجرة لاندلسية لاخيرة في تونس، مقال بمجلة «حوليات الجامعة التونسية» العدد الرابع، 1967، ص 23 ــ 82.
ــ التميمي عبد الجليل
ــ تمسك الموريسكيين بدينهم وهويتهم من خلال قراءاتهم لا حاديث الرسول في مخطوطتين، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة 11، العددان 35، 36، دجنبر 1984، ص 5 ــ 13
ــ الخلفية الدينية لصراع لاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر. مقابل بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العددان 10 11، يناير 1978، ص 5 44.
ــ الدولة العثمانية وقضية موريسكيين، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة 8، العددان 23 ــ 24، نونبر 1981، ص 187 ــ 293.
ــ رسالة من مسلمي غرناطة في السلطان سليمان القانوني سنة 1541
مقال بالمجلة التاريخية المغربية، عدد 3، سنة 1975، ص 37 ــ 47.
ــ التوالي عبد
ــ مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس، ابيضاء، 1967
ــ الجراري عبد الله (ت. 1985)
ــ من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا
مطبعة الامنية بالرباط، 1971، في جزءين.
ــ الجنابي مصطفى بن حسين (ت 999 هـ 1590)
ــ البحر الزخار، والعيلم التيار مخطوط خ ــ ــ عدد 1507
ــ حتامله محمد عبده
ــ التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين، (1474 هـ 1516 (عمان، الاردن 1980).
ــ التهجيز القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملك فليب الثاني، عمان، الاردن، المجلد الثامن، العدد الثاني، 1981، ص 71 ــ ص 84
ــ «امسك شارل الاول وموقفه من مضمد موريسكيين بان زيارته لغرناطة عام 1526»، مقال بمجلة دراسات، عمان، الاردن، المجلد السابع، عدد 2، 1983 ــ ص 87 ــ 102
ــ «التهجير القسري للموريسكيين خارج شبه جزيرة ايبريا في عهد الملك فليب الثالث (1598 ــ 1621)، مقال بمجلة دراسات، عمان، لاردن، المجلد 10، عدد 1، 1983، ص 111 ــ 124.
ــ موريسكيو بلنسية تحت وطأة سلطة دينية وسياسية في عهد فليب الثالث (1598 ــ 1621).
بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الثاني للدراسات الموريسكية تونس، 1983، 35 صفحة.
ــ الحجري أحمد بن قاسم (ت. بعد 1051 1641)
ــ ناصر الدين، على القوم الكافرين. حقيق رزوق بيضاء، 1987
ــ العز والمنافع، للمجاهدين بالمدافع (ترجمة) مخطوط خ بالرباط عدد 87 ج.
ــ حجي محمد
ــ الحركة الفكرية في عهد السعديين، دار المغرب بالرباط 1977 ــ 1978، جزآن.
ــ الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي.
المطبعة الوطنية بالرباط 1384 1964.
ــ حركات ابراهيم

ــ اخبار عن جمهورية ابي رقراق، مقال بمجلة **دعوة الحق**،العدد الثالث، يناير 1965
ــ عائشة أمير البحر في عهد مولاي اسماعيل، مقال بمجلة **دعوة الحق**، العدد 4، مارس 1969. ص 126 ــ 129
ــ المقاومة البحرية في القرن الحادي عشر الهجري، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة 15، مارس 1973 ص 113 ــ 118
ــ حومد أسعد
ــ **محنة العرب في الاندلس**، بيروت 1980
ــ داود محمد (ت. 1985)
ــ **تاريخ تطوان**، 8 أجزاء، تطوان والرباط 1959 ــ 1979.
ــ دينية محمد بن علي (ت 1358 1939)
ــ **مجالس الانبساط، بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط**، مخطوط خ. ح بالرباط عدد 979.
ــ دنون عبد الواحد طه
ــ «استقرار القبائل البربرية في الاندلس» مقال بمجلة **أوراق**، مدريد، العدد الرابع، 1981، ص 35 ــ 48.
ــ رزوق محمد
ــ «الجالية الاندلسية بالمغرب العربي»، مقال بمجلة **المناهل**، العدد 34، السنة يوليوز 1986، ص 121 ــ 186
ــ الرهوني أحمد (ت 1373 1953)
ــ **عمدة الرواية في اخبار تطاوين، مخطوط م. ع بتطوان، عدد 318، 10 أجزاء.**
ــ **روجرز ب. ج.**
ــ **تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900**، ترجمة عن الانجليزية يونان لبيب رزق، الدار البيضاء 1981
ــ زبيس سليمان مصطفى (وآخرون)
ــ **بحوث عن الاندلسيين في تونس** (جمع) تونس، 1983
ــ زمامة عبد القادر
ــ **أبو الوليد ابن الاحمر**، الدار البيضاء 1978
ــ الزياتي عبد العزيز (ت 1055 1645)
ــ **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**. مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 66 ج.
ــ الزياني ابو القاسم (ت 1249/1833)
ــ **الترجمان المعرب، عن دول المشرق والمغرب**، مخطوط خ. بالرباط رقم 658د.
ــ كارديناك لوي
ــ قضية الموريسكيين بأمريكا، مقال **بالمجلة التاريخية المغربية**، تونس، العدد 6، يونيو/يوليوز 1976، ص 90 ــ 110
ــ الكانوني محمد (ت 1375 1938)
ــ **أسفي وما إليه قديما وحديثا**، الطبعة الثانية، الصناعة الحديثة، الدار البيضاء، 1985
ــ **جواهر الكمال، في تراجم الرجال**. مطبعة العربية بالدار البيضاء، 1937.

ــ الكتاني محمد (ت 1345/1926)

ــ **سلوة الانفاس، ومحادثة الاكياس، بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، المطبعة الحجرية بفاس عام 1318
1900، في 3 أجزاء.

ــ الكتاني عبد الكبير بن هاشم (ت 1350)

ــ **زهر الآس في بيوت أهل فاس، مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 1271 ك.**

ــ **الكراسي محمد** (ت 964 ه/1557)

ــ **عروسة المسائل، فيما لبني وطاس من الفضائل**. الرباط، 1383/1963

ــ كربخال مارمول (ت بعد 1571)

ــ **افريقيا**، الجزء الأول

ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الاخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الرباط، 1404/1984.

ــ كيلي جاك.

ــ السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا، مقال بمجلة **تطوان**، العدد السادس، السنة 1961. ص 155، 194.

ــ لعشاش بلقاسم

ــ **بيوتات مدينة سلا**، مخطوط الخزانة الصبيحة بسلا، رقم 1344

ــ مجهول

ــ **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، نشره جورج كولان بالرباط 1934

ــ مجهول

ــ **رسائل سعدية**، مخطوط خ. بالرباط عدد 270 ك.

ــ مجهول

ــ **نبذة العصر، في اخبار ملوك بني نصر**، مخطوط خ. ع بالرباط عدد 1177 ك، ضمن مجموع، وقد طبع بالعرائش سنة 1940 بتحقيق الفريد البستاني.

ــ مجهول

ــ **كناش في شؤون بحارة العدوتين**، مصور، بالرباط عدد 1409 د.

ــ المدني أحمد توفيق (ت 1985)

ــ انهيار بلاد الاندلس وموقف دول الاسلام واسطنبول من ذلك، مقال بمجلة **الاصالة** الجزائرية، السنة الرابعة، العدد 27، شتنبر اكتوبر 1975، ص 176 ــ 188

ــ **حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا**، مطبعة البعث بالجزائر.

ــ مزين محمد

ــ **فاس وباديتها من 1549 الى 1637**. الرباط 1986 جز

ــ المزي محمد

ــ نور القبس بين صربة والاندلس، ضمن كتاب **بحوث عن الاندلسيين في تونس**. تونس 1983، ص 7 ــ 36.

ــ مظهر علي

ــ **محاكم التفتيش باسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها**. مطبعة انصار السنة المحمدية. القاهرة، 1947

ــ مكناسي أحمد

ـ **معجم الكلمات الاسبانية المقتبسة من العربية**، تطوان 1963
ـ المنتوري محمد (ت 1431/834)
ـ **برنامج المنتوري**، مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 667 12
ـ المنوني محمد
ـ تاريخ الموسيقى الاندلسية بالمغرب، مقال بمجلة البحث العلمي، عدد مثنى 14 و 15، السنة 6، يناير/دجنبر 1969، ص 147 ـ 177.
ـ ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مقال بمجلة **دعوة الحق**، العدد 3، السنة 10، يناير 1967، ص 74 ـ 91
ـ ملامح من تطور المغرب العربي في بداية العصور الحديثة، ضمن **أعمال المؤتمر الاول التاريخ المغرب العربي**. وحضارته، تونس، 1976، 2 75 ـ 113
ـ مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث، مقال بمجلة **البحث العلمي**، السنة 5، العدد 13، ص 23 ـ 32
ـ المقري أحمد (ت. 1041/31 ـ 1632)
ـ **ازهار الرياض، في اخبار عياض**، الرباط 1978/1979، 5 أجزا
ـ **نفح الطيب، من الاندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، نشره احسان عباس، 1968، 8 أجزاء.

ـ مؤنس حسين
ـ اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر (تحقيق).
مقال بمجلة **معهد الدراسات الاسلامية بمدريد**، المجلد 5، 1957، العددان 1 ـ 1، ص 129 ـ 191
ـ ميارة محمد (ت 1072/662)
ـ **نصيحة المغترين، وكفاية المضطرين، في التفريق بين المسلمين**، مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 4248، ضمن مجموع، ورقة 71 ـ 123 ظ.
ـ الناصري أحمد (1315/1897)
ـ **الاستقصا، لاخبار دول المغرب الاقصى**، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1954 ـ 1956، 9 أجزاء.
ـ الصباغ ليلى
ـ ثورة مسلمي غرناطة عام 976 هـ والدولة العثمانية، مقال بمجلة **الاصالة** الجزائر السنة 4، العدد 27، شتنبر/اكتوبر 1975، ص 116 ـ 175
ـ الضعيف محمد بن عبد السلام (ت. بعد 1239 1817)
ـ **تاريخ الضعيف**، حقيق أحمد العماري، الرباط 1986
ـ العافية عبد القادر
ـ **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون واحوازها خلال القرن العاشر الهجري**، المحمدية، 1982
ـ عباس حسان
ـ هل كان شعر الاندلس سببا في انحلال اخلاقهم ثم سقوطهم أم كان هما مجرد مرآة وانعكاس ؟ مقال بمجلة **الاصالة** الجزائر السنة 4، العدد 27، شتنبر اكتوبر 1975، ص 189 ـ 208.
ـ عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمان

ـــ المهاجرون الاندلسيون (المورسكيون) في مصر من خلال وثائق محكمة الاسكندرية الشرعية في العصر العثماني، مقال بمجلة **الحياة الثقافية**، تونس، العدد 31، السنة 1984، ص 143 ـــ 149

ـــ العرائشي أحمد بن يعزى (ت. بعد 1709/1121)

بيوتات مكناس (جمع)، مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 3207.

ـــ العلوي سليمان السلطان (ت. 1822/1238)

ـــ **عناية أولي المجد، بذكر آل الفاسي ابن الجد، المطبعة الجديدة بفاس، 1928/1347.**

ـــ **عليوات عبد الكبير** (ت. بعد 1987/1099)

ـــ **سراج الغيوب**، في أعمال القلوب، مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 455 ك.

ـــ عنان محمد عبد الله

ـــ لماذا تهمل الجامعات تار. الاندلس ؟ مقال بمجلة **دعوة الحق**، العدد 2، السنة 23 ابريل 1982، ص 39 ـــ 41.

ـــ «موقف القسطنطينية وباقي العالم الاسلامي من سقوط الاندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الاوربوي للعالم الاسلامي عموما» مقال بمجلة **الاصالة** الجزائرية، السنة 4، العدد 27، شتنبر/اكتوبر 1975، ص 101 ـــ 115

ـــ **نهاية الاندلس، وتاريخ العرب المتنصرين**، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1966

ـــ عيسى محمد عبد الحميد

ـــ **تاريخ التعليم في الاندلس**، القاهرة 1982

ـــ الغزال أحمد بن المهدي (ت 1191 77 ـــ 1778)

ـــ **نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد**، حقيق اسماعيل العربي، بيروت 1980

ـــ الغساني محمد بن عبد الوهاب (ت 1707/1119 ـــ 1708)

ـــ **رحلة الوزير، في افتكاك الاسير**، مخطوط خ. بالرباط عدد 329. 11، وقد طبعت بالعرائش سنة 1940 بتحقيق الفريد البستاني.

ـــ الفاسي محمد المهدي (ت 1109 ه/1698)

ـــ **ممتع الاسماع، في ذكر الجزولي والتباع**، المطبعة الحجرية بفاس، 1896/1313

ـــ الفاسي محمد العربي (ت. 1642/1052)

ـــ **مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ ابي المحاسن.**

المطبعة الحجرية بفاس 1906/1334

ـــ الفاسي عبد الرحمن (ت 1985/1096).

ـــ **بيوتات فاس الصغرى**، مخطوط خ. رباط عدد 1394، ضمن مجموع، وهناك طبعة حجرية ممحصوص في 13 صفحة دون تاريخ

ـــ **ابتهاج القلوب، بخبر الشيخ ابي المحاسن وشيخه المجذوب**. مخطوط خ. بالرباط رقم 326 ك.

ـــ الفاسي عبد الله (ت 1131 1719)

ـــ **الاعلام بمن غبر، من أهل القرن الحادي عشر** مخطوطات مبتور

(1) ـــ عام 1012 ـــ 1027 في خ. ع بالرباط رقم 1080

(2) ـــ عام 1050 ـــ 1100 في بالرباط رقم 3637 ز

ـ فرحات يوسف شكري

ـ غرناطة في ظل بني الأحمر،بيروت، 1982

ـ الفكيكي حسن

ـ قلعية ومشكل الوجود الاسباني بمليلة (1497 ـ 1859)

جزآن، رسالة جامعية غير منشورة، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالرباط 1984.

ـ الفشتالي عبد العزيز (ت 1031 / 1622)

ـ مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفا، تحقيق عبد كنون، تطوان، 1964.

ـ فورنال جاكلين

ـ الصيدلية المورسكية وممارسة الطب لدى المجموعة الموريسكية بمنطقة أرجون (1540 ـ 1620)، مقال **بالمجلة التاريخية المغربية**، تونس، العددان 15 / 16، السنة 6، يوليوز 1979، ص 50 ـ 60.

ـ القادري محمد (ت 1187 / 1773)

ـ التقاط الدرر، ومستفاد المواعظ والعبر، من أخبار اعيان المائة الحادية والثانية عشر.

تحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت 1983.

ـ نشر المثاني، لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، وأحمد التوفيق، الرباط، 1977 ـ 1982.

جزآن.

ـ القلصادي علي (ت 981هـ / 1486)

ـ رحلة القلصادي،

دراسة وتحقيق محمد ابو الأجفان، تونس، 1978.

القصار محمد (ت 1012 / 1603)

ـ فهرس القصار

مخطوط، خ. ح. بالرباط رقم 3730.

ـ قشتيلو محمد

ـ محنة المورسكوس باسبانيا، تطوان 1980.

ـ السائح الحسن

ـ «قصة الجالية الأندلسية بالمغرب» مقال بمجلة **دعوة الحق**، صدر في القسمين

القسم الأول صدر في العدد 3ة السنة 21، 1980، ص 74 ـ 81.

القسم الثاني صدر في العدد 4، ص 51 ـ 55.

ـ السائح محمد بن عبد السلام (ت 1367 / 1948)

ـ سوق المهر، الى قافية ابن عمرو.

المطبعة الاقتصادية بالرباط، 1357 ـ 1938.

ـ سالم السيد عبد العزيز.

ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس.

بيروت، 1981.

ـ السعدي عبد الرحمان (ت بعد 1066 / 1655)

ـ **تاريخ السودان**
المطبعة الأمريكية والشرقية بباريس، 1964آ

ـ السكتاني عيسى (ت 1062 / 1652)
ـ**أجوبة السكتاني**
مخطوط خ. ع. بالرباط رقم 1016 ج.

ـ السعيدوني ناصر الدين
ـ **أوقاف الأندلس بالجزائر.**
بحث مقدم الى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات المورسكية بتونس، 1983، 20 صفحة.
ـ الجالية الاندلسية بالجزائر، مقال بمجلة **أوراق**، مدريد، العدد الرابع، 1981، ص 111 ـ 124.

ـالسويسي عبد الله
ـ **تاريخ رباط الفتح**، الرباط، 1399 ـ 1979.

ـ سيكودي لوثينا (لويس)
ـ **وثائق عربية غرناطية** (تحقيق).
منشورات معهد الدرسات الاسلامية بمدريد 1380 ـ 1961.

ـ الشادلي عبد اللطيف.
ـ **الحركة العياشية**، الدار البيضاء 1982.

ـ الهبطي عبد الله (ت 963 / 1556)
ـ **الالفية السنية، في تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوه من التغير في الملة الاسلامية**، مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 3607 ز.

ـ واينرجيروم
ـ«المغرب وقراصنته المغاربة في القرن السابع عشر» ترجمه عن الانجليزية طارق العسكري عبد الهادي التازي، مقال بمجلة**البحث العلمي**، العددان، 29 / 30، السنة 16، 1979، ص 13 ـ 36.

ـ الوزان الحسن بن محمد (ت بعد 957 / 1550)
ـ **وصف افريقيا**
ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ـ 1982، جزآن.

ـ الونشريسي احمد (914 / 1508)
ـ **المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوي أهل افريقية والاندلس والمغرب، بيروت 1981.**
12 جزءا.

ب ـ باللغة الأجنبية

— Abbou (I.D.)
— **Musulmans-andalous et Judéo-espagnols**, Casablanca, 1953.

– Actes du II xymposium International du C.I.E.M. sur : Religion, Identité et sources Documentaires sur les morisques Andalous, 2 tomes, Tunis, 1984.
— **Actes de la Première** table ronde du C.I.E.M sur **la littérature algamiado-morisque**, Tunis, 1986.

— Arié (R.)
— "Les Etudes sur les morisques en Espagne à la lumière des travaux récents" in **Revue des Etudes Islamiques**, 1967, pp. 225-229.
— **L'Espagne musulmane au temps des nasrides**, Paris, 1973.

— Aznar Cardona (P.)
— **Expulsión Justificada de los moriscos espanolas y suma de la excelencias christianas de nuestro rey don felipe el Catolico tercero desde nombre**, Huesca, 1612, 2 parties.

— Bauer Landauer, Ignacio
— **Biblioteca Hispano-Marroquí.**
Papeles de mi archivo, Relación de Africa, Madrid D.d. 6 vols.

– Bennasser (B.)
— **l'Inquisition Espagnol XVe - XIXe siècle**, Paris 1979.
— **un siècle d'or Espagnol**, Paris, 1982.
— **l'homme espagnol, Attitudes et mentalités du XVIe au XIX siècle**, Paris 1975.

— Bennassar (B.)
— Amalric (J.P.), Perez (J.) et Temime (E.)
— **Lexique Historique de l'Espagne**, Paris, 1976.

— Benslimane Hassar (J.)
— **Salé, Etude Architecturale de trois maisons traditionnelles** ; Rabat, 1979.

— Brahimi (D.)
— quelques jugements sur les maures andalous dans les regences turques au XVIIe siècle, in **Etudes sur les moriscos andalous en tunisie**, Madrid, 1973, pp. 135 149.

— Braudel (F.)
— Conflits et refus de civilisation, Espagnols et morisques au XVI siècle in **Annales E.S.C., 1947, pp. 397-410.**
— **les Espagnols et l'Afrique du Nord de 19492 à 1577, in Revue Africaine**, 1928, pp 184-233 et 351-428.
— **la Méditérranée et le mode méditérranéen**, 2 tomes, 4 édition, Paris, 1979.

— Brown (K.)
— An Urban View of moroccan "History, salé 1000-1800 in **H.T.** Vol. XII. Fasc. unique, 1971, pp. 5-106.

— Brunot, (L.)
— **La mer dans les traditions et industries indigènes de Rabat-Salé**, Paris 1921
— Aperçu historique sur la piroterie saletine, in **Bulletin de l'Enseignement public du Maroc**, n° 46-47, Février-Mars 1923.
— **Notes lexicologiques sur le vocabulaire Maritime de Rabat-Salé**, Paris, 1920.

— Cabanelas Rodríguez (D.)
— Proyecto de Alianza entre los sultánes de Murruecos y Turquía contra Felipe II, in **M.E.A.H.**, tome VI, 1957, pp. 57-75.
— Cartas del Sultán de Murruecos Ahmed El-Mansur a Felipe II, in **Al Andalus**, XXIII, 1958, pp 19-47

— Caillé (J.)
— Ambassades et missions marocaines aux pays-bas à l'Epoque des sultans saadiens "in H.T. Vol. IV, Fasc. 1-2, 1963, pp. 5-67
— **la ville de Rabat jusqu'au Protectoret**, Paris, 1949.

– Cantineau (J.)
– Lettre du Moufti d'oran aux musulmans d'Andalousie in **Journal asiatique** CCX, Janvier, Mars, 1927, pp. 1-17.

– Castries (H. de)
– le Maroc d'autrefois, les corsaires de Salé, in **Revue des deux mondes**, 15 Février, 1903, 41 p.
– Sources inédites de l'Histoire du Maroc, 1 ère série, Paris, 1905-1953

– Cardaillac (L.)
– Morisques et Chrétiens, **un Affrontement polémique (1492-1640)**, Paris 1977.
– Morisques en Provence, in **Etudes sur les morisques andalous en Tunisie**, Madrid, 1973, pp. 89-103.
– **le Passage des morisques en languedoc**, thèse inédite, Montpellier, 1970.

– Cardaillac (L.) et Ravillard (M.)
– Bibliographie de la Marginalité, in **Imprévue**, Montpellier, 1981, 30 p.

– Caro Boroja (J.)
– **Los moriscos del reino de Granada**, Madrid, 1976.

– Carrasco (R.) et Gonzales (A.)
– le Problème morisque dans les îles de la méditérranée in **R.H.M.**, tunis, n° 35-36, Décembre 1984, pp. 39-70

– Chack (P.)
– Du Ghaffault et les corsaires du Maroc, in **Revue des deux mondes**, 1er Mars 1931

– Chaunu (P.)
– Minorités et conjonctures, l'expulsion des morisques en 1609, IN **Revue Historique**, 1961, CCXXV, N° 1, pp. 81-98.

– Chenier (L. de)
– **Recherches historiques sur les maures et histoire de l'Empire de Maroc**, tome II, Paris, 1787

– Coindreau (R.)
– **Les corsaires de Salé**, Paris 1948 ;
– **Coleccion de documents inéditos para la Historia de España**, Madrid, 1842, 19 895, vols XXXI, XXXV, XLIII, LI, LXXIX, XCII, XCV, CVI, CXII.

– Colin (G.)
– Projet de Traité entre les morisques de la casba de Rabat et le roi d'Espagne en 1631, IN **H.T.** XLII, 1955, pp. 17-25.
– **Coloquio Internacional sobre la Inquisición española**, Cuenca, 1978.

– Cour (A.)
– **l'Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc (1509-1830)**, Paris 1904.

– Cousté (J.)
– **les grandes familles indigènes de Salé**, Rabat 1931

– Dan (P.)
Histoire de la Barberie et ses corsaires, Paris 1649.

– Dedieu (J.P.)
– les inquisiteurs de Tolède et la visite du district. La sédentarisation d'un Tribunal 1550-1630, in **M.C.V.** 1977, N° 13, pp. 235-256.
– les causes de foi de l'Inquisition de Tolède, in **M.C.V.** N° 14, 1978, pp. 143-171

– Descola (J.)
– **Histoire de l'Espagne**, Paris 1979.

– Dominguez Ortiz (A.)
– Una República Andaluza En El Norte de Africa, in **Historia 16**, Madrid, 1ère année, N° 4 Août 1976, pp. 57-62.
– Felipe IV y los moriscos, in **M.E.A.H.** Granada, 1959, VIII. Fasc. 1, pp. 55-65.

– Dominguez Ortiz (A.) et Vincent (B.)
– **Historia de los moriscos, vida y tragedia de una minoría**, Madrid, 1978.

– Dufourcq (CH. E.)
– **l'Espagne catalane et le Maghreb au XIIIe et XIVe siècles**, Paris, 1966.

— Epalza (M. de)
— Moriscos et Andalous en tunisie au XVII° siècle, in **Etudes sur les moriscos andalous, en Tunisie**, Madrid, 1973, pp. 150-186.
— Recherches récentes sur les émigrations des moriscos en Tunisie in **Cahiers de Tunisie**, tunis, XVIII, N° 69-70, pp. 139-147.
— Nouveaux documents sur les andalous en Tunisia au début du XVIIIe siècle in **R.H.M.** tunis, 17-18, 1980, pp. 79-108.
— **Bibliographie Algérienne concernant l'Histoire de l'Espagne**, tunis, 1976.

— Epalza (M. de), Ben Ali (M ;) et Gafsi (A.)
— Bibliographie tunisienne concernant **l'histoire de l'Espagne**, tunis, 1975.

— Fernandez Nieva, (J.)
— El anfrentamiento entre Moriscos y cristianos viejos. El caso de Hornachos en Extrem adura, in **les morisques et leur temps**, Paris, 1983, pp. 269-295.
— **La Inquisicion y los moriscos Extremeños (1585-1610)**, Badejoz, 1979.
— Un pleito antre El lic cuenca y los moriscos de Hornachos en Extremadura, 1607-1609. in **Actes du II symposium International** du C.I.E.M., Juin, 1984, 2 : 213-236.

— Fournel — Guérin (J.)
— Les morisques aragonais et l'Inquisition de Saragosse (1540-1620). Université Paul Valéry, Montpellier III, 1980.

— García Arenal (M.)
— Los Andalusies En El Ejército Saâdi : un intento de Golpe de Estado contre AHMED AL-Mansúr, in la revistu Al-Quantara, Vol. V, Fasc. 1 y 2, Madrid, 1984, pp. 169-202
— **Los moriscos**, Madrid, 1975.
— Los moriscos del campo de caltrava después de 1610, Segun Algunos Procesos inquisitoriales, in **Cahiers de Tunisie**, Tunis, 1978, pp. 173-196

— García Cárcel (R.)
— **Origenes de la Inquisicion Española. El Tribunal de Volencia (1478-1538)** Barcelona, 1976.
— Herejíay socieded En El siglo XVI. La Inquisicíon en valencia (1530-1609), Barcelona, 1980.

— García Figueras (T.) et Rodriguez Joulia saint - cyr (C.)
— **Laracha, Datos Para su historia en el Siglo XVII**, Madrid. 1973.

— Gil Grimau (R.)
— Documentacion sobre moriscos en relecion con Marruecos, in **Actes du II symposion International du C.I.E.M**, tunis, 1984, pp. 1 349-359.

— Neccisidad de Unos Estudios sobre los moriscos en Marruecos, in **Etudes sur les morisques Andalous**, Fasc. 3 Tunis, 1983, pp. 251-256.

— Gozalbas Busto (G.)
— Huellas Andalusis en El Vastir marroquí, in **Quadenos de la Biblioteca** espanola de Tetuan, Diciembre, 1977, num ; 16, pp. 67-109.
— **La República Anduluza de Rabat en el siglo XVII**, S.D.
— Prasencia de los moriscos en Tetuen y xauen, in **Actes du II symposium International** du C.I.E.M. tunis 1984, 1 361-374.

— Guadalajaru y Javier, Marcos
— **Prodicion y diestierro de los moriscos de Gastilla hosta el valle de Ricote. Con las disensiones de los hermanos xarifes y Presa en Berberia de fuerça y puerto de alarache**, Pamplona, 1614.

— Haedo (Fray. D.)
— **Topografía en Historia general de Argel**, valladolid, 1612, puplié par la socieded de Bibliófilos Españes, Madrid 1928.

— Harvey (L.P.)
— The morisco who wes Muley Zaidun's spanish interpreter : Ahmad Ben Qasim Ibn Al Faqih Qasim al-shaihah al hajari Al Andalusi, in **M.E.A.H.**, VIII, 1959, pp. 67-97

— Halperin Donghi (T.)
— Les morisques du Royaume de Valence, Recouvrement et civilisation, in **Annales E.S.C.**, 1956, N° 2, pp. 154-182.

— Hermosilla (y.) — Cardaillac
— Esclavage et Magie chez les nouveaux chrétiens en Espagne au XVIe siècle, in **R.H.M.** N° 35-36, Décembre, tunis, 1984, pp. 115-136.

— Hurtado de Mendoza (D.)
— **Guerra de Granada hecha por el rey de España don Felipe II contra los moriscos de aquel reino sus rebeldes**, Madrid, 1946.

— Kamen (H.)
— **Histoire de l'Inquisition espagnole**, Paris 1966.

— Lapeyre (H.)
— **Géographie de l'Espagne morisque**, Paris, 1959.

— Lathan (J.D.)
— Les Andalous en Afrique du Nord in **E.I** leyden, 1960, 1 : J 11-512.

— Lebel (R.)
— Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais eu XVIIe, XVIIe et XVIII siècles, in **H.** 1929, T. IX, 4 tr. pp. 269-294.

— Lopez-Baralt (L.)
— chronique de la destruction d'un monde.
La littérature Aljamiado-morisque. in **R.H.M.** tunis, N° 17-18, janvier 1980, pp. 43-77

— Loupias (B.)
— La Pratique secrète de l'Islam dans les évêchés de Cuenca et Sigüenza aux XVIe et XVIIe siècles, in **H.T.** vol. VI, 1965, pp. 115-131.

— Lourido (R.)
— Transformacion de la pirateria marroquí en guerra del Corso por el Sultán Sidi Muhamd b. Abdallah (entre 1747 y 1768), in **H.T.** 1969, Vol. X, Fasc, 1-2, pp. 39-69.

— Marmol Carvajal (luis de)
— **L'Afrique**, traduction P. d'ablancourt, tome II, Paris 1667
— **Historia del rebelion y Castigo de los moriscos del reino de Granada**, Madrid, 1946.

— Mauran (D.)
— une République de Pirates, in **Arch.ber.** vol II. 1977, pp. 36-43.

— Mission scientifique du Maroc
— **ville et tribus du Maroc**, tome I, **Rabat et sa région**, Paris 1918.

— Mondaü (J.)
— **Les Etats Barbaresques**, Collection (Que sais-je ?) N° 1097, Paris, 1973.
— **Morisques et leurs temps, Paris, 1983.**

— **Morgan (J.)**
— **Histoire des Etats Barbaresques qui exercent la piraterie**, 2 vol. Paris, 1757.

— Mouette (G.)
Relation de Captivité dans les royaumes de Fez et de Maroc, Paris 1683.
— **Histoire des conquestes de Moulay Archy**, Paris 1683.

— Penella Roma (J.)
— **Los moriscos españoles Emigrados Al norte de Africa**, thèse inédite, Barcelone, 1971

— Penz (CH.)
— **Les captifs Français du Maroc au XVIIe clècle (1577-1699)**, Rabat, 1944.

— Pelorsan (J.M.)
— Recherches sur la comédia los moriscos de Hornachos, in **Bulletin** hispanuque (B.H), LXXIV, N° 1-2, Janvier — Juin 1972, pp. 5-42.

— Pérétié (A.)
— Le Raïs El-Khadir Ghaïlan, in **Arch. Mar.** Vol. XVIII, Paris 1912

— Pianel (G.)
— Le Maroc à la recherche d'une conquête l'Espagne ou les indes ? in **H.** 1953, t. xL, 3-4 tr pp. 511-521

— Pieri (H.)
— L'accueil par les tunisiens aux morisques expulsés d'Espagne : un temoignage morisque, in **Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie**, Madrid, 1973, pp. 128-134

– Ponsot (P.)
– Les morisques, la culture irriguée du blé, et le problème de la décadence de l'agriculture espagnole au XVIIe siècle, in **M.C.V.** tome VII, 1971 pp. 237-262.

– Posoc Mon (C.)
– Episcdios del Exodo morisco allende el Estrecho de Gihraltar, in **Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetuan**,Tetuan, Junio Diciembre, 1978, N° 17-18, pp. 191-214.

– Playfair and Brown (R.)
– **Bibliography of empire of Morocco From the earlist times to the end of 1891**, london.

– Premare (A.L. de)
– **Maghreb et Andalousie au XIVe siècle**, Lyon (France), 1981

– Ravillard (M.)
– **Bibliographie commentée des morisques**, Alger, Uniersité, 1979.

– Razouk (M.)
– Evolution de l'Etablissement des minorités Andalouses au Maroc, in **Actes du II symposium International du C.I.E.M**, tunis, 1984, 2 139-154.

– Regla (J.)
– **Estudios sobre los moriscos**, Barcelona, 1974.

– Ricard (R.) et Caille (J.)
– Salé-le-vieux et salé-le-neuf, in **H.** 1947 T. XXXIV, 3° 4 – tr. pp. 441-442.

– Rodriguez Joulia Saint – cyr (C.)
– **Ensayo de Bibliografía menor hispano – musulmanû**, Madrid, 1970.

– Sabbagh, Leilû
– La religion des Morisques entre deux Fatwas, in **Les morisques et leurs temps**, Paris, 1983, pp. 45-56.

– Sanchez Pérez (A.)
– **Los moriscos de Hornachos corsarios de salé**. Badajoz 1964.

– Sarnelli cerqua (C.)
– La fuga in Marocco di As-Sihab HMAD AL Hagari Al-Andalusi, in **Studi Maghrebini** I, Napoli, 1999, pp. 215-229

– Lo scrittore ispano-marocchino Al-Hagri E il suo Kitab Nasir AD-din, Estratto dagli atti de III congresso distudi Arabie Islamici (Ravello 1966), Napoli, 1967, pp. 595-614.
– Al Hagari in Andalusiu, in **Studi Magrebini** III, Nopoli 1968, pp. 1-43.

– Sierra (A.)
– La Mezquita de Rif Andalus, in **C.B.T**, Junio désembre, 1978 N° 17-18, pp. 155-163.

– Véronne (CH. de la)
– Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XIVe siècle et le début du XVIIe siècle (1554-1616) in **Revue de l'occident musulman et de la médîterrénée**, N° 15-16, pp. 391-399 Aix, 1973.

– Vincent (B)
– L'expulsion des morisques du royaume de grenade et leur répartition en Castille (1570-1571) in **M.C.V**, tome VI, 1970, pp. 210-246.
– L'albaïcin de Grenade au XVIe siècle in **M.C.V.** tome VII, 1971, pp. 187-222.
– Combien de morisques ont été expulsés du royaume de grenade in **M.C.V**, tome VII, 1971, pp. 397-399.
– Les morisques d'Extrémadure au XVIe siècle, in **Annales de démographie historiques**, Paris, 1974, pp. 431-448.
– Les bandits morisques en Andalousie au XVIe siècle, in **Revue d'histoire moderne et contemporaine**, T. XXI, Juillet – Septembre, 1974, pp. 389-400

ثانيا ــ فهرس الاعلام

ـ حرف الألف ـ

آن، (الملكة) 272
آسين 294
ابراهيم أغا 124
ابن ابراهيم علي 275
ابن أبي بكر الحسن 166
ابن أبي زرع 29، 30
انب أبي عامر المنصور 31
ابن أبي العافية موسى 30
ابن أبي القاسم علي 170
ابن الأزرق .... 66، 68
ابن الأحمر، محمد بن يوسف 44
ابن أمية محمد .... 94، 167
ابن باجة 38
ابن بجة محمد بن ابراهيم 180
ابن بلقين تميم 34
ابن بلقين عبد الله 34
ابن البيطار المالقي 274
ابن بصال 266
ابن تاشفين يوسف .... 34، 37
ابن الحاج محمد الطالب 12
ابن حدو أحمد 254
ابن حيان 30
ابن الخطيب لسان الدين .... 12، 28
ابن خلاص 37
ابن خلدون 47
ابن راشد علي 161
ابن رضوان المالقي 42
ابن رشد (الجد) 34
ابن رعموك يامين 269
ابن زياد طارق .... 24، 28
ابن زيري بلكين 31
ابن الطاهر سليمان 200
ابن طفيل 38
ابن كرمان محمد 171
ابن ليون التجيبي 266
ابن المنصور عبد الرحمان 32
ابن معن محمد 310
ابن معيوب أحمد 277

ابن مفوز عبد الملك 36
ابن موسى عمارة 272
ابن ناصر محمد 272
ابن عائشة عبد الله 271
ابن عاصم .... 40، 66
ابن عاشر عبد الواحد 11، 196
ابن عباد المعتمد 34
ابن عبد الرفيع محمد .... 9، 121
ابن عبد الله محمد (السلطان) 272
ابن عبد المومن داود .... 178، 180
ابن عبد المومن يوسف 35
ابن عبو عبد الله 94
ابن عثمان المكناسي محمد 273
ابن العربي أبو بكر 172
ابن عطية زيري المغراوي 31
ابن علي محمد السلاوي 303
ابن عمر علي بن ادريس 29
ابن عميرة .... 36، 37
ابن عسكر .... 170، 171
ابن غازي 286
ابن الغالب بالله الناصر 182
ابن غالب 264
ابن القاضي أحمد .... 179، 187
ابن سلطان القسنطيني أبو القاسم 173
ابن سعيد 266
ابن وافد 266
ابن يجيش التازي 144
ابن يحيى عبد الكريم 157
ابن يعزى أحمد 316
ابن يوسف علي 34
ابن يوسف سليمان 252
أبو راس الناصري 132
أبو عبد الله (الأمير) 12
أبو عنان المريني 142
أجانة مسعود بن أحمد 254
إدريس الثاني 29
ارينال مرسديس كارسيا 18
اليزابيث الأولى 181
اعراص علي 159
الأندلسي محمد .... 170، 171، 172
الأندلسي المعلم يوسف 16
الافراني محمد .... 11، 201
الفونسو السادس 34
اسماعيل (السلطان) 13
أورثيت انطونيو دومنكو 20
إيزابيلا 64

حـرف البـاء ـ

بالاش داود .... 212.
با يزيد الثاني (السلطان العثماني) 65
براون كنيت 20
بروديل 96
برينو لويس 288
البلوي أحمد بن علي 72
بليك (القائد الانجليزي) .... 200، 201، 215
بنشريفة محمد 292
بنيكاس محمد 269
بنيلا روماخوان 18
بسكيانو يوسف 269
البشير (الكاهية) 199
بوعلي 252
بوسطو كيرمو .... 19، 241
البيجري عبد السلام 315
بيريز أندريس سانشيس 20
بيريس علي 273
البيطار علي بن يوسف 310

ـ حرف التاء ـ

تالافيرا (الأب) 59
التاغي 202
التجيبي أحمد بن عزيز 309
التلمساني عبد الله 179
التمجروتي علي 187
توشينج 255

ـ حرف الجيم ـ

جاك الأول 124
الجنابي 63
الجنان محمد بن أحمد 309
الجنوي أحمد 209
الجنوي سعيد 203

ـ حرف الحاء ـ

الحبقي فرناندو 167
الحجاري 28
الحجري أحمد بن قاسم ....9، 10، 16، 103، 106، 120، 121، 247، 269، 275، 278، 280، 284 285
حركات ابراهيم 17
الحنفي عبد الباسط 63

ـ حرف الخاء ـ

الخارجي عبد الرزاق 39
الخزاعي ابن مسعود 42
الخطيب عبد الله بن أحمد 254
خليل باشا 124
خير الدين 85
خيل كريمو 19

ـ حرف الدال ـ

دان (الأب)، 15، 191، 216، 255 257
داود محمد، 253، 254 260
درغوث باشا 102
الدك ابراهيم 270
الدلائي محمد الحاج، 202، 203، 204، 207 270
الدغالي سعيد بن فرج، 166، 167، 175، 176، 177 178
الدقون أحمد بن محمد 309
دوزي 294

ـ حرف الراء ـ

رازيلي، 197، 211، 212 224
الراعي عمر 172
الراشدي ابراهيم 172
الرزيني محمد 321
الرندة أحمد حبيب 310
رفيق ابراهيم 172
رشليو .... 211، 232
رشيد (السلطان) .... 193، 209.
روكسو عبد القادر 209
رويتر (القائد الانجليزي) 215
رينسبورغ وليام .... 213، 214

ـ حرف الزاي ـ

الزجالي القرطبي 286
زرقون محمد .... 174، 177، 179
الزعروري عبد العزيز 190
الزهراوي 274
الزواوي أحمد 178

طانية أحمد بن محمد 321
طانية عبد الكريم بن أحمد 254

ـ حرف الكاف ـ

كاردياك لوي 136
كابي جاك 17
الكثيري عبد الكبير بن عبد المجيد ... 171، 172
الكراري أحمد بن محمد 307
كراسكو رفائيل 99
الكراسي محمد 321
كربخال مارمول .... 13، 161، 267، 296
كرلوص الثاني 13
كرضيل محمد بن عبد العزيز 277
كواندرو روجي 17
كولان جورج 18

ـ حرف اللام ـ

الزيات ابراهيم 157
الزياتي عبد العزيز 11
زيدان (السلطان)، 10، 11، 12، 17، 190، 191، 226، 269 279

ـ حرف الطاء ـ

اللقنتي محمد بن علي 254
لويس الثالث عشر 213
الليريني عبد الكريم 204

حرف الميم ـ

مارتا جيرار 299
مالك بن أنس 170
المامون محمد الشيخ .... 11، 122، 251
المتوكل محمد .... 171، 174، 176
المجاري أبو عبد الله 70
محمد الشيخ الأصغر (السلطان)، 199، 200، 202، 203 241
محمد الشيخ السعدي .... 164، 165
مدينا سدونيا، 14، 197، 201، 229، 230، 232، 233، 234، 235، 241، 242 243
مراد رايس 222
مراد العلج .... 201، 212
المراكشي عبد الواحد 34
مرينو عبد القادر 209
مرين علي 254
المنجور أحمد 286
مندوصة علي 322
منذر بن يحيى 309
المنظري أبو الحسن .... 12، 160، 161
المنصور أحمد (السلطان)، 10، 11، 18، 177، 178، 179، 181 183
المنصور يقعوب 226
منضوصة محمد 254
المعتصم عبد الملك .... 171، 174، 176
المغراوي أحمد بن بوجمعة ...... 10، 148، 150
المقري أحمد .... 12، 28
المنوني محمد 16
مورينو العربي 273
مويت 288

ـ حرف النون ـ

الناصر عبد الرحمان .... 26، 30
الناصري أحمد 261
الناصري محمد 319
نامي جوزيف 96
النقسيس أحمد بن عيسى 251

النقسيس عبد الكريم 253
النقسيس عبد الله 252

ـ حرف الصاد ـ

صالح ريس 85
الصغير أبو عبد الله 54
الصقلي محمد 96
صيرون أحمد بن عبد القادر .... 194، 206

ـ حرف العين ـ

عامر بن محمد 203
عباس (الحاج) 199
عبد الحق بن أبي سعيد المرين 142
عبد الله (أمير سلا) .... 204، 205، 207
عبد الملك (الأمير) 32
عبد الملك (السلطان) 197، 198
عبدون عبد الرحمان 203
عبو اسصاق داود 17
عثمان داي 134
العدي محمد بن علي 309
العزفي أبو العباس 292
العطار أحمد 158
العقيلي محمد بن عبد الله العربي 152
العياشي (المجاهد)، 11، 14، 16، 17، 190، 191، 195، 196، 197، 198، 200، 201، 202، 203، 229، 241، 252 253

ـ حرف الغين ـ

الغالب عبد الله (السلطان)، 11، 14، 166، 170، 174 176
غانم ابراهيم 9
الغري أبو الفضل .... 174، 179
غريط عبد الواحد بن محمد 275
الغزال أحمد .... 272، 273
الغزواني 253
الغساني أبو القاسم .... 16، 274، 283
الغساني محمد بن عبد الوهاب .... 13، 270
غيلان الخضر ...... 206، 207، 208، 209

ـ حرف الفاء ـ

الفاسي محمد العربي .... 11، 194، 196
الفاسي عبد الرحمان بن عبد القادر 279
فرج بن فرج 92
فليب الثاني .... 21، 77، 90
فليب الثالث .... 13، 21، 111
فليب الرابع، 14، 20، 232، 234، 237 259
فنيش الطاهر 273
فنيش محمد 209
الفشتالي عبد العزيز، 11، 174، 176، 177 182
فوكلا 210
فيرناندو .... 54، 58

ـ حرف القاف ـ

القادري محمد 291
القادري عبد السلام 307
قردناش أحمد بن أحمد 272
القرطبي 274
القرطبي أحمد 215
القلصادي علي 71
القصار محمد بن قاسم 309

القصري عبد الله بن علي 194، 199، 200، 201،237
قرضناش أحمد بن قاسم 254

— حرف السين —

سكالانطي عبد الله 273
السكتاني أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمان . 11، 196 198
السكيرج أبو محمد 254
سليماني بن الحكم 32
سليماني القانوني 85
السنسياض يوسف 203
السعدي عبد الرحمان 185
السفياني ابراهيم 178
سيسنروس 59

— حرف الشين —

الشاذلي عبد اللطيف 16
شارل الأول .... 19، 215، 251
شارل الخامس .... 21، 77
شاويل 142
الشركي محمد بن الطيب 308
الشطيبي محمد بن علي 266
شيني لويس 215

— حرف الهاء —

هارون 142
هاريسون جون .... 222، 223، 227، 251، 252، 252 260
هانيبال 24
الهبطي أبو عبد الله 145
هرادو 200
هنري الثامن 78
هشام المؤيد 32
هوست 219
هايدو 13

— حرف الواو —

واينر جيروم 19
الورياكلي احمد بن حسن 173
الوزان الحسن بن محمد 12، 161، 267، 291
الوطاسي أبو حسون 159
الوطاسي محمد الشيخ ...... 142، 145، 160
الوليد (السلطان السعدي) .... 198، 213
الومغاري عبد الخالق 172
الونشريسي أحمد .... 10، 148
الوقاد علي بن عمر 315

— حرف الياء —

اليفرني عبد العزيز بن يخلف 179

ثالثا = فهرس الطوائف والجماعات*

الادارسة .... 26، 142
الأندلسية (الطائفة) 170
الانجليز ... 182، 149، 201، 206، 208، 225 258
الأمويون 26

* — سوف نعرض عن ذكر الكلمات التي تتكرر باستمرار في هذه الدراسة مثل المورسكيون، الأندلسيون، الاسبان، الأتراك....

الأنصـــار 307
الأوس 307
البرتغال .... 165، 206، 208
البروتستانت 260
البربر .... 24، 25، 28، 31، 307
برابرة مليوية 205
بنو زياد 286
بنو نصر 41
بنو سعيد 155
بنو يفرن 31
جبالة 295
الجرمان 24
حاحـــة 296
الحفصيون 37
الخـــزرج 307
الخـلـط 202
الدلائيون .. 11، 16، 17، 202، 203، 204
الدويب (أولاد) 201
الربضيون 29
الرومان .... 23، 24
زواي بن زيري 32
زناتة 24، 31، 32
الكاثوليك 260
اللمطيون 308
المدجنون 25
المرابطون .... 34، 35، 297
مكناسة 32
مصمودة 29
مغراوة 31
المستعربون 25
الموحدون .... 34، 35
الصقالبة 307
العباسيون 26
العبيديون 31
العرب 26
العكازية (الطائفة) 173
الـغـربـاء 25
غـمـارة 155
الفنقيـون 24
فـوارة 29
القرطاجيون 26
القـوط .... 24، 25، 307
قيسيـون 24
الـسـعـديـون .... 153، 163، 297
شاميـون 24
شـراقة 177
الهورناتشيون 17، 20، 116، 190، 191، 193، 194، 195، 201، 209، 229، 239
الوطاسيون .... 140، 145، 297
الوندال .... 24، 25
يمنيـون 24

رابعا فهرس الكتب

ابتهاج القلوب 173
ارشاد السائل 277
الانجليل............ 107، 280، 284
الأنـوار النبوية 9
افريقيا 13
الاستقصـا 261
بدائع السلك 69
بداية التعريف 309
تاريخ الدولة السعدية .... 11، 169
تبصرة الرئيس الأمين 173
تخريج الدلالات السمعية 42

التوراة ... 280، 281، 284
جنة الرضى ... 66
الجواهر المختارة 11
حديقة الأزهار ... 274
الحلل الموشية ... 296
درة الحجال ... 12
دوحة الناشر ... 12
الذخيرة السنية ... 41
رحلة الشهاب ... 10
رحلة الوزير ... 13 ، 270
رسائل سعدية 11
رسالة زيج زكوط ... 280
الروض المكنون ... 275
ريحانة الجيوب ... 274
رياض الورد ... 12
لطيفة الرسائل ... 277
مختصر خليل ... 309
مرآة المحاسن ... 12
ممتع الإسماع ... 12
مناهل الصفا ... 11
مغني الطبيب ... 283
ناصر الدين ... 10، 247
نبذة العصر ... 9، 146، 152، 155
نتيجة الاجتهاد ... 273
نزهة الحادي ... 11
نفح الطيب ... 12
نشر المثاني ... 12
صحيح البخاري ... 132
صفوة من انتشر ... 12
عارضة الاحوذي ... 172
عجائب الأسفار ... 132
عروسة المسائل 321
العزو المنافع ... 9، 279
القرآن ... 171
الشهب اللامعة ... 48
شهور العرب ... 277
وصف افريقيا ... 12
اليسارة في تعديل السيارة 277

خامسا فهرس الأماكن*

اجدير ... 156
اراغون ... 181
ارلندا ... 212، 221
ازمور ... 156، 158، 200، 221
اكادير ... 224
الكنت ... 256
امريكا ... 10
امستردام ... 222، 269
اندراش ... 155
انفا ... 156
الأصور (جزر) 221
اصيلا ... 142، 145، 156
أغمات ... 34
اسلندا ... 212، 221
أسفي ... 130، 156، 158
اشبيلية ... 25، 231
اورانج ... 222
اولونة ... 131
بادس ... 9، 45، 155
باريس ... 106

* — سوف نعرض هنا أيضا عن ذكر الكلمات التي تتكرر باستمرار في هذه الدراسة مثل الأندلس، غرناطة، المغرب، فاس، مراكش....

الباسك 23

بجاية .... 85، 156

بربرة 155

برشلونة 45

برجة 155

برشيد 156

بريطانيا 183

بلنسية .... 35، 80، 82، 83، 118

بليش 156

البندقية 124

بغداد 296

بسطة .... 9، 155

البشرات 60

بولة 155

بوسلهام (مولاي) 207

بيزة 224

تادلا 202

تارودانت 176

تامسنا 208

تانسيفت 266

ترقة 155

تزوطا 150

تطوان ... 9، 12، 14، 15، 17، 155، 160، 187، 189، 211، 221، 250، 252، 253، 255

تلمسان .... 129، 155

تلاجدوت 286

تستور 134

تونس .... 9، 10، 129، 132، 155

الجديدة .... 123، 242

الجزائر .... 13، 85، 131، 155

الجزيرة الخضراء .... 9، 155

جنوة 224

دانية 155

الرباط 11، 17، 190، 191، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 203، 204، 207، 208، 302

الرميلة 29

رندة .... 9، 155

روتردام 269

رومة 24

رياض الزيتون 170

ريف الأندلس (حي) 324

زغوان 134

زوالة 156

طارق (جبل) .... 16، 216

طرابلس 255

الطرنكات (حي) 254

طريفة 156

طليطلة .... 26، 34، 105

طنجة .. 9، 123، 130، 155، 202، 206، 207، 208

الكدان 29

كطالونيا 23

كاليسيا 247

الكناري (جزر) .... 213، 221

الكنيف 29

لاهاي .... 203، 222

لتران 61

لندن 124

لوشة .... 54، 155

ليدن 269

لوخة 273

ليفورن 224

مازونة 156

مالقة .... 9، 34، 155، 182، 266

مدريد 235
مرتيل 155
المرسى الكبير 123
مرشانة 155
مرسية 266
المرية .... 154، 266
المزمة 45
مكناس 34
ملوية 202
مليلة .. 142، 145، 156، 157، 158، 119
منسين 155
مصر 10
المعمورة ..... 123، 201، 208، 226، 233
المغرب العربي .... 8، 266
المهدية 155
موجر (حصن) 155
نكور 33
نفطة 156
صفاقس 156
صقلية 155
عذرة 56
العرائش .... 123، 142، 176
الغرب .... 202، 206
غساسة 45، 142، 158، 159
فرنسا .... 9، 10، 14، 124، 136، 208
فضالة 221
قابس 156
قادس .... 24، 154
القاهرة 10
قردوش 155
قرطاجنة 24
قرطبة .... 26، 29، 32، 33، 296
القلعة 156
القصبة (قصبة الرباط) 11، 14، 15، 17، 190، 191، 193، 194، 196، 197، 198، 199، 200، 203، 204، 207، 208، 225، 240، 241
قشتالة .... 34، 194
سبتة .... 30، 37، 123، 251، 252
سجلماسة 33
سرقسطة .... 104، 310
سلا ..... 12، 17، 34، 156، 176، 190، 191، 194، 196، 197، 199، 203، 226، 252، 302
السودان .... 184، 185
سوس .... 175، 177، 178، 179، 301
سوسة 156
شاطبة 5، 3، 36
شدونة 29
شريش 156
شفشاون 161
شقر 35
هافر 269
هورناتشوس .... 112، 230
هولندا 183، 208، 214، 215، 216، 269
وبذة 35
الوليدية 221
وهران .... 123، 129، 156، 165

سادسا   فهرس موضوعات الدراسة

مقدمة 7

المصادر

أ. مصادر اندلسية 9

ب. مصادر مغربية 10

ج. مصادر اسبانية 13

د. مصادر فرنسية 14

الدراسات

دراسات مغربية 16

دراسات اوربية 17

تصميم البحث 22

مدخل تاريخي 23

مميزات عامة 23

العلاقات بين العدوتين قبل القرن 16 28

الباب الأول

الاندلسيون تجاه المد المسيحي

الفصل الاول

الاندلسيون في عهد الملكين الكاثوليكيين

1ـ سقوط غرناطة 52

2ـ سياسة الملكين الكاثوليكيين 57

ـ انتفاضة البيازين عام 1499 59

ـ ثورة البشرات 60

ـ محاكم التفتيش 61

3ـ الاستغاثة 63

4ـ الاندلسيون أمام مأساتهم 66

أ ـ المجموعة الأولى 66

ب ـ المجموعة الثانية 70

الفصل الثاني
الموركسيون في عهدي شارل الخامس وفليب الثاني

الموركسيون في عهد شارل الخامس 78

موقف شارل الخامس من الموركسيين 78

وضعية المسلمين ببلنسية 80
التعميد 81
موركسيو بلنسية أمام محاكم التفتيش 83
الموركسيون والأتراك 85
استغاثة الموركسيين بالأتراك 86
المقاومة الموركسية المسلحة 87

الموركسيون في عهد فليب الثاني 89

فليب الثاني تجاه المشكل الموريسكي 90
الثورة الموركسية الكبرى 92
صدى الثورة 97
المقاومة ومراحلها 100
المواجهة ورفض الاندماج 103
المساجد والفقهاء أعمدة الحياة الدينية لدى الموركسيين 104

الفصل الثالث

الموركسيون في عهد فليب الثالث

1 ـ موركسيو هورناتشوس 112
ـ المجال الطبيعي والبشري 112
المواجهة 114

2 ـ موركسيو بلنسية 118

3 ـ قرار النفي 120
الموقف المغربي 122

الموقف التركي 124
موقف المورسكيين 125

4 ـ الانتقال 129
الانتقال إلى المغرب 129
الانتقال إلى الجزائر 131
الانتقال إلى تونس 132
الانتقال إلى فرنسا 136

الباب الثاني
الهجرات الأندلسية إلى المغرب

الفصل الأول
الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد الوطاسي

1 ـ أوضاع المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية 142
2 ـ الهجرة أو البقاء ؟ 148
الونشريسي وجوب الهجرة من دار الحرب 148
الفتوة الأولى 148
الفتوى الثانية
تأكيد الهجرة 149
فتوى احمد بن ابى جمعة المغراوي الوهراني 150

3 ـ الهجرة
انتقال الامير الغرناطي الى المغرب 152
انتقال أفواج من عامة الناس 154
الجالية الاندلسية بمليلة 156
الجالية الاندلسية تجاه الاحداث 158
الجالية الاندلسية بتطوان 160

الفصل الثاني
الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد السعدي الأول

1 ـ الجالية الأندلسية في عهد محمد الشيخ 164

2 ـ عبد الله الغالب أمام التجربة 166
موقف عبد الله غالب من ثورة غرناطة 167
الطائفة الأندلسية 170
3 ـ الجالية الأندلسية في عهد عبد الملك المعتصم 174
أبو الفضل الغربي 174
محمد زرقون 174
سعيد بن فرج الدغالي 175

4 ـ الجالية الأندلسية في عهد المنصور 178
محمد زرقون الكاهية 179
أبو الفضل الغري 179
علاقة الأندلسيين بثورة الأمير داود بن عبد المؤمن 180
قضية الأندلس في علاقات المنصور الدولية 181
مشاركة الأندلسيين في عملية فتح السودان 184
اهتمام المنصور بالأندلسيين 186

الفصل الثالث

الجالية الاندلسية بمصب أبي رقراق وتطوان

ـ الجالية الاندلسية بمصب أبي رقراق 190

1 ـ الصراعات الداخلية 193
الصراع بين القصبة والرباط 193
الصراع بين الاندلسيين والعياشي 195
علاقة الاندلسيين بالدلائيين 203
أسباب الثورة 205

2 ـ الجهاد البحري ومراحله 210
المرحلة الاولى 210
المرحلة الثانية 212
المرحلة الثالثة 214
أوج القوة البحرية بمصب أبي رقراق 215
الميناء 215

صنع السفن 216
طاقم السفن 218
مجال العمل 219

3 ـ علاقة الاندلسيين باوربا 222
العلاقات السياسية 223
العلاقات التجارية 224
محاولات الاوربيين الاستيلاء على القصبة 225
محاولات الانجليز 225
محاولات الاسبان 229
مشروع معاهدة بين الهورناتشيين والاسبان 229
كلمة أخيرة عن العلاقات الاندلسية المسيحية 244
ثانيا الجالية الاندلسية بتطوان 250
1 الصراعات الداخلية 251
2 الجهاد البحري 255
3 العلاقات مع اوربا 258

الباب الثالث
الحضارة الأندلسية ـ المغربية

الفصل الأول

ميادين المساهمة

1 الميدان الاقتصادي 266
الفلاحة 266
الصناعة 266

2 الميدان الاداري والدبلوماسي 269
في العهد السعدي 269
في العهد العلوي 270

3 في الميدان العلمي 274
العلوم التجريبية 274
العلوم البحتة 277
الترجمة 278

الجدال الديني 284
اللغة 285
المرحلة الأولى 286
المرحلة الثانية 288

4 في الميدان الاجتماعي 291
في ميدان الخدمات الاجتماعية 291
مظاهر اجتماعية اندلسية 291
الآثار الاندلسية في اللباس المغربي 293
انتشار الموسيقى الاندلسية بالمغرب 297
في ميدان الفن والعمران 298

الفصل الثاني

مراكز الاستقرار

1 الرباط وسلا
البيوتات الاندلسية بالرباط 303
البيوتات الاندلسية بسلا 306

2 . فاس
البيوتات الاندلسية بفاس 311

3 . مكناس
البيوتات الاندلسية بمكناس 315

4 . مراكش 319

5 . تطوان 321
البيوتات الاندلسية بتطوان 322

6 شفشاون 324

7 أسفي 325

خاتمة 326

تم الطبع بمطابع
افريقيا الشرق
159 مكرر شارع يعقوب المنصور الهاتف : 25.98.13 ـ 25.95.04 ـ الدار البيضاء.

Dr Muhammed RAZOUK
Facultad de Letras y Ciencias Humanas I
Casablanca - Marruecos

Los moriscos y sus Migraciones a Marruecos durante los siglos XVI y XVII

أفريقيا الشرق
159 مكرر. شارع يعقوب المنصور
الدارالبيضاء
25.95.04
25.98.13

ردمك : 6 - 085 - 25 - 9981